لجنة الجامعيين لنشر العلم

الشرق الإسلامى
فى العصر الحديث

تأليف

حسين مؤنس

درجة ماجستير فى التاريخ بمرتبة الشرف

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة حجازى بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

لجنة الجامعيين لنشر العلم

الشرق الإسلامي
في العصر الحديث

تأليف
حسين مؤنس
درجة ماجستير فى التاريخ بمرتبة الشرف

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة حجازى بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى : مايو سنة ١٩٣٥
الطبعة الثانية : مارس سنة ١٩٣٨

مقدمة

بقلم المؤرخ الجليل الأستاذ محمد شفيق غربال
أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بالقاهرة

فى القرن العاشر الهجرى أو السادس عشر الميلادى بلغ ملك السلاطين من آل عثمان ما قدّر له من كمال النمو ، وأصبح أهل البلقان من يونان ورومانيين وبلغار وصقالبة وألبانيين من رعايا الدولة العثمانية ، ولم يقف اتساع الدولة فى أوروبا عند ذلك الحد ، فقد ملك العثمانيون بلاد المجر ووصلت جيوشهم عند فينا ، ولولا فشلها فى الاستيلاء على هذه المدينة لكان لتاريخ أوروبا الوسطى شأن آخر ، أما فى آسيا فقد تم فى ذلك العصر اندماج الأمارات التركية الأناضولية فى العالم العثمانى ، وهى الأمارات التى كشف لنا ابن بطوطة فى رحلته عن جوانب طريفة من عيشة أهلها ، وفى آسيا أيضاً كان الكفاح الحربى بين العثمانيين وخصومهم من الصفويين والمماليك ، وقد دارت الدائرة على المماليك فتمزق ملكهم وامتد حكم سلاطين القسطنطينية إلى الشام ومصر وورثوا ما كان للغورى وأسلافه من نفوذ فى الحجاز وفى ساحلى البحر الأحمر اليمنى والأفريقى ومن حقوق وواجبات

فى الأرض المقدسة . أما الصفويون فكان أمرهم على غير ذلك ، فقد استطاع اسمعيل الصفوى وخلفاؤه أن يثبتوا للعثمانيين - ولم يقابلوهم بحد السلاح فقط كما فعل الغورى وطومان باى - بل واجهوهم بنهضة قومية دينية كانت أمضى من السيف ، حقيقة استطاع خلفاء سليم الأول أن يخضعوا الجزيرة والعراق ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحولوا دون قيام إيران الحديثة .

ويختلف المؤرخون فى الكشف عن سر هذا الفتح العظيم وعما أدى إلى إقامة هذه الدولة الاسلامية الجديدة على انقاض دول المماليك والروم والصقالبة وماخلفته إغارات التتار والصليبيين من مختلف الممالك والامارات ، وعما دعا السلاطين الواحد بعد الآخر إلى الامعان فى شن الحروب فى البر والبحر ، فى أوربا وأفريقية وآسيا . والداعى إلى هذا كله - فيما أرى - هو نصرة الاسلام ونشر بنوده فى الأرضين والذب عن بيضته : لنصرة الاسلام نشأت أمارة عثمان ولأجلها خلق أرخان أداة النصر — العسكر الجديد — ، وفى سبيلها استشهد مراد فى ساحة قوصوة وفتح محمد القسطنطينية وتطلع إلى كرسى المسيحية الآخر - روميه - ولصون الاسلام سلك جيش سليم أوعر المسالك - الجبال إلى تبريز والصحراء إلى القاهرة - ولحفظ هذا التراث أنفق سليمان أحسن العمر فى ميادين القتال ، وحال دون امتداد النفوذ الأوروبى إلى سواحل البحر المتوسط وجزره واعترض تقدم الأوروبيين فى اتجاه البحار العربية . فلا عجب إذن أن أصبح العالم الاسلامى والدولة العثمانية فى نظر الأوروبيين اسمين لشىء واحد .

وليس من شك فى أن ذلك العالم الاسلامى قد تطور بموجب الفتح العثمانى تطوراً جديداً ، كما أنه ليس من شك فى أن ذلك الفتح يبدأ عهداً جديداً فى تاريخ أمم أوروبا الشرقية ، ويحق للمؤرخ أن يجعل منه أساس التاريخ الحديث للشرق العربى وللشرق الأوربى - وأما ما ذهب إليه بعض الباحثين من الغض من شأن هذا الحادث فأمر لا يقوم على نظر قويم : فالقول مثلا بأن المصريين

وغيرهم قد خضعوا لحكام من الترك قبل خضوعهم للترك العثمانيين ، وأن كل ماجرى فى القرن العاشر هو استبدال ترك بترك يغفل فروقا جوهرية بين النوعين من حكم الترك ، ولا يستطيع أى مستقص لأحوال المصريين أو العراقيين إلا أن يدرك مقدار اختلاف طبيعة الحكم السلجوقى فى بغداد والخلافة العباسية قائمة ، والحكم المملوكى فى القاهرة ، وتقاليد الفاطميين والأيوبيين مستمرة ، عن حكم السلاطين العثمانيين للمصريين وللعراقيين على يد نوابهم من الباشوات ، تؤيد هؤلاء أو تعرقلهم جماعات من أجلاف الجند وأخلاط الناس . وأين هؤلاء الباشوات من سلاطين بغداد وسلاطين القاهرة؟ وأين ادارتهم العابثة من تلك الدواوين العربية اللسان الجامعة لكل ذى بيان ولكل صاحب فضل ؟ والحق ان العرب شقوا بالعثمانيين والعثمانيين شقوا بالعرب شقاء يدركه كل من قرأ تاريخ الشام والعراق واليمن فى القرون الأربعة الأخيرة ؛ ومثل هذا يقال (وأولى به أن يقال) عن خضوع الصقالبة واليونان لحكومة غريبة عنهم فى كل شىء .

وذلك أن الأمم الشرقية ـ الاوروبية والعربية ـ التى خضعت لتلك الحكومة خيم عليها نوع من الركود زهاء ثلاثة قرون ، وأنها تعرضت بسبب هذا الخضوع لأحداث واحدة أكسبتها لونا من الوحدة التاريخية هى الظاهرة فى هذا الكتاب.

ولا يحق لنا أن ننسب هذا الركود لكون الحكام العثمانيين من شعب يميل إلى المحافظة بسليقته ، فالعثمانيون لم يكونوا من شعب واحد ، ولم تكن العثمانية إلا دلالة على الانتماء لطائفة الحاكمين . هذا إلى أن نظم العثمانيين الأولى وما اختطه سلاطينهم الأول لشئون الحرب والسياسة كان على جانب عظيم من المرونة والمقدرة .

قد يرجع الركود إلى أن القوة العثمانية حالت بلا شك دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الأجنبية عموما وبالحضارة الأوروبية الناهضة خصوصاً .

ولكن الباحث المنصف لا يستطيع أن يسلم بأن الأوروبيين فى القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة كانوا على استعداد لأن يقدموا للشرقيين المسيحيين والمسلمين من رعايا السلطان ثمرات نهوضهم العلمى هدية خالصة ، كما أن الباحث لا يستطيع أن يجهل أن تقدم الحضارة الأوروبية كان فى أغلب الأحايين اسماً مرادفاً لما كانت تقوم به الأسرات المالكة فى أوروبا من الحروب فى سبيل المجد ، ويشدأزر الملوك - ولكن فى سبيل المجد الأعلى - رجال الدين وفى سبيل الاستقلال رجال المال ، أما والأمر كذلك فلا سبيل إلى القول بأن الشرقى العثمانى كان يستطيع الافادة من النهضة الأوروبية دون أن ينزل عن رجولته وحريته .

والصحيح فى مسألة الركود هو أن الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الاعياء لم يكن الحكم العثمانى قادرا على أن يزيله عنها. فالعثمانيون كانوا قوماً يأخذون ولا يعطون ، تشهد بذلك خططهم وفنهم وآدابهم ، فلم يكن منهم إلا أن نظموا ماوقع تحت سلطانهم فى ملك عريض ، وعملوا على ألا يتطرق اليه تغيير وتعديل ، شأنهم فى هذا شأن الدول الكبرى المتعددة الأجناس والأديان تتهددها دول كبرى أخرى معادية .

ولم يقم الملك العثمانى إذن على فكرة سياسية أو اجتماعية جديدة ، ولم يفتح لرعاياه العديدين المختلفين باباً لتنظيم علاقاتهم المختلفة على غير ماعرفوا من المبادىء ، فضاعت عليهم بذلك الافادة مما كان لهذا الملك من موقع جغرافى فريد فى نوعه ، ومن ميزات اشتماله على أمم لها مالها من نصيب وافر فى تقدم الانسانية ، ولا أدل على ماأصاب أمم الدولة العثمانية من السوء أن أصبح تخلصها من حكم الدولة شرط خروجها من شقائها وسلوكها طريق العزة والرفاهية .

وتاريخ هذا التخلص هو تاريخ الشرق الأوروبى والشرق العربى فى القرنين الحالى والسابق ، وقد سبقهما عصر تعرضت فيه أمم الشرقين لآفات

واحدة من سوء الحكم والاختلال والاضطراب وعبث الأقوياء بالمستضعفين وكان مصير هذه الأمم عبارة عن « مسألة » هى المسألة الشرقية ! واكتسبت بذلك وحدة هى التى عبر عنها شوقى فى قوله

* ولكن كلنا فى الهم شرق *

ولم تتحقق لنا وحدة غير هذه ، فان النهضات القومية والتدخل الأوربى وتحول العثمانية إلى عصبية تركية منعت تحول الوحدة من وحدة فى الهم - حسب قول شوقى - إلى وحدة أساسها المساواة وتبادل المنافع والاحتفاظ بمقومات الحياة القومية مع الاعتراف بما للغير من حقوق

هذا شرح مجمل لتطور تاريخ أمم الشرقين فى العصر الحديث وقد تولى حسين مؤنس - من خيرة أبناء مدرسة التاريخ بكلية الآداب - تفصيل عرضه فى هذا الكتاب ، وقد صرف فى وصفه وترتيب مسائله الشىء الكثير من الفكر والدرس ، ويسرنى أكبر السرور أن أنوه بجهده وأن أقرر أن الكتاب جدير بعناية المؤرخين من أبناء الأمم العربية

كلية الآداب　　　　شفيق غربال

ابريل سنة ١٩٣٨

موضوعات الكتاب

القسم الأول

مقدمات العصر الحديث

القسم الثانى

نشأة المسألة الشرقية

القسم الثالث

تفكك الوحدة الاسلامية

تعريف بموضوع الكتاب ونظامه

موضوع هذا الكتاب دراسة العلاقات السياسية والحضارية بين الشعوب الاسلامية والدول الأوربية ، وتتبع جهاد الأمم الاسلامية للنهوض واللحاق بالأمم الغربية فيما وصلت إليه فى مضامير الرقى والقوة والعرفان ، وقد انصرف الاهتمام بوجه خاص إلى تتبع يقظة الروح الشرقية الاسلامية وانتعاشها وميلادها الجديد فى ظل الحضارة الراهنة

لهذا بدأ الكتاب بوصف للبيئة الجغرافية وأثرها فى تاريخ سكان الشرق الأدنى ، وأشار إلى وحدة أهله وعوامل هذه الوحدة ، ثم أجمل تاريخ الامم الاسلامية من ختام الحروب الصليبية إلى ظهور الأتراك العثمانيين ، وصور حال هذه الأمم فى ظل الأتراك ، ووقف طويلا عند الخمود والأعياء اللذين شملا العالم الاسلامى فى أوائل العصر الحديث ، ثم أشار إلى نهوض أوربا وتقدمها نحو الشرق ، ووصف اللقاء الأول بين العالمين الشرقى والغربى .

فاذا تم اللقاء بين الشرق والغرب فقد كان لابد من دراسة الآثار التى ترتبت على ذلك بالتفصيل ، ولما كان من العسير دراسة ذلك فى كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى على حدة ، ولما كان أعظم نتائج هذا الاتصال هو نهوض مصر وظهور الأمة المصرية الحديثة ، فقد جعلنا دراسة اللقاء بين العالمين فى مصر موضوع القسم الثانى : وصفنا هذا اللقاء ونتائجه القريبة ثم تتبعنا نتيجته البعيدة وهى نهضة مصر بزعامة محمد على ، فاذا فرغنا من ذلك مررنا مسرعين ببقيه نواحى العالم الاسلامى

وأردنا بعد ذلك أن ندرس تطور الشعوب الاسلامية بعد هذا الاتصال ، وكفاحها للتحضر بالحضارة الغربية ، ومحاولتها بناء نفسها من جديد على أسس هذه الحضارة ، ولكننا رأينا أن ذلك لن يتأتى إلا إذا وضعنا أمام

القارىء موجزاً لتاريخ كل من هذه الأمم من ختام الحروب الصليبية إلى أن أصبحت أمام الحضارة الغربية وجها لوجه ، فخصصنا لذلك القسم الثالث ، وقسمناه فصولا صغارا .

ورأينا أن نرجىء بقية الفصول إلى جزء ثان ، وان نقف بالقارىء عند هذا الحد فى هذا الجزء ، لأننا وصلنا بالشعوب الشرقية إلى دور اليقظة ، فخرجت من ظلامات العصر الوسيط وطفقت تتلمس سبيلها إلى عصر جديد ، وقفنا عند هذا الحد ليحاول القارىء أن يدرس الفترة الماضية على مهل ، فقدمنا له ثبتا وافيا جداً من المراجع العربية والافرنجية حتى تكون الدراسة وافية وقائمة على أساس علمى دقيق

وسندرس فى الأجزاء التالية باذن الله بقية تاريخ الامم الاسلامية الى مابعد الحرب الكبرى على هذا النظام وبتلك الفكرة .

* * *

وانى لأتقدم بأخلص آيات الشكر الى أستاذى الأجل محمد شفيق غربال أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية على ماتفضل به من حسن الرعاية وفضل التوجيه والارشاد وشرف التقديم إلى جمهور القارئين .

وأشكر الأستاذ محمود كامل حسن مدرس مادة الخرائط بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، فقد تفضل برسم خريطة الكتاب فكانت خير مكمل لموضوعه

ولا أنسى فضل الأديب محمد سعيد عامر افندى الموظف بدار الكتب المصرية الذى تفضل بمراجعة تجارب الطبع ، والأخ جبريل ابراهيم افندى الصحفى الذى بذل جهداً مشكوراً فى عمل كشاف الكتاب .

وليتقبل القراء هذه المحاولة الثانية بحسن الرعاية ، فما رجونا من القيام بها إلا أن نصل وإياهم إلى القول الحق فى ماضينا ، والرأى الصواب فى حاضرنا ، والنبأ الهادى عن غدنا ، والحمد لله أولا وآخراً ؟

المؤلف

تحريرا فى القاهرة { صفر سنة ١٣٥٧
ابريل سنة ١٩٣٨

مقدمات العصر الحديث

الشرق الاسلامى

فى موقع الشرق الاسلامى تفسير لمقامه فى التاريخ ، وفى ماضيه بيان لمكانه بين بناة الحضارات ، وفى حاضره نبأ عن كثير مما يحدث على وجه الأرض فى مقبل الأيام .

الظروف الجغرافية

فأما الموقع فواضح الخطر لا يحتاج إلى زيادة البيان أو التفصيل ، فهو مجاز بين أوروبا وآسيا ، لا يكاد يسلم من عادية الأولى أو شر الثانية ، وهو فى المنطقة المعتـــدلة ومعظمه يقع فيما يسمى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، ذات الصيف الطويل الجاف والشتاء القصير القليل المطر ، فمال جوه للحرارة والجفاف ، وغلب على جهاته المناخ الصحراوى ، وأصبحت خريطته مجموعة من الصحارى الواسعة التى لا يقطع اتصالها إلا ما يكون من الخصب الطارىء على ضفاف نهر كالنيل أو واحة كواحات بلاد العرب ، وغلب عليـه تبعاً لذلك الفقر الاقتصادى لقلة موارد الخير ، وأصبحت مواقع الخصب فيه مقصد سكانه ومتجه آمالهم من فجر التاريخ ، تهب عليهـا بين الحين والحين زوابع الرمال المهلكة تدفعها الرياح ، وعواصف البدو المخربة

أثر ذلك فى تاريخه

يحركها الفقر ، وسواحل هذه البلاد منبسطة رملية لا تعين على الملاحة فقلت صلة أهلها بالبحار وأصبحوا بريين صحراويين ، وصعبت عليهم الهجرة والرحلة ، وظل عددهم ينمو بتوالى السنين ، فاشتد الضغط على الجهات الخصبة وكثر التنازع عليها وتعاقب عليها الغزاة ، لا يكاد يستقيم الأمر فيها لقوم حتى يغلبهم عليهـــا قوم آخرون ، وتلك

نظرية ابن خلدون

هى دائرة العمران التى يحدثنا عنها ابن خلدون فى مقدمته ، استخرجها من ملاحظاته فى تاريخ الدول الاسلامية وحدها ، لأننا نعلم غير ذلك عن سير الحضارات فى غير بلاد الشرق الأدنى .

وأما ماضيه ، فما رأيت من سلسلة كثيرة الحلقات من الزوابع البشرية تهب من الصحارى إلى مواقع الخصب ، فلا يكون لدولة من

دوله من طول الأجل ما يمكنها من انشاء حضارة لها شخصيتها وميزاتها ، وانما يكون قصارى ماتستطيعه احداها أن تحسن استعمال ما تجد من معالم الحضارة أو تصقله بعض الصقل ، ثم تتركه مسرعة ليتولاه الغزاة الجدد الذين يغلبونها على الأودية ومنابع الثروة ، وهذا مايقال عن الدول الاسلامية التى كثر ظهورها على مسرح السياسة الشرقية . لم تخلف احداها لوناً قائماً بذاته من الحضارة ، ولم تبتكر لوناً أصيلا منها ، وانما استعملت ماوصل اليها بدرجات متفاوتة من الحذق والمهارة ، فبعضها استطاع أن يوفق إلى شأو بعيد فى صقلها وتهذيبها حتى أخذت طابعاً يظهر للرائى أنه جديد ،كالدولة العربية ، وبعضها لم يتقدم بما وجده من معالم الحضارة بل تركه كما وجده أو هبط به بعض الشيء ،كالدول التركية ، ولعل هذا لا يرجع إلى طبيعة فى الشعوب نفسها ، بقدر مايرجع إلى الظروف التى وجدت فيها ، ويتوقف إلى حد كبير كذلك على عمر الدولة وما يتاح لها من الهدوء والطمأنينة التى تنمو فى اعطافها الحضارات .

لهذا كانت أمجد الدول التى ظهرت فى بلاد الشرق الأدنى وأوفرها سهما فى بناء الحضارة العالمية ، هى أممه القديمة ، التى سكنت أوديته فى فجر التاريخ ،فأتيح لها الوقت الطويل فنمت حضاراتها نموآ متئدآ معقولا ،ولما كانت هذه الأمم قد أقبلت والشرق خلاء ، لم يسبقها إلى الاقامة فيه سابق فقد سلمت حضاراتها من التأثير الخارجى فكانت مبتكرة أصلية لها ميزاتها وشخصيتها ، ولما كانت طويلة العمر فقد تأصلت الأسس التى وضعتها فى طبيعة الشرق الادنى وأصبحت طابعا من طوابعه التى لاتخفى ، والتى لا تسلم منها دولة تظهر فى مجرى تاريخه ، ولعل القارىء قد عرف أنى أريد بذلك الحضارتين المصرية والآشورية القديمتين اللتين وضعتا الأسس المادية والسياسية للحضارة العالمية ،ثم الدولة الاسرائيلية التى وضعت أساس

أهمية تاريخه القديم

مصر وآشور

دولة بنى اسرائيل

الحضارة الفكرية العالمية من دين وفلسفة وما إلى ذلك ، وهذا هو نصيب بلاد الشرق الأدنى فى بناء الحضارة العالمية ، أما ما عدا ذلك فتهذيب لموروث ، أوزيادة على قائم موجود ، وقد يظن نفر من الناس ان هذا الدور بسيط لا خطر له فى تاريخ الانسانية ، ولكن الحقيقة أنه على جانب عظيم جداً من الخطر ، ويكفى أن نعلم أنه انتقل بالانسان من البداوة إلى الدول القائمة ، ذوات المقومات والسياسات والجيوش والبحريات والمدن العامرة بالمبانى الحجرية الجميلة ، والمعابد التى يبدأ عندها تاريخ الفن العالمى وتاريخ التفكير الانسانى .

حاضره

وأما حاضره فمجموعة من الوحدات الناشئة لاتزال آخذة بأسباب النهوض ، شديدة الاعتماد على حضارة أوروبا ، شديدة الصلة كذلك بماضيها وطبيعتها الخاصة ، بما سينتهى بها آخر الأمر إلى لون من الحضارة يختلف فى كثير عن الحضارة القائمة اليوم ، بل ربما يكون له أثر بعيد فى اتجاه الحوادث فى مقبل الأيام .

***

وعلى الذين يريدون دراسة تاريخ الشرق الأدنى فى أى دور من أدواره أن يلاحظوا أربع حقائق هى بمثابة الأصول التى يقوم عليها تاريخه وتفسر على ضوئها مظاهر هذا التاريخ .

١ ـ وحدة الشرق الاسلامى التاريخية

أولها أن وحدة الشرق الأدنى ليست جغرافية فقط ، وإنما هى تاريخية فى الغالب ، ففى داخل الحدود الجغرافية التى تضم هذه الأقاليم المترامية ، التى تبدأ من حدود المحيط الأطلسى وتنتهى فى قلب آسيا ، تجد حدوداً أخرى من الحضارة ذات اللون الخاص والشخصية المتقاربة ، هناك صلة من التفكير وأسلوب الحياة والنشاط الذهنى تربط العراقى بالعربى والعربى بالسورى والسورى بالمصرى ، وهناك اتفاق إلى حد ما فى الأمانى والأخلاق والآمال ، وليس مرد هذه الوحدة إلى الاسلام

والحضارة الاسلامية وحدهما ، بل هى أقدم من ذلك بكثير ، وضع أساسها ملوك مصر القديمة بغزواتهم الواسعة التى جعلت منه ـ للمرة الأولى فى التاريخ ـ وحدة سياسية ، ومن مصر القديمة أخذت تصدر طول العصر القديم هذه الحضارة القوية التى انتشرت مع الزمن فى كل بلاد الشرق الأدنى فزادت روابط أقاليمه رابطة عمرانية فأصبحت تشترك فى أساليب الحياة والبناء والرى وسياسة الدولة وأنظمة الحكومة ، وكلما انقضى زمن أضافت الأيام إلى الروابط التى تضم أقاليم الشرق الأدنى رابطة جديدة تزيدها قوة واتصالا ، حتى كانت غزوة الاسكندر قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، فأضفت على بلاده وحدة فكرية ، إذ كان الغزو المقدونى فتحاً من فتوح الحضارة لا نصراً من انتصارات السياسة ، لأن الكيان السياسى للامبراطورية الاسكندرية تهدم عشية موته ، وبقيت بذور الحضارة التى خلفتها جيوش الاسكندر حيثما سارت ،

غزوة الاسكندر

ووجدت البذور تربة صالحة فى العقلية الشرقيــة ، فما هو إلا قرن من الزمان حتى بدأت تنمو فى بلاد الشرق حضارة جديدة ، بعيدة بعض الشيء من الحضارة اليونانيــة بفنها وفلسفتها ، قريبة الشبه بالروحية الشرقيـــة وتفكيرها العميق وعرفها المؤرخون بالحضارة الشبيهة بالهيلينية تمييزاً لها عن الهيلينية ، وأصبحت هـذه الحضارة وأساليبها ومميزاتها ، طابع الشرق القريب ورباطه الذى لا يضعف ولا يخفى ، وأخذت هذه الحضارة تتطور تطوراً عميقاً شاملا ، وأخذت تمد رواقها حتى ضمت بلاد الشرق الأدنى من قلب فارس إلى الأسكندرية ، وأخذت تنجم فى نواحيه المدن الاغريقية العمارة والحكومة ، الشرقية الحضارة والتفكير ، وأخذت تنشأ فى هـذه المدن المدارس الفلسفية المعروفة المتميزة ، بل يغالى نفر من المؤرخين فيذهب إلى أن الحركات الدينية التى صدرت عن بلاد الشرق الأدنى بعد ذلك ، إنما هى تطور

الحضارة الشبيهة بالهيلينيه

فكرى طبيعى للحضارة الشبيهة بالهيلينية ، ولسنا على هذا الرأى طبعاً.

فاذا ظهر الاسلام بعد ذلك فقد أضاف إلى بلاد الشرق الأدنى وحدة دينية ، وذابت فى حرارته القوية ، المذاهب الفلسفية والفكرية التى كانت قد بدأت تضمحل يوم ظهر الاسلام ، ومن هنا كانت الحضارة الاسلامية ذات طابع اغريقى لا يخفى ولا ينكر خطره ، واختفت الفروق القائمة بين مدنية ومدنية ومدرسة ومدرسة ، وظهرت دولة واحدة متجانسة فى الحضارة والتفكير والسياسة : هى الدولة الاسلامية التى أصبحت بمرور الزمن مظهر وحدة الشرق وطابعه المميز

الاسلام يزيد وحدة الشرق الادنى قوة وظهورا

وثانى هـــذه الأسس : أن قوام الحضارة والعمران فى الشرق الأدنى ليسوا هم الغزاة الفاتحون الذين ينشئون الدول ، ويسيرون الجيوش ، ويكثر ظهورهم واختفاؤهم ، وإنما قوامها أهل المدن الذين يعمرون بلاده ، وأهل الريف الذين يزرعون مزارعه وأهل المراعى الذين يسكنون سفوحه وهضابه ، هؤلاء هم الأساس الثابت الذى يختزن الحضارة ويعطى الشرق الأدنى لونه المميز ، وهؤلاء لا نسمع بهم فى الحروب ولا نراهم فى القيادة أو الزعامة(١) ؛ وإنما تراهم فى العمائر الباقية والصناعات الدقيقة وغير الدقيقة ، وفى هذه الخبرة الزراعية التى يمتاز بها سكان مواقعه الخصبية كسكان النيل أو سكان الجزيرة العراقية ، وهذا العنصر قابل للتأثر بما يستجد عليه من ألوان الحضارات التى يحملها اليه الفاتحون ، وهو يبدو أول الأمر ضعيفاً محكوماً ، ولكنه يبدأ فى الظهور إذا استقرت الأحوال وهدأت نيران الحرب ، فيبدأ يؤثر على الحاكمين أنفسهم ، ويغمرهم ويطبعهم بطابعه الخاص ، وعلى هذا البساط يتقارب الحاكم والمحكوم حتى يمتزجان آخر الأمر امتزاجا قوياً ، تزول معه معالم العنصر الغازى ، ويرثه فى صفاته وحضارته هذا العنصر الثابت الذى نتحدث عنه ، والذى رأيت أنه يحتفظ بحيوية

٢ - سكان الشرق الاسلامى

---

(١) طول القرون الوسطى على الاقل ، وسنرى ان تقدم هذه الطبقة الى الزعامة سيكون معنى من معانى العصر الحديث .

البلاد ويكمن فيه طابعها المميز، فتراه بوضوح فى أدوار الاضمحلال التى تصيب الدول الغازية السريعة الزوال، وعلى يديه يكون رقى الحضارة وثباتها، ولكنه ظل طول النصف الثانى من العصر القديم والعصر الوسيط هدفا للغزوات والفتوح، لا يكاد يتنفس الصعداء من حاكم زال حتى ترزأه الأيام بفتح جديد يثقل على صدره زمانا طويلا. وهكذا.

لهذا أصبح أهله مدنيين، وانصرفوا إلى الشؤون المدنية واحتفظوا بكل ما وصل إلى أيديهم من المستحدثات التى يحملها الغزاة، فصار بأسهم قويا وإن سكنوا، وصار استعدادهم عظيما لتقبل مظاهر الحضارة وإساغتها، واشتدت قوتهم الكامنة، التى سنرى خطرها فى العصر الحديث حينما يؤتون الهدوء والاطمئنان الكافيين.

تزاوج الحضارات

ولنشر فى سياق هذا الحديث إلى النظرية التى يسميها المؤرخون تزاوج الحضارات، إذ يرون أن كل نهضة قوية من نهضات التاريخ، تكون وليدة المزاوجة بين حضارة قائمة أدركها الفتور وكمنت فى أهل البلاد، وبين شعب متوفر فاتح يجدد نشاطها ويبعث فيها الحياة، فحضارة الاسلام وليدة المزاوجة بين الاسلام ومن اتصل به من القبائل المتبدية، وحضارة القرون الوسطى وليدة المزاوجة بين الحضارة الرومانية والقبائل المتبربرة، وحضارة العباسيين وليدة المزاوجة بين الحضارة الفارسية والقبائل العربية. وهكذا، وهم يذهبون كذلك إلى أن هذا التزاوج ينتج فى الغالب لونا جديداً من الحضارة، وأن هذا اللون الجديد يزهو مع الأيام حتى يبلغ أوجه ثم يأخذ فى الانحدار، لأن القوم الذين أقاموه، يدركهم ترف الحضارة ولين الانغماس فيها، فيضمحل سلطانهم ويختفون من التاريخ مخلفين بعدهم ذلك العنصر الأصيل الذى أضاف اليهم الفكر والروح: وهو الحضارة، كما بقى الاسلام والحضارة الاسلامية بعد العرب والسلاجقه، وكما بقيت المسيحية بعد زوال العصر الوسيط، أما الذين يحتفظون بهذه الحضارة ويحولون بينها وبين التبدد

فهم هؤلاء السكان المدنيون الزراع أو الصناع أو الرعاة أو أهل العلم الذين أشرنا اليهم

٣ – طبيعة الاسلام

وثالث هـذه الأسس التى لا يصح فهم تاريخ الشرق الأدنى الا بادراكها ، هو أن الاسلام ليس ديناً خالصاً وإنما هو نظام اجتماعى كامل ، وأنه ليس مجموعا من الطقوس والعبادات يتقرب بها الانسان لربه ، وإنما هو مجموع من القواعد والأنظمة التى يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاها ، ومن هنا كان الاسلام حضارة كاملة ونظاماً جامعاً استطاع أن يمد بلاد الشرق بكل مقومات الدول وأساليب السياسة والحياة والتشريع والحضارة مدى بضعة قرون ، فالامام المسلم حاكم مدنى ، والخليفة فى العرف الاسلامى هو الامبراطور . وقد أوتى المسلمون قدرة طيبة على تفسير مبادىء الاسلام وقواعده واستخرجوا منها كل ما يلزم المجتمع الصالح الكامل من مقومات ، حتى أن المؤمن لا يجد فى الاسلام حلا لمسألة الآخرة فقط بل سبيلا للعيش فى الدنيا . ومن هنا كان للدولة الاسلامية كيان اسلامى سياسى داخل الكيان الدينى ، وكان اسلام أهلها عماداً يعتمدون عليه كثيراً فى بناء دولتهم ، بل كان الكيان السياسى الاسلامى حصناً ووقاية يحفظان قوامها السياسى بعد ان تتهدم الدولة القائمة بالحكم فيها ، لأن قوام هذا الكيان الاسلامى هو العاطفة الاسلامية ولهذا كانت طويلة البقاء شديدة الحساسية ، يشعر كل مسلم بأنه مطالب بالدفاع عنها والذود عن حوضها ، وهذه هى الوطنية كما يفهمها المسلم : دفاع عن الاسلام وجهاد فى سبيل الله واستشهاد لاعلاء كلمة الحق ، ومن هنا حلت الوطنية الاسلامية محل الوطنية القومية ، وسنرى فى أول العصر الحديث ان أوروبا تقبل فتصادف سكوناً مخيما وشعوباً مطمئنة الى النوم ، ولا تجد دولة سياسية قوية تلقى اجنادها أو تقاوم تقدمها ، ولكنها تجد الاسلام قائما فى كل مكان ،

الوطن الاسلامى

وتجد المآذن والمساجد حيثما سارت فى العالم الاسلامى من الدار البيضاء إلى سمرقند وأجرا وجاوه .. وتجد أن الدعوة للنهضة والنداء لليقظة ينبعثان من فم المؤذن الذى يستجيب له المسلمون ، والامام الذى ينبههم إلى الخطر ويفتح عيونهم على ما ينتظرهم ، فهى لم تصادف جيشاً قويا يلاقى اجنادها ، وإنما وجدت الاسلام قائماً كأنه شملة رقيقة يشتمل فيها المسلمون ..

٤ — موقع الشرق الاسلامى بين وسط آسيا وأوربا

أما رابع هذه الأمور فان الاقدار جعلت بلاد الشرق الاسلامى طريقاً بين وسط آسيا وأوروبا . وقد كان وسط آسيا طول العصرين القديم والوسيط منبعاً من منابع الجنس البشرى ، لا يكاد ينقضى قرن دون أن تخرج منه موجة بشرية وتتجه شرقاً أو غرباً ، فاذا اتجهت إلى الغرب كان لها أحد سبيلين . إماسبيل الشمال : شمال بحر قزوين والبحر الأسود ومن ثم تجتاح أوروبا على هيئة قبائل بربرية مخربة بهدم مايكون قائماً هناك من معالم الحضارة . وإماسبيل الجنوب : فتخترق أفغانستان وفارس فالعراق فالشام فمصر ، ومن هنا كان على بلاد الشرق القريب أن تقاوم هذه الموجات وتثبت لها ، فاما غلبتها فارتدت عنها ، وإما انهزمت أمامها فاجتاحتها ، وخربت بلادها كما نعرف عن غزوة المغول ، وكانت بلاد الشرق ترد هذه الهجمات بقوتين : قوتها السياسية أولا ثم حضارتها الاسلامية ثانياً ، وقد غلبت قوتها السياسية كثيرا ، ولكن قوتها الاسلامية لم تنهزم أبداً ، وظلت طول العصر الوسيط ، تتسلم البدو والهمج من هضاب القرغيز والتركستان ، فتكسر شرتهم وتذيب همجيتهم ، وتصهرهم فى بوتقة الاسلام ، وترفعهم إلى مستوى حضارته ، فيصبحون بنعمته دولا قائمة ذات قوة وحضارة ونظام ، ومثال هذا مماليك مصر والأتراك العثمانيون والسلاجقه ، تسلمهم الاسلام قبائل فى الشرق ، وقدمهم فى الغرب دولا ذوات حضارات ، أو ملوكا ذوى سلطـــان . وتلك

الهجرات البشرية المنتظمة من وسط آسيا

الاسلام يحمى أوروبا غـــزوات الهمج والبدو

كانت مهمة الدولة الاسلاميـة طول العصر الوسيط ، وكان لذلك أبعـــد الأثر فى مجرى حياتها ، إذ أضاف إليها بين الحين والحين قوى جديدة تحفظ عليها حياتها ، ثم أجهدها من ناحية أخرى وحال بينها وبين بلوغ درجة عظيمة من النضوج والكمال ، وحول جهدها وجهد حكامها فى أحيان كثيرة إلى وجهة عسكرية لم يجدوا معها فراغا للانصراف إلى الحضارة أو العمران .

أثر ذلك فى حياة الدولة الاسلامية

الوحدات المتميزة داخل المجموعة الاسلامية

ولنلاحظ إلى ذلك ، أن لـكل وحدة من وحدات الشرق الأدنى ظروفها الجغرافية والجنسية والتاريخية التى جعلت لها — إلى حدما — شخصية متميزة فى داخل هـذه المجموعة ، فعلى الرغم من العوامل التاريخية والجغرافية التى تجمع مصر والشام مثلا ، فاننا نجد لكل أمة منهما صفاتها المميزة التى نتجت عن تـكوينها الجنسى وظروفها الطبيعية ، كالقرب من البحر الذى أدى إلى نمو روح البحرية فى أهل الشام ، وخصب الأرض الذى جعل مصر إقليما زراعياً ، وكون أخلاق المصريين تـكوينا خاصاً ، وصحارى بلاد العرب التى جعلت من أهلها بدواً لايستريحون كثيراً إلى الحـكومة المركزية ، وكهضاب فارس وسفوحها التى جعلت منها بلاد رعاة . وإنما ينبغى التفطن إلى تلك الحقائق الجوهرية لأنها ستـكون بعيدة الأثر فى تاريخ الجماعة الاسلامية ومستقبلها ؛ ولأنها ستعمل على مضى الزمن ، على تقسيم الجماعة الاسلامية إلى وطنيات صغيرة تبتدىء قريبة الشبه بعضها ببعض ، ثم تأخذ الفوارق بينها فى الاتساع والظهور ، كلما أتيح لها الزمن الـكافى ، لتنمو نمواً طبيعياً يحفظ عليها طبيعتها وقوميتها ، كأن تنجو من السلطان الأجنبى الذى يهدم قوميتها ويطفىء روحها . . وكأن يقل سلطان الخليفة الدينى والسياسى عليها ، فينمو فى أهلها شعور بالاستقلال ، كما نرى فى فارس التى حماها بعدها من الغزوات الطارئة ، وأقامها على قدميها خروجها عن طاعة بنى عثمان

فبدأت قوميتها وشخصيتها فى الظهور من القرن السادس عشر الميلادى.

أهمية دراسة مميزات كل وحدة

وستجد أن إهمال هـــذه الفروق والتهوين من شأنها قد اضل الكثيرين من الباحثين والمفكرين فى تواريخ الامبراطوريات الاسلامية وأسباب سقوطها وانحلالها ، فردوها فى أكثر الأحيان إلى ضعف الحاكم أو صغر سنه أو سوء سياسته أو انصرافه إلى الملذات ، كأنما الطبيعى أن تتحد بلاد الشرق الاسلامى إلى لواء واحد . . فاذا تفككت وحدتها كان ذلك طارئاً له أسبابه التى ترجع إلى الحاكمين لا إلى الأمم المحكومة ، وسترى من دراستنا ، أن الطبيعى هو أن تتفكك وحدات الدولة الاسلامية ، وأن تصير بلاداً متفرقة ، فاذا اتحدت كان ذلك طارئاً غير طبيعى كوجود حاكم ممتاز جداً أو ظهور خطر عام . بل لعلنا لا نغالى إذا قلنا إن الدولة الاسلامية الكاملة التى تحكم شعوب الاسلام كلها حكما قويا محسوساً وتنشر سلطانها على كل بقاعه وطرقه لم يكن لها وجود أبداً حتى فى أسعد أيام الدولة الاسلامية وفى ظل أعظم الحكام المسلمين .

وعلى القارىء أن يذكر إلى جانب ذلك أن كثيراً من الوحدات التى دخلها الاسلام ، كانت ذات حضارات خاصة ممتازة قبل أن تدخل تحت رايته ، وأن كثيراً منها كان له تاريخ مجيـــد حافل بالذكريات العزيزة والانتصارات الحربية الباقية والفتوح الموفقة فى ميادين العلم والأدب والتفكير ، وأن الاسلام عمل من البدء على القضاء على اطلالها الباقية التى وجدها يوم دخلها فاتحا ، ولم يكن هذا لسياسة رسمها الحكام المسلمون ، وانما لأن روح الاسلام كانت من القوة بحيث صرفت الناس عن ماضيهم صرفاً تاماً ، وساعد على هذا أن الاسلام أقبل فى زمان كانت هذه الحضارات قد أشرفت فيه على الفناء والتهدم ، ولم يبق من آثارها وعلومها وفنونها الا رسوم لا تغنى ولا تستحق رعاية ولا حفظاً ، بل

الاسلام يهضم الحضارات التى كانت قائمة فى بلاد الشرق القريب قبل ظهوره

انقلبت محاسنها مساوىء ثقيلة التكاليف شديدة الضرر ، ومال الناس إلى الخلاص منها . فلما أقبلت جيوش الاسلام استقبلوها مرحبين و تلمسوا فى مقدمها عصراً جديداً من السلام والطمأنينة والرخاء ، وساعدهم على ذلك، ما ذكرناه من أن الاسلام ليس ديناً فقط ، بل نظاماً اجتماعياً فكان اسلامهم دخولا فى نظام جديد يقطع الصلة التى تصلهم بالماضى ، وقد قويت عندهم هذه الفكرة ، لما كان من توفيق الخلفاء الأول فى الحكم وغلبة الطهارة والاخلاص على أجيال المسلمين الاولى ، فتحققت ظنونهم وأخذوا يستبدلون بأبطالهم أبطال العرب و بمفاخرهم مفاخر العرب ، فضعفت ذكرى الأجداد فى نفوسهم شيئاً فشيئاً ، بل قضى عليها تماماً . فنسى المصريون فراعنتهم والفرس أكاسرتهم والترك خواقينهم ، وانتسبوا للعرب وأبطالهم . فكان هذا الايمان آصرة من الأواصر التى وثقت الأسباب بين أجزاء الدولة الاسلامية وعملت على التقريب بينها ، إذ حل التفانى فى الاسلام ورجاله محل العواطف القومية المحلية ، وقد ظل هذا العامل فعالا ، حافظاً عـــلى الدولة قوتها ما دامت الحكومة الاسلامية قوية ثابتة نزيهة قريبة من المثل الأعلى للاسلام ، فلما تسرب إليها الاضطراب و نالها الفوضى بدأ الناس ينصرفون عنها و بدأت ذكرياتهم القديمة المطمورة تعود إليهم ، بل أخذوا يبحثون عنها و يؤمنون بها من جديد فبدأت تظهر القوميات ، وكان فى نشوءها معنى القضاء على الوحدة الاسلامية والدولة الاسلامية العامة.

القوميات الاسلامية

وقد درج المؤرخون الاسلاميون على أن ينظروا إلى تفكك الدولة الاسلامية وانقسامها إلى دويلات صغيرة ، كمظهر من مظاهر الاضمحلال والفناء ، والواقع — كما رأيت — غير ذلك ، اذ أن هذا التفكك ، يكون فى غالب الأحيان دوراً من الأدوار التى لا مفر للدول الكبيرة من المرور به ، ولا يكون معناه دائماً أن السلطة المركزية قد

وهنت أو أن عصرها قد انقضى ، وانما يكون معناه أن الأطراف قد قويت واشتدت ونمت شخصياتها واحساساتها القومية في ظلال الحكومة العليا ، وكلما نمى شعورها بالقوة ، نمت إلى جانبه رغبة في الاستقلال ، وكراهية الخضوع للسلطة المركزية ، وهذا دور يؤدى بطبيعة الحال إلى تطور هذه القوميات إلى دول محلية تأخذ بأسباب القوة والنهوض شيئا فشيئا ، حتى تستوى وحدات سياسية صحيحة التكوين سليمة المقومات ، كما حدث فى أوروبا من انحلال الدولة الرومانية المقدسة إلى اقطاعات متفرقة ، أخذت تتجمع شيئا فشيئا حتى اتحد كل فريق منها وصار دولة قوية ، ولعل الذى جعل مؤرخى الشرق يتشاءمون من هذا التفرق ، هو أن هذه الوحدات الصغيرة الناشئة ، لم يسمح لها مرة من المرات أن تتطور تطورا طبيعياً هادئاً ينتهى بها إلى القوة والثبات ، بل كانت تفاجأ وهى تخطو نحو التوحد بالغزوات الطارئة التى توقف تقدمها وتقضى عليها ، وليس أدل على مافى هذا الانحلال من خير ، من أن فتراته كانت فى الغالب فترات من النشاط الفنى والفكرى المنقطع النظير ، فالعصر العباسى الثانى هو عصر التقدم المشهود فى بناء الحصون والمدن وهو عصر المتنبى وأبى العلاء وعصر الفلاسفة الأفذاذ والمؤرخين الموفقين ، وهو عصر الحضارة الاسلامية الزاهى ومجتمع آثارها الباقية إلى اليوم . ويخطىء المؤرخون كذلك حين يقولون ان الذهن يكسب على حساب السياسة لأن الأمراء يتنافسون على العلماء والمهندسين والأطباء ومن إلى هؤلاء ، إذ الحقيقة ان الذين يتنافسون ليسوا هم الأمراء وإنما هى الوحدات القائمة الناهضة والقوميات الناشئة الآخذة بأسباب الحياة ، فتدوين الشهنامة أول مظهر للشخصية الفارسية ، والمتنبى أبين الناس منطقا عن الشخصية العربية وأشدهم اعتزازاً بها وتقديراً لها وسعياً لانهاضها (١)

---

(١) نظرية الاستاذ محمود شاكر عن المتنبى فى عدد المقتطف الخاص به

والدولة الفاطمية حجر الأساس فى بناء القومية المصرية بمميزاتها المعروفة وهكذا .

* * *

الفتوح الاسلامية

يعرف المطلعون على تاريخ الاسلام ، أن الفتوح الاسلامية ، لم تكن سلسلة متصلة الحلقات من الحروب ، بل اتخذت هيئة وثبات سريعة ، ويعرفون كذلك أن كل وثبة من هذه الوثبات ، كانت عقب دخول عنصر جديد فى الاسلام ، فلا تكاد الدعوة الاسلامية تنتشر فى قطر من الأقطار، أو بين قبيل من الناس ، حتى يستجيبون لندائه القوى ، ويبعث الايمان فى نفوسهم روحا جديداً ، وينهضون للغزو والفتح ، رافعين راية الاسلام فى يد والسيف فى اليد الأخرى ، ويبدأون سلسلة من الغزوات ، يمدون بها لواء الاسلام على أقطار جديدة .

الوثبة الأولى

كانت الوثبة الأولى بين سنتى ٦٣٠ و ٧٥٠ ميلادية . إذ لم تكد القبائل العربية تنطوى تحت راية الاسلام ، حتى وثبت وثبة سريعة فتحت فيها العراق وفارس والشام ومصر وشمال افريقية والأندلس .

الوثبة الثانية

وكانت الوثبة الثانية بين سنتى ١٠٠٠ و ١١٠٠ ميلادية ، وكانت نتيجة طبيعية لدخول السلاجقة والبربر فى الاسلام ، اتسعت فيها رقعة الدولة الاسلامية ، فأعادت آسيا الصغرى إلى الدولة الاسلامية نهائياً ، وفتحت غرب افريقية ، ويضيف المؤرخون إلى هذا الدور ، وثبة اسلامية أخرى نحو الشرق ، قام بها السلطان محمود الغورى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، دخل بها الاسلام شمال الهند بحد السيف .

الوثبة الثالثة

أما الوثبة الثالثة ، فتقترن بدخول الأتراك العثمانيين فى الاسلام ، وفيها قضى الاسلام على الدولة البيزنطية ، وورثها فى البلقان وجنوب

الروسيا ، وتمت فيها سيادة المسلمين على البحر الأبيض ، فأصبح بحيرة اسلامية ، تقوم فيه أساطيل المغرب من الغرب ، وأساطيل الدولة العثمانية من الشرق .

تفسير هذه الظاهرة

ومعنى هـــذا : أن الاسلام إذا صادف جماعة من البدو الذين يتأهبون للاستقرار ، أثار فيهم روحاً حربية دينية ، تدفعهم إلى الفتح والغزو ، هي صدى طبيعي للحرارة المنبثة فى آيات القرآن ، والرجولة التى هي العنصر المميز للعقيدة الاسلامية .

أما إذا صادف الاسلام بلداً من ذوات الحضارات القديمة ، فلا يلبث أهله أن ينصرفوا إلى التفكير فى أصول الاسلام ، وتفسيرها وتقريرها والتفقه فيها ، ويفضى بهم الأمر إلى نهضة واسعة النطاق فى العلوم والفلسفة والفنون ، كما نعرف من الحركات الفكرية القوية التى أعقبت دخول الفرس والشآميين والمصريين والاندلسيين فى الاسلام ، وكانت نتيجتها الفتوح الاسلامية المعروفة فى ميادين الفكر والعلم .

دائرة العمران

ويفسر ابن خلدون هذه الظاهرة فى مقدمته[1] ، بما نستطيع أن نسميه « دائرة العمران » أى أن النشاط الاسلامى ، يبدأ حين يهم قبيل من البدو ويغيرون على بلد متحضر ، فيثير ذلك فى العالم الاسلامى ، فورة من النشاط فى السياسة والفكر ، ولا يكاد يستقر الرحل ، ويتناولون الزراعة والصناعة ، حتى تهدأ فيهم الثورة ، ولا يكاد يمضى على ذلك زمان طويل ، حتى تشيع فيهم الحضارة لينا وترفا ، فلا يلبثون أن ينحط أمرهم ، فيكون هذا حافزا لطائفة أخرى من أهل الريف ، لغزو الحضر من جديد ، أى أن الصحارى هى مهاد الحركات الاسلامية ، وأن سكانها هم عوامل النهوض والحركة والحياة فى المجتمع الاسلامى .

---

(١) المقدمة : من ص ١١٦ الى ص ١١٩

متاقشة نظرية ابن خلدون

هنا لم يكن ابن خلدون دقيقا فى الملاحظة ، إذ الحقيقة أن هذه الغزوات التى يشنها البدو على مواقع الخصب ومهاد العمران ليست عاملا من عوامل البناء ، وإنما هى عامل الهدم والتخريب ، ولا تزيد على أن تقيم ملكا واسعاً أو ضيقاً ، وتصرف الأمور ردحاً من الزمن ثم تنحدر تاركة مكانها لغيرها الذى يعيد نفس الدور وهكذا ، من غير أن يكون لاحدى هذه الدول أثر بعيد فى رقى الحضارة ، أو تترك فى البلاد طابعاً خاصاً ، أو تضفى عليها لوناً ممتازاً ، والغالب على هذه الدول التى يقيمها الغزاة أن تكون كثيرة التشابه ، مترفعة عن الأهالى ، قليلة الاختلاط بهم ، فلا تتأثر بهم ولا يؤثرون فيها ، والغالب كذلك أن يكون برنامجها عسكريا فلا تفطن لاصلاح اجتماعى أو لنهوض بناحية من نواحى الانتاج .

* * *

تفكك الوحدة الاسلامية

ظلت الشعوب الاسلامية مجموعة إلى لواء الخلافة زهاء قرنين ونصف من الزمان ، ثم بدأت الخلافة المركزية فى الضعف وأخذت أجزاؤها تتفرق عنها واحدة بعد واحدة ، ولم يكن هذا التفرق نتيجة لضعف الخلافة العباسية وحده ، وانما يرجع فى بعض أسبابه إلى تطور الوحدات والشعوب الاسلامية تطورا جعل بقاء الوحدة الشاملة أمرا غير ميسور ؛ ونعنى بهذا التطور نهوض بعض الأجناس الاسلامية واتجاهها نحو القوة وميلها إلى بدء حياة قومية جديدة ، ويبدو ذلك جليا فى نهضة العناصر الفارسية التى سادت الدولة الاسلامية سيادة فعلية خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ويبدو بشكل أوضح فى نهوض العناصر التركية والمغولية والجركسية

نهضة العناصر الفارسية

للعناصر التركية

وزعامتها فى نواحى العالم الاسلامى من منتصف القرن الثالث الهجرى تقريبا

اصل العناصر التركية

منذ أحقاب سحيقة فى القدم ، كانت العناصر التركية والمغولية تعمر الأقاليم الشاسعة الواقعة بين حدود فارس والصين القديمتين ، ولم يكن فى استطاعتها أن تتخطى أسوار إحدى هاتين القيصريتين العظيمتين ، ولكنها ظلت تنقل الحضارة بينهما ، وتتعلم من الاتصال بهما أساليب الحكم والادارة والحضارة والحرب ، مما أورثها استعدادا لانشاء الدول القوية والقيام بفتوحات واسعة المدى .

فتح العرب لفارس وأثره

وفى النصف الأول من القرن السابع الميلادى طرق العرب أبواب فارس ، وكان الاضطراب قد طرق أبوابها قبل ذلك بسنوات فسهل على العرب فتحها والقضاء على كسروية الساسانيين التى كانت قائمة بالحكم فيها على شىء من الضعف ، فكان لهذا الحادث أبعد الأثر فى مستقبل الأتراك الذين كانت فارس تحول بينهم وبين التدفق إلى بلاد الشرق الأدنى ، اذ افضت جيوش العرب الفاتحة إلى مواطن الترك فيما وراء النهر ونواحى خوارزم وما إليهـا حاملة الاسـلام اليهم ، فأقبلوا يدخلون رحابه أفواجا ، وبهذا أصبحوا أعضاء مواطنين فى المجموعة الاسلامية الكبرى

نهوض العناصر التركية

وأخذت الدولة العباسية فى الضعف وأخذت الشعوب الاسلامية فى التفرق ، وأحست العناصر التركية فيما وراء النهر بضعف السلطة المركزية ، فأخذت تحاول انشاء دول تركية اسلامية على انقاض الدولة العباسية المنحلة ، وساعدتهم صفاتهم الجسمانية وثقافتهم الحربية والسياسية التى ورثوها عن الدول التى اتصلوا بها ، فأصبحوا أصحاب القوة الفعلية فى دولة الخلافة الاسلامية ، ثم تمكنوا من إنشاء أول دولة تركية وهى الدولة الساسانية التى سيطرت على الجماعات الاسلامية فيما يلى

دجلة والفرات شرقا ، والتى كان قيامها حافزا للقبائل التركية على مغادرة مواطنها والاسراع إلى بلاد الشرق الأدنى ، ومن ثم بدأت من أوائل القرن العاشر الميلادى حركة هجرة تركية واسعة النطاق كان أظهر عناصرها القبائل السلجوقية ، التى استقرت على أطراف البلاد الاسلامية فى شمالى العراق وآسيا الصغرى ، وأخذ سلاطينها يوسعون ملكهم حتى وحدوا البلاد الاسلامية وردوا عنها عدوان البيزنطيين ـ الذين كانوا قد تقدموا حتى عبروا الفرات وخطوا فى أقاليم جورجيا وماجاوره ـ وإلى هذا الجهد السلجوقى فى التوحيد يرجع الفضل فى تمكن المسلمين من مقاومة الموجات الصليبية : لأنهم ـ أى السلاجقة ـ أورثوا خلفاءهم الأيوبيين وحدة اسلامية قوية البنيان .

هجرة العناصر التركية السلاجقة

السلاجقة

وتفرقت دولة السلاجقة واتجهت القبائل التركية التى كانت خاضعة لها تبحث عن مواطن جديدة لها ، فتخيرت قبيلة عثمان نواحى وسط آسيا الصغرى فحطت فيها ، وبدأت تتوسع نحو الشمال والغرب ، ودفعها إلى ذلك قيام الدويلات الاسلامية إلى جنوبها من جهة وضعف الدولة البيزنطية من جهة أخرى . وواتاها الحظ وساعفتها خصال رجالها فتقدموا فى الأناضول وعبروا الارخبيل ونزلوا البلقان وفتحوا نواحيه وأزالوا القسطنطينية واتخذوها عاصمة لهم ، وبهذا تقدموا إلى العالم فى أواخر القرن الخامس عشر بدولة قوية تضم الأناضول والبلقان ونواحى شاسعة فى حوض الدانوب ، وبدءوا بعد ذلك يلقون أبصارهم نحو الشرق ، ويضعون خطة سريعة لفتح البلاد الاسلامية وتوحيدها تحت لوائهم من جديد ، وأعانهم على ذلك أن مصر والشام والعراق كانت قد أخذت تنحدر ، وتطلبت أحوالها العامة فتحا جديدا ينقذها مما صارت اليه من ضعف واضمحلال ، ولنستثن من ذلك فارس التى أخذت هى الأخرى فى اهداب نهضة قوية ابتداء من

قبيلة عثمان

الامبراطورية العثمانية

القرن العاشر الهجرى فلنمر مسرعين خلال البلاد الاسلامية لننظر حالها قبيل الفتح العثمانى .

* * *

نهضة فارس

حينما أخذت الدولة العربية فى الاضمحلال كانت فارس فى طريق نهضة كبرى ، فقد انتقل النشاط السياسى من بلاد الجزيرة إلى هضاب إيران ، وأخذت تظهر هناك دول جديدة عربية المظهر فارسية الروح ، وأخذت جهود الفرس تنصرف نحو بلادهم وتتحول نحو إيقاظها والسمو بها من جديد ، ولكن هذه النهضة لم يكتب لها النجاح فى ذلك الحين إذ أخذ الأتراك فالمغول يطرقون أبواب البلاد ويرعونها عابرين إلى نواحى الشرق الأدنى أو مقيمين فى نواحيها ، فأوقفت هذه التيارات التركية والمغولية حركة النهوض ، وكان على الفرس أن ينتظروا حوالى ثلاثة قرون حتى تنجاب عنهم غمرات الترك والمغول ، ثم يأخذوا فى النهوض من جديد فى أوائل القرن السادس عشر .

النهضة الأدبية والفكرية

بيد أن جذوة النهضة لم تخمد تماما طوال القرون التى حكم الترك والمغول خلالها بلاد فارس ، فقد تحول النشاط السياسى إلى نشاط ذهنى ، وظهرت النزعات الوطنية الحبيسة نبوغا فكريا فنيا ملأ هذه القرون كلها ، فأخذت الآداب الفارسية تنتعش وتنهض ، وأثمر المزاج بين الثقافتين الفارسية والاسلامية ثمرته فأخذ يظهر فى ربوع فارس أدباء وشعراء ومؤرخون نابهون من أمثال البيرونى صاحب « الآثار الباقية » والفيلسوف ابن سينا والفردوسى الشاعر الذى أيقظ الآمال الفارسية بملحمته الكبرى « الشاهنامة »

لهذا ليس بغريب أن نجد فارس تنهض نهضة سياسية قوية بعد أن زال عنها كابوس من المغول ، لأن الروح الفارسية كانت تتوفز للنهوض ولا يعوقها إلا سلطان المغول ، الذى أخذ يضعف ويتفرق

النهضة السياسية

خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر

صفى الدين

بشر بهذه النهضة أحد شيوخ أردبيل المسمى صفى الدين ، إذ أخذ يدعو الفرس إلى المذهب الشيعى فلقيت دعوته القبول وتوافدت عليه القبائل تعلن ولاءها ، حتى أصبح اقليم جيلان مركز النهضة الفارسية ، وأتصلت الأسباب بين صفى الدين وأوزون حسن شيخ قبيلة « الآق قيونلو » اتصالا انتهى بامتزاج المذهب الشيعى بالقوة العسكرية ، وتوافدت القبائل تشد أزر صفى الدين ، فلما مات خلف لابنه — الشاه اسماعيل — أساساً قوياً استطاع به أن يقيم دولة عظيمة ضم إليها بغداد وديار بكر والموصل وامتدت من باكوشمالا إلى ششتر جنوبا .

الشاه اسماعيل

السلطان سليم يغزو فارس

وكانت الدولة العثمانية إذ ذاك فى عنفوان نهوضها ، فلم يرض سلطانها سليم عن هذا العداء الذى صارحته به الشيعية الفارسية باستيلائها على بغداد ، فلم يلبث أن شن عليها الحرب . وهزم اسماعيل عند شالديران ، فكان هذا أول العداء بين فارس وتركيا ، هذا العداء الذى سيصبح محورا من محاور التاريخ الاسلامى خلال العصر الحديث ، والذى سيكون له أثر بليغ فى كل من فارس وتركيا والعالم الاسلامى

الشاه عباس الأكبر

وبلغت النهضة الفارسية أوجها فى عهد الشاه عباس الاكبر (٩٨٥ — ١٠٣٨ ﻫ ، ١٥٨٧ — ١٦٢٩م) إذ أنه بذل الوسع فى انعاش الحماس الشيعى ، فجعل مشهد مركزا للشيعية الفارسية وحج إليها ، فهفت إليه قلوب الفرس وارتفعوا به إلى مقام القديسين ، فحفزه ذلك إلى الجد فى انهاض دولته ، ولمح سائحو الأوروبيين فيه بوادر القوة فمضوا إليه يشدون أزره ليستطيع مقاومة الأتراك ، وفطن هو إلى الخير الذى يجنيه من الاستفادة من أساليبهم ، فاستعان بالأخوة الانجليز شيرلى على انشاء جيش جديد مسلح بالمشاة والفرسان المدربين والمدفعية القوية

مما مكنه من طرد الأتراك من بلاده والانتصار عليهم قرب بحيرة أرميا فاسترد آذربيجان وكردستان وبغداد والموصل وديار بكر.

بهذا نهضت فارس وأوجدت لنفسها شخصية مستقلة فى العالم الاسلامى، وأصبح لها جيش قوى منظم بالأساليب الأوروبية فى أوائل القرن السابع عشر، فتوافد اليها الرحالة وذاع صيتها فى الآداب الأوروبية؛ بيد أن هذا الصيت جلب اليها قوما آخرين من الشمال، هم الروس الذين كانوا قد نهضوا نهضتهم وجددو ادولتهم برعاية قيصرهم بطرس الكبير، واقبلوا بجيوشهم منحدرين إلى فارس وبلاد النهرين: وبهذا أصبح لزاما على فارس أن تدفع ثمن هذا النهوض والاتصال باوروبا، تدفعه بالصراع مع الروس من شمال والبرتغاليين من جنوب، وهو صراع شديد تهدد فارس بشر مستطير وأصبح مدار سياستها. وارتهن بنتيجته مستقبلها وتاريخها الحديث

***

العراق

وكان العراق شريكا لفارس فى كل مامضى من الاحداث: منى مثلها بغارة المغول، وظل يرزح تحت نير خاناتهم ثمانين عاما، ثم استقل به تابع من أتباعهم وأنشأ به حكومة شبه مستقلة ظلت مدى سبعين عاما لم تكن خيرا من الثمانين الماضية، وأعقب ذلك فترة من الفوضى كان العراق اثناءها فريسة يتنازعها أمراء التركمان، وظل على ذلك حتى وضع قيام الصفويين للاضطراب حدا، بادخالهم البلاد فى دولتهم سنة ١٥٠٨ م فهدأت إلى حين

الصفويون يستولون على العراق

انتعاش العراق

بدأ الفتح الفارسى عصرا جديدا للبلاد، فآمنها من غزوات التركمان ومنافسة الأمراء، وأعاد الرخاء فى ربوعها بعد عصر طويل من الفوضى والاضطراب، وفى ظل الشاه أخذ تجار الفرس يخفون إلى

البلاد ليعيدوا الحياة فى مدنها والنشاط إلى أسواقها ، وفى ظل الصفويين أخذت الشيعية تتنفس فى نواحى البلاد وتؤسس لنفسها مكانا بين أهلها : فقد اشتد اسماعيل شدة ظاهرة مع السنيين وقتل منهم نفرا عظيما ، وأعاد انشاء مراكز الشيعية فى البلاد ، وأقام عند قبر موسى الكاظم مسجدا ، وعلى الجملة أصبحت البلاد جزء من فارس الصفوية

نهضة الشيعية فى العراق

وكان هذا مبررا كافيا للسلطان سليم لغزو العراق ، فما هو بمطيق — كخليفة المسلمين — اضطهاد السنة فى بلاد العراق ، ولا هو بمطيق — كسلطان الدولة العثمانية — خروج العراق من يده ، فلم يلبث أن حشد حشوده وهوى بقواته على رأس فارس عند شالديران فكسر جيوش اسماعيل ورده من الشمال والعراق جريحا ، ففتح بذلك ميدان الصراع بين الصفويين والعثمانيين على أرض العراق وما يتاخمه من ولايات ، وهو صراع طويل سيستمر بين الجانبين إلى منتصف القرن التاسع عشر.

سليم يفكر فى غزو العراق

ثم عادت البلاد إلى احضان فارس بعد عودة سليم بعد مناورة قصيرة قام بها ذو الفقار أحد شيوخ القبائل اللورية النازلة بين فارس والعراق ، ولكن الأتراك لم يلبثوا أن فتحوها فتحا عظيما ثانيا بقيادة سليمان القانونى سنة ١٥٢٥م ، الذى لم يكتف بمجرد الفتح واقامة حاكم من أهل البلاد كما فعل سليم ، بل قسمها وأقام عليها ولاة إلاتراك وآمنها من أن يغدر بها الفرس الصفويون مرة أخرى ، وأعلى بها منار السنة من جديد فأقام مسجدى أبى حنيفة النعمان وعبد القادر الجيلانى معا ، ولم يضطهد الشيعة كما فعل سليم بل آمنهم وعنى بمزاراتهم فى كربلاء والنجف ، وعاد بعد أن خلف فى البلاد سليمان باشا أول سلسلة طويلة من الباشاوات الأتراك سيتناوبون حكم العراق حتى الحرب الكبرى

الفتح العثمانى الثانى

***

دارت رحى الحروب الصليبية فى ميادين الشام ، ولكن مصر هى التى حملت معظم عبئها واضطلعت بأكثر نفقاتها ، فى مصر كانت تعد

أثر الحروب الصليبية فى مصر

الجيوش وتزود بآلات الحرب ، ومنها كانت تصل المؤن والأمداد والأذواد وكل ما كانت تحتاج اليه الجيوش إذ ذاك ، وفى ربوعها ومن خيرها كان جنود الحرب وفرسانها يربون ويعلمون ، فلا غرابة أن وقعت البلاد فى أزمات مالية حادة عقب الحروب الصليبية

الأزمات المالية القاسية

لهذا لا ينبغى أن يقال إن حكومة المماليك هى التى هبطت بالبلاد إلى الحضيض وقضت على كل أمل فى اصلاحها ، لأنها كانت فى الحضيض فعلا حينما قتل توران شاه آخر الأيوبيين وتولى سطنتها عز الدين أيبك أول المماليك حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

حكومة المماليك

وليس من الصواب أن يقال إن المماليك كانوا طغمة من الأشرار والمرتزقة حلت بالبلاد فامتصت دماءها وقضت على كل رخائها ، لأن الكثيرين من هؤلاء المماليك كانوا على درجة عظيمة من القدرة واتساع الذهن ونية الخير ، ولا نزاع فى أن أمثال قطز وبيبرس وقلاوون والناصر ابنه ولاشين وبارسباى يعدون من أعظم حكام المسلمين وأقدرهم وأوفرهم نصيبا فى بناء مجده وحضارته ، ويضاف إلى هذا أنهم كانوا جميعا من أشد المسلمين اخلاصا للاسلام وأكثرهم تضحية فى سبيله ودفاعا عن حوزته .

سلاطين المماليك

وكان ضعف الرعية وهبوطها نفسه دافعا بالمماليك إلى الاستبداد ومانعا اياهم من التحرج منه أو إيثار العدل عليه . ويكفى أن يقال إن الرعية كانت ترجو الانصاف ولكنها لم تجرؤ على المطالبة به ، وكانت تكره الحكام ولكنها كانت تعلن الحب والولاء لهم ، وكان رجال الدين فى هذه الأيام أضيق المسلمين عقلا وأبعدهم عن فكرة الانصاف والعدل والحكم الصالح . ولم يكن العصر — فى الشرق على الأقل — عصر إصلاح أو نهوض ، ولا عصر نهضة فكرية ، بل كان نهاية عصر طويل من الاضمحلال والاضطراب ، ولهذا اتصف بما تتصف به نهايات العصور وخواتم الدولات من الاضطراب والفوضى والركود وهبوط الهمم .

ضعف الروح المعنوية عند المصريين اذ ذاك

وكان الكثير من سلاطين المماليك أندادا لمعاصريهم من ملوك الشرق والغرب : يحالفونهم ويبعثون السفارات إليهم فلا يقصرون فى شىء من ذلك ، بل كانوا يظهرون براعات تفوق ما كان يقوم به سلائل بيوت الملك فى ذلك الزمان، مما رفع مركز مصر الدولى إلى أوج لم تبلغه فى أى عصر بعد ذلك ، حتى أصبحت مصر بفضلهم محورا من محاور السياسة العالمية إذ ذاك ، فاذا أضفنا إلى ذلك أن سلاطينهم كانوا يحكمون مصر والشام فعلا ، ويبسطون سلطانهم على الحجاز واليمن وطرابلس وأرمينية والنوبة عرفنا مدى سلطة هؤلاء المماليك وقدرتهم على الحكم ، وعرفنا كذلك نسبتهم إلى معاصريهم من الملوك فى الشرق والغرب على السواء

المماليك والمغول

ولعل أعظم ما أداه المماليك لمصر والشام هو حربهم للمغول واقتدارهم على هزيمتهم أربع مرات متواليات ، أثبت المماليك فى كل منها أنهم أقدر الناس على الحرب وأثبتهم جنانا ، وأكثرهم قدرة على احتمال الهجمات ، فقد كان المغول جماعات زاحفة تتدفق على الشام بين الحين والحين على هيئة موجات مخربة شديدة الهجوم لا يثبت فى وجهها أحد ، ويكفى أن نذكر ما أحدثوه ببغداد ودمشق وحلب حين دخلوها حتى ندرك مدى الخدمة التى أسداها المماليك لمصر والشام والحضارة الاسلامية عامة بهذا العمل .

اعادة الخلافة

وإلى المماليك كذلك يرجع الفضل فى إعادة منارة الخلافة الاسلامية ، إذ أن بيبرس أحب أن يعوض الاسلام ما تهدم من خلافته بقضاء هولاكو على خلافة بغداد ، فاستقدم أحد سلائل بنى العباس وأقامه خليفة ولقبه المستنصر ، وتسلم منه الخلع الخليفتية ، ثم أرسله إلى بغداد مع قوة مكنت له من دخولها ، ثم عاد فقرر نقل مركز الخلافة إلى القاهرة حذراً من وقوع الخليفة تحت سلطان أحد غيره من أمراء المسلمين ، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة ، وعادت

للاسلام خلافته ولو صوريا فقط ، وظلت قائمة بها حتى تسلمها السلطان سليم سنة ١٥١٧ فانتقل مركزها إلى الاستانة .

المماليك يرهقون البلاد

لكى يستطيع المماليك القيام بنفقات هذا كله كان لابد أن يرهقوا البلاد التى كانت مرهقة فعلا حين بدأ سلاطينهم يتعاقبون على عرشها ، ولكى ينعم المماليك بهذا المظهر الخلاب كان لابد أن يكتفى بقية أهل مصر بالقفار والاطمار ، وكان عليهم أن يجتهدوا فى اعداد معدات الجيوش دون أن ينالوا أقل الجزاء ، ومن ثم حرم المصريون من مغانم الحرب وطرائف السلطان ، واقتصر عملهم على تقديم نفقات الحروب وصناعة معداتها وولاية مسائل الدين فى البلاد ، فأخذت قواهم تضمحل وشخصيتهم تضعف ، وكلما انقضى عصر زاد المماليك قوة وزاد المصريون ضعفا ، حتى إذا انتهت أيام المماليك الأول كانت النسبة تكاد تكون معدومة بين الحاكمين والمحكومين . بيد أننا لابد أن نذكر أنهم ـ أى المصريين ـ قد قاموا فى هذه العزلة بأخلد مايذكر لهذه الأيام ، فبنوا العمائر الفخمة ، وصنعوا الطرف الثمينة وحملوا لواء الحضارة المادية ورفعوه عاليا رفيعا ، وجعلوا من ذلك العصر المملوكى أوج الفن الاسلامى فى الصناعة والهندسة والتصميم والزخرفة والنسيج

اضمحلال المماليك

وحوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى انتهى عصر المماليك العظام وخلفهم مماليك ضعاف لا يقتدرون على ما اقتدر عليه الرعيل الأول منهم ، ولم يستطع أحدهم أن يوقف جنده عند حده فبدأ جنودهم يعبثون بالبلاد ويركبونها بكل مساءة ، من غير أن يكون عليهم حرج من سلطان ، فاشتد الضعف بالبلاد ووصلت فى أواخر القرن الرابع عشر إلى حال من الضعف والاضطراب لم تعهد عليها فى أسود أيامها ، واقترن هذا الهبوط التام بظهور فئة جديدة من المماليك

عرفت باسم المماليك الجراكسة ، غصبت الامر من آخر البحرية واستبدت بالامر استبدادا عظيما . ولا محل لتقسيم المماليك إلى بحرية وشراكسة ، فليست الطائفة الأولى كلها من مماليك قلعة الروضة ، وليست الطائفة الثانية جراكسة اطلاقا ، وإنما هم جميعا طائفة واحدة ذات أصول مختلفة وأسلوب واحد من الحكم .

تجارة الهند

وفى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر الميلاديين انتظمت تجارة الهند عن طريق مصر والشام ، وتفطن بارسباى إلى ماتغله هذه التجارة من الربح ، فاهتم بتيسير سبيلها وتمكينها من المرور ببلاده حتى يفوز من أرباحها بأوفر نصيب ومن هنا كان اهتمامه باعادة سلطانه فى اليمن وبلاد الحجاز ، وكان أصحاب اليمن يعسفون السفن المارة بالبحر الأحمر عسفا يمنع التجار من التقدم شمالا إلى الموانى المصرية كالسويس وعيذاب ، وكان أشراف مكة يتتبعون التجار بمثل هـذا الأذى مما اضطرهم إلى الاكتفاء بالصعود فى البحر الأحمر إلى سواكن وبيع بضائعهم هناك ، فأمر بارسباى عماله فى جدة وينبع بالتدخل فى ذلك الأمر ، فكان من نتيجة ذلك حماية التجار الهنود من عسف اليمنيين والحجازيين ، ولهذا أخذت المتاجر الهندية تصعد آمنة إلى جدة وينبع من حوالى سنة ١٤٢٥ م

أرباح التجارة الهندية

وربحت خزانة بارسباى منها حوالى سبعين ألف دينار فى العام ، وكانت المتاجر تمر بعد ذلك فى أراض وبحار كلها خاضعة لسلطان المماليك فتتبعوها بالضرائب من ميناء لميناء ومن سوق لسوق حتى أصبح ما يجبى عليها من المال أضعاف ثمنها الأصلى ، فامتنع تجار البنادقة عن شرائها فى أسواق القاهرة أو الاسكندرية ورشيد ودمياط ، وفضل تجار الهند أن يبيعوا بضائعهم فى أسواق عدن وسواكن ، وأرسل البنادقة سفينة لتنقل تجارهم من الاسكندرية إيذانا بقطع العلاقات التجارية ،

فلما لمح بارسباى الخطر يهدد موارده بسبب ذلك كف عن الاحتكار وخفض المكوس وأطلق التجارة ، ولكنه عاد فاشتد مما أدى إلى توتر العلاقات واضطراب مجرى التجارة مرة أخرى ، وقد حاول جقمق وينال أن يعالجا الأمر فلم يفلحا ، وأخذ إيراد المماليك من التجارة فى الهبوط مما أضعف سلطانهم وزادهم عسفا للرعية وافسادا للحكم فى البلاد ، وكان من نتائج ذلك العسف أن توجهت همم البرتغاليين إلى كشف طريق جديد للتجارة بعيدا عن احتكار المماليك والبنادقة ، مما انتهى بكشف طريق رأس الرجاء ، وتحول التجارة عن طريق البحر الأبيض.

البرتغاليون يحاولون كشف طريق رأس الرجاء

بدء الاحتكاك بين المماليك والاتراك

وكان نجم الأتراك العثمانيين فى صعود فى هذه الأيام ، وكانت فتوحاتهم فى البلقان قد بلغت مبلغا مكنهم من الالتفات للشرق ، فاخذوا يمدون حدودهم فى أعالى الفرات وشمالى الشام ، وهناك بدأ الاحتكاك بينهم وبين المماليك ، إذ كان أمراء ذى القدر وغيرهم يتوجهون بالولاء لسلطنة مصر ، فأخذت العلاقات بين الجانبين تسوء ، ولم يهتم سلطان المماليك إذ ذاك ـ قايتباى ـ بأن يصانع العثمانيين ، بل صارحهم بالعداء ، فاوى الأمير جم أخا بايزيد الثانى وعدوه ، ثم تورط فى العداء أكثر من ذلك فباع هذا الأمير إلى البابا بيعة جلبت عليه العار وأثارت غضب بايزيد وألمه .

مقدمات الفتح العثمانى

ولم تزل الأمور تتعقد بين الاستانة والقاهرة حتى انتهت بالفتح العثمانى لمصر ، على ماهو معروف ، بيد أنه من الواجب أن نقول ان هزيمة مرج دابق لم تكن قاضية على سلطان المماليك فى هذه الديار ، بل كانت إيذانا بعصر ثالث من حكمهم تحت سيطرة آل عثمان بدأ من صيف سنة ١٥١٦ .

* * *

الشام

كانت البلاد الشامية ميدان الحروب الصليبية ، فكانت أحفلها

بمصائب تلك الحروب وأشدها تأذيا من عقابيلها ، فقد انتهت الحملات الصليبية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، ولكن الاسلام والنصرانية ظلا يتساجلان فى أرض الشام بعد ذلك إلى نهاية القرن الخامس عشر ، فاستمر مماليك مصر يواترون الحملات على ما بقى للصليبيين من محارس فى الشام حتى استولوا على آخر معاقلهم — عكا — فى حدود سنة ١٢٩١ ميلادية ، وبهذا بارح أرض الشام آخر امراء الصليبيين إلى قبرص واستقروا بها على أمل العود القريب . ترك الصليبيون أرض الشام ولكنهم أقامو فى بحار الشام ، وظلوا يهددون الساحل الشامى ويهاجمونه وينزلون بأهله الاذى بين الحين والحين .

سقوط عكا

ولو قد اقتصرت نكبات الشام بعد الحروب الصليبية على عقابيل هذه الحروب لكان فى صلاح الحال رجاء ، ولكن حكومته صارت بعد هذه الحروب إلى مماليك مصر فحكموه من القاهرة حكما سيئا زاد حاله سوء وأضاف إلى علله علة جديدة : هى انتشار المظالم وزيادة الجبايات ودوام المنازعات بين نواب الأقسام

هبوط البلاد

وكانت نتيجة ذلك هبوط بلاد الشام هبوطا تاما خلال القرون التى تلت الحروب الصليبية ، استمر إلى أواخر القرن الثامن عشر ، فلما فاجأها الفتح العثمانى فى أوائل القرن السابع عشر ألفى بها رمقاً من الحياة يضطرب فى تجارة الساحل وبعض المدائن ، فقضى عليه وهوى بالبلاد إلى حال من الركود والفساد لم تعهد عليها خلال تاريخها الطويل جميعه .

العلاقات التجارية بين الشرق والغرب

بيد أن لحروب الصليبية خلفت بين المسلمين والأوربيين لونا آخر من العلاقات غير الحرب والعداوة ، وهو التجارة وتبادل المنافع والحضارة ، فقد فطن الكثير من تجار الفرنج إلى خيرات الشرق وما يعود عليهم من الربح من المتاجرة فيها ، فواصلوا جهودهم بعد خروج الصليبيين ، ولما كان المماليك قد تابعوا حملاتهم على بلاد الشام فقد

سوق قيليقية

انتقل تجار الفرنج والايطاليين إلى قيليقيا بآسيا الصغرى ، وهناك أنشأوا سوقا واسعة للمتاجر توافد اليها التجار من نواحى الشام وآسيا الصغرى يبيعون للفرنجة ويشترون منهم . ولكن تلك السوق لم يطل بها الأمد زمنا طويلا إذ لم يلبث المماليك أن فطنوا لها فهاجمها الناصر بن قلاوون سنة ١٣٤٧ م واستولى عليها وخرب سوقها . فحمل تجار الأوروبيون متاجرهم إلى جزائر الارخبيل : وحطوا فيها ، معتمدين على أساطيلهم وتفوقهم فى البحار فى تأمين متاجرهم وايصال بضائعهم إلى سواحل الشام ، ومن ثم كثر نزول الأوروبيين بالساحل واقامتهم

الأسواق المتنقلة

أسواقا سريعة لا تلبث أكثر من بضعة أيام : يهرع اليهم خلالها تجار المسلمين فيتبادلون السلع ثم يطوى التجار متاجرهم ويعودون إلى سفنهم ليحطوا فى مكان آخر ، وهكذا حذرا من الحكام . وأخذ المماليك فى الانحلال وأخذ سلطانهم على البلاد فى الضعف تبعاً لذلك ، فجعل التجار يطيلون مكثهم ويحتالون لذلك بالقوة حينا والرشى حينا آخر ، حتى نشأ فى كثير من ثغور الشام مثل بيروت وصيدا والأسكندرية أسواق تجارية نافقه ، واعتاد الناس المتاجرة مع الأوروبيين ، ولم يلبث الحكام أن تبينوا ما يعود عليهم من الربح إذا سمحوا بقيام هذه التجارة وفرضوا عليها المكوس والجمارك ، فأخذوا يسمحون باقامتها ويشجعون أسواقها فى ثغور الشام

نهوض بيروت

وكانت بيروت أكبر هذه الثغور وأكثرها تجارة ، لأنها مقابلة لقبرص ملجأ الافرنج وأقرب الثغور لتجار الايطاليين من آل البندقية وجنوه وبيزه ، فكانت قبرص مخزن المتاجر الأوروبية اليها يخف تجار أوروبا من قطالونيا وبروفانس وليون ومرسيليا والبندقية واليونان ، ومنها تنصرف التجارة إلى بيروت حيث يتسلمها عمالهم من الفرنج وعملاؤهم من المسلمين وبمرور الزمن أخذت حكومات الجمهوريات

القنصليات

الايطالية تنشىء قنصليات فى بيروت وغيرها من ثغور الشام ومدنه .

وبهذا أخذت العلاقات السلمية التجارية بين الشرق والغرب تنمو وتشتد ، وفطن المماليك إلى مايعود عليهم من الضرائب والجمارك التى كانوا يجبونها على هذه المتاجر والقنصليات فشجعوها ، ولهذا أصبحت الجامكيات التى كانوا يجبونهامورداً لاينضب من الربح لهم ، وكانت نتيجة ذلك انتعاش الموارنة واتصال الامور بينهم وبين المجموعة المسيحية فى أوربا ، مما أدى إلى اهتمام دول أوربا — وفرنسا خاصة — بالشام

اضمحلال البلاد

أما داخل البلاد فقد كانت الأمور تسير فيه من سىء إلى أسوأ ، فقد اشتد بالأهلين عسف المماليك وثقلت عليهم المجاعات وغارات البدو ووافدات الأوبئة ونوازل الجراد وغزوات المغول. وكان نواب الأقاليم لا ينفكون يتدابرون ويتنازعون فيصيب البلاد من جراء ذلك أذى بالغ ، وزادت الأحوال سوءاً حين انتقل ملك مصر من المماليك البرجية إلى المماليك البحرية حوالى سنة ١٣٨١ م

سوء العلاقات بين المماليك والاتراك

وكانت العلاقة فى هذه السنوات آخذه فى السوء بين المماليك والأتراك الذين كان ساعدهم قد اشتد فى آسيا الصغرى ، مما جعل الأتراك ينظرون للشام بعين الطمع ويرجئون الضربة إلى حين ، حتى اذا سنحت الفرصة سنة ١٥١٧ فقد أسرعوا فغزوا الشام

***

الاتراك يعيدون الوحده الاسلامية

بهذا أعاد الأتراك الوحدة الاسلامية ، وجمعوا بلاد الشرق الاسلامى إلى لواء الخلافة من جديد ، ووجدت الشعوب الاسلامية قوة تحميها وترد عنها أذى الغزوات المفاجئة والغارات الطارئة التى ظلت تروعها قروناً طويلة . وبدأ العثمانيون يضعون لهذا العالم الغفير الذى صار إليهم نظاماً ثابتاً للحكم والادارة والدفاع ، فأقروا كل ناحية على نظامها مع تعديل فى تقسيمها اقتضاه نظام الدولة العام ، وأقيم على كل ناحية حاكم تركى يرسل من الاستانة ويبقى فى مركزه ثلاث سنوات تعززه قوة من الجيش العثمانى تقيم معه فى عاصمة البلاد أو على حدودها ،

وما عدا ذلك كان يترك لأهل البلد أنفسهم ينظمونه على النحو الذى يريدون ، فظل مماليك مصر مثلا يقومون بحكم البلاد كما كانوا قبل مجىء العثمانيين ، وظل أمراء الشام ورؤساء قبائله يصرفون الأمر على النحو الذى اعتادوه قبـــل مجىء العثمانيين ، اى الحكم العثمانى الجديد لم يزد على أن ضرب نطاقا عسكريا حول البلاد ، وفرض عليها جبايات منظمة تؤدى كل عام ، وتركها بعد ذلك حرة تصرف أمورها على النحو الذى اعتادت أن تصرفها به قبل الفتح ، ولهذا لم تكسب الوحدات الاسلامية شيئا كثيراً بهذا الفتح الجديد ، حتى الأمن الذى شملها فى السنوات الأولى منه ، لم يلبث أن اضطرب حبله وعاد الأمر فوضى كما كان

الدولة العثمانية

فالقول بان الدولة العثمانية كانت وحدة تجوز يراد به التبسيط والايجاز لا التدقيق والتحديد ، اذ أن كل ناحيه استمرت بعد الفتح على نظامها قبله ، والقول بان الدولة العثمانية كانت حكومة عامة خطأ ظاهر لأن رجال الدولة ما كانوا يقتدرون على وضع نظام جامع مانع للدولة كلها وظلت الفوضى على حالها وان سكنت حينا قصيرا ، وكانت الدولة إلى ذلك غاصة بالهيئات والأقليات التى تعيش بانظمتها وقوانينها بل فى رعاية ملوكها لا يكاد السلطان يملك من أمرها شيئا ؛ حتى القول بان قيام الدولة العثمانية كان يقظة للعالم الاسلامى لا يخلو من خطأ ، اذا استمر الركود بل استحال خمودا ، وزادت الهمم هبوطا والعقول جهلا ، وتضاءلت فى نواحى الدولة بوارق النهوض الأدبى أو الفنى التى كانت تنبىء بالخير فى بعض نواحى مصر والشام ، فسكن كل شىء وركد فى ظل هذه الوحدة الظاهرة التى عرفت « بالدولة العثمانية » . وانقطعت الصلات التجارية والحضارية بين الشرق والغرب بعد ان كانت قائمة ماضية فى سبيل القوة فى أواخر أيام المماليك كما سبق

انقطاع الصلات بين الشرق والغرب دا ثرة

بيانه ، فكان انقطاع الصلات هذا أكبر العوامل فى تفوق اوربا على العالم الاسلامى إذ انه وقف مكانه ومضت أوروبا فى سبيلها قدما كما سيجىء .

وكانت الأمم التي تكون هذه الوحدة ، قد أدركها شيء من الأعياء والفتور من فرط ما جاهدت تحت راية الاسلام . ولعلها الشيخوخة أدركتها بعد أن اطمأنت إلى الجنة التي فتح الاسلام أبوابها للمتقين ، فأخذت تنسحب من ميدان السياسة والتاريخ واحدة فواحدة : ارتد العرب إلى جزيرتهم ، وصاروا أعراباً لا يملكون من أمر الاسلام والمسلمين شيئاً ، واضمحل الشام عشية بارحته الخلافة إلى بغداد ، وانتهى أمر العراق غداة غزوة التتار .

ولم يكن في مقدور العثمانيين — لقلتهم — أن ينهضوا بأمر هذا العالم الغفير ، ففعلوا ما يفعله الرعاة حينما يروضون الغنم ، فيستعينون بالكلاب على حراستها . واتخذت الشعوب الاسلامية هيأة قطعان من الماشية ، ترعى في كنف السلطان ، وتطمئن في حماية الانكشارية والمماليك وأصبح حالها أشبه بهذه الضفادع التي حدثنا « لافونتين » أنها عجزت عن أن ترد الأعداء عن أرضها ، فأقامت على نفسها بجعاً حاكما ، فكان يأكل من الرعية أكثر مما يأكل من الأعداء !

اضمحلال الشرق الاسلامي في حكم الاتراك

بهذا نستطيع أن نفهم كيف كانت سيادة العثمانيين شراً على العالم الاسلامي ، فبدأ يضمحل من الناحية المعنوية ، حتى أصبح وقطعان الماشية قريبا من قريب ، يؤدي للراعي ما عساه يريد منه . وإذا كانت هذه هي كل مهمته في الحياة ، فلم تعد به حاجة إلى التفكير أو العلم ، فبدأ يطغى عليه الجهل والجمود ، حتى أصبحا ظلمات بعضها فوق بعض ، وما هي إلا سنون ، حتى بدأ النوم يداعب أجفان الراعي ، ومال به غناه إلى الترف والراحة ، فوكل للانكشارية أمر الرعية ، وأقبل على النوم ، فاستولى عليه سبات عميق .

* * *

وكانت أوروبا قد بدأت تفيق من غفوة القرون الوسطى ، وكان

ارتدادها إلى حضارة الأغريق والرومان ، قد أفضى بها إلى رحاب واسعة من الحرية . وبدأت الحياة تتكشف أمام أهلها عن آفاق جديدة ، فتفطن بعض علمائهم إلى استدارة الأرض ، وزاد آخرون فاستنتجوا أنهم يستطيعون أن ينفذوا إلى الشرق دون أن تكون بهم حاجة إلى المرور بأرض الأتراك الذين كانوا يؤذونهم أذى شديدا ، وذلك بأن يسلكوا طريق الجنوب فيدورون حول أفريقية ، ومن هنا كانت العزلة التى ضربت على العالم الاسلامي . فلم يعد أحد يطرق له باباً . أقفلت الثغور وطويت الأشرع ، وانقطعت التجارة التى كانت تتيح لأهله ربحاً وفيرا ، فزادت عليه علة جديدة هى الفقر الذى بدأ يعم ويشمل ، حتى بات الحكام يشكونه قبل الرعية ، فاذا زاد بهم ألم الحاجة فقد انقلبوا على الرعية وبدأوا يرهقونها حتى زالت معالم الغنى وأضرب الناس والحكام ، فلم يعودوا يقيمون المساجد والأبنية ، وسكنت ريح الشرق ، وساد عليه ظلام رهيب ، لا تكاد تلمح فيه غير أشعة ضئيلة ، تضطرب فى صحون الأزهر وغيره من المساجد .

بهذا ساد الانكشارية والمماليك ، فأما الأولون فقد استهواهم النوم الذى استولى على سيدهم ، وبدأ الكسل يطغى عليهم ، حتى أصبحوا كذكور النحل تؤذى ولا تفيد ، وأصبح لزاماً على الناس أن يفعلوا بهم ما تفعله عاملات النحل حين يهجمن على الذكور فيقتلنها ، دفعة واحدة ، وأما الآخرون — أى المماليك — فلم يكن ممكناً أن يهدأ أمرهم ، إذ أنهم لم يكونوا كالانكشارية خدماً لسيد واحد ، يرفع منهم من يشاء ويخفض من يشاء ، وإنما كانوا عبيد سيوفهم ترفعهم إلى مراتب الأحرار وعروش الملوك ، فكانوا يحاذرون النوم مخافة أن يؤخذوا على غرة ، وقامت بينهم المنازعات واتخذوا المزارع والأسواق ميادين لها فانقطعت عن الرعية مواردالرزق ، ولم يبق أمامها إلا أن تقنع من العيش بالكفاف

وبدأت الأمراض والطواعين تفتك بها ، وانتهى بهـا الأمر إلى حال من السوء ما عليها من مزيد .

***

النهضة الاوروبية

فى هذا الحين ، كان قد استقام لاوروبا لون من الحضارة جديد ، نستطيع أن نميزه عن غيره من ألوان الحضارات ، إذا قلنا أنه لم يكن حضارة ملوك أو أحبار ، وإنما كان حضارة شعوب ، تحرر الناس فى ظلالها من آثار القرون وأعراف الزمان ، وأصبحوا أحراراً فيما يأتون من أمر ، وما يعلنون من فكر ، وأصبحت الشعوب تسير الملوك فاذا أبى الملوك طاعة الرعية ، ردوا إلى حدودهم أو خلعوا .

وكان العلم قد فتح للأوروبيين رحاب الأرض ، فانطلقوا يجوبون للقارات والمحيطات طلباً للرزق ، وهداهم العقل إلى الطبيعة ، فسخروها لأنفسهم تحملتهم اذا ازمعوا الرحيل ، وحاربت فى صفوفهم إذا حاربوا .

تطور المجتمع الاوروبى الشركات

وعرفت الثروة طريقها الى خزائن المصارف والبلديات ومحال التجار ، وظهر فى ربوع أوروبا ، من أفراد الشعب ، من هم أغنى من ذوى التيجان ، وأخذت الشعوب تجند من صفوفها جيوشا تساهم بالمال والعمل ، وتنشىء الشركات ، التى وفقت الى الفتوح توفيقا لم تدركه الجيوش ، فما يعبأ المحارب إذا تزعزع نفوذ مليكه ، مادام يتقاضى أجره ، وأنما يفزع المساهم فى الشركة ، إذا مس ماله الأذى .

التقدم الفكرى والعلمى

كذلك حل رجال الفكر والعلماء والشعراء ، محل القسوس والرهبان فى قيادة الناس ، وأصبح الأوروبيون أكثر صلة بالطبيعة وأمس رحماً بالحياة ؛ ولم يتحرجوا فى سبيل العيش ، من أن يعلنوا ثورتهم على الدين ، وأن يهملوا حدوده وشعائره التى كانت همهم فى القرون الوسطى ، بل استدعى نضالهم فى الحياة أن يتحد كل فريق ، ويعتز بوطنه ، فصارت الوطنية عندهم إلى مقام يشبه مقام الدين

الحضارة الغربية جوانب خيرها

بهذا هاجم الغرب الشرق بثلاثة أسلحة لا قبل للأخير بها ، هى الحرية والعلم والفكر .

كل هذا ، ولا زال الراعى وكلابه فى نومهم الهادىء ، ولا تزال رعاياه فى مرعاها ، وقد أحالها الفقر والمرض والجهل إلى حال من الجمود لم تعد تحس معها شيئا مما حولها وكانت أوروبا لا تزال تحفظ للشرق الاسلامى الشيء الكثير من الاحترام لأنها لم تنس بعد ، بأسه الشديد فى الحروب الصليبية وفتوحات الأتراك ، ولكن نفرا من السائحين ، بدأ يدخل الشرق ، ويطوف به ، ويتأمل أحواله فيزداد عجباً ، ثم يمضى إلى قومه ، فيتحدث اليهم عما رأى من انحطاط المجموعة الاسلامية وضعفها البالغ ، فبدأ الأوروبيون يشكون فى قوة الشرق الاسلامى وبدأت هيبته تسقط من أعينهم وفكروا فى استعمال طريق البحر الأبيض من جديد ، وكانت سفنهم وأساطيلهم قد أحاطت بالمجموعة الاسلامية من الشرق — فى المحيط الهندى ، وكان بعض المجازفين منهم يفضل أن يخترق العالم الاسلامى إلى الشرق ، فيلق من عنت حكام المسلمين شيئاً كثيرا .

وكان الأوروبيون قد شغلوا بالمنازعات التى استطارت بين قومياتهم الناشئة . شغل آل هابسبرج بالبربون ، وشغل الانجليز بالفرنسيين ، وثارت بينهم منافسة حادة على المستعمرات فى الهند وأمريكا .

كذلك قامت البروتستنتية فى أوروبا ، ولم يكن بد من أن يقوم النزاع بينها وبين الكاثوليكية ، فاشتدت الخصومة بينهما ودامت زمناً طويلا ، وظهرت بأجلى صورها فى حرب الثلاثين سنه التى اشتركت فيها أوروبا كلها وانتهت بانتصار البروتستينية الذى تقرر فى صلح وستفاليا سنة ١٦٦٨ ، فشغل الاوروبيون خلال ذلك عن عدائهم المسلح للاسلام

على أن أهم تطور حدث فى أوروبا فى أوائل العصر الحديث ، هو تطور أساليب الحرب وفنونها وآلاتها ، فقد كانت كفة الشرق والغرب متعادلة — إلى حد ما — عندما كان سلاح الفريقين واحداً ، بل كان الشرق هو الأرجح لما لأهله من الحماس والاندفاع فى الميدان ، نرى ذلك واضحا لا يحتاج لبيان فى الحروب الصليبية التى كانت الكفة الراجحة فيها للشرق دائماً ، فلما كان العصر الحديث وحروبه الكثيرة ومنازعاته الشديدة وجد الاوربيون فى ذلك مجالا طيباً للاستزادة من الخبرة والمران والاختراع فنشأت أساليب جديدة فى اعداد الجيوش وترتيبها ، واعداد الجنود للميدان ، وفى الحركات الحربية وهندسة الميدان وما إلى ذلك ، وسنرى أن هـذا التقدم الحربى سيكون هو السبب الأكبر فى هزيمة الشرق وانتصار الغرب ، وسنراه واضحاً جلياً فى كل معركة أو نزاع بين الاثنين ، سنرى الشرق جامدا على أساليبه محاولا الاستفادة منها على خير وجه ، وسنرى الغرب يفتن ويبتدع فى الحركات الحربية وآلات القتال من بنادق ومدافع وآلات حصار فيكون الفرق بين الاثنين ظاهراً بيناً له نتيجته الحاسمة . وقد أحس المسلمون الذين تلقوا هجمات الغرب الأولى بهذا الخطر وحاولوا أن يصلحوا شأنهم من الناحية الحربية ليصدوا تقدم الغرت ولكنهم لم يفلحوا ، لأن هذا التطور — ككل تطور غربى فى العصر الحديث — إنما أساسه العلم والتجربة الطويلة ، فقواد نابليون الذين كانوا يستعملون مربعات الجنود لصد هجوم المماليك الشديد كانوا يطبقون أساليب درسوها فى المدارس الحربية ومرنوا عليها فى عشرات المواقع التى اشتركوا فيها قبل قدومهم إلى مصر ، ومن الغريب أن المماليك لم يحاولوا أن يقلدوا الفرنسيين فى شىء من أساليبهم على رغم أنهم استبانوا فضلها وقوتها ، وإنما مضوا على ما ألفوه فى حروبهم القديمة

فكانت النتيجة هزيمة ساحقة متوالية انتهت بفنائهم من التاريخ ، ولعلنا لا نعجب كثيرا كيف استمر تفوق الغرب إلى اليوم مع ان الشرق بدأ يتخذ أساليب الغرب منذ زمن بعيد ، ولكن الواقع أن أقوى عناصر الجيش الأوروبى هى روحه المعنوية ، يشعر كل جندى فيه بنفسه وبوطنه ويندمج مع الآخرين فى الصفوف فيصبح الجيش قوة معنوية عظيمة لا يكاد يقاس اليها حماس الشرقيين الذى يقوم على الاندفاع ولهذا سترى ان الشرق سيظل مهزوماً مهما يصلح فى أساليبه ، وسيخسر المواقع مهما يتقن من عدة فى الحرب وآلاتها ، ولا يبدأ ينتصر حتى ترتقى روح جنوده المعنوية فيصل بذلك إلى مستوى العسكرية الأوروبية .

بدأ هذا التقدم الحربى يأخــــذ شكلا ظاهراً فى حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا اذ اكتشف الناس أثنائها قوة المشاة وعرفوا سبل الاستفادة منهم على خير وجه ، ثم حروب شارلكان التى شملت أوروبا كلها واتخذت هيأة صراع بين البروتستنتية والكاثوليكية والتى أيقظت فى نفوس المحاربين الأوروبيين روحاً جديداً ، وزادتهم خبرة بأساليب الحرب وأخرجت قادة قادرين من امثال جستاف أودلف واسكندر فارنيز وموريس نساو ومن اليهم ، وأصبحت الحرب علماً له قواعده وأصوله ولم تعد مجرد حماس واندفاع وبهلوانية فى استعمال السيوف والقرابينات .

كذلك كانت العقول تتطور فى أوروبا تطوراً شاملا عميقا ، وأخذ موقف الاسلام من النصرانية يتبدل تبعاً لتبدل التفكير فى بلاد الغرب واليك كلمة ممتعة للاستاذ باركر مؤرخ الحروب الصليبية يفصل فيها هذا التطور أبين تفصيل :

« ولم تجد أوروبا فى الحروب الصليبية سـبيلا للاتحاد الداخلى فحسب ومؤثرا جـديدا فى شتى مرافق حياتها الداخليـة ، ولـكنها كسبت عن سبيلها نظرة جديدة واسعة للحياة ، وقد كان هذا الاتساع فى مدى النظر أكبر ما كسبته أوروبا من الحروب الصليبية

إذا أضفنا اليه نمو روح الكشف وتقـدم الجغرافيا . . . . .

بدأ عصر الكشف الاسيوى الزاهر فى القرن الثالث عشر ، وهو يعـادل عصر الكشف الأمريكى فى القرن السادس عشر — ان لم يساويه — وانتهى بعد ذلك بقرن من الزمان . وكانت آسيا أثناء هـذه الفترة تجمعها امبراطورية مغولية مفككة العرى تمتد من القرم وتبريز وبخارى وسمرقند الى كبالوك (بكين) وهنكاو . وكان المغول الذين احتفظوا بعقيدتهم الشامانية متسامحين مع العقائد الأخرى ، ولم يكونوا هم أنفسهم مسيحيين ولكن بلادهم ضمت نفراً من هؤلاء فرجا المتفائلون من المسيحيين تحويلهم إلى النصرانية ، وعزز هذا الرجاء ميل الأوروبيين التجارى الذى دفع بهم إلى البحث فى بلاد المغول عن مراكز التجارة الاسيوية . وقد كانت البعثات التبشيرية التى أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد . . . وقد كان بين أعضاء هذه البعثات أفرادمثل رايمند لَلْ يقدرون أن البعثة التبشيرية أبعد أثراً من الحملة الحربية ، ومن هنا أصبح تنصير آسيا غاية قائمة بذاتها يرمى من وراءها أمثال هؤلاء المتفائلين ان يملأوا الدنيا بعلم الله كما هى مملوءة بماء المحيطات . . وقد وجدت هذه البعثات عونا طيباً فى تسامح المغول وفى وجود مدارس النسطوريين فى آسيا ، فاستطاع جون مونت كورفينو — مؤسس الكنيسة اللاتينية فى بكين — فى أوائل القرن الرابع عشر أن يصبح اسقفا لبكين وكان معه ثلاثة من الرهبان الفرنشسكيين المساعدين . . وسار التاجر الايطالى فى ظل البعثة التبشيرية كما كان ملاحو الموانىء الايطالية يرافقون الحملة الصليبية ، ولم يسفر ذلك عن رحلات « آل بولو » وحدهم بل استطاعت شركة ملاحة جنويّة ان تمخر مياه بحر قزوين ، واستقر قنصل بندقى فى تبريز . . . . . . بيد ان كل هذا الأمل المعقود قد تهدم عن آخره ، وتلاشى ذلك الحلم الخادع

الذى كان يرسم لأصحابه فى الخيال صورة آسيا وأوروبا المسيحيتين، تحصران بينهما الاسلام ، فلا يصبح بعد ذلك الا عقيدة متضائلة محصورة فى فئة قليلة من الناس فى ركن أسبانيا وفى جانب من شرق البحر الأبيض ، ذلك ان خانات فارس دخلوا الاسلام سنة ١٣١٦ ، وأسلم أهل وسط آسيا فى منتصف القرن الرابع عشر ، وتربعت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتى ١٣٦٨ و ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصين فى وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحيه واتساعا بعيدا فى رقعة الاسلام الذى ادرك شأوا بعيدا من الاتساع بظهور الأتراك العثمانيين ، .... ولكن أملا جديداً تراءى للغرب الذى لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سببا فى أكبر انقلاب عرفه التاريخ ... تساءل الأوروبيون : إذا كان طريق البر قد أقفل ، فلم لا تسلك أوروبا طريق البحر ، لماذا لا تبحر إلى الشرق وتهاجم الاسلام من الخلف وبذلك يستعاد بيت المقدس .. كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم واعتقدوا أنهم (برحلتهم إلى بحار الهند) يعملون لتخليص الأراضى المقدسة ، وإذا كان كولومب قد وجد الجزائر الكاريبية بدلا من الهند .. فانه يمكننا أن نقول إن المسيحيين الذين قاموا بهذا العمل (أى بالالتفاف حول الشرق ومهاجمته من بحار الجنوب) قد كسبوا قارة للمسيحيين .. وان الغرب استطاع أن يعيد ميزان الأمور لما فيه خيره بسبيل لم تكن تخطر له على بال ... »

انتقال الصراع الى البحار

وهذا حديث فيه بلاغ عما نريد أن نقول ، إذ أن أوروبا لم تكف عن التفكير فى الاسلام والأخذ بثأرها منه حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبى ، وقد رأيت محاولاتها العديدة التى قامت بها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كيف سعت إلى تنصير المغول لحصر الاسلام بين دولتين مسيحيتين ، وكيف اتصلت الأسباب بينهما

(١) تراث الاسلام : الترجمة العربية ترجمة اللجنة ص ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ ج ١

وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الاسلامية فى مصر ثم كيف يئست من طريق الشرق فبدأت تتجه إلى الغرب للوصول الى الهند وللجنوب للوصول إلى بلاد الاسلام .. وهذه هى خطوة الانتقال الكبرى التى تعين عصراً جديداً من عصور التاريخ ، عصر البحرية الغربية المتفوقة التى تحطم قوات الاسلام البحرية فى لبانتو وتنزع منه زعامة البحر الأبيض . . ثم تتوغل نحو الجنوب فتغزوه غزواً موفقاً من بحار الشرق . .

نهضة الامم البحرية

من هذا اليوم ، بدأ ميزان الحياة يتغير ، وبدأت وجهة التاريخ تتبدل . . ستضع الأمم البرية السلاح لتنهض الأمم البحرية وتنشر الشراع الذى أثبت أنه امضى من السيف . . وستسمع بأمم صغيرة فى حساب البر عريضة بحساب ما تملك من شراع وما فى طباع أهلها من مواهب بحرية . . ستسمع بالبرتغال وهولندة وانجلترا ، وسيبدأ العصر الحديث بطابعه البحرى السائد

يكون الهجوم من البحر فتكون أمم الاسلام أول الفرائس . يبدأ التقدم الأوروبى من الشرق ويسير نحو الغرب تسقط الهند وجزائر الملايو . . ثم جنوب فارس . . ثم امارات جنوبى بلاد العرب . . ثم البحر الأحمر . . ثم دول البحر الأبيض . .

الآن أوجزنا للقارىء ما ينبغى أن يعرفه عن الشرق الاسلامى وعن تطور أوروبا من القرون الوسطى إلى العصر الحديث ، وذكرنا ما أصاب العلاقات بين الاسلام وأوروبا من تبدل نتيجة لذلك التطور ، فلنبدأ الآن بتتبع العلاقات بينهما ناحية ناحية حتى ننتهى بهما إلى القرن التاسع عشر

١ — حركة الكشف الجغرافى

يرجع تقدم الأوروبيين فى البحار ووصولهم بحر الهند إلى

أسباب كثيرة ، أهمها التقدم البحرى الذى أدركته أوروبا فى ذلك الزمان ، وليس صحيحاً على إطلاقه أن نقول ان بلاد الاسلام أصبحت فى ظل الدولة العثمانية فوضى لا أمان فيها لتاجر ولا طريق فيها لعابر أو ما يذهب اليه الكثيرون من أن التعصب الجاهل دفع بالأتراك إلى الوقوف فى وجه مرور التجارة الغربية ، فأدى ذلك إلى انصراف التجارة الغربية إلى الجنوب ، إذ المعروف أن الأبواب بين تركيا وأوروبا لم تكن مغلقة تماماً بل كانت للأتراك علاقات موصولة مع البندقية وفرنسا ، وكان لهاتين الأخيرتين احتكار التجارة فى بلاد الدولة وبحارها ، للاولى تجارة البر فى بلاد السلطان والشام ، وللثانية احتكار نقل التجارة الشرقية من موانى مصر والشام إلى بلاد أوروبا ، وقد كانت هذه العلاقات نفسها سببا من أسباب حركة الكشف ، إذ كانت المنافسة بين فرنسا وأسبانيا فى هذا العصر على أشدها ، فاذا احتكر الفرنسيون تجارة الشرق فقد انصرف الأسبان للبحث عن طريق آخر للاستيلاء على هذه التجارة والغلبة على منافستهم فرنسا ، وكذلك ضاقت البرتغال ذرعاً باحتكار البندقية لتجارة البحر الأبيض فتلمست سبيلا أخرى للاستيلاء على هذه التجارة والوصول إلى منابعها فى الهند ، فانتهى بها الأمر إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح

تركيا وأوروبا فى أوائل العصر الحديث

وكانت طبيعة الحروب الصليبية نفسها وما تلاها من احداث تدفع بالشرق إلى التفوق فى البر ، وبالغرب إلى التفوق فى البحر ، فقد كانت السفن سبيل الصليبيين الاوروبيين إلى الشرق فزاد مران الملاحين الاوروبيين ، وعرفوا أساليب اعداد الأساطيل والحملات البحرية الطويلة التى تحمل الناس والجند مسافات شاسعة ، وكان اعتماد الصليبيين فى كثير من الأحيان على الأساطيل فى مهاجمة موانى المسلمين فى الشرق بحيث يندر أن نجد حملة صليبية لا يرافقها اسطول جُنُوِىّ أو بندقى يساهم فى الحرب وفى الغنيمة ، فمرن الغربيون فى أساليب الحرب البحرية فى حين سكنت ريح

طلائع التقدم البحرى

الملاحة فى الشرق وقلت سفنه وأغلقت ثغوره . . وفهم الغرب ضعف الشرق فى هذه الناحية فصار يهاجمه — إذا أراد — من البحار . . ويحصره فى المياه إذا أراد أن يصيب منه مغنما لا يصيبه منه فى البر ، وهذه أوروبا كلها تضيق ذرعاً بجند الاتراك الذين يغزون قلب أوروبا حتى يصلون فينا . فلا يجد الاوربيون سبيلا لردهم إلا دفع الدولة إلى حرب بحرية تنجلى عن هزيمة ساحقة للاسطول التركى فى ليبانتو سنة ١٥٧١ فى عهد سليمان القانونى أى فى اوج التفوق الاسلامى البرى

التقدم البرتغالى

أشرف البرتغاليون على بلاد الشرق فى مطالع القرن السادس عشر ، وقد حفزهم إلى الاجتهاد فى التوغل فى البحار ماوفقت اليه جارتهم أسبانيا من بناء امبراطورية واسعة فى أمريكا فبدأت تثرى وتقوى وتصبح خطراً ساحقاً يهدد البرتغال ، فاتجهت هذه نحو البحار وتركت وجهة الغرب للأسبان واتجه رجالها نحو الجنوب بمحاذاة ساحل افريقية ، وكان يقود البرتغاليين هنرى ، ذلك الأمير الذى يذكرنا بامراء الحروب الصليبية من أمثال آل تولوز ، يعطينا لقب الأمير الذى عرف به فكرة عن الغرض السياسى الذى كان يسيره ، ويكشف لنا الصليب الذى رسمه على ظهره عن الروح الدينية الصليبية التى كانت تسيطر عليه ، ويفسر لنا لقب الملاح الذى عرفه به التاريخ هذه الروح الملاحية التى سيطرت على البرتغال بل على أوروبا كلها فى ذلك الزمان .

هنرى الملاح

وانتهى البرتغاليون أخيراً إلى المحيط الهندى على يد فاسكو دى جاما ، واتصلوا بالهند وكاليكوت فى أواخر القرن الخامس عشر ، وأنشأوا يبنون لأنفسهم ملكا على يد مستعمرين معروفين ، وقواد ذوى خطر من أمثال الميدا وكبرال والبوكرك . وكانت تلك البحار مقصورة على ملاحى المسلمين من عرب وفرس ينقلون التجارة فيه بين الهند والبحر الأحمر وافريقية أو يسلبون مايمر به من السفن . فكان طبيعياً أن تثور الخصومة بينهم وبين البرتغاليين المهاجمين ، وكان للملاحين

الاستعمار البرتغالى

المسلمين شركاء آخرون يقاسمونهم هذا الربح الوفير .. هم مماليك مصر الذين كانوا يتسلمون البضاعة عند البحر الأحمر فى السويس ثم وينقلونها إلى الأسكندرية وبذلك يربحون منها أعظم الربح ، وهناك يتسلمها منهم شركاء ثالثون هم البنادقة الذين غلبت عليهم الروح التجارية فصالحوا المسلمين على احتكار نقل التجارة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وتسامع الشركاء بهذا المنافس الخطر الذى أنشأ يسير أشرعته العريضة فى بلاد الهند ، ويتسلم التجارة ويمضى بها إلى الجنوب فيحرمهم من رزقها ، فتداعوا وتسارعوا وجمعوا أساطيلهم وأسرعوا إلى بحر الهند ليقضوا على ذلك الدخيل ، قدمت البندقية أجزاء السفن ونقلها المماليك إلى البحر الأحمر وركبها ملاحو المسلمين ، وساروا بها نحو الجنوب ، بل بلغ الغيظ بسلطان المماليك مبلغاً دفعه إلى الكتابة لبابا أوروبا يهدده ويسبه ويأمره بالكف عن هذا الغى .. والتقى البرتغاليون بالشركاء فى واقعة ديو سنة ١٥٠٩ فانجلت عن فوز باهر للبرتغاليين .. وانسحاب تام للمسلمين والمماليك من مياه الشرق وتركها للبرتغاليين المنتصرين يفعلون فيها ما يشاءون

موقعة ديو

بعد ثلاثين سنة فقط شعر امبراطور دلهى المسلم أن يد البرتغاليين ثقيلة عليه ؛ وأنهم انفردوا به وأخذوا يهددونه تهديداً خطراً ... فاستنجد بسليم الفاتح سلطان تركيا فى ذلك الزمان ، وانضم اليهما أمير مسلم آخر كاد البرتغاليون يبتلعون ملكه . هو أمير ججارات . وسار الثلاثة لحرب البرتغاليين فهزموا سنة ١٥٣٨ .

هزيمة الحلف الاسلامى سنة ١٥٣٨

وبعد عشر سنوات بدأ التوغل البرتغالى يثقل على صدر فارس ، إذ وقع فى يد البرتغال كل الخليج الفارسى وسيطرت على التجارة ، بحيث كان حاكم هرمز البرتغالى يتصرف حسبما يريد بتجارة الفرس ، وأحس الأتراك بذلك فأرسلوا حملة بحرية يقودها بيرى بك ولكن ذلك لم يغن إذ ارتد الأسطول التركى منهزماً .

حملة بيرى بك

هكذا قرر التقدم البحرى مصير الاسلام فى بحار الهند ، وأخذ يمتد شيئاً فشيئاً حتى استولى على الملايو وعلى سواحل الهند بل على دلهى نفسها كما سترى .

٢ ـ النمسا وتركيا

التقدم العثمانى

فزعت أوروبا كلها من التقدم العثمانى السريع ، وتسامع أهلها بسقوط عواصم أوروبا الشرقية والوسطى الواحدة بعد الأخرى ، سقطت أدرنة سنة ١٣٦٦ ، والصرب بعد واقعة كسوفا سنة ١٣٨٩ ، وبلغاريا فى حكم بايزيد الأول بين ١٣٨٩ و ١٤٠٢ ثم المجر بعد موقعة فارنا سنة ١٤٤٤ ثم القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، ثم الموره بين ١٤٥٨ و ١٤٥٩ ثم بلغراد سنة ١٥٢١ ورودس سنة ١٥٢٢ ، فزعت أوروبا لهذا التقدم الشديد السريع ، وساورها القلق على مستقبلها ، وبدأ الملوك والأمراء يفكرون فى بذل المعونة والوقوف فى وجه التقدم العثمانى الاسلامى ، وأحست به الشعوب إحساساً دينياً بسبب ما كانت تعلنه الكنيسة هذه الأيام من حرب صليبية عنيفة على المسلمين فى أسبانيا ، وزاد خطر العثمانيين ظهوراً ما كان من انشغال أوروبا بالحرب بين الهيسبرج والفالوا بين شرلكان وفرنسوا الأول ، فكان ذلك فرصة طيبة توغل الأتراك فيها دون أن يلقاهم أحد أو يردهم أمر . . بل أدى تنافس الأسرتين إلى زيادة سلطان العثمانيين وبعد صيتهم إذ سقط فرنسوا أسيرا فى يد شارلكان فى سنة ١٥٢٥ فى موقعة بافيا فلم يتوان هذا الأخير وهو فى حال اليأس عن أن يستنجد بسلطان تركيا ليغيثه وينقذه من عدوه اللدود . فأرسل السلطان سليمان إلى فرنسوا خطابا يفيض فخرا وثقة يعده فيه بالمعونة وينذر شارلكان بالعقاب الشديد وبعث عمارة بحرية وصلت إلى طولون ووقف الأمر عند ذلك الحد لانشغال سليمان بأمور أخرى ، وإنما أشرنا إلى هذا الحادث

بدأ العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية

لأنه سيكون مبدأ للعلاقات القوية بين فرنسا وبلاد الاسلام ، وأصلا للامتيازات العديدة التى سيحرزها الفرنسيون والتى ستكون منشأ لطائفة من الشرور التى ستصيب الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، إذ أن كل فتوح سليمان زالت بعد ذلك بقرن من الزمان بينما بقيت هذه الغلطة السياسية إلى اليوم داء من أدواء الشرق الاسلامى ونكبة من نكباته التى يصعب أن يجد منها مخلصاً ، كذلك كان البنادقة يمنون أنفسهم من قديم بالاستيلاء على القسطنطينية وكانوا ينتظرون الفرصة المواتية ليعيدوا ما فعلوه سنة ١٢٠٤ م من الاستيلاء على الدولة البيزنطية وإنشاء دولة لاتينية فيها فساءهم قيام الدولة العثمانية ، ولم تلبث الخصومة أن دبت بينهم وبينها ، ولكنها لم تلبث أن وجدت أساطيل أسبانيا والبرتغال تأخذ عليها طريق الغرب فلم تجد مفراً من التقرب لآل عثمان حتى يبيحوا لها المتاجرة فى بلادهم ، وقد أفلحت فى ذلك ، وأصبحت بعد ذلك صديقة للدولة موالية لها .

البندقية

كذلك كانت النمسا ترقب هذا التقدم بعين القلق والفزع ، فلما سقطت بلاد المجر بلغ منها الخوف مبلغه ، وبدأت تستعد لدفع هذه العادية الشديدة ، وتحققت مخاوفها حين توغل الأتراك فى الأرض النمساوية وعسكروا فى سهل نويهوزل وأخذوا يحومون حول فينا ، ويحاصرونها المرة بعد الأخرى بدون توفيق ، وأدركت أن ما حل بالقسطنطينية سيحل بها يوما ما . فبدأت تطلب المعونة من دول أوروبا فى هذا الظرف العصيب ، وكانت بولنده هى الأخرى تتوقع هذا المصير ، فبدأت تتخذ الأهبة لتلاقى الأتراك إذا فكروا فى الاتجاه شمالا . . . وبالجملة فقد انتشرت فى أوروبا كلها دعاية واسعة النطاق ضد الأتراك العثمانيين ، وساعدت الكنيسة على ذلك فاتخذ عداء الأوروبيين لتركيا مسحة دينية ستزيده قوة وشدة ، لم

النمسا

بولنده

الكنيسة وأثرها فى علاقات أوروبا بالاسلام

يخطىء النمساويون فيما قدروا ، فهذا هو محمد الرابع ١٦٤٨ — ١٦٨٧ يدبر مع وزيره أحمد كبريلي فتح فينا ، وهاهما يعدان للأمر عدته ، ويسيران جيشاً إسلامياً عظيما نحو فينا ليسقطها جملة . وينزل نويهوزل ويصبح على أبواب فينا ويبدأ يهاجمها هجوماً عنيفاً . هنالك تفزع أوروبا كلها . ويسرع لويس الرابع عشر ملك فرنسا فيرسل إلى النمسا ستة آلاف جندى من خيرة مشاته . وتصل إمدادات من نواحى أخرى .

حصار فينا

ويزداد سخط أوروبا على المسلمين فيسرع ليبنتز الفيلسوف ويقترح على لويس الرابع عشر فتح مصر . ويهم هذا بتنفيذ الأمر ولكنه يكتفى بضرب تونس والجزائر بالمدافع سنة ١٦٦٨ . ويلتقى الفريقان عند سان جوتارد . . ويتأمل الصدر الأعظم الجنود الفرنسيين المصطفين بنظام محكم ، وعلى رؤوسهم قبعاتهم ذات الريش ويتعجب من شعورهم المدلاة وملابسهم ذات الألوان فيناله عجب ويسأل « ما هؤلاء الفتيات ! » . . ويشتبك الجيش ويندفع الانكشارية فى عنف وشدة وتأخذ الجنود الأوربية تتحول بانتظام وترتيب وتتقدم مشاتها بقوتها الجديدة ومدفعيتها المتحركة . . فتنتهى المعركة عن هزيمة ساحقة للأتراك .

ليبنتز يحرض لويس الرابع عشر على غزو مصر

سان جوتارد

دوى خبر هذه الهزيمة فى أوروبا وأصاب من النفوس مكان الدهشة وأنكره الكثيرون وحسبه الآخرون خدعة ، ولكنه كان حقيقة مرة بل بدأ لعصر جديد . اذ ستصبح القوات العثمانية بل الاسلامية من ذلك اليوم رمزاً للهزيمة والفشل ، عرف الأوروبيون أن النظام والترتيب والرسم المحكم . . أمور تنقص الجنود التركية والجيش الاسلامى . . ومن هنا سيبدأ الهجوم وتكون الهزيمة . . بل تنشأ المسألة الشرقية باسرها فى ظلال الهزيمة ، يوقع الاتراك معاهدة فاسفار ، ويشمل الفرح أوروبا كلها وتتنفس شعوب البلقان وأوروبا

معاهدة فاسفار

الصعداء أن بدا الكابوس يزول .. ويتهلل الناس ويزدادون حماساً .. لأن الأتراك هزموا مرة أخرى عند أبواب فينا وكان الذى هزمهم قائد مسيحى آخر هو سوبيسكى ملك بولنده ، ارتدت القوات الاسلامية فى تقهقر سريع غير منتظم .. وتقدمت القوات الأوروبية يحدوها النصر ويتلقاها الناس بالبشر فى كل مكان . أخلى الأتراك المجر .. ثم سقطت بلغراد درة فتوح سليمان فانفجرت الثورة فى البلقان ان حسب أهله ان قضاء الله قد حم فى الاسلام وأن الله قد تاذن بزوال سلطانه وذهاب قواته وسبحان الباقى العزيز .. وتقدم يوجين أمير سفوا فاستعاد زنته قرب البحر الأسود ثم اتجه جنوباً .

سوبيسكى ملك بولنده

ثورة البلقان

وهكذا ! .. يكشف الله الستر ! وتهتك الأقدار الحجاب . ويتبين المدى الواسع الذى يفرق تركيا عن جيوش أوروبا ، هذا الذى يفصل الشرق الاسلامى عن العصر الحديث ، وستكون الحوادث المقبلة كلها براهين تؤيد هذا الفارق وتظهر التفوق الغربى بشكل ظاهر لا يحتاج إلى بيان .. وستزداد أوروبا كل يوم له فهما .. فتهاجمه بكل قواها وتشل حركة الشرق وتذهله فلا يدرى أى السبل يسلك ، وسيقوى شعور الشرق بالضعف فيهبط اليأس على أفئدة المسلمين ويدفعهم إلى الهاوية مسرعين ..

سينزل البنادقة المورة ويستعيدوا كريت ويستوى قائدها توماس موروسينى على حصون البلقان الواحدة بعد الأخرى حتى تسقط تباعا سنة ١٦٨٥ ويشطر أكبر جزء من دلماشيا .

توماس موروسينى فى البلقان

وستسرع الروسيا نحو الجنوب ، ويصبح حال تركيا شرا ليس بعده شر .. وسيبدأ من هنا ليلها الطويل الأسود ومرضها الطويل الثبات ..

ولكن ربك يتدارك المسلمين بالرحمة ، فها هى حرب الوراثة

النمساوية تتاذن بالبدء ، وهذا هو امبراطور النمسا يسعى ليقفل الباب في الشرق ليفتحه فى الغرب . . فيعقد الصلح بين تركيا والروسيا والنمسا ولكن أى صلح . . إنه الموت بعينه !.

تأخذ النمسا كل المجر وتراقيا ونصف بنات وتامسفار وبلغراد بل أنها تتعهد للسلطان أن تحفظ قبرولى مسلم وقع فى يدها . . هو جل بابا أى أبو الزهور . . الزهور القائمة على قبر تركيا !

صلح كارلوفتز ١٦٩٩

وتأخذ البندقية المورة والروسيا آزوف وحق الملاحة فى البحر الأسود . هذا هو صلح كارلوفتز ١٦٩٩ م .

٢ — آسيا الوسطى

نهوض الروسيا

فى مطالع القرن التاسع عشر بدأت روسيا تنهض نهضتها العظيمة يحدوها بطرس الأكبر ، وكانت قد اتجهت إلى توسيع حدودها والاتصال بالبحار فحاربت السويد لتصل إلى البلطيق وحاربت تركيا كما ذكرنا لتصل إلى البحر الأسود ، وصاحب ذلك امتداد عظيم سريع إلى الشرق فى آسيا ، استولوا على تمسك ١٦٠٤ وكراسنودسك ١٦٢٨ ويا كتسك ١٦٤٢ واخستك ، وفى سنة ١٧١١ أتموا فتح سيبريا ووصلوا إلى ساحل المحيط الهادى واستولوا على كمتشكا وبدأوا ينشئون على ساحل المحيط الهادى ميناءهم العظيم فلاديفستك .

فتح سيبريا

فتح التركستان

واتجه تيار روسى آخر نحو الجنوب اخترق هضاب القرغيز وصحاريها ، وتلك بلاد اسلامية يتوارد ذكرها فى روايات المسلمين بل كانت فى فترات كثيرة مركزاً للحضارة الاسلامية وهكذا طرقت أوروبا أبواب الاسلام من ناحية أخرى : كانت تركستان خلاء قواء فسهل فتحها ووقوعها فى أيدى الروس ، فتم لهم ذلك وتأسست ميناء كراسنو فدسك على بحر قزوين سنة ١٥١٦ وانحدر الروس كذلك

من بين البحرين ، قزوين والاسود وأطلوا على فارس فألقوا فى نفوس أهلها الرعب والفزع .

فارس ومقامها فى المجموعة الاسلامية

لفارس مقام خاص فى المجموعة الاسلامية ، فهى أعرق الدول الاسلامية حضارة وأطولها تاريخا ، وهى أول عنصر اسلامى استطاع أن يستعيد قوامه وينهض على قدميه ، بل يطغى على الدولة العربية فيغزوها بحضارته ثم يسودها سياسياً فى خلافة العباسيين ، وهى من عنصر آرى فى وسط المجموعات الحامية والسامية (١) ، ولغتها أقرب إلى لغات أوروبا إذ أنها من نفس الأصل الآرى ، وهى من بين الشعوب الاسلامية ، ذات حضارة لها طابعها الخاص ، وذات فن معروف وتصوير قوى وأساطير ذائعة الصيت لا تقل جمالا ورواء عن أساطير اليونان ، هى بعد هذا كله مجموعة شيعية وسط السنيين فى الأفغان والهند والكتلة السنية الغربية : العراق ومصر وتركيا ، هذه الأمور كلها اتجهت بفارس وجهة خاصة ، وانحرفت بها عن مجرى تاريخ الدولة الاسلامية . . فأخذت تسلك — فى ظل الاسلام — مسلكا خاصاً تتضح فيه شخصيتها ومميزاتها وضوحا بينا . . ولا تزال كذلك حتى يتحول ذلك الانحراف المذهبى الجنسى ويتخذ هيئة شعور قومى ، يبدأ شعوبية تعتز على العرب وتتسامى عليهم ، ثم يأخذ شكلا واضحا بعض الوضوح فى ظل الدولة الغزنوية ، ويصل إلى درجة طيبة من النضوج فى القرن السادس عشر فى حكم الصفويين .

القدم الروسى نحو فارس الصفويين

كانت فارس فى أواخر القرن السادس عشر ومطالع السابع عشر فى فترة زاهرة من تاريخها الطويل المجيد ، كانت تقوم بالأمر فيها أسرة الصفويين التى أسسها الشاه عباس الأكبر (١٥٨٦ — ١٦٢٨ م)

---

(١) لم يعد تقسيم الناس الى حامى وسامى متبعا عند علماء الاجناس لانه تقسيم لغوى وإنما التقسيم اليوم بحسب مقاييس الجسم والرأس . ولكننا ذكرنا السامى والحامى لسهولة فهم هذه الاصطلاحات فقط .

وكان هذا أميراً شرقياً ممتازاً ، استطاع أن يوسع امبراطوريته حتى شملت فارس كلها ، فأسس على الخليج الفارسي مدينة بندر عباس ، واستولى على الموصل ، وحارب البرتغاليين واستولى منهم على هرمز ، وفتح فى الشرق بلخ وقندهار ، فدخلت أفغانستان تحت لوائه ، وحارب الأتراك واستعاد منهم بغداد .

النزاع بين تركيا وفارس

كان هذا الامتداد مثارا للنزاع بين فارس وتركيا ، فاستطارت بينهما الخصومة ، اذ أبى مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠ م) أن يدع بغداد فى يد الفرس ، فسارع واستردها سنة ١٦٣٨ وقسا فى معاملة الفرس حتى قيل إنه قتل ثلاثين ألف فارسى فى بغداد ، فكان هذا النزاع الاسلامى من عوامل ضعف المجموعة الاسلامية فى هذه الفترة العصيبة ، التى كان ينبغى أن تتوجه جهودهم فيها إلى الوقوف فى وجه أوروبا التى بدأت تهاجمهم فى كل مكان

تفرق الدولة الفارسية بين أيدى الخانات

وكانت الدولة الصفوية مكونة من خانات (جمع خان) يقومون على النواحى ويخضعون للشاه عباس لما له من المهابة والقوة ، فلما تأذن الله بوفاته ، استقل الخانات وتفرقت الدولة وأصبحت اقطاعيات كبقية الدول الاسلامية وأخذت تضعف شيئا فشيئا ، فانتهز الروس هذه الفرصة وغزوا القوقاز وبدأوا يمتدون إلى الأراضى الفارسية .

غزو القوقاز

نهضة الافغان مير محمد

وأسرعت الأفغان لتثأر من جارتها ، فتقدم ملكها مير محمد فى أوائل القرن الثامن عشر ، وفتح فارس ، ونزل كرمان ، وأحرز انتصاراً عظيما فى جلباباد قرب اصفهان ، ودخل العاصمة سنة ١٧٢٢

وكذلك انتهت الاسرة الصفوية ، وهبطت المقادير بفارس هبوطا أضعفها أمام الهجوم الأجنبى ، وسترى بعد قليل ماسيفعله الانجليز فى الخليج الفارسى ، ولم يقطع هذا الركود الا مغامر اسمه نادر يظهر ويكون لنفسه امبراطورية واسعة تمتد من الدجلة إلى لاهور ودلهى

المغامر نادر

ومن بحر الهند إلى القوقاز وسمرقند ، إذ استطاع أن يهزم الروس ويردهم على اعقابهم . ولكن امبراطوريته انحلت عقب موته مباشرة ولم تدم الا أحدى عشرة سنة بين ١٧٣٦ و ١٧٤٧

الهند الاسلامية

أما الهند فلا حاجة لنا بالتفصيل فى شؤونها وما صارت اليه فى أواخر القرن السابع عشر ، لأن ذلك تطويل يخرج بنا عن الحدود المرسومة لهذه الرسالة ، ولكننا نستطيع أن نشير فى اجمال الى ان الاسلام دخل الهند على يد المغول ، وأنه لم يستطع بطبيعة الحال أن يفتح الهند كلها ، بل بقى فى الشمال فى حوض السندوجزء كبير من حوض الكنج وهضبة الدكن ، وان مناره ارتفع وقامت له امبراطورية قوية ظلت المجموعة الهندوكية تنظر اليها على الدوام كأنها قلية غازية ، وكذلك لم يستقر الاسلام هناك ويثبت أقدامه الا فى القرن الثامن عشر ، حين مد رواقه وشمل سلطانه وأصبح أصلا من أصول الثقافة والمجتمع فى الهند ، ولهذا ينبغى أن نلاحظ أن المجموعة الاسلامية الهندية لا تحارب أوروبا وحدها ، بل تحارب المجموعة الهندوكية كذلك ، وسنلاحظ أثر ذلك حينما تبدأ المبادىء الأوروبية تتسرب الى الشرق ، إذ سنجد روح القومية تنشأ عند المجموعة الهندوكية فتتطلع إلى التخلص من الغزاة المسلمين فيكون هذا أشد خطرا على المسلمين من الانجليز الغزاة وعلة من أشد علل الهند واقساها . ونلاحظ كذلك أن مسلمى الهند دخل فيهم من الفرس عدد كبير وأنهم ظلوا محتفظين بكيانهم السياسى مدى طويلا حتى أقبل الانجليز .

اورانج زيب

كان آخر الاباطرة العظام اورانج زيب ابن شاه جيهان (١٦٦٠ م — ١٧٠٧ م) ، وكان رجلا شديد الايمان والتأثر بطبيعة الاسلام ، فكان غازيا فاتحا أثار فى الدولة نشاطا محموداً لم يضعف بعد موته مباشرة ، بل استمر على كثير من القوة والمنعة .

وكان يعاصر الامبراطورية الاسلامية امبراطورية هندوكية قوية

اشتدساعدها بين ١٧٤٨ و ١٧٥٩ واشتدت الخصومة بينها وبين الدولة الاسلامية

فى هـذه الفـترة : فترة الخلاف والنزاع ، بدأ زحف الفرنسيين والانجليز ، فكانوالا يصادفون فى طريقهم الا وهنا على وهن وانحلالا يعقبه انحلال ، فكان الفتح هينا والخطر جارفا .

فى قصة سقوط الهند ، ينبغى أن نتفطن إلى معنى جديد من معانى التدخل الأوروبى فى شؤون الشرق ، فان الواقع أن قوى الهند المبعثرة كانت تستطيع المقاومة بل التغلب لو أنها تصورت الخطر المقبل على حقيقته ، أو لو أن الأوروبيين سلكوا مع الهنود مسلكا يفهمونه ويقدرون خطره ، كان الزحف الأوروبى فى الهند زحفاً اقتصادياً ، بدأ بمراكز تجارية أصبحت بعد قليل شركات قائمة ، ثم احتاجت الشركات إلى قوات تحمى متاجرها ومخازنها ، واتسعت تجارة الشركات وامتدت مخازنها حتى أصبحت مدنا بأسرها . دب الفرنسيون على أرض الهند فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . . وحصل أول قوادهم سان مارتان على تصريح باقامة سوق فى بندشيرى فأجابه ملوك الهند إلى ما أراد دون تردد أو توقع للخطر ، وينبغى هنا ان نفهم معنى « التجارة » فى القرن السابع عشر ، فاغلب الظن أن بعض الناس يحسبون أن سفن الأمس التجارية كانت كسفن اليوم مجموعاً من الملاحين والمسافرين وهذا غير الواقع ، إذ كان القرن السابع عشر ، قرن القرصنة ولصوص البحار ، وكان لا بد لأية سفينة تغامر بالتوغل فى المحيطات ، أن تكون قلعة حصينة ملأى بالجنود والمدافع والحراس حتى يستطيع التجار أن يأمنوا على بضائعهم ، وكانت السفينة اذا رست على شاطىء مجهول عسكر جنودها حول البضاعة ليردوا عنها أذى الأهالى . . وكان التجار يعرفون ذلك فكانوا يدفعون نفقات الجند

أوروبا تغزو الهند اقتصاديا

سان مارتان

السفن التجارية فى بداية العصر الحديث

ويعينونهم ، ومن هنا كانت قوة البعثات التجارية وكان بعد أثرها ، ثم ان التوفيق الذى أدركته أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر من كشف أمريكا وما أفاض عليها هذا الكشف من الغنى والثروة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أثار فى نفوس الدول غيرة وخوفاً ، ولاسيما الدول البحرية (كانجلترا والبرتغال) ، فاخذت الدول المتاجر والشركات تحت حمايتها وعضدتها بل أرسلت معها الجنود وتدخلت عن طريق القناصل لحماية مصالح التجار حتى أننا لنلاحظ أن البعثات التجارية تتطور بسرعة إلى حملات حربية ومن هنا نفهم السر فى قوتها وكيف أنها انتهت آخر الأمر إلى أن تكون لها فتوح ذات شأن بعيد .

نوجز الأمر فنقول : إن الفرنسيين سبقوا الانجليز ، واتخذوا بندشيرى وشندر ناجور وكاريكال مراكزا لمتاجرهم وأمدوها بالجند ، وسارع الانجليز فاحتلوا مدراس وبومباى وكلكتا ، وتوغل الاثنان فى الهند واشتدت بينهما الخصومة واستطارت الحرب . ولكن فرنسا شغلت بحروب أوروبا فقلت عنايتها بشؤون الهند ، فانتهى الأمر بغلبة الانجليز وطرد الفرنسيين

انفراد الانجليز فى الهند

خلا الجو للانجليز فأخذوا يتقدمون فى البنغالة حتى تخوفهم امبراطور دلهى ، فقبض على نفر منهم وأساء معاملتهم ، فندب الانجليز رجلا اسمه روبرت كليف فسار فى جيش منظم قوى ليحارب سراج دولة امبراطور دلهى سنة ١٧٥٦ . .

كليف

بلاسى

التقى الفريقان فى بلاسى . . وهى حلقة ثانية بعد سان جوثارد تلحظ التشابه بينهما قائما ، والفروق بين قوة الشرق وقوة الغرب واضحة فيها لاتحتاج إلى زيادة بيان ، وهى السبب فى هزيمة الجيش الاسلامى الهندى وسنرى المأساة تتكرر بعد قليل سنة ١٧٧٤ فى كتشك كينارجى فى أوروبا ، وفى امبابه سنة ١٧٩٨ فى مصر . .

وتتوالى الهزائم بعد بلاسى كما توالت الهزائم بعد سن جوتارد وتسقط الهند كما توشك تسقط تركيا على السقوط .

٤ — مصر

بقيت ناحية أخيرة من هذا الصراع ، وهى ميدان لا يختلف فى طبيعته ولا فى نتائجه وجملته . عن كل ماذكرنا ، ولكن تفاصيله تكشف لنا عن حقائق أخرى جديدة ، ينبغى أن نلم بها فى هذا الحديث الذى نقدم به الشرق الاسلامى للعصر الحديث .

كان سبب الهزيمة فى الميدان الأوروبى جمود الدولة الاسلامية وعدم مسايرتها الأساليب الحربية الحديثة ، وكانت — أى الهزيمة — راجعة كذلك إلى اتحاد أوروبا ضدها ، وهجومها عليها فى وقت واحد من نواح متعددة

وكان سبب الهزيمة فى الميدان الفارسى ، اضمحلال الدولة الاسلامية وتفرق كلمتها

وكان سبب الهزيمة فى ميدان البحار ضعف الدولة الاسلامية من الناحية البحرية وجهل المسلمين بشؤون البحار .

وكان سبب الهزيمة فى الميدان الهندى جهل المسلمين بأساليب التجارة والاقتصاد وانقسام الهند إلى دولتين تحارب إحداهما الأخرى .

طبيعة مصر

أما فى مصر . فنجد شيئاً آخر ، إذا أننا رأينا فى البلاد الأخرى حكومات وجيوشاً وعرفنا ان الصراع كان بين الحكومات والحضارة الغربية ، فاذا انهدمت الحكومة تهدم معها كل شىء ، أما فى مصر فنحن نعرف أن الظروف الجغرافية تنحو فى هذا الوادى دائما إلى أن تقوى الرابطة بين سكانه ، وأن توجد بينهم على مر الزمن شعوراً من التآلف ، والتواد الذى ينتج القومية والشعور بها ، ولا يقتصر هذا الشعور على أبناء

البلد المولودين فيه ، وإنما يشمل الأجانب كذلك ، يتطورون شيئاً فشيئاً ويقتربون رويداً رويداً من مستوى الناس حتى يأتى زمان يندمجون فيه مع المصريين تماماً ، ونلاحظ ذلك واضحاً طول الفترة التى مررنا فيها ، فنجد شعوراً من الحب لمصر أخذ ينمو فى قلوب المماليك ضئيلا خابياً أول الأمر . . ثم يأخذ فى الظهور شيئاً فشيئاً حتى نراه واضحاً كل الوضوح فى الفترة التى نزل فيها الفرنسيون مصر فنجد شيئاً يشبه أن يكون شعباً مصرياً إلى جانب قوة المماليك الحربية هذا الشعب يتمثل لنا فى مشايخ الأزهر وأعلامه ممن ثبتوا للفرنسيين وكان لهم دور طويل معهم ، نعم اننا لا نجد عاطفة وطنية صريحة ظاهرة ولكنها ملحوظة على كل حال ، وسنرى هذه القوة تزداد وتنمو باتصال المصريين بالفرنسيين ، حتى تظهر بشكل واضح أشد الوضوح فى هذا الشيخ الشريف الذى لا يرقى إلينا الشك فى صدق وطنيته وصراحة قوميته ، وهو الشريف عمر مكرم الذى سنتحدث عنه فى حينه باذن الله .

بدا ظهور القومية المصرية

كذلك نلاحظ عند المماليك شعوراً وطنياً يصلهم بأرض مصر ، ياخذ فى الوضوح شيئاً فشيئاً كلما توغل الفرنسيون فى البلاد ، ويظهر فى شكل مقاومة عسكرية طويلة لا تخلو من بطولة وجلال ، وتستطيع أن تقول إن هؤلاء المماليك كانوا ينطوون على كثير من الحب للبلاد والاخلاص لأرضها ، وليس أدل على ذلك من هذه الجملة التى يرويها الجبرتى عن لسان الألفى ، نطق بها قبل وفاته وهى :

بدا ظهور القومية عند المماليك

«يامصر ، انظرى إلى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنؤود ، وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك

وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك . ولم يزل يردد هـذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى وفى الحال تقيأ دما وقال فض الأمر وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه وجرى حكمه على المماليك المصرية فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم .. » (١)

بواكير القومية المصرية

وهى كما نرى حنين خالص لمصر ، وتكاد أن تكون نغمة جديدة لم نسمع مثلها أبداً فى دولة من دول الاسلام ، وهى الطابع المميز الذى يجعلنا ننظر لمصر فى العصر الحديث نظرة خاصة ونفردها عن زميلاتها فى العروبة والدين ، هذا الشعور نشأ فى قلوب المماليك من طول ماأقاموا بمصر ، ومن كثرة ما أصابوا من خيرها ، ومن طول ما كانت عند حسن ظنهم ، فأمدتهم فى كل زمان بما عساهم يريدون من مال وجاه ، فازدادوا عليها حرصاً ، وبعثت فى نفوسهم شعوراً من الثقة يكاد أن يكون غروراً ، فقـد أعزتهم مصر ونصرتهم على الأتراك ، فازدادت ثقتهم بأنفسهم أى ازدادت ثقتهم فى البلاد . ودفعهم هذا الشعور الجديد إلى التعاون مع العلماء الذين هم قادة الشعب ورؤساؤه وممثلو القومية المصرية فائتمروا بأمرهم وأطاعوهم وخضعوا خضوعا روحياً لروح الشعب التى سيرتهم ووجهتهم فى كثير من الأحيان . ويقص علينا الجبرتى أخبار المجالس التى كان المماليك يعقدونها ويحضرها العلماء ، فيطلب المماليك المـال فيرفض العلماء ويأمرون المماليك بالخروج والحرب ويتعهدون لهم ببذل المـال إذا استلزم الأمر

لهذا كله سنلاحظ أن مصر لم تنهزم أمام ضربة الفرنسيين الأولى . بل ظل كيانها حياً صحيحاً بعد زوال المماليك ، ونهض الشعب يعاون

---

(١) الجبرتى جـ ٣ فى وفيات سنة ١٢٢١ هجرية والالفى كان رأس المماليك فى مصر بعد ان كبرت سن ابراهيم ومراد وخرجا من ميدان السياسة والنزاع بينه وبين البرديسى وبين الاثنين ومحمد على معروف وسيأتى عليه

الفرنسيين فى إدارة الأمور وسياسة الدولة ، ممثلا فى مجالس المشايخ التى كان الفرنسيون لا يبرمون أمراً إلا برأيها ومشورتها

بل نلاحظ أكثر من ذلك ، أن القومية المصرية كانت قوية الأثر فى الفرنسيين ، فأخذوا يقتربون من المصرية شيئا فشيئا ؛ وحبب اليهم الظهور بالمظهر الشرقى ، فجلسوا على الأرائك والطنف ، وتناولوا القهوة المصرية ، وتسمى نابليون بصارى عسكر وتسمى ديزيه فاتح الصعيد بالسلطان العادل ، بل أسلم بالفعل ثالث قواد الفرنسيين وتسمى بهذا الاسم الغريب الذى يصور لنا التفاهم والتقارب بين الشعب وأوروبا . بعد زوال المماليك وهو عبد الله مينو

مصر تؤثر فى الفاتحين الفرنسيين

ونلاحظ كذلك أن المصريين كانوا يشعرون فى قرارة نفوسهم باحتقار للفرنسيين ، ويخجلون من التعاون معهم فى إدارة البلاد ، لا بدافع النفور من الحضارة الغربية بل بشعور وطنى نلاحظه عند راوية هذه الأيام ، الشيخ الجبرتى الجليل الذى يخجل من ذكر اسمه بين أعضاء المجلس الذى كونه الفرنسيون من العلماء المصريين

لهذا كله لا نجد المصريين يفقدون رشدهم يوم تطرق أوروبا أبوابهم ، بل هؤلاء هم المماليك المصرلية (كما يسميهم الجبرتى) يغرقون فى الضحك حين يصلهم نبأ نزول الفرنسيين أرض مصر ، ويتندرون بالفرنج وأبطالهم وعلمائهم ، وإنهم ليؤمنون إيمانا لا يرقى اليه شك فى أن هؤلاء « الجنود الكفار كحب الفستق للكسر والأكل ولو كانوا مائة لأفنيناهم عن آخرهم »

إنهم ليأخذون أهبتهم ، بما أتقنوا من فنون الحرب ، وما مهروا فيه من ضروب الفروسية ؛ إنهم ليخفون سراعا إلى طريق الاسكندرية يتسابقون إلى الغنيمة التى بعثها الله اليهم باردة لا تكلفهم عناء ولا جهدا . ثم انظر

اليهم منقلبين على أعقابهم بعد أن قابلوا العدو فى شبراخيت ، وتأملهم مهرولين إلى القاهرة ، بهم من ألم الهزيمة شيء كثير ، إن مراداً ليدرك أن هذه القوة المقبلة ليست شيئاً يسيرا ، وإنه ليسعى جهده فى أن يتوقى القتال ، فيبعث فى طلب « كارلو روستى » قنصل البندقية ، ويقول له فى كبرياء محطم أن يعطهم قليلا من المال ، ويدعهم يذهبون ، لأنه لا يريد أن يؤذيهم .

فزع المماليك

وما هى إلا ليال حتى يكون ماخاف منه مراد ، إن الفزع ليدب إلى قلبه ؛ وإن اليأس ليطغى عليه ويشمل أصحابه ، فهذه مجامعهم تجتمع لتنفض ، وتنفض لتجتمع ، يبحثون المسألة ، ويقلبون وجوه الرأى فيها . فلا ينتهون إلى شيء ، وبينا هم فى ذلك ، إذا نبأ يبلغهم ؛ فتطير له قلوبهم شعاعا ، لقد أدرك الفرنسيون امبابه ، فلم يبق من حربهم مفر .

هنالك سارعوا — وهم أئمة الحرب فى العالم الاسلامى — إلى امبابه ، تحف بهم أعلامهم ؛ وتتصاعد الدعوات لنصرتهم من القاهريين الذين نال منهم الفزع كل منال

موقعة امبابة

هى ساعات انقضى فيها كل شيء ، دق المماليك مدافعهم فى الأرض دقا ، وانحرف الفرنسيون عنها يسيرا ، وأخلوا قلب معسكرهم فانطلقت فرسان المماليك كالسهوم المارقة ، حتى انتهت إلى ضفاف النيل ، ثم التفتوا إلى الوراء ، فاذا نار الفرنسيين تنصب عليهم حامية ، هنالك أدركوا وهم يتشهدون أن مصير الشرق الاسلامى فى الميزان

***

نحاول الآن أن نتعرف صدى هذه الهزائم فى نفوس الشرقيين ، وأن نلم بالاحساسات التى أثارها انتصار أوروبا فى نفوسهم ، لعل

ذلك أن يكون ذا أثر فى مجرى الحوادث التى سنراها على مسرح السياسة الشرقية الاسلامية .

***

فزع الشرقيين من هجوم أوروبا وأثره

تخوف الشرقيون خوفاً شديداً عقب هذه الهزائم التى ترددت فى كل مكان من سهول الهند إلى جبال البلقان . وأصابهم من ذلك فزع لا يوصف ، لم يقبلوا على الحضارة الغربية ولم يثبتوا لها ، وإنما وقفوا منها موقف العاجز الذى لا يعرف أى السبل يسلك . ومن الشواهد على ذلك موقف الأتراك إزاء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) فقد كان فى استطاعة السلطان أن يفعل شيئا لو أنه حزم أمره ، ولست أقصد أنه كان يستطيع أن يهزم نابليون ، وإنما أريد أن أقول إنه كان يستطيع أن يتصرف تصرف دولة محترمة ، ولكنه لم يفعل ، فكانت سياسته أقرب إلى العبث . احتج فى أول الأمر احتجاجاً شديداً . ثم دبر خطة حربية لم يفلح فى تنفيذها ، قرر إرسال جيشين : واحد بالبحر والثانى بالبر فيصلان إلى مصر فى وقت واحد ، ويقضيان على الفرنسيين دفعة واحدة ، ولكن جيش البر تلكأ فى الشام ، فخف اليه نابليون وقضى عليه ، وجيش البحر تلكأ بالبحر فخف اليه نابليون وهزمه فى أبى قير . . . ؛ وعلى هذا المثال تستطيع أن تقيس سياسات الدول الاسلامية فى القرن التاسع عشر

د. ظهور قوة القناصل

استولى على نفوس الشرقيين جزع شديد ، وأصبح الحكام الشرقيون يراقبون الدول وقناصلها وجالياتها فيما يأتون من أمر ، حتى كان الناس يتوسلون بالسائحين الأفرنج ، ليسعوا لهم عند الحكام ، ليردوا عنهم المظالم ، كما سعى كنجليك السائح الانجليزى ، ليرفع عن طائفة من اليهود من أهل الشام الظلم الذى كان ينزله بهم رجل عربى يدعى النبوة ويسمى نفسه النبى دمور (١)

(1) Eothen. «The Prophet Dammur».

هذا الفزع الذى استولى على الشرق الاسلامى سهل للأوروبيين مهمتهم كثيراً ، ومهد لهم بلاد الشرق فأقبلوا مطمئنين ، إذ أنه أضعف المقاومة الشرقية ، فجعل الحكام يسلمون بعد مقاومة قصيرة ، أودون مقاومة أصلا ، وجعلهم يستمعون لنصائح الأوروبيين عن خوف لا عن ثقة ، فسهل خداعهم وسهل العبث برعاياهم .

ولعلنا واجدون لهؤلاء الحكام عذراً فيما أصابهم من خوف ، إذا ذهبنا نتروى الموقف ونتامله ، فان الحضارة الغربية التى بدأت مطالعها فى أواخر القرن الثامن عشر ، لم تلبث أن انقضت على الشرق فى سرعة مفاجئة فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولم يلبث الحكام الشرقيون أن وجدوا أنفسهم محوطين بالحضارة الغربية من كل جانب ، وكان الأوروبيون قد بدأوا ينزحون إلى بلاد الشرق الاسلامى فى أوائل القرن التاسع عشر زرافات زرافات ، حتى أصبحت مدائن الشرق وثغوره تعج بالآلاف من الأجانب ، الذين سهل عليهم أن يتسلطوا على مرافق الاقتصاد من مال وتجارة ، ثم خفت حكوماتهم لتحمى مصالحهم ، وأسعدهم الحظ بنظام الامتيازات الذى فرض على الشرق الاسلامى من أيام سليمان ، فأفادوا منه خيراً كثيرا ، وأصبحوا يخفون الى الشرق فى رعاية أساطيلهم وقناصلهم وقرانينهم ، وازدادوا جرأة وازدادوا طمعاً ، وأنشأت مصالحهم تزداد ، وأعمالهم تكثر ، وأقاموا من المصانع والمتاجر الشىء الكثير واشتروا من الأرض ، وارتهنوا من العقار قدرا وفيرا ، بل تغير الأمر ، وعرف الأوروبيون فى الشرقيين هذه الرهبة وذلك الحذر ، فطفقوا يأتون من الأمر مالا يستطيعونه فى بلادهم ، ويلبسون من الحريات مالا تبيحه حكوماتهم ، وصار من السهل على الكثيرين منهم أن يخدعوا الولاة فى الأعمال ويمكروا بهم ، أو يتهموا الحكومات

هجرة الأوروبيين إلى بلاد الشرق

أوروبا تستغل تخوف الشرق منها

بأنها سببت لهم خسائر لم تكن ، فيضطر الحكام إلى بذل التعويض كرهاً أو طواعية ، حذراً من الجند والقناصل والأساطيل .

كان هـذا الفزع الذى استولى على أمم الشرق علة بالغة ، حالت دون أن ينتفع بالحضارة الغربية على وجهها الصحيح ، ذلك أن الجاليات الأجنبية ، وجدت أنه من الخير لها ، أن يبقى الحال على ماهو عليه ، فصارت تنظر بعين السخط إلى كل حركة يراد بها إيقاظ البلاد ، وصار النزلاء الأجانب بذلك أسوأ الدعاة عن المصلحين ولعلنا نذكر موقفهم عن عرابى وعداءهم له ، والحاحهم على دولهم فى القضاء عليه ، وكان من أثر ذلك أيضاً ، ان ساءت سمعة الشرقيين فى بلاد أوروبا ، لأن هؤلاء النزلاء كانوا يرون أن توفيقهم فى بلاد المشرق ، إنما يرجع إلى تفوقهم وغفلة الشرقيين ، فاذا كان فى الشرق نظام وأمان فمبعثه قيام القناصل وحدهم .

اوروبا تقف فى وجه الحركات الوطنية

أثرت هذه الفكرة أثراً بعيداً فى سياسة أوروبا نحو الشرق الاسلامى ، إذ جعلتها تنظر إليه باحتقار وعداوة ، ففيما استطارت الخصومة بين الترك واليونان ، وقفت أوروبا كلها صفاً واحداً ، ساسة وشعوباً وشعراء إلى جانب اليونان وأعلنت على الترك عداء لا يعرف هوادة ولا لينا .

وثم مسألة أخرى لا يحسن أن نغفلها فى سياق هذا الحديث ، فان هذه السرعة التى اقبلت بها الحضارة الغربيـــة ، أيقظت فى الشرق الاسلامى نشاطاً سريعاً لم يكن محمود العواقب ، فكان الاندفاع نحو الحضارة الغربية ، أضر بالشرق من الاستغراق فى النوم والجمود . شعر الحكام الشرقيون أنهم بحاجة إلى الاصلاح السريع ، فكانت السرعة سبيلهم فى كل شىء ، فاذا ساروا عدوا ، وإذا أدبوا قتلوا ، واقتضى هذا أن ينظروا إلى الغاية وحدها دون الاهتمام بالواسطة ،

الشرق ينشط نشاطاً سريعاً خطرا

فلم يكن يهم محمد على أن يقضى على المماليك هذا القضاء البشع ، مادام ذلك سيؤدى به إلى الخلاص منهم ، وليس يضير السلطان أن يرمى بالوحشية ، إذا أباد الانكشارية بالمدافع لأن الغاية هى أن يخلص منهم على أى وجه ، وليس يضير اسماعيل أن يستدين ، وأن يضع أرض البلاد فى يد المرابين الأجانب ، مادام المال الذى سيأتيه من هذا السبيل ، سيمكنه من بناء الأوبرا ، والظهور أمام لداته من الحكام ، بمظهر الحاكم الغربى .

كانوا يسرعون فى كل شىء ، كأنهم مدفوعون إلى ذلك دفعاً : يعدون فى لمحة خاطفة ماقطعته أوروبا فى قرون ، ويحفظون عن ظهر قلب ماتعلمته بالتجربة ، ولهذا مست أعمالهم السطوح دون الأعماق ، وشملت الفروع دون الأصول .

وطبيعى بعد ذلك أن تنهدم هذه الأعمال أمام الضربة الأولى ، لأنها كانت كأم درمان التى بناها المهديون ، قامت من التراب فى يوم وليلة ، وأصبحت ترابا فى يوم وليلة .

ذلك أن الشعوب كان يدفعها الملوك ، والملوك يدفعهم الفزع ، فكان السير متعثرا مضطربا ، ولم تكن السبيل التى يدفع الجميع إليها واضحة كل الوضوح ، فلم يلبثوا أن ضلوا .

جاهدت مصر ماجاهدت ، وجمعت ماجمعت أيام محمد على . جيشت الجيوش واتخذت هيئة الدول الغربية ، ولكن ذلك كله لم يغن عنها فتيلا ، حينما وقفت جنود محمد على أمام الانجليز فى الشام ، تبخر كل شىء ، ضاع جهاد أربعين سنة فى بضع ساعات ، فى خطبة ألقاها بالمرستون فى مجلس النواب البريطانى .

شعوب الشرق تفهم فكرة القومية على انها نزاع وصراع بين الاجناس

لم تكد مبادىء القومية تنتشر فى أنحاء الدولة العثمانية حتى قام بين أجناسها عداء شديد ، إذ أن الأجناس الخاضعة للدولة ، خيل إليها

أن اعتزاز المرء بقوميته يستدعى عداء القوميات الأخرى ، ومن ثم كانت المذابح المعروفة بين الأتراك والأرمن ، وبين الأتراك واليونان ، والتى ستعيد نفسها بعد قرن من الزمان بعد الحرب الكبرى ، بين الترك والعرب .

أثر الاتصال بأوروبا فى الأخلاق

وكان للاتصال المفاجىء بأوروبا أثره السىء فى الأخلاق ، حمل الفرنسيون الحرية ، ففهمها المصريون خطأ ، ومن ثم انطلقوا يعربدون ويأتون من الأمر منكرا ، ويسرفون فى هذا إسرافاً يفزع له الجبرتى ، ويشكو منه مر الشكوى ، ويعزو إليه مقدمات ثورة أغسطس سنة ١٧٩٩ .

كان اللقاء الأول بين الشرق والحضارة الغربية . شراً مستطيراً على شعوب الشرق الاسلامى ، وهزيمة ساحقة لملوكه وأمرائه ، وضربة شديدة فى صرح الوحدة الاسلامية ، زادت العلة بالرجل المريض ، ولم يعد يخفى على أحد أن الأمر خرج من يده . وان تركته أصبحت رهنا ببنيه الناشئين : لو أن له بنين . كان البنون صغاراً ، بينهم وبين الرشد سنون طوال ، ترى كيف سترعاهم الأيام .

المسألة الشرقية

١٨٠٠ ـ ١٨٤٠

« وهلت سنة ثلاثة عشر ومائتين هجرية ، وهى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الامور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الاهوال ، واختلاف الاحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الاسباب ، وما كان ربك ليهلك القرى وأهلها مصلحون ! »

الجبرتى جـ ٣

تدبر هذه الكلمات قليلا ، وقلبها على وجوهها لتفهمها على الوجه الذى اراده منها كاتبها يوم كتبها ، تجد فيها بلاغا يبينا يعجز القلم عن شرحه شرحا دقيقا وافيا ، فهذا الشيخ يفزع لمقدم عام ١٢١٣ هجرية ، كأنما كانت البلاد آمنة مطمئنة قبله لا يروعها حادث ولا يعكر صفوها معكر ، ويتخوف منه ومن أحـــداثه مع أننا نعلم أن مصر كانت قبل الاحتلال الفرنسى ، مسرحا للفوضى والانقلابات والمذابح وأنواع الظلم والاضطهاد ، وان المصريين كانوا يقاسون فى ظل المماليك الوانا من العسف والشر لاتكاد تقاس بها ماقاسوه من الفرنسيين . فما الذى أيقظ فى نفس هذا الشيخ كل هذا الخوف وما الذى أقام فى نفسه هذا التشاؤم والتطير ؟ . .

هذا هو سر بلاغة حديث هذا الشيخ الجليل ! . وهذا ماسنفصله الآن

الجبرتى يعبر عن شعور معاصريه المسلمين

لم يفهم الجبرتى الغزوَ الفرنسى على انه فتح سياسى يرمى الفرنسيون من ورائه الى اغراض بعضها اقتصادى وبعضها سياسى ، ولـكنه فهمه على أنه — أولا وقبل كل شىء — فتح دينى قام به النصارى ، عادت الى ذهنه (واذهان معاصريه معه) ذكرى الحروب الصليبية النائمة فى أذهانهم واستيقظ فى نفوسهم كل ما يضمره الشرق الوسيط للغرب الوسيط وطافت باذهانهم ذكريات الصراع الطويل بين الاسلام والنصرانية والـكره العميق بين المسلم والنصرانى ، وتصوروا أنهم وقعوا اليوم فى يد نصرانى لا يرحمهم ولا يتقى الله فيهم ، فتلقوه بنفوس ملأى بسوء الظن وسوء التقدير ، وتخوفوا منه خوفا بالغا ، ولم يجدوا فى مقدمه الا وقائع نازلة ونوازل هائلة ، وتضاعف شرور وترادف امور ، كان مسلمو هذه الأيام يرون أن ميزان الحياة لا يستقيم الا اذا كانت كـفة الاسلام هى الراجحة ، وكلمة العلماء هى العليا ، ويعتقدون أن سلطان الاتراك سيد السلاطين ورأس الملوك مهما بلغت شكواهم منه ورأيهم فيه ، فاذا انهزمت

جيوش السلطان واستباح جند النصارى أرضه فقد اختل ميزان الحياة واضطرب أمرها ، كان هذا نذيرا بكل ويل وشر ، وكان المعروف عند المسلمين انهـم أقوى عباد الله جندا وأعزهم نفرا وأكثرهم علما ، وأن الخليفة هو سيد العالمين لا ينازله أحد فى ملـكه ولا يثبت له عدو فى ميدان . كان ذلك هو ميزان الدنيا فى حسابهم ، وهؤلاء أهل الاسكندرية يسألهم « نلسن » عن الاسطول الفرنسى فيجيبه زعيمهم محمد كريم : « إن هذه أرض السلطان » ليفهم هو من نفسه أن أرض السلطان لا يجرؤ أن ينزل بها عدو أو يعد وعليها أحد اصلا ؛ أما اليوم فهؤلاء هم النصارى يجترئون على بلاد السلطان ويملكونها ويحكمونها . . وبهذا يختـل نظام الحياة فى حسابهم « يختل الزمن وينعكس المطبوع وينقلب الموضوع وتتتابع الاهوال ! »

اسباب قلق الجبرتى

أصبح المصريون المسلمون خاضعين لحا كم مرسل اليهم « من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية » لا من طرف الخليفة المسلم فى الاستانة . . وهذا هو الشر الذى لا يوازيه عسف ابراهيم أو ظلم مراد أو شرور المماليـك والأتراك كلها مجتمعة بعضها الى بعض ، ويفسر لنا الأستاذ الجليل شفيق غربال ذلك الأمر فى رسالته « الجنرال يعقوب » تفسيراً موجزاً حيث يقول « وكانت الانقـــلابات التى يعرفونها مما يصحبه الشىء الـكثير من اختلال الامن وضروب العنف والتعسف واعادة الطلب عليهم فيما أدوه من الضرائب والمغارم ، إلا أن هذه الانقلابات كلها كانت على نمط واحد ، لا يأتى واحد منها بجديد ولا يصطدم بمألوف لديهم : فمثلا يتغلب على الـكبير على خصومه ويحكم البلاد كما حكمها خصومه ، ثم يتغلب عليه ابو الذهب ويحكم كما حكم على وهكذا دواليك . . . . . أما الحـكم الفرنسى فكان انقلاباً من نوع لم يعرفه المصريون ، إذ لما زال حكم مراد وابراهيم حل محلهما بونابرت

ولم يكن مسلما ولا مملوكا ، ومهما قيل فى تدين الفرنسيين فى تلك الأيام فهم غير مسلمين ، قد تصل بهم الضرورة الحربية — أو ما ظنوه ضرورة حربية — الى انتهاك الحرمات الاسلامية (١) »

* * *

المسألة الشرقية كما فهمها المسلمون فى ذلك الزمان

لا نكاد نخطىء إذا قلنا ان هذا الشعور الذى عبر عنه الجبرتى كان يساور الشرقيين المسلمين كلهم حين انتهت اليهم أخبار هذه الهزائم التى حدثناك عنها فى الفصل السابق ، فلا غرابة أن تولاهم الفزع الشديد فلم يستطيعوا أن يصيبوا اذا فكروا أو يفلحوا اذا حاولوا ، وفهموا « المسألة الشرقية » هذا الفهم الدينى ولم يتفطنوا إلى أسبابها ومعانيها وأسرارها وماينبنى عليها ، فلم يوفقوا الى مقاومة أوروبا بل لم يعرفوا كيف يقاومونها . فكانت مقاومتهم لها عبثا لا يكترث له الأوروبيون أو يحفلوا له ، وأصبحوا لهذا — وعلى الرغم مما بذلوه من جهود للدفاع والنجاة — كتلة جامدة لا يحسب لها حساب عند ساسة الغرب وأصحاب الشأن فيه ، وأصبح مصيرهم موكولا إلى دول أوروبا .

المسألة الشرقية فى دورها الاول : نزاع بين دول أوروبا

لهذا لم تكن المسألة الشرقية فى دورها الأول ، نزاعا بين أوروبا والشرق الاسلامى ، وانما كانت نزاعا بين دول أوروبا على مصير بلاد الاسلام .

وما دام الأمر كذلك فيحسن أن تدرس هذه المسألة فى مراكز السياسة الأوروبية ، فى باريس ولندن وفينا وما إليها ، ونفهمها عن

---

(١) « الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١ » للاستاذ شفيق غربال أستاذ التاريخ الحديث بكلية الاداب بالقاهرة ، وهى رسالة ذات قيمة علمية عظيمة جدا لما تحويه من صدق النظر وصواب الاستنتاج واستقامة الحجة ووفرة المراجع ، وعلى الرغم من أنها لا تزيد على ستين صفحة الا أنها تعطى القارىء رأيا مستقلا صائبا فى الحملة الفرنسية على مصر .

ساسة الغرب ومراميهم وآرائهم من أمثال نابليون وبت ومترنيخ واسكندر الأول ومن اليهم ، حتى المسألة المصرية ونهضة محمد على نستطيع أن تكون أدق فهماً لها إذا درسناها فى لندن أو باريس ، على الرغم من أن القاهرة أصبحت فى هذه الأيام — أى النصف الأول من القرن التاسع عشر — مركزاً من مراكز السياسة العالمية يحسب له كل حساب

المؤرخون الاوروبيون واختلاف آرائهم

يبالغ المؤرخون الأوروبيون فى تقدير الأدوار التى لعبتها دولهم فى هذه الفترة ، فالفرنسيون يصورون أنفسهم يصرفون السياسة العالمية ويرسمون للدنيا سبلا جديدة من العيش ، ويزعمون أنهم كانوا يجاهدون هذه الأيام ليخلصوا بالدنيا الى فراديس الحرية والمبادىء الجديدة والعصر السعيد ، والانجليز ليسوا على هذا الرأى طبعاً، وانما هم محور سياسة الدنيا وأصحاب الكلمة الأولى والأخيرة فى تاريخ العالم حتى أيام نابليون نفسه . وكذلك الروس والنمساويون وغيرهم ، ولست تجد فى حديث أحد من مؤرخيهم كلمة واحدة تدل على أنهم يشعرون بوجود أى لون من الحياة فى الشرق الاسلامى . فمسألة تركيا نزاع بين الفرنسيين والروس والانجليز والنمساويين ، لا ناقة فيها للأتراك ولا جمل ، ومسألة مصر نزاع بين الانجليز والفرنسيين ، وهكذا يتخذ كل مؤرخ ناحية تختلف بحسب جنسيته ، فيرجح كفة دولته ويبالغ — كثيرا او قليلا — فى تقدير أثرها والدور الذى قامت به وهذا أمر يجعل دراسة الاتجاهات الدولية فى هذه الفترة معقداً شائكا وكان سبباً فى كثير من الاخطاء فى فهم اتجاهات هذا العصر على حقيقتها

تفوق فرنسا

أشرنا فى الفصل الماضى الى صعود نجم الفرنسيين فى الشرق وما وفقوا اليه من امتيازات اقتصادية وسياسية حسدتهم عليها بقية

الدول ، وقد زاد فى مقام الفرنسيين فى شرق البحر الأبيض انصراف منافستهم — انجلترا — فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى شئونها فى البحار والمستعمرات ، ووقوف بقية الدول الأوروبية من تركيا موقف العداء ، فانفرد الفرنسيون بالتقرب من السلطان وكسبوا ثقته ، وأصبحوا أرجح كفة من سواهم

فيلنيف

يقترن هذا التوفيق الفرنسى باسم المركيز فيلنيف Villeneuve وهو أول حلقة من هذه السلسلة الطويلة من السفراء الأوروبيين فى الاستانة أو القاهرة أو الشام الذين سيصبحون أصحاب الكلمة النافذة واليد العليا فى تصريف سياسة الدول الشرقية الاسلامية ؛ استطاع فيلنيف بفضل الظروف الدولية التى أشرنا اليها أن يوفق لدى السلطان توفيقاً مشكوراً ، فأصبح ناصحه الأمين فيما يعرض له من مشاكل السياسة وأحوالها ، وقد بدأ نفوذه يظهر بوضوح فى الحوادث التى أدت إلى صلح بلغراد فى أول سبتمبر سنة ١٧٣٩ الذى استردت به الدولة كثيرا من أملاكها فعاد اليها كثير من مقامها وهيبتها بين الدول الأوروبية ، ثم توسط بين تركيا والسويد فعقد بينهما صلحاً موفقاً فى يوليه سنة ١٧٤٠ فأصبح بذلك موضع ثقة السلطان وصاحب الرأى النافذ فى سياسة الدولة العثمانية ، ولم يجد السلطان — ليؤكد شكره وتقديره لفيلنيف — إلا أن يجدد الامتيازات التى كانت فرنسا قد كسبتها قبل ذلك « وبهذا أصبح الشرق امبراطورية استعمارية عظيمة لنا (أى للفرنسيين) يستورد بضائعنا ويصدر لنا بضائعه بظروف طيبة موفقة جدا وأصبحت الأماكن المقدسة فى فلسطين خاضعة لسلطان رجال الدين اللاتين (أى الفرنسيين) على الرغم من المزاعم الأورثوذكسية (أى الروسية) التى كانت ترعاها روسيا ، وأصبحت

تجديد امتيازات فرنسا فى تركيا

امتيازات سنة ١٧٤٠ — مرة أخرى — قانون الفرنسيين الذى يعيشون بمقتضاه فى بلاد الدولة(١) »

توتر العلاقات بين فرنسا وتركيا

ولكن هذا التوفيق الفرنسى لم يدم مداه طويلا ، أذ أراد الفرنسيون بعد ذلك بقليل أن يستغلوا ثقة الدولة فيهم وتقديرها لهم فأحبوا أن يدفعوا بها فى تيار السياسة الأوروبية جملة ، وسعى فيلنيف لادخال تركيا فى حرب الوراثة النمساوية ، ففطن الأتراك إلى ذلك ورفضوا دخول حرب لامصلحة لهم فيها ، فأحفظ ذلك الفرنسيين عليهم ، وبدأت العلاقات بين الدولتين تفتر ، وسترى أن السياسة الفرنسية بدأت تأخذ وجهة جديدة ليس فيها من العطف شىء كثير ، ولكن اضطراب امور فرنسا الداخلية الذى انتهى إلى ثورتها المعروفة فى نهاية هذا القرن (الثامن عشر) ثم اشتغالها بالمنافسة الانجليزية على المستعمرات صرفها عن ذلك فلم تأخذ السياسة الجديدة مظهرها الحقيقى إلا فى السنين الثلاثة الأخيرة من القرن الثامن عشر ، أى حين سكن غليان الثورة واستقرت الأمور لحكومة الادارة

نابليون ومشاريعه الشرقية

هنا ، يقف المؤرخ الفرنسى وقفة طويلة جدا ، يعدد مشاريع نابليون وخططه التى كان يرسمها لحل المسألة الشرقية . وسياسته ومراميه التى كان يرجو بلوغها ، ومحالفاته العديدة مع الروس وغيرهم لادراك هذه الغاية ، بحيث يقتنع القارىء أن فرنسا كانت محور السياسة العالمية فى الشرق والغرب فى ذلك الحين ، والحقيقة أن أثر فرنسا فى المسألة الشرقية فى هذه الفترة لم يبلغ ذلك المبلغ ، إذ أن مشاكلها فى غرب أوروبا وقلبها ، حالت دون أن يتمكن نابليون من توجيه سياسة هذه المسألة إلى الناحية التى أراد ، ولم تخرج المسألة فى أى دور من أدوارها عن أن تكون محاولات لا أكثر ، لم تؤت من اتساع الوقت والعناية

(١) دريو : المسألة الشرقية ص ٤٩

ما يسمح لهـا بأن تـكون ذات أثر فى مجرى الحوادث فى الشرق الاسلامى.

حملة نابليون على مصر.

***

ماهى الدوافع الحقيقية التى دفعت بنابليون إلى القيام بحملته المعروفة على مصر ؟ . . وهل هذه الحملة تدل دلالة صادقة على سياسة مبيتة رسمتها الحكومة الفرنسية ؟ . . وماذا كان يريد من ورائها ؟ لكى نجيب على تلك الأسئلة يحسن أن نقول إننا لانوافق كثيرين من المؤلفين الذين يذهبون إلى أن حملة نابليون على مصر كانت مغامرة حربية قام بها هذا الرجل ليشبع رغبة خيالية كانت تضطرم فى رأسه ، أو أن رجال حكومة الادارة دبروا له هذا الأمر إبعاداً له عن فرنسا ، كل هـذه الفروض والتعليلات غير مقبولة عقلا، فان تنظيم الحملة واعدادها والوثائق الخاصة بها تثبت أن الأمركان ثمرة سياسة منظمة مدبرة وانه كان يرجى من ورائها أمور عـديدة ، أكثرها تحقيق لمطامع فرنسا القديمة فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

مطامع فرنسا البعيدة فى شرق البحر الابيض المتوسط

لفرنسا فى شرق البحر الأبيض مطامع بعيـدة . موصولة من أيام الصليبيات ، وقد كان الفرنسيون أشد أمم أوروبا كفاحا فى الحروب الصليبية وأشدهم اصرارا على مواصلتها ، فلما ثبت لديهم أن الدولة الاسلامية قوية لاتؤتى فى سهولة ويسر ، كفوا عن المحاولة إلى حين ، فلما بدأت الدولة الاسلامية تضعف ، ولما استبانوا ذلك الضعف تجددت هذه الرغبات وعادت لها حدتها الأولى فنشطوا يحاولون من جديد [1] ، ولا عبرة فى هذا لما حصل من تغيير فى

(١) إلى هذا يشير الأستاذ سورل فيقول فى مقدمة الكلام عن فتح مصر :
"Un rève qui; depuis les croisades, hante les imaginations francaises " Sorel: Bonaparte et Hoche en 1796, p. 37 : أى : حلم يطوف بأذهان الفرنسيين منذ الحروب الصليبية

حكومة فرنسا وسياستها والقائمين بأمرها لأن حكومة الجمهورية لم تفعل أكثر من أن نفذت ما كانت الحكومة الملكية تريده وتحجم عنه (١) ، وتوسعت فى هذا التنفيذ لأنها وجدت فى الحروب الخارجية

---

(١) تتبع الاستاذ الجليل محمد رفعت فى كتابه القيم « تاريخ مصر السياسى فى الازمنة الحديثة » الجزء الاول ، المحاولات المتكررة التى قامت بها فرنسا لتحقيق حلمها القديم فى احتلال مصر ، واليك ايجازها :

ا) محاولة لويس التاسع (١٢٤٨ — ١٢٥٢ م) التى انتهت بهزيمته وأسره عند المنصورة وفشل الحملة

ب) تعاهد فرنسوا الاول مع سليمان القانونى سنة ١٥٣٥ الذى أكسب فرنسا فى ذلك الوقت فى أملاك الدولة مركزا ممتازا ، « . . . وتعتبر التسهيلات والاعفاءات التى نالها الفرنسيون وغيرهم بفضل هذه المعاهدة أساساً للامتيازات الأجنبية »

حـ) مشروع الفيلسوف ليبنز الذى عرضه على لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ ، وقد أهمل هذا المشروع . ولكن الحكومة الفرنسية مافتئت تعود اليه بين الحين والحين « وقد عثر تاليران ونابليون بونابرت عندما فكرا فى مشروع الحملة أثناء بحثهما فى سجلات الحكومة على مشروعات وخرائط كثيرة خاصة بالاستيلاء على مصر »

د) رحلة البارون دى توت سنة ١٧٧٧ الذى « كان مكلفاً بأن يقوم باستطلاعات حربية وباختبار حالة السواحل والقلاع الواقعة على البحر الابيض المتوسط ومعرفة أعماق الماء فى الموانى . » وسيشار إلى ذلك بعد قليل

هـ) آراء الرحالة الفرنسيين الذين كانوا لاينفكون يسهلون على دولتهم غزو مصر ، وفى مقدمتهم فلنى Volney الذى نشر رحلته سنة ١٧٨٧ فكان مما جاء فيها « أنه ليس فى المدينة (اى الاسكندرية) سوى أربع مدافع فى حالة صالحة ، وليس بين الحامية التى يبلغ عددها خمسمائة من يمكنه أن يصيب المرمى بل جميعهم من العمال العاديين الذين لايحسنون سوى التدخين » ومما قاله أيضا « إن الاستيلاء على مصر يجب أن يكون محور السياسة الفرنسية »

و) محاولة نابليون التى كانت حكومة الادارة تمهد لها الأمور منذ زمن طويل ، وحسبت حساب الاستيلاء على مصر فى معاهدة كمبو فورميو فاستولت على جزائر الأيونيان ، وقد كتب تاليران مدير الشئون الخارجية فى حكومة الادارة الى نابليون بتاريخ ٢٦ أغسطس يقول « يجب أن تكون علاقاتنا ودية مع الباشا واليونان ومقدونيا وجميع ولايات الدولة العثمانية فى الشرق ، بل مع جميع الشعوب التى تمس سواحلها البحر الأبيض المتوسط وخاصة مثل مصر التى قد تصير يوما ماذات منفعة عظيمة لفرنسا »

تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة . جـ ١ ص ٣٢ — ٣٦ الطبعة الرابعة

تثبيتا لأقدامها ورفعا لها فى عيون الشعب الذى قامت بين اعجابه وتهليله . وكانت الفترة التى قام فيها نابليون بحملته على مصر مناسبة جدا لتحقيق ذلك الحلم القديم ، كانت تركيا فى حالة من الضعف يرثى لها ، وكان ضعفها قد تجلى ولم يعد يخفى على أحد ، فأسرعت الحكومة الفرنسية بالتنفيذ ، ويسر لها الأمر وجود ذلك القائد المغامر الذى كان يتوق فى نفسه إلى بناء مجده الحربى العظيم ، فأسرع فى التنفيذ . ويظهر أنه كانت لديه تعليمات خاصة بهـــذا الفتح قبل القيام بالحملة بزمن طويل ، إذأنه قام ببضعة أعمال أثناء فتح إيطاليا تنبىء أنه يمهد لأمر ذى بال فى شرق البحر الأبيض ، فقد حرص فى معاهدة كمبو فورميو على أن يكون لفرنسا نصيب موفور من الجزائر والشواطىء ، وكتب إلى حكومة الادارة ينبئها عن الحالة البحرية فى شرق البحر الأبيض وممتلكات الدولة ، ولا شك أن سرعته فى تنفيذ مشروع مصر مردودة إلى أنه قد خبر الأمر بنفسه ورأى ببصره الثاقب سهولة الأمر وما ينطوى وراءه من توفيق عظيم

نابليون يدبر الحملة على مصر

فولنى

ولم لا نفهم شيئا من رحلة الرحالة فولنى التى قام بها سنة ١٧٨٧ ولبث أربع سنوات فى مصر والشام ، ثم عاد إلى بلاده يحدث تلاميذه بما رأى من ضعف بلاد الاسلام واضطراب أمرها وسهولة فتحها ، لقد كان هـذا الرجل فى الفترة التى قامت فيها الحملة عضواً فى المجمع الفرنسى (دخل المجمع سنة ١٧٩٥) وكان قبل ذلك أستاذاً للتاريخ فى مدرسة المعلمين بباريس ، وكان عضواً فى الجمعية العمومية والجمعية التشريعية ؛ لم لا يكون هـذا الرجل وأمثاله كثيرون قد صوروا للحكومة الناشئة الحال فى مصر والشام فعجلت حكومة الادارة بالتنفيذ انتهازاً للفرصة السانحة (١) ؟

Constantin Francois Chasseboef, (Comte de Volney

(١) ١٧٥٧ — ١٨٢٠ رحالة ومؤرخ فرنسى ، قام فى سنة ١٧٨٧ برحلته إلى مصر وقضى فيها وفى الشام

بيد أن الثابت أن حكومة فرنسا كانت تؤكد لنفسها أن هذه الحملة لن تثير من جانب السلطان هذا الغضب الذى أثارته كله ، كانت تأمل أن يرضى السلطان عنها لحربها المماليك وقضائها عليهم ، وكانت تحسب أن المصريين سيخفون اليها مهللين لما ثقل عليهم من ظلم المماليك ، ولكنهم نسوا ما أشرنا اليه من أن كل دولة اسلامية لها كيان «اسلامى» داخل الكيان السياسى ، وان هذا الكيان شديد الحساسية لا يصيبه الوهن ، فلا يكاد يمسه السوء حتى ينتبه ، لم تكن الحملة انقلابا من نوع ماألفه المصريون من كثرة الحروب والاضطراب . ولكنها مست عاطفتهم الدينية ولم تعد فى نظرهم إلا عدوان جديد للنصرانية على الاسلام فكرهوا أمرها كرهاً بالغاً ،

لنتتبع علاقات فرنسا بتركيا قبيل الحملة عسانا نكشف من أسبابها أمراً مستورا ، عرفنا أن جهود فيلنيف كادت تنتهى إلى الفشل لمحاولة فرنسا الاستفادة من ثقة فرنسا فيها، ولكن العلاقات عادت بعد قليل إلى ما كانت عليه على يد السفير Aubert Dubyet الذى كسب

أربع سنوات ثم عاد الى بلاده حيث نشر عن رحلته كتابه الذى أشرنا اليه ، ثم انتخب عضوا فى الجمعية العمومية ثم فى الجمعية التشريعية ، ثم عين أستاذا فى مدرسة المعلمين ، وكتب كتابا آخر عن علاقة الدولتين الروسية والتركية هو Con siderations sur la guerre des Turcs et de la Russie وقد أرسلته حكومة فرنسا فى رحلة سياسية سنة ١٧٩٥ الى الولايات المتحدة لبحث مسألة لويزيانا فلم يخف على حكومة الجمهورية أمره وقبضت عليه ولعل الرجل لم يكن مكلفا رسمياً من الحكومة بالقيام برحلته الى مصر ولكنه صور الحال لحكومة الادارة وسهل لها الامر ، ونلاحظ من منشورات الحملة الفرنسية وتصرفاتها ان القائمين بامرها كانت لديهم فكرة واضحة جدا عن البلاد قبل أن ينزلوا بها . ولا يبعد أن يكون ذلك من عمل فولنى وغيره من الرحالة والتجار

وقد جاء فى كتابه المسمى : —

Les ruines, ou meditations sur les revolutions des émpires « من مصر نستطيع الوصول الى الهند ، ونعبر طريق السويس ونستطيع أن نترك طريق الرجاء الصالح » وقد صدر كتابه هذا قبل قيام الحملة على مصر بسنوات قلائل

صداقة السلطان وحسن ظنه ، واستطاع أن يؤكد امتيازات فرنسا التى كانت كسبتها سنة ١٧٤٠ ، وهذا نصر اقتصادى حاسم لا شك فيه يؤكد ما ذهبنا اليه من مطامع فرنسا فى شرق البحر الأبيض فى ذلك الزمان .

فرنسا تسعى لتصلح الدولة العثمانية

فاذا تم لفرنسا ذلك واطمأنت إلى أنها صاحبة الكلمة العليا فى الاستانة ، فقد بدأت تعمل على تقوية الدولة العثمانية من الناحية الحربية ، لتقوى على صد الروس ؛ وكان دوباييه رجلا فرنسياً بارعاً استطاع أن يكسب حب السلطان وتقديره . واستطاع أن يقنعه بضرورة الاصلاح ، فاستمع اليه وطلب منه أن يمده بالمهندسين والمدافع ثم كلفه بتنظيم الجيش التركى نظاما جديداً .

بدأ الاصلاح فى تركيا : الجيش

هكذا تكون نقطة البدء فى الاصلاح هى الجيش ، فى تركيا ثم فى مصر وسنرى خطأ ذلك بعد قليل، استطاع دوباييه أن يعد للسلطان ثمانمائة مدفعى وفرقة من الفرسان وفرقة من المشاة منظمين على أحدث الأساليب ، وفعلا سمى هذا الجيش الجديد الصغير : النظام الجديد

ولكن حكومة الادارة لم يكن لديها من الصبر ما يمكنها من الانتظار لقطاف الثمر بعد حين طويل (١) ، فما كاد نابليون ينتصر فى الحملة الايطالية ويوقع اتفاق كامبو فورميو حتى خطر له أن هناك سبيلا أخرى لانفاذ ما ترمى اليه فرنسا ، سبيل سريع لا يكلفها إلا جيش صغير يضرب ضربة حاسمة فى مصر ، فتفهم تركيا ويرتد شر انجلترا ويذهل الروس وتتبدد السحب ، ولم يكد يخاطب رجال الحكومة فى الأمر حتى توافقوا فى الثناء اليه وهلل تاليران للفكرة وصفق لها ، ومن هنا بدأ

التفكير فى انفاذ الحملة

الاستعداد لها

الاستعداد للحملة ، استعداد خارجي واستعداد داخلي، أما الاستعداد الخارجي فارسال الرسل الى اليونان يحرضونهم على الثورة ، يؤكدون لليونان أنهم « سلائل الاسبرطيين . الشعب اليونانى الوحيد الذى

(١) اذ كانت ترمى من وراء محاولاتها لاصلاح الدولة الى السيطرة عليها جملة ، وكان سفراؤها يمهدون لذلك على مهل .

حافظ على حريته » ، ومخاطبة نابليون لعلى باشا والى يانينا بقوله «أيها الصديق المبجل » وارساله اليه أحد ضباط أركان حربه للتفاهم معه ، ثم العناية بالاستيلاء على ساحل دلماشيا وجزائر البحر الادرياتيكى ..
كل هذه مقدمات للحملة على مصر . كانت فرنسا تدبر — ولا شك — أمراً خطيراً ولكن الظروف وحدها ومعارضة الدول ضيقت حدود البرنامج الفرنسى الى هذه الحملة التى لا تعد أكثر من فشل من الناحية السياسية.

الاستعداد للحملة

فاذا تم هذا كله فقد تمت معه المعدات فى داخل فرنسا بهذه الحملة المصرية ، وأعد لها الجنود والعلماء والآلات ، ووضع لها برنامج عظيم لا يدل إلا على أن الذين رسموا للحملة نظامها أرادوا بها أن تكون فتحاً واستقراراً واستعماراً «ومما يدل على أن فرنسا كانت تريد تأسيس مستعمرة فرنسية بمصر ما أرسلته مع الحملة من علماء وصناع وعدد وآلات ومطابع ومترجمين(١) »

كذلك لا نزاع فى أن الفرنسيين استبانوا أهمية مصر للتجارة الهندية ، قال تاليران فى خطابه الى نابليون فى ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٧ « ان مصر كطريق تجارى ستعطينا تجارة الهند ، لأن المعول فى التجارة على الوقت ، وبالاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول رأس الرجاء الصالح» وكان الصراع على المستعمرات على أشده بين انجلترا وفرنسا فى ذلك الوقت ، وكانت الأخيرة قد فقدت مستعمراتها فى الحروب مع انجلترا ، ففكرت فى الاستيلاء على مصر لتستطيع ضرب انجلترا فى الهند ضربة قاضية ، اما بالمتاجرة معها كما رأيت من كتاب تاليران واما بالاتصال بامرائها الوطنيين ودفعهم الى الثورة على الانجليز ومدهم بما عسى أن يحتاجون اليه من آلات حديثة وتنظيم .

(١) الاستاذ محمد رفعت ـ تاريخ مصر السياسى ج ١ ص ٣٨

موقف انجلترا

وكانت انجلترا فى هـذه الأيام ترقب بعين القلق تطور فرنسا وازدياد قوتهـا ، وكانت تخشى أن تثب فرنسا أو الروسيا على الدولة العثمانية فيبتلعانها لأن هـذا يخل بالتوازن الدولى ويجعل لاحدى الدولتين قوة خطرة فى أوروبا ، فكانت تهتم فى هذه الأيام اهتماما خاصا بشئون القارة أى بشئون أوروبا ، لما لها — أى لانجلترا — من المصالح التجارية العظيمة مع دولها . فكانت تحرص الحرص كله على أن تبقى الدولة العثمانية على ماهى عليه ، لايهدد سلامتها عدو ولا يفوز بأرضها منافس ، لهذا ستكون سياسة انجلترا أزاء الدولة العثمانية هى المحافظة عليها من كل خطر يتهدد كيانها ، خارجى كالروسيا أو داخلى كالثائرين من أمثال محمد على وسنعود إلى هذا الأمر بالتفصيل بعد قليل

* * *

الحملة الفرنسية من الناحية الحربية

كان الفتح الفرنسى لمصر كفتح الاسكندر للشرق سواء بسواء ، كان خطوة بالحضارة إلى الأمام لانصراً من انتصار الميادين ، فان وقائع شبراخيت والأهرام وأبى قير وحروب الصعيد وهذا الصراع الطويل الذى استحر بين الفرنسيين والمماليك لايكاد يعـد نصراً للأول ولا يستحق أن نقف عنده طويلا ، فهذه جنود أوروبية منظمة على أحدث الأساليب يقودها نابغة من توابغ الحروب . تلقى شراذم من الفرسان لانظام لها فليس بغريب أن تنتصر الأولى على الثانية ، بل لعل تفاصيل الصراع أن تقلل من جمال « اللوحة » التى يتأنق فى رسمها الفرنسيون عندما يتحدثون عن هذه الفترة من تاريخهم.

دفاع المماليك

فقد دافع المماليك دفاعا مجيدا وثبتوا ثباتا جليلا ، وحاربوا عن أرض مصر شبرا شبرا ، وناجزوا الفرنسيين فى أقاصى الصعيد طويلا ، وخف لعونهم مسلمو الحجاز وعبروا اليهم البحر الأحمر وثبتوا معهم ثباتا طيبا ، بل ثبتوا لنابليون نفسه وحاربوه حربا شديدة استحقوا بها

إعجابه فقال انهم فرسان يخشى بأسهم redoutable ! بل انهم كادوا يظفرون به فى رمال الصالحية فى الوجه البحرى ، لولا أن أنقذه رجاله فنجا من الهلاك المحقق ، كل هذا الجانب الحربى يسير لا يستأهل الفخر ولا الذكر وإنما المجيد حقا هو هذا الجهد العلمى العظيم الذى بذله الفرنسيون فى مصر على رغم ماشغلهم من أحداث السياسة وما أحاط بهم من مخاطر الأعداء

الحملة الفرنسية من الناحية العلمية

كان جيش نابليون جيشين فى واقع الأمر ، أحدهما جيش المحاربين والآخر جيش العلماء . . فأما الجيش الأول فقد انصرف من أول الأمر إلى هذا الصراع الطويل الذى لم ينته إلى شىء ، إذ ظلت القوى الحربية التى أنفقوا جهدهم فى قهرها على حالها تقريباً لم تخضد شوكتها إلى حد محسوس ، ظل المماليك يتحينون الفرص فى دنقلة بل تقدموا فى الصعيد واستقر بعضهم فى الجيزة والبحيرة ولبث الأتراك يحومون حول البلاد حتى جلاء الفرنسيين ، وظل الانجليز مسيطرين على مصير الحملة ورجالها بهذا الحصر البحرى الذى أحكموا حلقاته من سواحل الاسكندرية الى سواحل الشام

وأما الثانى فجيش العلماء والبحاثين ، ماكادت الحملة يستقر بها المقام حتى بدأت العمل فى جد ونشاط وحتى تناولت مصر كلها بدراساتها وأبحاثها فوفقت فى الميادين التى تناولتها توفيقاً محموداً مشكوراً .

أنشأ الفرنسيون معهد القاهرة Jnstitut du Caire. وتولى العمل فيه طائفة من أقدر العلماء من أمثال مونج وبرتوليه وفوربيه وجوفرى سانتهيلير وكونتيه ، وبدأوا يعملون لاحياء مصر من جديد كما يقول الأستاذ دريو . فاستوقفت أنظارهم آثار مصر القائمة فى نواحيها والتى تتحدث عن ماضيها ، فبدأوا ينصرفون الى دراسة هذه الآثار ووصفها ورسمها والاعجاب بها ، وتشاء الفرصة المواتية أن يعثر

أحد ضباط الحملة الفرنسية على ذلك الحجر الشهير الذى أزاح الستار عن ماضى مصر البعيد ، أقصد حجر رشيد الذى نقل الى لندن حتى قيض الله له العالم الفرنسى شمبوليون الذى أكب عليه يدرسه بحماس يقرب من الجنون ، حتى انتهى بعد جهاد عظيم لايخلو من روعة الى أن يحل رموز الكتابة الهيروغليفية سنة ١٨٢٢ ، فبدأ بذلك عصر جديد لمصر ، وانفتح ميدان واسع للعلم ، فكان هذا الكشف فى حسابنا نحن المصريين أجل نتائج الحملة الفرنسية وأبعدها أثراً إذ أنار للعالم ناحية أطبق عليها الظلام وسادها السكون وأخرج الى النور فقرة مفقودة كان لابد من العثور عليها حتى تستقيم سيرة الحضارة متصلة الحلقات ، موصولة الفقرات ، وأنار لمصر سبيلها فعرفت نفسها ومقامها بين أمم التاريخ فلم يخطىء دريو على ذلك حين قال إن هؤلاء العلماء « أحيوا مصر من جديد »

حجر رشيد

وبدأ كونتيه من ناحية أخرى ينشىء المصانع ويغرس فى ثرى مصر هذه البذور التى كانت أولى معالم العصر الحديث ، وعنى بالزراعة فأخذ يذيع أبحاثه فى الحاصلات وتجاربه فى الزراعة كيما يعود الى البلد رخاؤه الذى انصرف عنه من يوم أسدل الستار على ماضيه البعيد

كونتيه وجهوده فى الزراعة

ودرس المهندسون وسائل الاصلاح فاعادوا الى الوجود مشروع قناة تصل النيل بالبحر الأحمر وأنفقوا جهدا مشكوراً فى دراسة مشروع قناة السويس ، وكان هذا الأمر الأخير من الأعمال التى كلفت بها الحملة رسميا ، ومسحوا الأرض وأنشأوا يعيدون تنظيم القاهرة وتنظيفها عما تراكم عليها طوال العصور الوسطى . . وبدءوا يدخلون اصلاحات صحية ويضطرون الناس الى الأخذ بأساليب غير مألوفة لديهم ، فحرموا الدفن فى البيوت والمنازل وأرغموا الناس على كنس الشوارع ورشها واضاءتها ليلا .

المشاريع الهندسية

تنظيم القاهرة

كتاب وصف مصر

وكانت خلاصة أعمال هؤلاء العلماء ذلك الكتاب الضخم الجليل الذى كتبوه حين عادوا إلى بلادهم ، ودرسوا فيــه مصر دراسة وافية كاملة ، وأثبتوا فى أجزائه العديدة خلاصة جهودهم التى أنفقوها طوال أقامتهم بمصر لاعادة الحياة إلى وادى النيل ، وأقصد بذلك كتاب وصف مصر Description d'Egypte

كانت هذه الاصلاحات ايذانا ببدأ عصر جديد لمصر والمصريين، نعم انهم لم يأخذوا بها ولم يعجبوا بها ، وانما وقفوا منها موقف العدو الكاره وأقدموا عليها اقدام المرغم المضطر ، ولكنها كانت — كما سنرى — حجر الأساس الذى سيبنى عليه صرح النهضة المصرية

***

انجلترا والحملة الفرنسية على مصر

قلنا ان الانجليز حينما نمى اليهم أن الفرنسيين يعدون فى الخفاء أمراً جللا ، وانهم يعدون الأساطيل والجنود والعلماء لحملة ذات بال ، أسرعوا فأرسلوا قائدهم المعروف نلسون ليقف على حقيقة الأمر وليحبط مساعى الفرنسيين أياً كانت ، وصل نلسن الى البحر الأبيض ومر بالاسكندرية قبل وصول حملة نابليون ثم مضى الى الشام ، ولم يكد يولى مصر ظهره حتى أقبــل الفرنسيون ونزلوا أرض مصر ، ووضعوا أسطولهم فى أبى قير ثم بدأوا يغزون البلاد ، كان نلسن لا يدرى أين يريد الفرنسيون ، وكان بحثه عنهم صورة لطيفة جداً من النزاع بين الانجليز والفرنسيين فى هذه الأيام ، بحث عنهم فى صقلية وفى المورة وفى كريت . وأخيراً عثر عليهم فى أول أغسطس سنة ١٧٨٩ وهنـاك أنزل بهم هزيمة ساحقة ، تحطم فيها الأسطول الفرنسى تماماً ومات قائداه برويز ودوبتى ثوار واستطاع فيلنيف

واقعة النيل البحرية

المعروف أن ينجو بسفينتين . . وتلاشت معها آمال الفرنسيين التى كانوا يعلقونها على هذه الحملة ، وأصبح موقفهم فى مصر من اليوم

أشبه بالأسير الذى يجاهد حتى لا يجمع على نفسه عار الأسر وشنار التسليم المخجل

تركيا والحملة الفرنسية على مصر

أقفل البـاب على الفرنسيين فى مصر ، وتنفست تركيا الصعداء وتأكدت أن « بضاعتها مردودة اليها » واستراح الانجليز إلى القضاء على هذه الحملة التى كانوا يخشونها كثيرا ، وانقلب الفرنسيون الى مصر وقد وطنوا العزم على اتخاذها وطناً ، وبدأت سياستهم نحو المصريين تتغير ، ومن هنـــا بدأوا يوطدون أقدامهم باكمال الفتح من جهة وبالاصلاح واستقلال البلاد من جهة أخرى ، وهذا هو أصل كل المشاريع التى نفذها الفرنسيون من مجمع علمى الى دواوين للحكم أو اصلاح أو تجديد : سياسة تمهيد الى الاستقرار ، أملاها اليأس من الاتصال ببلدهم فرنسا بعد تحطم الأسطول ووقوف الانجليز فى البحر بالمرصاد

نشـط السلطان بعض النشاط ، وقد ضرب له الانجليز الضربة الحاسمة وبقى عليه أن يجهز على الفرنسيين ، وقد كان هذا الاجهاز أمراً ميسورا لو أن القائمين بأمره لم يكونوا هم رجال الدولة العثمانية فى ذلك الحين . دبروا حملتين : احداهما بحرية والأخرى برية تلتقيان فى مصر وتقضيان على الفرنسيين دفعة واحدة .

حملة الشام

ولـكن نابليون لم يمهل الأتراك حتى ينفذوا هذه الخطة ، إذ فضل ــ كما هى عادته ــ الهجوم على الدفاع ، نخف الى الشام بجيشه فى خريف ١٧٩٩ ، وكان السلطان قد أمر واليه على الشام أن يهاجم الفرنسيين فى مصر . سار نابليون فى البلاد سيراً هيناً ، يشبه الى حد كبير مسيره فى مصر ، استولى على العريش وغزة ويافا ، وشتت الجيش التركى البرى الذى أقبل لملاقاته فى موقعتين إحداهما فى دمشق والثانية فى طبرية ، وكان قد أرسل مدافع الحصار بطريق البحر لتوافيه فى الشام فلم يُفَـوِّتْ الانجليز هذه الفرصة ، وكانوا قد أقاموا فى البحر الأبيض

سيدنى سميث

أميرالايا جديداً هو السير سيدنى سمث ، فاستولوا على مدافع الحصار

نابليون أمام عكا

حاول نابليون أن يستولى على عكا ، وهى حصن قوى منيع يقع على طرف لسان من الأرض ممتد فى البحر ، فلم يكن فى استطاعة نابليون الوصول اليها عن طريق البر لوقوف الانجليز فى البحر ، ثم ان الجزار باشا والى المدينة كان يعينه فى صد الحصار مهندس فرنسى آخر ، من الأشراف المهاجرين ، اسمه فيليبو استطاع أن يقوى الحصون ويمنعها من نابليون . وأخيراً .. عاد نابليون الى مصر ، يائساً كل اليأس من الاستيلاء على الشام وآسيا الصغرى . عاد ليجد جيش الأتراك الثانى قد وصل بسلامة الله الى مصر ، وأنزل جنوده على شاطىء أبو قير فلم يكن أسهل عليه من هزيمتهم والقضاء عليهم . عند أبو قير

موقعة أبو قير البرية

اطمأن الانجليز إذن إلى أن الفرنسيين قــد حصروا فى مصر وألا خطر جديد يخشى منهم ، فبدأوا يدبرون أمراً آخر لاخراجهم من مصر جملة .

الحالة السياسية فى أوروبا

كانت الأحوال قد تعقدت فى أوروبا ، وتألبت الدول على فرنسا واستولت على ممتلكاتها وهددت بلادها ، وتطلب الأمر قائداً ماهراً ليرد عادية المتألبين ، وعلم نابليون بذلك فدبر هروبه من مصر وترك مقاليدها بيد كليبر وبارح الأسكندرية فى ٢٢ أغسطس ١٧٨٩ ليحدث إنقلاب برومير ويصبح القنصل الأول .

رحيل نابليون الى فرنسا

كليبر يبدأ المفاوضات اتفاق العريش

بدأ كليبر يتفاهم مع الانجليز والأتراك ليصل معهم إلى حل معقول للمسألة وتشدد الانجليز بادىء الرأى ، ولكنهم ، بعد مفاوضات عديدة دارت على سفينة السير سدنى سميث ، انتهوا الى ابرام اتفاق العريش فى ٢٤ ينـاير سنة ١٨٠٠ الذى يقضى بأن تنقل الجنود الفرنسية إلى فرنسا على سفن انجليزية

ولكن رجال السياسة فى انجلترا لم ينظروا الى الاعتبارات الكثيرة

التى عرضها سدنى سميث ، فلما وصلهم الاتفاق بعـــد وضعه بقليل ليبدوا رأيهم فيـه وليأذنوا للسير سميث فى تنفيذه ، رفضوا قبوله وأرسلوا إلى سميث يقولون إنهم لا يرضون إلا أن يُسلَّم الجنود الفرنسيون كأسرى حرب .

محاولات فرنسا لاسترجاع جنودها

وكانت الحكومة الفرنسية قد تأكدت أن الحمـــلة المصرية قد فشلت تماما ، وأخذت تدبر الوسائل لاسترجاع جنودها من مصر لانقاذهم من أسرهم الطويل ، وللاستفادة منهم فى حروبها الكثيرة فى أوروبا . فكتبت فى مايو سنة ١٧٩٩ الى نابليون تصف له سوء الحال وتستقدمه وجنوده الى أوروبا ، بل شرعت تأخذ الأهبة لاعادة هؤلاء الجنود فكلفت الاميرال بروى Bruix بأن يخرج من ميناء برست ومعه ٢٥ سفينة ويشترك مع الأسطول الاسبانى ويخترق البحر الأبيض المتوسط ويصل الى الاسكندرية ، ولكن هذه الخطة فشلت لرفض الأسطول الاسبانى التعاون مع الفرنسيين على الانجليز .

سأم الجنود الفرنسيين من مصر

وكان الجنود أنفسهم قد سئموا المقام بمصر ولج بهم الشوق الى بلادهم ، فأخذوا يكتبون الخطابات الى ذويهم فى فرنسا يبسطون لهم سوء حالهم ويستصرخونهم سرعة العمل لانقاذهم ، ولم يقـــدر لهذه الخطابات أن تصل الى فرنسا لأن الأسطول الانجليزى استولى عليها فنشرتها الحكومة الانجليزية فى كتاب خاص ؛ وبدأ الشقاق يدب بين القادة — بعد سفر نابليون — ومال بعضهم ميلا ظاهراً لمبارحة مصر والعودة الى فرنسا ، وعلى رأس هؤلاء كليبر الذى أسخطه هروب نابليون فكتب الى حكومة الادارة يشكوه اليها ويبسط اخطاءه ويرجوها أن تنظر فى أمره ، ومال بعضهم الآخر إلى البقاء حرصاً على مصلحة فرنسا السياسية والتجارية الآجلة ، وتطرق هذا النزاع الى الجنود ، وشابته نزعات شخصية فلم يعتم الجيش كله أن ضج بالشقاق

والمحاكمات العسكرية والعقوبات ، مما هبط بالروح المعنوية هبوطاً شديدا ، وزاد الأمر حرجا انسحاب الجيش الفرنسى من الصعيد بعد أن أخلاه ديزيه قبيل موقعة أبو قير البحرية ، فتقدم المماليك وأخذوا يرفعون رأسهم من جديد ويهددون البلاد تهديدا شديدا ، فبدأ الأهالى يضجون بالشكوى بل شكوا فى قوة الفرنسيين الذين ضعف سلطانهم على البلاد ضعفا ظاهرا ، وفاضت نفوسهم بالثورة وباتوا يتربصون فى انتظار الفرصة المواتية ، وبلغ بهم السخط أن ثاروا بشيوخهم ورموهم بالخيانة والتعاون مع الفرنسيين

انسحاب الجيش الفرنسى من الصعيد

فى هذه الأثناء كان كليبر قد اطمأن الى أنه مغادر مصر بسلام ، فأخذ يعد المعدات للرحيل ، وسمح للأتراك بأن يعبروا حدود مصر وأن يصلوا الى قرب القاهرة ، وتسامع المصريون بقرب الأتراك ففرحوا فرحاً بالغاً .. ورحبوا بهم ترحيباً طيباً ، لا لأنهم الأتراك .. بل لأنهم المسلمون يخلصونهم من النصارى

الفرنسيون يستعدون للرحيل

فلما وصل رد الحكومة البريطانية الى السير سدنى سميث ، وبلغه الى كليبر ، أبى هذا اباء شريفا أن يسلم تسليم أسير ، وقال انه «لايجيب على هذه الاهانة إلا بالانتصار» وكان الأتراك يومئذ فى عين شمس فسار اليهم وانتصر عليهم انتصارا حاسما فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ وفر من نجا منهم الى الشام . وصمم الفرنسيون مرة أخرى على البقاء فى مصر الى النهاية ، وبدأ كليبر يتفاهم مع المماليك وصالح مراد بك وأخذ ينظم حكومة مصر تنظيما دقيقا ، ولكنه فوجىء وهو فى حديقة داره بطعنات سليمان الحلبى الذى قتله فى ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠

رفض الحكومة الانجليزية

موقعة عين شمس

خلفه مينو ولم يكن على شاكلة سابقية (١) فبدأ يتفاهم مع الانجليز والأتراك على الخروج من مصر ، ورضى الانجليز بأن ينقل الفرنسيون

مينو

(١) كانت صلته بكثير من ذوى السلطان فى الحكومة هى السبب فى وصوله الى درجة الجنرالية وكان زملاؤه يعرفون ذلك ويكرهون الخضوع لرجل ليس له ماض حربى او انتصارات سابقة ،

إلى بلادهم . أما السبب الذى حدا بالانجليز إلى قبول ذلك وكان فى استطاعتهم أن يستمروا على حصارهم للفرنسيين فهو ان الحرب بينهم وبين نابليون كانت قد قاربت الانتهاء ، وبدأت طلائع صلح أميان تبدو ، وخافوا أن تبدأ المفاوضات والفرنسيون فى مصر فيكونوا مخيرين بين أحد أمرين : إما ابقاؤهم فى مصر والاعتراف بحكمهم فيها ، وإما اخراجهم منها وتعويضهم بجزء من الأرض فى أوربا أو فيما وراء البحار ، فآثر الانجليز أن يخلصوا من هذه الورطة وعجلوا بنقل الفرنسيين ، وكانت السياسة الانجليزية قد بدأت تتبدل من العداء الشديد إلى التفاهم ، إذ سقطت وزارة بت وجاءت وزارة أدنجتون فبدأ التفاهم ، والتمهيد لصلح اميان ، وأسرع فى العمل ثم اخراج الفرنسيين من مصر بالقوة ، إذ سلم بليار القاهرة فى ٢٦ يونية سنة ١٨٠١ ، وسلم مينو فى ٣٠ ديسمبر من السنة نفسها

خروج الفرنسيين من مصر

هكذا انتهت هذه الحملة التى لم تنتج شيئاً فى عالم الفتوح والتى يبدأ بها تاريخ المسألة المصرية وفى التاريخ (٢) وسنعرض الآن لأهم آثارها وأبقاها ، وهو الروح القومى والنهضة المصرية ، وقد عرضنا قبل ذلك إلى آثارها فى الحضارة والعمران ، بقى أن نشير إلى أنها نبهت السياسة الأوروبية إلى مصر ، ولفتت الأذهان إلى ضعفها وسهولة الاستيلاء

فأخذوا يحتقرونه واحس منهم ذلك فبدأ يخاصمهم ويضطهد كثيرا منهم بل باعدهم وخاصمهم وكان لهذا أثره السيء فيما اصاب الحملة فى أواخر أيامها .

(٢) أما من الوجهة السياسية الدولية فانه منذ ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ وهو اليوم الذى خرجت فيه الحملة الفرنسية من ميناء طولون قاصدة مصر ، ولدت المسألة المصرية وأخذت صبغتها السياسية فورا : لأنه إذا كان الاستحواذ على الهند مغنما اقتصاديا هاما . فان الاستيلاء على مصر بعد ان استقر بأرضها نابليون بمثل تلك السهولة أصبح من المسائل السياسية الدولية الأولى التى ما فتئت تشغل بال الدول إلى الآن . ففرنسا وحدها هى الأولى التى اخترقت بصدق نظرها الحجب السميكة التى أخفت مركز مصر عن انظار الدول فى ذلك الوقت »

الأستاذ محمد رفعت فى تاريخ مصر السياسى ج ١ ص ٨١

عليها ، وانها نبهت الانجليز إلى ضرورة الاهتمام الشديد بشئون شرق البحر الأبيض وحراسته ، ومن ذلك اليوم يبدأ الانجليز يتقربون من البـاب العالى لمنافسة الفرنسيين السائدين هناك ، فلما اقتربوا ونظروا الأمر عن قرب لمحوا عدوا آخر يتربص ، واستبانوا أنه أشد خطرا من الفرنسيين : عدوا كان يخيفهم فى أواسط الشرق وأقاصيه ، فخفوا اليه سراعا ، وأعدوا العدة لمكافحة والحدمن خطره وحماية الدولة العثمانية المسكينة منه ، ذلك هو الدب الروسى . .

آثار الحملة

هذه الحملة كانت بعيدة الأثر فى مستقبل مصر السياسى والاجتماعى حتى ليعسر حصر كل نتائجها حصرا تاما ، ونكاد نحن نحس هذه الآثار باقية إلى اليوم على رغم بعد الشقة وتقادم العهد .

بدا عهد جديد لمصر

بدأت هذه الحملة عصرا جديدا لمصر والمصريين ، وليس هذا لأن المصريين استيقظوا على ضجيجها وفهموا مبادئها وأقبلوا عليها ، وليس لأن أفكار الحرية والمساواة استقرت فى أفهامهم وأخذوا يؤمنون بها ، بل ليس ذلك لأن الفرنسيين كشفوا الستر عن تاريخ مصر القديم ومجدها الذاهب فاستيقظت فى المصريين آمالهم ، لم يحدث شىء من هذا كله أثناء الحملة ولا بعدها بعشرين أو ثلاثين سنة ، اذ لم تكن الأفكار قد نضجت بعد لتلقى هذه الآراء الحديثة ، وكانت سحب الجهل قاتمة جدا لا تخترقها أشعة النور التى كان يحملها الفرنسيون ، بل كان لا يخطر على بال المصرى العادى انه صاحب حق فى إدارة شئون البلاد والتصرف فيما يهمه من الأمور ، ولم تكن تربطه بأرض مصر صلة ولا تحفزه إلى حبها عاطفة : كل هذا لم يكن آن أوانه ، وكل الذى حدث هو تهيؤ الظروف لنشوئه وقيامه بعد زمن طويل (١)

(١) ولا ينافى هذا وجود نفر قليل من الذين كانوا يحسون بعاطفة صحيحة نحو البلاد وأهلها كما سنرى ، وانما نتكلم الآن عن عامة الناس .

كسر شوكة المماليك

أما هذه الظروف المواتية فأهمها كسر شوكة المماليك واضعافهم بهذه الضربات المتتالية التى لن يعود أمرهم بعدها الى ما كان عليه فى سابق الأيام ، كان المماليك قبل ذلك سوطا يلهب ظهور أهل البلاد ، وكان هذا الخوف من المماليك وطول الخضوع لهم قد ذهب بالكثير من شعور المصريين بأنفسهم ووقف بهم عن أى تقدم معنوى أو انتاج فكرى ، فلما هزم المماليك وأخلوا البلاد أمام الفرنسيين وأحس المصريون أنهم نجوا من شرهم ، تنفسوا الصعداء وشعروا بالحرية وبدأوا يثقون فى أنفسهم ، وسنلاحظ فى سياق حديثنا أنهم ينهضون عقب ذلك نهوضا سريعا ، يكون مظهره الجرأة على المماليك والأتراك ، والمطالبة بأن تكون لهم « ارادة » مسموعة مطاعة ينزل عندها المماليك والأتراك ، ولا شك أن الثورة المقبلة — التى ستكون نتيجتها ولاية محمد على — هى مظهر من مظاهر هذه الجرأة والشعور بالنفس الذى كان نتيجة طبيعية جدا لما أصاب قوة المماليك من تدهور وانهزام على يد الفرنسيين

أثر الحملة فى مستقبل الفكر والعلم فى مصر

وكان للجهود التى بذلها العلماء الفرنسيون أبعد الأثر فى مستقبل مصر الثقافى والفكرى ، إذ أصبحت مصر شديدة الاتصال بفرنسا والتأثر بها فى هذين الميدانين ، سيتوجه اليها محمد على ببعثاته ومطالبه من العلماء الاختصاصيين الذين يريدهم ، وستزداد هذه الصلة على مر الأيام حتى يزول كل أثر للعداء بين فرنسا ومصر ، ويحل محل ذلك وئام وصلح وعلاقة هى أشبه بعلاقة التلميذ للأستاذ ، بل ستُتَّهم مصر فى كل مناسبة بالميل لفرنسا والعمل لمصلحتها ، وسيشقى محمد على بذلك كثيراً

العلاقة بين فرنسا ومصر بعد الحملة

إذ لا زال بالمرستون يرميه بأنه صنيعة الفرنسيين والعوبة فى أيديهم ويعارضه فى كل مشاريعه لأنه — أى بالمرستون — يعتقد أنه بذلك يقاوم فرنسا نفسها ، ولو أن فرنسا استمرت على حالها من القوة

أثناء القرن التاسع عشر لأفادت مصر كثيراً من صداقة فرنسا ورعايتها ولكن هــذه الأخيرة كانت شديدة الاضطراب حافلة بالمصاعب والنكبات بل هبطت أسهمها هبوطاً شديدا بعد سقوط نابليون ، وليت فرنسا كانت ترعى هذه العاطفة حق الرعاية وتتفطن إلى ماوراء هذا المركز الممتاز فى مصر من كسب عظيم ، ولكنها لم تتأخر فى أى لحظة من اللحظات عن أن تهوى بيدها على رأس مصر مع الأعداء بل قبل الأعداء ، ولو أنها وقفت الى جانب مصر مرة واحدة فقط : سنة ١٨٤٠ مثلا أو أثناء مشاكل ديون اسماعيل لكان لها من ذلك كل خير ، ولكنها لم تثبت على سياسة واحده ازاء هــذا البلد الذى كان يختصها بالحب ويواليها بالتقدير والاحترام والاكبار

سياسة فرنسا نحو مصر

الثقافة الفرنسية فى مصر

أصبحت مصر ميداناً خصباً للثقافة الفرنسية والعلم الفرنسى ، وأصبح الأدب الفرنسى أحب ألوان الآداب إلى المصريين وأقربها إلى نفوسهم ، وأصبح الفلاسفة الفرنسيون أئمة الفلسفة والفكر عند زعماء النهضة والثقافة فى مصر ، وقد بلغ من عمق هذا الأثر أن الانجليز لم يفلحوا فى محاربته والقضاء عليه على الرغم مما بذلوا من جهود منذ احتلالهم لمصر (أى بعد ذلك بنحو ثمانين سنة) فقد فرضوا اللغة الانجليزية فى المدارس وحاولوا أن يجعلوا من مصر هندا أخرى ، فلم ينتج ذلك إلا أثر قليل ، إذ عادت الثقافة الفرنسية فاحتلت مكانها وغلبت على غيرها ، وهؤلاء أئمة الفكر فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين تغلب أكثرهم الثقافة الفرنسية واللاتينية . ولعل أهم هــذه الآثار الثقافية هو القانون الفرنسى ، الذى وُسِم القانون المصرى على غراره بل نُقِل عنه ، وبذلك كسبت فرنسا لتراثها التشريعى كسبا عوض عليها كل ما خسرته فى ميدان الحرب والسياسة والمال فى مصر . وإذا علمنا أن المصريين كانوا إلى أمد قريب جداً يرون أن دراسة القانون

القانون الفرنسى

هى الدراسة الوحيدة الجديرة بالتقدير ، وحسب الانسان أن يكون محامياً أو قاضيا أو مستشارا أو ما إلى ذلك حتى يكون قد بلغ من العلم منتهاه وغايته ، وان ذلك كان يدفع بالكثير منهم إلى السفر إلى فرنسا لدراسة القانون فكانوا بذلك رسل الثقافة اللاتينية فى مصر ودعاتها وأعلامها فأكملوا امافات الفرنسيين ، وبهذا سادت مصر الثقافة اللاتينية ، ولم يتفطن المصريون إلى الثقافة السكسونية (الألمانية والانجليزية) إلا منذ أمد قريب جدا .

امتيازات فرنسا الاقتصادية

وكسبت فرنسا الى جانب ذلك كسبا اقتصاديا وافراً إذ أصبح للفرنسيين مقام ممتاز عند حكام مصر منذ محمد على الى اليوم ، فنالوا من الامتيازات والاحتكارات وحقوق الاستغلال مالا تزال ترى آثاره فى مصر الى اليوم ، وقد كان الفرنسيون على عكس ما أراد المصريون، إذ أظهروا جشعاً شديداً لم يجارهم فيه غيرهم ، وأصبح همهم خداع المصريين — حكومة وشعباً — والفوز بأكثر ما يمكن الفوز به ، ولا نزال نذكر موقفهم حيال مصالح مصر فى مسألة قنال السويس وديون اسماعيل أو معارضتهم الشديدة فى مسألة الامتيازات ، بحيث لانخطىء إذا قلنا إن الفرنسيين أسلموا مصر للانجليز

فرنسا والشام

وكان لفرنسا مثل هذا المقام الثقافى الممتاز فى الشام ، كانت تتذرع بنشر العلم لتبعث البعوث التبشيرية الكاثوليكية ، وتتذرع بالكاثوليكية لزيادة سلطانها السياسى فى الشام ، وكانت الحروب الصليبية قد خلفت فى الشام أثراً عميقاً من الكاثوليكية ، فرحب نصارى الشام ببعوث الفرنسيين ومبشريهم وعلمائهم ، ومن ثم زكت الثقافة الفرنسية فى الشام ولبنان على الخصوص ، وانتشرت اللغة الفرنسية ومال الأهلون الى الفرنسيين ميلا ظاهرا

على هذين العمادين القويين — مصر ولبنان — قامت الثقافة

الفرنسية فى الشرق الاسلامى قوية العماد لاتكاد تغلبها ثقافة أخرى ، وسادت اللغة الفرنسية وأقبل الناس على تعلمها حتى أصبحت — دون غيرها من لغات أوروبا — رمز الثقافة الأوروبية وبرهانها الذى لايخطىء . وفى مصر ولبنان كانت نهضة الفكر الشرقى واحياء العلوم والآداب ، فغلب على العلوم والآداب لون ثقافى لاتينى قوى ملحوظ الى يومنا هذا

وهذا — فى حسابنا — هو أعز آثار الحملة الفرنسية وأزكى ثمراتها وهو فضل ليس بقليل .

ويهمنا أن نقف لحظة عند الآثار العلمية التى خلفتها هذه الحملة . فهى فى ذاتها أحسن العوض عما أصاب الفرنسيين من فشل سياسى أو حربى فى هذه الحملة

استقر جيش العلماء — الذى أشرنا اليه فى مصر — وبدأ العلماء من أمثال كنتيه Conte ومنج Monge وليبر Lépre يوالون جهودهم تحت اشراف نابليون ، ولكن ظروف الحملة فى سنتها الأولى لم تسمح لهؤلاء العلماء بالعمل المنتج الصحيح . فلم ينشط المجمع وتنتج جهوده إلا فى عهدى كليبر ومينو ففى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩ كون كليبر لجنة كبرى لتنظيم عمل المجمع ووزعت الأعمال على اللجان الآتية :

١ — للتشريع والدين والعادات
٢ — للأدارة
٣ — لنظام الشرطة
٤ — للتاريخ والحكومة
٥ — للحالة العسكرية
٦ — للتجارة والصناعة
٧ — للزراعـــة
٧ — للتاريخ الطبيعى
٩ — للآثار القديمة
١٠ — للنيل والفيضان

وبذلك بدأ هذا المعهد الجليل Instuti du Caire يوالى أعمـاله.

وبحوثه فى شتى نواحى الحياة المصرية ، فألقى أضواء ساطعة على هذه النواحى التى غشيها الجهل ورانت عليها ظلمات القرون ، وكان الفرنسيون قد بدأوا ينظمون القاهرة ويزيلون سقوف طرقها ويوسعون طرقاتها فوصلت الشمس هذه الطرق والدور ووصلها النور الزكى فأخذت الحياة تتنفس فى ربوعها ودب فيها دبيب الحياة

ويهمنا من نتائج أعمال هؤلاء العلماء أمران سيكون لهما أبعد الأثر فى مستقبل مصر السياسى والاجتماعى فى العصر الحديث

الأول : هو دراسة آثار مصر القديمة وكشف تاريخها ، « وأهم هذه الأبحاث ماقاموا به فى دراسة الآثار القديمة فى طيبة وأبيدوس « وعين شمس » فوصفوا هذه الآثار وصفاً دقيقاً بقدر ماوصل اليه علمهم ونقلوا صورها بأيديهم » (١)

وأعقب ذلك كشف حجر رشيد على يد الضابط بوشار Bochard وحل رموزه بعد ذلك بعشرين سنة ، على يد العالم الشاب شامبليون Champolion ، فاستقامت بذلك سلسلة التاريخ متصلة الحلقات موصولة الفقرات ، وأزيح الستار عن مجد مصر الخالد القديم ، وعرف الناس لهذا الشعب المصرى المجيد مقامه فى سيرة الحضارة العالمية ، وأخذوا ينظرون اليه بالاكبار والاجلال ، بل بدأ بذلك عهد جديد لمصر والمصريين .

* * *

اضمحلال القاهرة

كانت القاهرة تختنق منذ بداية القرن السابع عشر ، كانت تسير نحو الخراب وئيدا ، وكان مقدرا لها أن لا تنجو من المصير السيء الذى آلت اليه كل العواصم الاسلامية الكبرى التى تقدمتها كبغداد والقيروان ، ينحط أمرها ويهجرها أهلها ، ولا تغدو غير قرية صغيرة لا قيمة لها

(١) الاستاذ محمد رفعت « تاريخ مصر السياسى »

ولاحساب . وكانت — بحكم تأسيسها والظروف التى أحاطت بها — مدينة سيئة الحظ من يوم وضع أساسها جوهر ، كانت بمنأى عن النيل يحتضنها الجبل ويردمها شيئا فشيئا بأتربته ورماله ، وتشرف عليها تلك القلعة التى لم يشرفها الله بجند مصر منذ قامت الى يومنا هذا ، والتى كانت طوال تاريخها حصن الغاصب وذل الرعية .

كانت أسوارها قوية محكمة البناء منذ جدد بناءها بدر الجمالى وجاب أبوابها الضخمة من الرها ، فاصبحت كأنها أيد قوية تضغط عنق هذه المدينة فتموت شيئا فشيئا ، كانت الأحياء تموت وينتقل اليها الخراب ، كل عام ينقضى يحل البوم محل الناس فى ناحيـة ، وكلما أقبل حاكم جديد أو مملوك شارد حياها بطلب المال وفرض المغارم ، تؤديها له من دمها ولحمها . حتى أفلست متاجرها وأملق صناعها ولم يعد منها فى مطالع القرن الثامن عشر ، إلا أشباح من الناس تترى على الأرض كأنها الأموات ، تبـــذل العمر فى جمع القوت لتدفعه ضريبة أو أتاوة أو فدية أو غرامة ، فلا غرابة أن رآها الفرنسيون عند ما أقبلوا قبرا مظلما يضم طوائف من الناس فى أطمار هى أشبه بالأكفان ، وقد انتقل كل مافيها من خير أو مال الى هذه الطغمة الظالمة من الأجلاف والعبيد والأرقاء والجنود ، الذين يعد انتسابهم الى الجندية حطاً من الشرف العسكرى .

***

وكان لا يصلها بالحياة إلا شيئان ، ترعة صغيرة تشقها من شمالها الى جنوبها ، وخيال زائف من الأزهر : الأولى تصله بالنيل منبع حياة مصر ، والثانى يصلها بالاسـلام والثقافة الاسلاميـة منبع العلم والاسلام فى مصر منذ العصر الفاطمى .

وكان كلا الموردين — مورد الماء ومورد العلم — ضئيلا يؤذى أكثر مما يفيد ، خيالا من خيال ، يفيض الخليج بالأمراض والأوبئة ويفيض الأزهر بقشور من العلم هى أقرب الى الجهل .

اضمحلال مصر من الناحية الزراعية

وكان النيل فى هذه السنوات قاسيا شحيحا ، لا يكاد يحمل الماء سنة حتى ينذر بالقحط سنوات ، فبدأت الصحراء تغزو المزارع وأخذ خير البلاد يقل شيئا فشيئا ، حتى أذا كان أواخر القرن السابع عشر أصبحت مصر كلها ظلا نحيلا هزيلا ، لا يكاد أهله يقفون على أقدامهم ، ومن خلفهم الجلادون بالسياط ، ياخذون منهم أولا بأول ما عسى أن يجتمع لهم من أطراف الخير وفتات النعم ، وفى وسطها تقوم القاهرة فى اسوارها وخرابها كانها شاهد على قبر عزيز .

فقر المصريين

أبصر الناس عوارض جديده تنذر بالتغير منذ زمن بعيد ، ولكنها كانت ضئيلة خابية لا تكاد تدرك فى بادىء الأمر ، كان المصريون قد أفلسوا افلاسا تاما ، لم يعد فى طاقتهم أن يدفعوا للماليك او الاتراك مليما واحـــدا ، وكان طريق التجارة الشرقية قد اوصد فانقطع عن المماليك ما كان يصلهم من الخير من هذا السبيل ، فلم يجدوا الا الشعب يؤدى لهم ما يريدون طوعا أو كراهية ، حتى إذا بذل الناس كل ما عندهم ولم يعد لديهم مايسد جوعهم فقد وصل الأمر الى نهايته المحتومة لا بد أن يكف الناس عن الدفع لأنه ليس لديهم ما يدفعونه ، ولابد أن يفهم المماليك ذلك فيلجأوا الى شىء آخر غير الارهاق : الى الحيلة والمراضاة والالحاح فى الطلب ، وعلى مر الأيام أخذوا يلينون ويضعفون أمام الرعية ، فأخذت — أى الرعية — سبيلها الى النهوض والشعور بالنفس أولا . ، ويكون ذلك مقدمة النهضة الحديثة التى سنراها بعد قليل

ولنتفطن قبل ذلك إلى أمر آخر كان له أبعد الأثر فى تاريخ مصر فقد يذكر القارىء ماذكرناه فى الفصل السابق من أن قوام الحياة

والحضارة فى بلاد الشرق الأدنى إنما هم عامة الناس المقيمون فى بلدانه أو المنتشرون فى مزارعه ومراعيه ، وان هؤلاء يحتفظون بما يصل اليهم من ألوان الحضارات ويصقلونها ويهذبونها ويوافقون بينها وبين طبيعة بلادهم ، وإن هؤلاء الناس مُرَزَّءُون بين الحين والحين بهذه الغزوات الهدامة التى يقوم بها البدو والأتراك ومن اليهم ، وانهم يظهرون بمظهرهم الحقيق اذا اضمحل أمر هؤلاء الغزاة وسكنت ريحهم . هنالك يأخذ أهل البلاد فى الظهور ويبدأون نشاطهم العمرانى الموروث . . هذه الظاهرة تنطبق فى تلك الفترة التى نتولى درسها الآن . أقبل الفرنسيون فكان بينهم وبين المماليك صراع عنيف ، انتهى بانهزام المماليك وخروجهم من مسرح السياسة المصرية ، فلا نعود نراهم إلا ضعافا لاحول لهم ولا معين ، متفرقين فى الصحارى أو فى فيافى السودان .

ظهور المصريين على مسرح السياسة

ويشعر أهل مصر بذلك ويخف الضغط عنهم فيأخذون فى النهوض والظهور ، ويغريهم هدوء الحال — نوعا ما — بالعمل والنشاط ، فنراهم يتقدمون على المسرح فى خوف أول الأمر ، يوفقون حينا ، وينهزمون أحيانا ، يسودون المماليك يوما ويسودهم المماليك أياماً . حتى يؤذن الله فيفيقوا ، فاذا المماليك قد انكسرت شوكتهم وتفرقوا وقضى الله فيهم قضاءه الذى لن تقوم لهم بعده قائمة . هنالك يقفزون الى الميدان فى شىء من الثبات وحسن الاستعداد ويشاركون الفرنسيين فى ادارة شئون البلاد ويحسنون القيام بنصيبهم من هذه الشركة ، فتبدأ ارادتهم فى الظهور وينبئون عن شىء يشبه الشعور القومى ، ينفجر بالثورة من حين الى حين ، ويجاهدون الفرنسيين عن حقوقهم جهادا شديدا ويسببون لهم من المتاعب شيئا كثيرا . ولكنهم يوفقون الى التأثير فى الفرنسيين فيجذبونهم جذبا شديدا ، حتى اننا لنجد الفرنسيين يذعنون لهم حينا ويتمردون عليهم أحيانا ولكنهم يعترفون

بوجودهم وقوتهم فى كثير من الأحيان .

بدء شعور المصريين بأنفسهم

هنالك بدأت الحياة تدب فى أهـــل هذا الوادى ، وكان لابد لانهاضهم أن يحال بينهم وبين الاتصال بالأتراك أو الاعتماد عليهم لأن الاتصال بالأتراك والخضوع لهم يضعف الشخصية المصرية ويجعل المصرى تابعاً مطيعاً ، وهذا الاعتماد يميل به إلى الاستنامة عن حقوقه والركون إلى الأتراك فى كل مايهم من الأمور، ولعلك رأيت المصريين لا يستحيون أن يقولوا لنلسن إن هذه الأرض —أى أرض مصر— هى أرض السلطان لا أرضهم ؛ فكانت الحملة الفرنسية قطعاً لهذه الصلة وقتلا لهذا الاعتماد ، إذ حيل بين الأتراك والمصريين ثلاث سنوات أو ما حولها . ولا نزاع فى أن المصريين حنوا إلى الأتراك حنيناً متصلا طول هذا الزمان ، إذ كانوا يشعرون شعور الطفل القاصر الذى يخاف الحياة وحده ولا يستريح الا إذا كان إلى جانبه الوصى أو المربى ، ولو كان كلاهما يؤذيه يشتد عليه . ثم كانت ثورة القاهرة الثانية قضاء تاماً على ثقـة المصريين بالأتراك لأنهـم دفعوا بالمصريين إلى الثورة وأشعلوا نيرانها ثم تركوهم وحدهم يصلون لهيبها ويحملون أوزارها ، وهذا هو السيد السادات يعبر عن شعور المصريين نحو الأتراك بعد فشل هذه الثورة ، فى الكتاب الذى كتبه لعثمان كتخدا الدولة يقول له فيه : « ألزمتم الغنى والفقير والكبير والصغير إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل وبلغ فى النهب غاية الغايات فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى . أخفتم أهل البلد بعد أمنها ، وأشعلتم نار الفتنة ثم فررتم فرار الفيران من السنور ». (١)

يأس المصريين من الأتراك

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٠٨ حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤
والأستاذ شفيق غربال : الجنرال يعقوب ، ص ١٦

فاذا خابت آمال المصريين فى الأتراك ، ورأوا بعينهم مصارع المماليك ، فعلى من يكون المعول وقد أحاطت بالبلاد الخطوب ومصر « عرفها كفار الافرنج ولن يتركوها أبداً كما قال مراد بك

كان لامفر من أن يعول المصريون على أنفسهم ، مكرهين لا طائعين .. وقد أحس المصريون أن التبعة ملقاة على عواتقهم وأنهم مطالبون بأن يعملوا دون خوف ، فليس لهم من الأعداء وقاية من تركى أو حماية من مملوك وكان لابد أن يغير العلماء — وهم ألسنة الشعب — أسلوبهم فى العمل السياسى ؛ كان لابد أن يشعروا بالمسئولية فيأخذون بنصيب من العمل أكثر مما قنعوا به فيما مضى ، وهذا تطور فى التفكير بعيد الأثر فى مستقبل مصر السياسى فى ذلك العهد وما يليه . لن يكتفى الشعب بعد ذلك بالهياج والاحتجاج ثم الركون الى الوعود أو الخوف من التهديد بل ستتصل جهوده ويعلن غير هياب سخطه على الحاكم ويطلب عزله متأكداً من أن للرعيـــة خلع الحاكم إذا أساء السيرة ، ولن يقنع كذلك بالضجيج « والـكرنكة » فى الشوارع والحارات بل سنراه يسير إلى القلعة ليرفع ظلامته فاذا لم تجب خلع الوالى التركى وأقام مقامه والياً آخر يرضاه ويثق فى عدله ؛ ولن يكتفى العلمـاء بالوساطة بين الحاكمين والمحكومين ، بل ســيتزعمون المحكومين ويخاطبون الحاكمين بلهجة شـديدة الجرأة بعيدة المعنى ، وهذا هو البعث الجديد لمصر ، وهو سر هذه القوة التى بلغتها فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر . وهو عماد محمد على وسبب انتصاراته .

بدأ هذا الشعور يظهر ويتجلى حين تم جلاء الفرنسيين عن مصر وتقررت رجعة الأتراك اليها فوجد المصريون أنفسهم مسوقين مرة أخرى إلى السلطان التركى يعيد عليهم سلطانه ويذيقهـم عـذابه .

فروعوا من ذلك روعاً شديداً وبدأوا يتحدثون بالاستقلال وللمرة الأولى فكر جماعة من أبناء هذا الوادى فى الاستقلال ووضعوا مشروعا لذلك ، ونظموا وفداً محترماً ، خف إلى انجلترا وإلى فرنسا ليحقق استقلال البلاد .

تشوفكرة الاستقلال عند المصريين

فلما أدرك المصريون أن أمانيهم فى الاستقلال قد خابت ، وثبت لهم أنهم مسوقون على رغمهم إلى طاعة السلطان تفرقت نفوسهم حسرات ، وتجلت لهم ويلات الحكم التركى ظاهرة بينه زادها الشعور بالنفس والوطن اتقادا وقوة ، فبدأت شكواهم تعلو وأحسن التعبير عنها راوية هذه الأيام الشيخ الجليل الجبرتى .

من هنا بدأ المصريون يعملون للخلاص ، ويتلفتون بأعينهم إلى منفذ يخرج بهم من هذا الحظ العاثر الذى أراده لهم القدر ، كانت بلادهم قسمة ظالمة بين أوباش الأتراك وصعاليك المماليك ، وكانت مصر طعمة باردة لأذى هؤلاء ومظالم أولئك ، ولم يجدوا أمامهم إلا هذه الطائفة الطيبة من العلماء التى كانت تتولى قيادة الأمور وسياسة الشعب — فى واقع الأمر — من أوائل القرن الثامن عشر ، فأولوها ثقتهم ومدوا لها العون ، فبدأت تنشط وتسعى وتأخذ سبيلها إلى الحياة وكان لسانها الناطق ورمزها الصادق ذلك العالم الجليل السيد عمر مكرم .

العلماء فى مصر وازدياد نفوذهم السياسى

* * *

قال نابليون فى مذكراته : « لكى نسوس هؤلاء الناس — أى المصريين — لابد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، كان لابد أن نقيم عليهم رؤساء وإلا أقاموا رؤساءهم بأنفسهم ، وقد فضلتُ العلماء وفقهاء الشريعة لأنهم (أولا) كانوا كذلك — أى رؤساء — بطبيعتهم (وثانياً) كانوا مفسرى القرآن ، ومعروف أن أكبر العقبات أنها تنشأ عن أفكار

نابليون والعلماء

دينية ؛ (وثالثاً) لأن للعلماء خلقا ليناً ولأنهم — دون نزاع — أكثر أهل البلاد فضيلة ، لا يعرفون كيف يركبون حصانا ولا قِبَل لهم بأى عمل حربى ، وقد أفدت منهم كثيرا واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب ، وألفت منهم ديوان القضاء » (١).

لم يخطىء القائد العظيم فيما ذهب اليه ، فقد كانت هذه هى صفات العلماء وفائدتهم للفرنسيين فى مصر ، بل كان نابليون مصيبا كل الصواب فى اختيار هذه الفئة لتتوسط بينه وبين الشعب لأنها كانت تتزعمه وتتولى شئونه كما قلنا ، وكانت لسانه الناطق الذى يعبر عن شكواه الشعب واحتجاجه وسخطه ، ويملى أوامره على المماليك فيطيعون . وهذا الوصف ينطبق على البارزين من رجال مصر فى هذه الأيام كالمهدى والصاوى والسادات والأمير والفيومى ، ومن يقترب منهم من كبار المصريين والتجار كالسيد أحمد المحروقى الذى أوجز مراد بك وصفه حينما قال له « مثلك من يخدم الملوك » .

عمر مكرم

ولكنه لم يحسب حساب السيد عمر مكرم فى هذا الحديث ، ولو قد ذكره لرأى فيه لونا آخر من العلماء لا يتصف باللين ولا الاستسلام وإنما بشىء تستطيع أن تسميه وطنية ، وبالشعور بالكرامة الاسلامية ولعله أغفل ذكر هذا الرجل لأنه — أى عمر مكرم (٢) — كان طوال العصر الفرنسى شريداً أو معتكفاً ، وكان هدفاً للكثير من المظالم التى لم يعلنها عليه الفرنسيون وحدهم بل زملاؤه

(١) Napoléon: Campagne d'Egypte, Vol II. pp. 151 sq. Correspondance, de Napoléon Vol, XXX. pp. 83-84.
مترجمة عن النص الوارد برسالة الاستاذ غربال : الجنرال يعقوب ، هامش ص ٩

(٢) « والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية ، بعثه للعمل على النفوذ السياسى»
الاستاذ غربال : الجنرال يعقوب ، ص ١٥

العلماء الذى سرهم ابتعاده عن الميدان فعاونوا على اقصائه ليفوزوا بمكانه وينعموا بمنزلته .

منشؤه

السيد عمر مكرم شريف يتصل نسبه بالامام على كرم الله وجهه ، ولدفى أسيوط وفيها نشأ وتعلم ، ولا نعلم كيف ارتقى إلى نقابة الأشراف ولكننا نفهم من بلوغه هذا المنصب أنه كان واسع المواهب عظيم الاقتدار ، ويؤكد لنا ذلك أن الفرنسيين حين أقبلوا وجدوا عمر شخصية كبيرة يحسب لها حسابها .

فى عمر مكرم تتمثل الوطنية الاسلامية التى فصلنا أمرها فى الفصل السابق ، أى أن عاطفته الاسلامية حفزته إلى مناهضة الفرنسيين والسعى لإخراجهم من مصر . تمثلت الحملة الفرنسية فى خاطره اعتداء من النصرانية على الاسلام ، فكانت قيادته للناس استنفارا لهم للجهاد الدينى وإثارة لعواطفهم الاسلامية ، وهذا ما ينبغى أن تتفطن اليه فى قيادة هذا الشيخ للحركة المصرية فى ذلك الزمن ، فكان إذا أراد إلهاب عواطف الناس لأمر من الأمور لجأ إلى الشعور الدينى فأثاره « وصعد إلى القلعة فأنزل منها بيرقا كبيراً أسمته العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق ، وأمامه ألوف العامة » وهذا هو استنفارا الناس للجهاد الدينى ودعاؤهم إلى رد الكفار . فلم يكن العلم الذى حمله علم مصر وانما علم الاسلام وهو البيرق النبوى الذى ينبغى أن يهم المسلمون للدفاع عنه مصريين كانوا أو غير مصريين .

وطنية عمر مكرم

ذلك تحليل شعور عمر مكرم ـ فيما نرى ـ ولا صحة لما يبالغ البعض من وصفه به من وطنية صادقة وشعور قومى صحيح ، إنما سيتطور شعور عمر مع الأيام نحو هذه الغاية ولكنه لا يصل اليها فى صورة صافية خالصة . ولكى يصبح عمر كذلك « كان لابد من أن يحال بين الناس وبين دعوات الجامعة الاسلامية » كما يقول الأستاذ غربال لأن

الوطنية الاسلامية كما ذكرنا — شيء آخر غير الوطنية القومية ، أنهما يتعارضان تمام التعارض وقيام إحداهما ينفي وجود الأخرى . . . الوطنية الاسلامية تباعد مابين الانسان ووطنه وتزهده فيه وتوجه مشاعره وحبه وعواطفه نحو شيء واحد جدير بالحب والحماية والتضحية ، هو الاسلام والدولة الاسلامية . لو تعارضت مصلحة السلطان مع صالح مصر فلتضح مصلحة مصر ولتحقق غاية السلطان . وإذا سأل نلسن أهل الاسكندرية عن بلدهم أجابوا « تلك أرض السلطان » لا أرضهم ، انهم يعيشون عليها فقط بذلك المعنى الذى أراده العربى عند ما سئل عن ماله فقال « إنه لله فى يدى » .

استنفار الناس للجهاد

استنفر عمر الناس للجهاد والدفاع وتزعم المصريين الذين ظاهروا المماليك على الفرنسيين ساعة دخولهم مصر فاتحين ، وهـــذا يؤكد ما ذهبنا اليه ، إذ نسى المصريون مساءات المماليك ووقفوا إلى جانبهم ، لأنهم مسلمون مثلهم يحاربون كفارا .

هجرة عمر مكرم

فاذا انهزم المماليك ووجد عمر أنه مساق على رغمه إلى الخضوع للفرنسيين أبت عليه كرامته الاسلامية أن يقبل هذا الهوان ، فآثر الهجرة وأزمع الرحيل ، وأحب الفرنسيون أن يحببوا اليه الاقامة فاختاروه عضوا فى الديوان الأول ، فأبى وشد رحاله إلى الشام وهناك بقى حتى أدركه الفرنسيون فى حملتهم على الشام . فقابله نابليون فى يافا ، وكبر فيه عاطفته المشبوبة ورأسه المرفوع ، وأمر بارجاعه إلى مصر فأعيد معززا مكرما ، واعتزل فى بيته واعتكف عن الفرنسيين لم يمد لهم يداً ولم يل لهم أمرا .

عمر يعاد الى مصر

فى هـذا المعتزل ، لابد أن عمر قد أطال التفكير فى أمر البلاد ، وتأمل هؤلاء الفرنسيين ودقق النظر فى أمورهم ، ولا شك أن هذا التفكير أثار فى نفسه بعض الخواطر الجـــديدة . لاشك أنه

تساءل عن هذا « الجهور الفرنساوى » الذى يطيعه القادة ويفنى فى سبيله الأفراد ، ولاشك أنه فهم أن هذا « الجهور » هو الرعية نفسها ، وأدرك أن لاضير على الرعية إذا حكمت نفسها بنفسها مادام فيها القادرون على ذلك ، ومادامت تحس أن «حكامها» لايحسنون ولاية أمورها

لاشك فى أن أمثال هذه الخواطر طرقت فكر الشيخ الجليل وخلفت فيه بعض الأثر ، ولاشك فى أن هذه الأفكار الجديدة صادفت من نفسه هوى فأخذ يترواها ويزن الأمور بمقتضاها ؛ نقول هذا والحوادث مصداقنا فى قوله ، فنشاط عمر مكرم قبل الحملة الفرنسية يختلف كل الاختلاف عن نشاطه بعدها ، وآراؤه واتجاهاته تختلف فى الحالتين اختلاف النقيض عن النقيض

نشاط عمر مكرم قبل الحملة الفرنسية

فعمر مكرم قبل قدوم الفرنسيين صديق مخلص لابراهيم ومراد : يسفر لهما لدى الحكومة العثمانية ، ويسعى فى إقامة سلطانهما ، ويغضى عن مساوئهما بل يتصدى للدفاع عنهما ، ولم يكن ذلك لاشتراكه فى آثامهما أو لمساهمته معهما فيما كانا ينزلانه بالناس . بل لأن مقاييس الحكم وقواعد الحياة العامة فى عصره لم تكن لتبيح له الثورة على هذين الطاغيتين رغم كل مساوئهما ، إنما سيفكر عمر فى الثورة على الحكام حين يعرف مقاييس جديدة وقواعد أخرى حديثة .

نشاط عمر بعد خروج الفرنسيين

وعمر بعد خروج الفرنسيين رجل يفكر تفكيراً جديداً جداً : يتحدث عن حق الرعية فى عزل حاكمها إذا أساء السيرة فيها ويفسر الآيات القرآنيه — التى كانت تعتبر دستور الحكم فى هذه الأيام — تفسيراً جديداً : فأولو الأمر الذين تجب طاعتهم هم « العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل » : السلطان العادل فقط لا ابراهيم ولا مراد ومن شاكلهما من العفاة والطواغيت ، وأصبح يجد الثورة واجبة على الحكام إذا هم «خرجوا على الحق وثاروا على القانون» وهذه آراء إن لم تكن جديدة الجدة كلها على التفكير الاسلامى السياسى فهى — بشهادة

الحوادث — جديدة كل الجدة على تفكير عمر وأسلوبه فى النشاط السياسى .

تطور تفكير عمر

ويمكننا أن نلاحظ هذا التطور فى تفكير عمر إذا تأملنا أعماله من دخول الفرنسيين إلى رحيلهم . فحينما دخل هؤلاء البلاد ولى عمر هاربا فى ركاب المملوك ابراهيم : ولى وترك البلاد تنعى من بناها ، ولو قد كان تركه والبلاد بدافع السعى لدى الأتراك فى التعجيل بارسال القوات لاخراج الفرنسيين منها لما أقام فى يافا بل لاتجه إلى القسطنطينية وظهر له جهد هناك . ولكنه اطمأن فى يافا فأقام فيها لا يبذل فى انقاذ البلاد جهداً ولا يبدى مايدل على أن ذلك الأمر كان فى همه ، بل لو طلب من مبارحة البلاد أمراً آخر غير الفرار لآثر الذهاب مع شعبه المدافعين عنها : شعبة مراد التى اتجهت إلى الوجه القبلى وأخذت تناجز الفرنسيين

عودة عمر وانزواؤه

أقام الرجل فى يافا فأخذ الاطمئنان يسرى إلى نفسه من ناحية الفرنسيين ، إذرآهم يوقرون العلماء ولا يأخذون أحداً بوقيعة ، فمالت نفسه إلى العودة ، ولم يلبث أن عاد بعد دخول نابليون يافا ، عاد ليقبع فى عقر داره لا يعترض ولا يتصدى للدفاع على كثرة دواعى الاحتجاج فى هذه الأيام

عمر فى ثورة القاهرة العثمانية

ولم يرفع عمر صوته بالشكوى إلا بعد أن رفعها العامة ولم يبق فى القاهرة أحد لم يجرؤ عليها : وذلك فى مارس سنة ١٨٠٠ (شوال ١٢١٤ هـ) أى بعد أن اطمأن إلى أن نجدة الأتراك على الأبواب وأن خيل المماليك تطوى أرض الصعيد إلى القاهرة . بل لم يقم على هذه الثورة ، ولم ينهض بما كانت تتطلبه منه زعامته لها فى مثل هذه الظروف ، اذ اسرع بالفرار حين قضى الفرنسيون على الثورة ودخلوا القاهرة

ولكن الواقع أن فكره كان يتطور هذه الأيام ، كانت المدة التى أقامها فى

مصر كافية لتمكنه من تأمل هؤلاء الفرنسيين وتلمس محاسنهم ، وكان اشتراكه فى ثورة القاهرة قد فتح أمامه الآمال فى الزعامة والعمل وكان الفرنسيون لا يكفون هذه الأيام عن التحدث الى المصريين واذاعه آرائهم بين جمهورهم لاستثاره غضبهم على الاتراك والمماليك ، فلا نزاع فى أن بعض المصريين قد تروى هذه الآراء وتأثر بها وكيف يقال ان أذكياء المصريين لم يتأثروا من قول الفرنسيين يخاطبون المصريين :

الفرنسيون يذيعون آراءهم بين المصريين

«وقولوا لهم أيضا إن جميع الناس متساوون عند الله ، وإن الذى يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم ، وأى شىء فى المماليك يميزهم عن غيرهم ويستوجب أن يتملكوا مصر وحدهم ، فحيثما تكون أرض مخصب فهى للمماليك ، ومثل ذلك أحسن الجوارى وأكرم الخيل وأجمل المساكن . فان كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليظهروا لنا الحجة التى كتبها الله لهم»(١)... نعم بأى حق ينفرد هؤلاء المماليك بأرض مصر وحدهم ؟ أين الوثيقة التى تثبت هذه الملكية ؟.. بل أين الوثيقة التى يملك بها السلطان أرض مصر ، لماذا يختص نفسه بالحكم والخير ومن دونه رعية تعيش فى الأطمار وتأكل القفار .. ألا يكون هذا السلطان غاصباً ظالما .. ألا يكون مستبداً سيء التدبير جديراً بأن يثب الناس به ويعلنوا عليه العصيان ؟

تأثر عمر بهذه الأفكار

لا نستبعد أن يكون عمر قد بدأ يفكر على هذا الأسلوب ، فتصرفاته بعد ذلك تدل على أن تطوراً شاملا قد مس جوانب تفكيره ووجهه وجهة جديدة : فبعد أن كان عاملا من عمال الطواغيت أصبح عدوا لهم ، وبعد أن كان من طبقة الحاكمين نزل إلى الميدان وخالط الناس ونصرهم على الحاكمين ، بل لا مغالاة فى القول بأن هذا التطور كان قد أخذ يغزو أذهان غيره من المصريين ويفتح عيونهم : فهذا هو الجبرتى يصور لنا يأس المصريين من الأتراك والمماليك واحتقارهم لهم

(١) من منشور نابليون للمصريين .

وإعجابهم ببعض ما رأوا من امتياز الفرنسيين فى السياسة والحرب

تغير عمر على المماليك

وقد كان عمر حين دخول الفرنسيين يوقر المماليك لأنه كان يحسبهم حماة الاسلام وفرسانه : كان يحسب مرادا وإبراهيم من طراز بيبرس وقلاوون والناصر الذين سجلت الحوليات الصليبية لهم مجد الدفاع عن الاسلام ، ولهذا كان لا يأنف من خدمتهم اقتداء منه بأمثاله من العلماء كعيسى الهكارى وعز الدين بن عبد السلام والقاضى الفاضل وتاج الدين بن بنت الأعز وابن دقيق العيد وغيرهم من أقطاب العلماء فى دولتى الأيوبيين والمماليك ، ولكن حوادث الأيام أخلفت ظنه وأثبتت له أن مماليك أيامه لا يشبهون المماليك الأول فى شىء : فهم جبناء عتاة ظالمون لا يثبتون للفرنسيين ولا يكلفون أنفسهم عناء الدفاع عن المسلمين أمام النصارى : بل ان مرادا لم يأنف من التفاهم مع الفرنسيين وحكومة الصعيد بأسمهم ، فيئس عمر من المماليك وأنف أن يمضى على العمل فى خدمتهم ، ورأى بعينيه بؤس المصرى الذى تحمل مساءاتهم فيما انقضى من الأعوام ثم لم يجد منهم حاميا ، فبدأ — أى عمر — يحس

عمر يحس آلام مواطنيه

العطف على مواطنيه ويرق لهم ، وزاده رقة ما وجد من اجتهادهم فى مدافعة الفرنسيين أثناء ثورة القاهرة ، وما أولوه من الثقة أثناءها ، فوقر فى نفسه أن يتصدى للدفاع عن هؤلاء الضحايا الذين لا يجدون انصافا من أحد . ومن ذلك الحين بدأ يتجه وجهة جديدة بتأثير الأفكار الجديدة .

يأسه من العلماء

وبديهى أن يقال إن عمر كان قد يئس كذلك من أصحابه العلماء الذين رضيت لهم ضمائرهم خدمة الغاصب الكافر فأسرفوا فى الخضوع له إلى حد كاد يمس شرفهم ، وماذا يكون هؤلاء العلماء — الذين ينتهزون فرصة فرار صاحبهم «عمر» لينقضوا على ماخلفه كالضباع الكاسرة — الا طغمة

باغية لا تقل شرا عن المماليك ولا تكاد تقتدر على رفع راية الاسلام واعلاء كلمته (١)

لابد أن التفكير قد انتهى به الى اليأس من صلاح هذه الهيآت الثلاثة التى كانت عماد السياسة المصرية فى ذلك الوقت فى نظر المصريين على الأقل . لابد أنه رجا للبلاد خلاصا من أيديهم ونجاة من شرهم .

هنا بدأ الرجل يفكر فى شىء من الجد فى حل للمسألة ، وكان بطبيعة مركزه وبما ركب فى نفسه من الشهامة والوطنية مضطرا الى أن يطيل التفكير فى هذا الأمر حتى يجد مخرجا من هذا الحرج الذى انساقت اليه البلاد فى هذه الفوضى الصارخة التى استمرت من خروج الحملة الفرنسية الى ولاية محمد على . وكان انزواءه عن ميدان السياسة ترفعا منه عن أن يتعامل مع الفرنسيين ، وكان — بلا ريب — ينتظر الفرصة المواتية حتى يعود الى العمل لينفذ هذه الفكرة التى خطرت بباله والتى رجا أن يكون للبلاد مخلصاً من الأذى عن سبيلها .

لماذا اشترك عمر فى ثورة القاهرة الثانية

على أن عاطفته الاسلامية كانت أغلب على رأيه من عقله ، وكان يفضل الأتراك . إذا كانت المسألة مفاضلة بينهم وبين الفرنسيين ، وهذا طبيعى جدا من شيخ أزهرى لا فى هذه الأيام وحدها بل فى كل زمان ، فلا يصح أن نستنتج من حماسه لعودة الأتراك أيام كليبر واشتراكه فى ثورة القاهرة الثانية أنه كان محباً للأتراك مخلصاً لهم ، وانما الحقيقة ما أسلفنا ، وهى أنه كان ساخطاً عليهم برما بهم يود مخلصاً لو خرجت البلاد عن أيديهم ، ولكنه كان يفضلهم على الفرنسيين على أى حال وبهذا وحده نستطيع أن نعلل مظاهرته للأتراك فى فى ثورة أغسطس سنة ١٧٩٩ .

---

(١) اقرأ وصف ما حصل من المفاسد أثناء هذه الفترة ، ومشاركة نفر من المصريين وأعيانهم للفرنسيين فى ذلك فى الجبرتى : ج ٣ ص ٤٦ ، ٤٧ ، ١٧٠ ، ١٧١

تطور شعور عمر الى عاطفة وطنية

لا شك أن الرجل بدأ يميل يوما فيوما إلى الجمهور المصرى. ولا نزاع فى أنه أحس بالآم هؤلاء المساكين الذين يعود عليهم كل ضرر ويحفلون بكل بلاء ولا نصيب لهم فى خير أو غنم. كان الرجل أسيوطياً أى مصرياً، وكان شريفاً فاضلا صادق العاطفة لا يسعى لمنفعة ولا يرجو نوالا وإنما كان يفكر تفكير كل مصرى فى هذه الأيام، وهذا هو الجبرتى يعلن آراء المصريين فى هذه الفترة ويعبر عن ميولهم فى صراحة لاتحتمل الجدل أو التأويل وهى لا تخرج عما ذهبنا اليه فى تحليل تفكير عمر. فما يمنعنا من القول بأن هذه نفسها كانت آراء عمر مكرم، وأنها كانت أحلامه وأمانيه التى ستكون برنامجه السياسى فى مقبل الأيام.

وكانت الظروف نفسها تسمح بهذا التفكير بل تغذى الأمل فى شىء من هذا القبيل، كانت كل القوى المسيطرة على السياسة المصرية فى هذه الفترة قد انتهت إلى الضعف، بحيث لا يرجى من إحداها أن تغلب الأخريات وينتهى اليها النصر فى آخر الأمر.

تنازع البقاء فى مصر

كانت القاهرة فى هذه السنوات (١٨٠٠ — ١٨٠٥) كالمرجل المضطرب، يشتد فيها النزاع والصراع بين القوى المختلفة التى كانت تحاول كل منها — عبثا — أن تصل إلى الزعامة آخر الأمر.

الوالى التركى

كان الباشا التركى يدعى السيادة على كل شىء، ولكن دولته كانت تخذله، لم تكن تمده بالجند اللازمين للسيطرة على الحال، وإذا أرسلت جنداً لم تمده بما يلزم من المال لدفع أعطياتهم، فاذا تأخرت الأعطيات ثاروا به وعزلوه أو قتلوه. حدث هذا مراراً فى هذه الفترة مما انتهى بالباشا التركى إلى أن يصبح عاجزاً تمام العجز عن تنفيذ ما يريد بل عن التأثير فى مجرى الحوادث، ذلك أنه هبط بسمعته ومقامه وجعله فى حال هى أسوأ مما كان عليه المماليك.

جنود الدولة

وكان الجند الأتراك الذين اختارتهم الدولة لمصر هذه الأيام شيئاً آخر غير الجنود ، سمهم لصوصاً ، سمهم قطاع طرق ، سمهم شحاذين ، قل إنهم مجانين (دلاه) ولا تقل إنهم كانوا جنوداً ، فلم يكونوا يشبهون الجنود فى شىء. يصورهم لنا الجبرتى تصويراً دقيقاً وافياً ، ويذكر لنا طرفاً من أفعالهم ويعدد لنا مساوئهم ويصف لنا حال القاهرة وأهلها معهم فلا نملك أنفسنا من الاشمئزاز من هذه الحال السيئة التى لامزيد عليها .

جند الألبان

كان جنود الوالى فريقين الانكشارية وهم القوة الرسمية ، ثم الأمداد التى كانت ترسل كالألبانيين والدلاه ، وكان على رأس الألبانيين قواد كثيرون أشهرهم طاهر باشا ومحمد على ، وكان هذا الأخير يرقب الأمور فى هدوء وحذر ، وينتظر الفرصة المواتية ليفعل شيئاً ، كان الجند عامة فى ثورة دائمة واضطراب لا ينقضى ، لأن رواتبهم لاتدفع ، وكانوا لا يجدون سبيلا يحصلون منه على ما يريدون إلا ارهاق المصريين وابتزار أموالهم ، كان أحدهم يجلس على باب المتجر ويفرض على صاحبه ضريبة ثقيلة جداً ، هى مقاسمته الربح ! كما لو كان شريكا له فى رأس المال ، وكان التاجر من جهته مضطراً لقبول ذلك . وإلا أصبح محله عرضة لأى جندى تركى يمر به ويستحل ما لديه .

الوالى والجند

فاذا ازداد الطلب على الوالى كان بين أمرين : إما فرض ضريبة جديدة ، فيثور المصريون ، أو رفض الدفع فيثور الجنود ، وبين هاتين الثورتين ضاع مقام الوالى التركى وضعف أمره ، فاذا أضفنا إلى ذلك أن الولاة الذين اختارتهم الدولة كانوا من نوع سىء جداً ، لا خبرة لهم ولا أخلاق ولا حزم ، استطعنا أن نكون فكرة كاملة عن الأتراك كعامل من العوامل المؤثرة فى السياسة المصرية .

المماليك

أما المماليك فكانوا — بعد حربهم الطويلة مع الفرنسيين — قد

بلغوا مبلغاً من الضعف لا ترجى لهم معه قائمة ، وأصبحوا فئة من المشاغبين ، المتآمرين المشردين الذين لا يجدون لهم مكاناً فى البلاد ، فتارة هم فى البحيرة ، وأخرى فى الصعيد ، لا ينفك الوالى التركى يمكر بهم ويحاول الايقاع بهم فى سلسلة طويلة من المؤامرات نجوا من كثير منها ولكنها أضعفتهم على كل حال ، مؤامرات تركية ، لو استقام هذا التعبير تقوم على دعوتهم إلى وليمة فى منزل أو سفينة ، ثم تصوب اليهم البنادق ويقتلون مقتلة تثير الاشمئزاز .

ميل المماليك للانجليز

وازاء هذا رحبوا بالتعاون مع أى حليف ، وصاروا يميلون ميلا شديداً إلى الانجليز والفرنسيين ، لم تكن لهم سياسة مقررة ثابتة إنما كانوا يلتمسون العون من أى سبيل ، مالوا أول الأمر إلى الانجليز ، ورحب بهم هؤلاء وناصروهم علانية وتولوا حمايتهم من كثير مما أريد بهم كتدخل الجنرال هتشنسون وطلبه أن يطلق سراح من بقى حياً من المماليك ، وأن تسلم جثث الذين قتلوا عندما بلغه خبر المؤامرة التى دبرها القبطان حسين باشا للقضاء عليهم فى أوائل اكتوبر سنة ١٨٠١ . وكانت الصداقة معقودة فى أغلب هذه الأيام بين الانجليز والمماليك ، كان الأولون يرون فيهم خصوما طبيعيين للفرنسيين ، فمحالفتهم عداء للسياسة الفرنسية ، ولا نحسب أن

هل كانت انجلترا تريد احتلال مصر فى هذه الأيام

الانجليز كانوا يفكرون فى هذه الأيام فى احتلال مصر أو الاستيلاء عليها ، ليس هناك دليل واحد يثبت هذا ، وقد عرض الأستاذ شفيق غربال فى كتابه « نشأة المسألة المصرية » مئات الرسائل الخاصة والمذكرات التى كان يكتبها سفراء انجلترا وقناصلها وليس فى واحدة منها فكرة من هذا القبيل ، إنما كانت انجلترا تريد أن تبعد فرنسا عن مصر ، لأن هذا جانب من سياستها التى أشرنا اليها وهى المحافظة على الدولة العثمانية الضعيفة فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

ولكن المماليك كانوا قد وصلوا فى هذه الأيام إلى درجة من الانحطاط المعنوى استحال معها الاعتماد عليهم أو التعويل على عهودهم ، كانت الدنيا قد اسودت فى وجوههم واصطلحت عليهم الأحداث وكسرت الحملة الفرنسية شرفهم فلم يعد لهم من الحول ولا المركز ماكان فيما مضى ، وانما أصبحوا كريشة فى مهب الرياح ، لا يكاد يتودد اليهم أحد ويعرض عليهم صداقته حتى يستجيبوا له ، لأن شعورهم بالضعف كان بالغا ، فسهل على السياسة الفرنسية أن تجذبهم لصفها فى كثير من الأحيان كما حدث فى الأيام الأولى لوصول المسيو « لسبس » مرسلا إلى مصر من قبل الحكومة الفرنسية فى أغسطس سنة ١٨٠٣ . إذ جرت بينه وبين ابراهيم بك مقابلة أسف فيها البك أسفاً بالغاً لجهل المماليك إذ قاوموا الحملة الفرنسية ، لأن معاملاتهم مع الانجليز والأتراك قد فتحت أعينهم ، وهم الآن مستعدون لانجاز كل ما يريده منهم نابليون « ان له أن يأمر وعليهم الطاعة فيفتحوا الشام وينزلوا له عن مصر ، أو يبقوا فى القاهرة ويصبحوا من رعايا السلطان المخاصين أو يتركون هذا كله ويقنعون بالنفى فى الصعيد » (١) واستقبلوه استقبالا حافلا عند وصوله الى القاهرة حتى « أحس مندوب انجلترا أن فى الأمر مؤامرة مدبرة لتسليم مصر لفرنسا ، كانت القرائن كلها تدل على ذلك . وبهذا تنبىء المشاهدات الخاصة والعامة ، وإن استقبال دلسبس هذا الاستقبال الحافل ، ومجيئه إلى مصر على عجل تاركا عائلته وراءه ثم اظهاره خدمة فى لباس فرنسى لينذر بيده التنفيذ » فلم يكذب المندوب الانجليزى — ميسّت — « أن أسرع إلى البرديسى فتحدث إليه فى الأمر ، وحاول أن يتحبب

مظاهرة مملوكية للفرنسيين

---

(١) نشأة المسألة المصرية ، للاستاذ غربال ص ١٢٤

إلى أسوأ أحلاف فرنسا سمعة ، ولـكن هذا التحبب لم يكن كافياً . كان لابد أن يقدم للبرديسى شيئاً أقيم من النصح . (١)

فقر المماليك

وهذا الشيء الذى كان المماليك بحاجة إليه هو المال ، كانت كثرة المصائب وتواتر الحروب واجتماع الأعداء قد انتهت بهم إلى الحاجة الشديدة والعوز البالغ ، وأصبح المال اغراءا مؤثراً فى نفوسهم .. ولم يلبث مِسِّت . أن فهم هذا ، فأنشأ يوزع المال وينثر الرشى فعاد المماليك إليه ، فأسخط هذا مندوب فرنسا ، وأراد أن يقلد خصمه ولـكن أين له المال وحكومة الجمهورية مفلسة لا تستطيع أن تمده بالمال اللازم لهذا الامر ، فلم يجد أمامه إلا الخمر يقدمها للمماليك ليكسب ودهم ! .. كانت الخمر تدخل البلاد باسمه معفاة من الضرائب وكانت رخيصة الثمن لاتكلف الحكومة شيئا كثيراً فاسرف دلسبس فى استعمالها ولم يستح أن يجعل فى داره حانا كما قال مِسِّت ، وهناك يتردد عليه المماليك فيحاول أن يكسب ودهم ويعيدهم الى حسن الظن به وبفرنسا ، ولـكنه لم يفلح وانتهى به الأمر أخيرا الى اليأس من المماليك والاحتقار للبرديسى فوصفه بقوله : مشاغب جشع ومملوك ظالم . (٢)

عثمان بك البرديسى

وكان البرديسى غير مرتاح لهذه المناورات ، كان الجو قد خلا له بسفر الألفى إلى لندن وكان يريد أن يقوم بنفسه بكل تفاهم أو تحالف نائباً عن المماليك ، ويظهر أن لسبس كان يحاول الاتصال بمماليك آخرين ، فلم يلبث أن سخط عليهم وبادأهم العداء فأعلن صراحة رأيه فى الفرنسيين قائلا « لقد جردتمونا وطردتمونا .. وهذا (أى موقف الخداع والعداء) وهو شكرنا لكم ... (٣)

(١) نفس المصدر ص ٢١٥

(٢) من خطاب من لسبس الى تاليران — عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٦

(٣) نفس المصدر والصفحة

هكذا فشل دلسبس ووجد نفسه فى موقف حرج وسأل فى حيرة « إلى أى النواحى يستطيع مندوب دولة أن ينحاز فى وسط تلك المذاهب المتطرفة » ، بل إن اليأس بلغ به حدا لم يطق معه الاقامة فى مصر فألح على الحكومة بعد شهرين أن تنقله منها .

تفاقم الحالة فى القاهرة

وليت المماليك صدقوا فى ودهم للانجليز . كان انتصار مندوب انجلترا خدعة فقط ، إذ اعترف البرديسى بأنه كان يمكر به ، وتحرج مركز مِسِّت هو الآخر بل مركز الأجانب جميعا ، وأيقنوا أن لا أمل لهم فى نفوذ سياسى وسط ذلك الخضم المضطرب ، وانسحبوا شيئاً فشيئا ، ولم يبق فى الميدان غير البرديسى ، بل اعترف مندوب فرنسا بأنهم لا يطلبون النفوذ السياسى وانما الأمان ، وتسرب الخوف الى قلب مِسِّت نفسه وتحـــدث فى بعض رسائله بأنه لا بد مهدِّد بالمقاومة المسلحة فى حالة اقتحام منزله بالقوة ، واعترف بأن الواجب وحده هو الذى يضطره إلى قبول مثل هذه المعاملة المهينة .

* * *

فى هذه الظروف العصيبة كان لا بد من رجل يخرج بالبلاد من هذه الفوضى الضاربة ، وذلك قانون من قوانين التواريخ التى تصدق فى كثير من الأحيان : كل فوضى سياسية وحروب أهلية تنتهى آخر الأمر الى ظهور رجل قوى يسيطر على الحال ويعيد الهدوء ويعلن الدكتاتورية . هكذا ظهر قيصر من فوضى الحرب الأهلية بين الأحزاب فى روما ، ونابليون من فوضى الثورة فى فرنسا ، وصلاح الدين من فوضى الاسلام قبيل الحروب الصليبية ، ومحمد على من هذا المرجل الفوار الثائر الذى وصفناه .

الظروف تستدعى ظهور رجل قوى

فى سنة ١٨٠٣ أبدى الكولونل ويلسن دهشته من عدم وجود مخاطر قوى موهوب طموح ليقود فرقة من الجنود ويقاوم المماليك (١)

(١) Wilson : History of the British Expedition, p. 243
عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٠

الأجانب يتوقعون ظهور رجل قوى

وكتب أمريكى كان فى القاهرة سنة ١٨٠٤ يقول « إن مصر من غير رئيس ، ولابد لها من رئيس جديد ، وأول متقدم سيقابل بالترحيب »(١) والواقع كما يقول الأستاذ غربال « أنه لم يكن هناك مخرج الا باحتلال أجنبى أو ظهور مخاطر على المسرح واستيلائه على السلطة . كان المماليك بأعدادهم القليلة عاجزين تماما عن استرداد ما كان لهم من مقام وعن طرد الأتراك ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يجلبوا جنودا جددا من الشرق ، لأن الباب العالى قد حرم إدخال الصبيان إلى مصر . (٢)

لم يخطئ هؤلاء الأجانب فيما ذهبوا إليه ، وكان لابد أن يظهر « البطل » وكانوا على حق فى تساؤلهم لأنهم لم يكونوا يدركون هذا التطور الهادئ الذى تناول المصريين وأخذ يعدهم شيئاً فشيئا لليوم الموعود ، وكانوا يجهلون بطبيعة الحال ما انتهى اليه الشيخ الجليل عمر مكرم وهو فى معتزله يتأمل الأحوال ويرقب الحوادث ، ولم يكن عندهم نبأ بأثر ثورة القاهرة الثانية فى نفسه ... وما علمهم بأن هذا الرجل قد يئس من الأتراك يأسا تاماً ، وتجلى له شرهم وسوء حالهم من هذا التصرف السيئ الذى ظهروا به أيام هذه الثورة ، وكيف أقاموا القاهريين وأشعلوا نيرانهم ثم تركوهم يصلون نار الفرنسيين حامية ، وكيف غدروا بهم واستعانوا بقوتهم حتى اذا استتب لهم الأمر لم يكن لهم عمل الا نهب البيوت والاعتــــداء على الآمنين وفرض الاتاوات واصلاء الناس سوط العذاب .. أين لهم العلم بهذا التطور العظيم الذى شمل هذا الرجل الهادئ المطمئن الذى كانت الأيام تعده وتصقله ليكون على يده خلاص البلاد حين يعم الطوفان ، وتنذر المقادير بالبلاء العظيم ..

(١) من خطاب رجل أمريكى الى السير الكسندر بول (قنصل انجلترا فى مالطه) ٣١ ديسمبر سنة ١٨٠٤ عن المصدر السابق نفس الصفحة .

(٢) نشأة المسألة المصرية ، ص ١١٢

لا شك أن عمر كان يحس احساس المصريين فى ذلك الحين ، وكان تواتر الشقاء قد انتهى بهم إلى حال من السخط ليس بعدها زيادة لمستزيد . أصبحوا فى فقر بالغ ومع ذلك يزداد عليهم الطالب وتتوالى المصائب كل يوم ولا رحمة ولا هوادة . لم يجد الشعب بطبيعة الحال أمامه الا علماءه الذين تعود أن يلجأ اليهم كلما اشتد به الضيق وناء صدره بالآلام . وكان عمر رأس هؤلاء العلماء وأشرفهم وأكثرهم إحساساً بآلام المصريين ، وكان يشعر تمام الشعور بواجبه وما ينبغى عليه عمله ، وكان يحس إحساسا صادقاً بأن الغليان شديد وأن الانفجار بات قريباً . فجمع زمام المصريين فى يده ولبث يتحين الظروف ليضرب الضربة القاضية .

عمر يشعر بضرورة العمل

ولكن ! . . . أكان فى استطاعته الانتظار . ان الظروف تتطور بأسرع مما كان يتوقع ، وهؤلاء المماليك لا يتقون الله فى هذا الشعب الأعزل المسكين ، وهؤلاء هم الأتراك لا تأخذهم رحمة ولا يرعون فى رعاياهم حرمة الدين وشرع الاسلام . . فما العمل . . لابد من السعى والتعجيل بالعمل .

عمر والسياسة

لم يكن عمر سياسيا وإنما كان شيخا فقيها متديناً لا قبل له بالسياسة ومناوراتها وتقلباتها القريبة والبعيدة ، وهو رجل شريف طاهر لا يريد الا خلاص الناس عن أى سبيل . إنه يقبض على زمام الشعب ويسيطر عليه تماما ولكن ما عساه أن يفعل . . إنه يرجو الخلاص من ولاة السلطان لا من السلطان نفسه ، إنه يسعى للانقاذ ولكنه لا يريد أن يكون ملكا أو أميرا . . فليس هذا من خلق العلماء ولا حماة الشرع ولا رجال الدين ، إن عليهم أن يولوا على الناس أصلحهم ، وأن يشدوا أزر الصالحين ، ويحولوا بينهم وبين الظلم إذا مالت بهم نفوسهم الى الطغيان . كان عمر يائساً من الولاة والباشاوات والبكوات ، وكان يدور بعينيه باحثاً عن رجل يعهد اليه بالحكم ، رجل صالح

قادر رحيم .. متدين .. وكان لا بد أن يكون تركيا .. فهذا منطق السياسة فى هذه الأيام .. لا مفر من أن يكون الحاكم تركيا حتى لا يغضب السلطان خليفة المسلمين .

كان هذا الرجل يرقب الأمور فى هدوء، وأغلب الظن أنه لم يكن يفكر فى الولاية أو السلطان هذه الأيام ، كان على رأس جنوده الألبان يتأمل الأحوال فى حذر ، ولاشك فى أنه استبان اضطراب الأحوال وود لو كان على يديه الخلاص من هــذه الفوضى ، فبدأ يتحرك فى حذر شديد .

كان جند الأتراك فريقين ، فريق الانكشارية وفريق الألبان أو الأرناءود ، وكان محمد على رأس الطائفة الثانية ، وكان الجميع ساخطين من سوء الحال وانعدام الرواتب ، وكانوا لا يفتأون يصبون غضبهم على المصريين المساكين ، فيشكوا هؤلاء لعلمائهم ، فيتوسط هؤلاء لدى الوالى ومحمد على ..

بدأ ظهور محمد على

هنا تقابل محمد على وعمر مكرم ، فأحس محمد على — بالفطنة الهادية التى هى العنصر المميز للعباقرة — بأن فرصته قد أقبلت وأنه لا بد أن يبدأ العمل ..

حركات محمد على الاولى

بدأ فأمر جنوده أن لا يعتدوا على الشعب وأن لا يؤذوا الناس ، وأن يتظاهروا بالغضب على الباشا وجنوده ، وأن يقولوا للناس صراحة « انا معكم ، وأنتم الرعية ونحن العسكر ، ولم نرض بهذه الضريبة ، ورواتبنا على الميرى لا عليكم ! » ، فأى عزاء هذا للمصريين ، وأى عطف يقابلونه بالشكر والعرفان .. هكذا بدأت الأنظار تتجه نحو هـذا الرجل ، وتعلق عليه الآمال الكبار وتنظر اليه كمخلص وحليف ..

هكذا خرج الألبان ورئيسهم من هذا المعترك الحامى الذى

سينشب بين الجند الأتراك وولاتهم ؛ وكلما اشتد الضغط على الجنود وزاد تأخر مرتباتهم حاصروا الوالى ، فلا يجد مناصا من الهرب اذا اسعفه الحظ كما فعل خسرو فى أول مارس سنة ١٨٠٣ .

مركز محمد على

فاذا هرب الوالى ، فالى من يلجأ الجند الا لهذا الرجل الذى يحرص أشد الحرص على أن يظهر بمظهر العادل الحكيم الذى ينفر من كل هذه الأعمال والتصرفات .

يذهب الكثيرون الى أن كان يستطيع أن يصبح واليا فى هذه المناسبة ولكنه آثر الزهد فى الولاية .

ولكنه كان أذكى من أن يقتحم الأمور هذا الاقتحام ، كان يتريث فى أموره ويحكم تدبيره ، ويحذر الحذر كله من أن يغضب السلطان ورجال السلطان ، فأصر دائما على أن يتنحى عن الميدان ، اما ليهرب من غضب السلطان أو يفر من المسئولية . فجعل همه أن يوصى بتولية من يكون فى مصر من الباشاوات فيعمل على ولايتهم ثم يدبر لهم ، وكان أعلم الناس بأن القاهرة فى هذه الفترة بركان ثائر ، وأن منصب الولاية كان أمام الفوهة ، عليه ينصب غضب الناس الذين اشتد بهم الظلم . . ونحوه تنطلق قنابل الجنود الذين لا تصلهم الأعطيات .

طاهر باشا

كان هناك قائد آخر للألبان . هو طاهر باشا أحق منه بهذا المنصب لأنه باشا ، ولأنه لا يعرف الخطر الجاثم خلف قبول منصب كهذا . كان أسلوباً ماهراً لجأ اليه محمد على ليخلص من طاهر قائد الألبان ، حتى تنتهى إليه قيادة هؤلاء الجنود ، فيصبحوا بعد ذلك آلة فى يده يحقق بها مطامعه . وكان هؤلاء الأتراك هم العماد الثانى الذى ارتكزت عليه قوة محمد على ، والعماد الأول هم المصريون طبعا . . لقد عمل وعاون على ولاية طاهر ورضى عنه ، ثم أنشأ يحفر له البئر من خلف .

كان على طاهر أن يجيب مطالب الجنود الثائرين ، وكان عليه كذلك أن يحول بينهم وبين المصريين العزل المساكين ، وأين له أن يجمع بين النقيضين ويرضى الطرفين ، وهو رجل شرير ظل طول حياته وحكمه رمزا للفوضى التى كانت شائعة هذه الأيام ، ويدا شديدة تضغط عنق القاهرة التى أشرفت على الموت و « لو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل » كما يقول الجبرتى .

ولكن عمره لم يطل .. فى ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ (٤ صفر سنة ١٢١٨) دخل عليه موسى أغا واسماعيل أغا وحدثاه فى رفع الظلم وصرف المتأخر من المال فأبى ، فقطعا رأسه ورمياه من الشباك .

وخلا الميدان مرة أخرى .

أحمد باشا

ونظر محمد على فاذا باشا ثالث مار بمصر فى طريقه إلى المدينة المنورة .. فلم لا يقام واليا .. لم لا يوضع فى الأتون حتى يُفرغ من أمره .. وهكذا أقيم أحمد باشا واليا ..

لا شك أن محمد على كان يعمل جادا فى هذه الأيام .. كان يعرف عرفان الواثق أنه لابد لهذه الفوضى من آخر . لا مناص من القضاء على كل عناصرها حتى تهدأ الحال وتعود الأمور إلى مجاريها ؛ فهؤلاء هم ولاة السلطان وجنوده متروكون لبعضهم ، كلما أكل الجنود باشا قُدم إليهم باشا آخر .. فلا يلبثون أن يأكلوه .. لا بد أن ينتهى الباشاوات يوما من الأيام .. فيخلو الجو أمام غيرهم .

محمد على والمماليك

بقى المماليك عنصرا قويا مهاب الجانب ، فكان لامفر من اتقاء شرهم والكيد لهم ، كانت أول الحلقات التى تبدأ بها «سلسلة الحوادث التى انتهت بقبضه على السلطة » هى ثورة الألبانيين التى أشرنا اليها والتى انتهت بمقتل طاهر باشا ، فلم يكد المماليك يتسامعون بذلك حتى قفزوا إلى الميدان ، ووجد محمد على أنهم سيصبحون أصحاب السلطة

وأولى الأمر . فأسرع وبسط لهم يده ، وحالفهم ليتقى شرهم من ناحيـــة وليدبر لهم من ناحية أخرى ، « كانت خطوة جريئة ، لأن المماليك كانوا عصاة فى نظر الباب العالى وكان الباشا الشرعى (وهو خسرو وكان فى ذلك الحين فى دمياط منذ هروبه من القاهرة) ما زال فى البلاد ، فكان (محمد على) ماهرا كل المهارة فى الزهد فى كل مظهر غير شرعى والمساهمة بنصيب كبير فى النظام الجديد » (١)

وأراد المماليك أن ينتهزوا هذه الفرصة ليصبحوا أصحاب الأمر والنهى فى البـــلاد ، ولم يكن يرضيهم بطبيعة الحال أن يظلوا على هذه الحال من النفى خارج القاهرة فدبروا هجوما عليها ، يطردون به الوالى التركى أو يقتلونه فيخلو لهم الجو . ومن ثم دخل المماليك من الجيزة وعلى رأسهم البرديسى وابراهيم بك فأسرع أحمد باشا بالهرب ، فلم تدم ولايته أكثر من يوم وليـــلة . وهبّ الانكشارية لمقاومة المماليك ، فوجد محمد على الفرصة سانحة لتجريد الولاة الأتراك من قوتهم . وهم الانكشارية فعاون المماليك على التخلص منهم ، فطردوا من القاهرة ونادى المنادى فى ربوع البلد « بالأمان حسب ما رسم ابراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على » .

افندينا محمد على

ولكن محمد على وجد أنه سار فى الأمر إلى أبعد مما ينبغى ، لم تكن الخشية من السلطان هى التى حفزته إلى الانزواء بعض الشىء ، وإنما كان يعلم حق العلم أىّ بركان يكمن تحت قدمى حاكم البلاد ، لقـــد أعلن اليه صديقه عمر مكرم أن الثورة تغلى فى النفوس وأن المصريين قد زاد بهم عبث العابثين . وانهم سيخطون إلى الأمام يوما ما ويفتكون بكل من يجدونه أمامهم واليا كان أو مملوكا . فرأى محمد على أن يتراجع بعض الشىء ، حتى إذا انفجر البركان نجا من ثورته . . ثم خطا مع الداخلين .

الاتفاق بين عمر مكرم ومحمد على

(١) نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٢

بدأ حكم البكوات بما يبدأ به حكمهم عادة ، بالظلم والضرائب ، وارهاق الناس ، فبدأت بذلك سلسلة الحوادث السريعة المتعاقبة التى انتهت بالثورة المصرية وولاية محمدعلى .

عودة الألفى

فى هذه الأثناء تسامع البرديسى ومحمد على بعودة الألفى من رحلته إلى انجلترا ، « وقد كانت خدعته وعود الانجليز فذهب إلى انجلترا ، وكان منذ زمن بعيد مخلصاً لهم دون تحفظ ، يتبع آراءهم ولا ينصت إلا لنصائحهم(١) » وكانت هذه الرحلة قد انجلت عن معاهدة سرية بينه وبينهم تقتضى بأن يكون لانجلترا الحق فى احتلال موانى البحرين الأبيض والأحمر فى حالة ما إذا أصبح المماليك أصحاب السلطة فى البلاد، وكانت الوزارة الانجليزية تدافع بقوة عن قضية تابعها « الألفى » أمام الباب العالى(٢) .

الألفى والانجليز

يؤيد الأستاذ الرافعى هذ الرأى وان كانت الحقائق لا تدل على صدقه فقد كان الألفى موغر الصدر على الانجليز لأنهم « قد عرفوا بلاده ويتمنى لو أعماهم » وكان قد أحس أنهم لا ينوون به الخير الكثير فعاد وفى نفسه سخط عليهم ، ذلك هو رأى السير الكسندر بول مندوب انجلترا فى مالطه ، الذى قال عن الألفى انه « شرير محزون ، ربما أصبح عدواً لانجلترا » ولكن انجلترا رأت أن تستفيد منه فسعت ليكون بينه وبينها محالفة أو ما يشبه المحالفة لأنها كانت تعرف — إلى حد ما — مدى سلطان هذا الرجل ومقدار ما كان يستطيع من الأعمال .

عودة الالفى من رحلته الى انجلترا

عاد الألفى من زيارته الغريبة إلى لندن . وألقت به السفينة الانجليزية على شاطىء مصر بعد أن استراح فى انجلترا فترة قصيرة من الزمن ، وكان قد رحل اليها مع الجنرال ستيوات ، لا بدعوة من الحكومة

(١) Mengin : L'Egypte sous Mohamed Aly' I' 25
عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٩

(٢) Naurioz : Histoire de Mohammed Aly' I' 242
عن نفس المصدر السابق ، ص ٢١٩

البريطانية او ترحيب منها ، وكان ستيوارت ، قد تخوف من زيارته فأنزله فى مالطة فترة من الزمن حتى يعرف رأى حكومته فى هذه الزيارة ، ثم سمح له بعد ذلك بالذهاب إلى انجلترا فوصل لندن فى أكتوبر سنة ١٨٠٣(١) . فأثارت زيارته قلقاً كثيراً فى تركيا وانجلترا ، فأما الأتراك فقد أوجسوا شراً ، وخافوا أن يكون لهذه الزيارة معنى سياسى ، فسارع الانجليز وأكدوا لهم أنهم لن يقبلوا من الألفى شيئا فيه ضرر على الدولة العثمانية ، وأكد الألفى نفسه ذلك ، لأنه كان يحس بأن الدولة لن ترضى عن زيارته ، ولن تكف ساعية للايقاع به والخلاص منه ، وكان يمنى نفسه فى واقع الأمر بكسب ود الانجليز وحسن ظنهم ، بل استطاع فى لحظة ما ، أن يشغل بال نفر من الساسة الانجليز فوضعوا المسألة المصرية موضع الدرس والتفكير ، ولكنهم عادوا فقدروا المصاعب التى تعترض تنفيذ أى مشروع للتدخل فى المسألة المصرية ، وقدروا غضب الفرنسيين وسخط الأتراك والمشاكل العديدة التى تنشأ عن ذلك . فكفوا عن العناية بالألفى ولم يستمعوا له ، ولم يفكروا فى معاونته جديا ، ولعل الحكومة الانجليزية لم تكن تعلق عليه ولا على زيارته أملا كبيراً ، لأنها لم تكن بحاجة إلى رأى منه أو وعد من مماليكه ، إذ كانت تعرف تمام المعرفة أنه ان كان هناك خير فى التعاون معه ، فهى قادرة على الحصول على معاونته وهو فى مصر نفسها ولا حاجة لوجوده بلندن ، أما هو فكان يؤمل فى الحكومة البريطانية أملا عريضاً ، وكان يمنى النفس بجيش قوى ومال طائل ينفق منه ، حتى يستطيع القضاء على الأتراك والسيادة على أعدائه من مماليك البرديسى ، فترددت الحكومة البريطانية تردداً طويلا فى اجابته إلى مطالبه ، وخيبت آماله فعاد آخر الأمر يجر أذيال

خوف الأتراك من هذه الزيارة

الانجليز والألفى

الألفى والانجليز

(١) نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٩

الخيبة ، وقد أخطأ كثير من المؤرخين فى معنى هـذه الزيارة وتأويلها وعلقوا عليها نتائج كثيرة ليس من الانصاف أن تنسب اليها ، اذ « من الواجب علاج هذه المسألة بشىء من التفصيل لأنها كانت أساساً لأغرب الآراء والمذاهب ، فيذهب منجان — وأخذ عنه كل مؤرخى محمد على الذين أتوا بعد ذلك — إلى أن الألفى « خدعته وعود الانجليز فذهب إلى انجلترا ، وكان منـــذ حين مخلصاً لهم إلى غير حد ، متبعاً آراءهم عاملا بنصائحهم » . والواقع أن البك استقبل بالترحاب فى بادئ الأمر ، ثم أهمل اهمالا تاماً ، ولكن الأمر تغير حينما وردت الأخبار بدخول المماليك القاهرة ، فأصبح الألفى مرة أخرى موضع الرعاية وفتحت له الحسابات . . . الخ . وأقام الرجل ما أراد الله له المقام فى بلاد الانجليز ، ثم عاد منها صفر اليدين لا يعزيه وعد أو أمل . . عاد ليُلقى على شاطئ مصر فى سكون كما ذكرنا ، فلا تكاد قدمه تمس ثرى مصر حتى يسرع بالاختفاء « لأن الأوامر بقتله كانت قد انتشرت فى كل مكان » كما يقول الجبرتى .

البرديسى وعودة الألفى

أوجس البرديسى — بل محمد على — خيفة من هذا القادم الجديد لأنه كان رجلا ممتازاً شديد الذكاء « وهو آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة ونظراً فى عواقب الأمور ، وكان وحيداً فى نفسه فريداً فى أبناء جنسه ، وبموته اضمحلت دولتهم وتفرقت جمعيتهم وانكسرت شوكتهم ، وزاد تفرقهم ، وما زالوا فى نقص وادبار وذلة وهوان وصغار ، ولم تقم لهم بعده راية وانقرضوا وطردوا إلى أقصى البلاد فى النهاية » كما يقول الجبرتى . وكان الألفى محبباً إلى الناس لشهامته وفروسيته وبعد صيته فى الشجاعة ولما له من المهابة الشخصية ، وكان الجبرتى يحبه ويقدره تقديراً عظيما ، وقد اختصه

رأى الجبرتى فى الألفى

برثاء طويل حزين تشعر فيه بحبه لهذا المملوك القوى المهاب ، ولعل ذلك راجع إلى أن الاثنين كانا يكرهان البرديسى أشــــد الكراهية ويشتركان فى الميل إلى علم الفلك كما يقول الأستاذ غربال .

لهذا سارع البرديسى فى انفاذ الرجال لقتل منافسه ، ولعل محمد على هو الذى دفعه إلى أن يفاجئ الألفى بهذه العداوة الشديدة دون تريث أو انذار ، فلم يجد الرجل بداً من أن يهيم على وجهه ويظل مختفياً فترة طويلة من الزمن .

البرديسى حاكم بأمره

بهذا حسب البرديسى أن الجو قد خلا له وأن أمور مصر انتهت بحمد الله إلى يديه الكريمتين ، وكان إلى جانبه هـذا الرجل القوى الواسع الذهن يدبر له نهايته صابراً متئداً ، وكان هو — أى البرديسى — لا يكاد يفطن إلى قوة محمد على ولا يلقى إلى تدبيره بالا ، فسهل على محمد على الايقاع به والخلاص منه .

هنا نبدأ سلسلة الحوادث المتعاقبة التى تنتهى فى أقل من عامين بولاية محمد على واستقرار أمور البلاد ، وخلاصها من هذه الفوضى التى ظلت تسودها طوال الأعوام الماضية ، إذ لم يكن من المعقول أن يصفو الجو إلا إذا زالت عوامل الفساد والاضطراب وهى المماليك والأتراك ، وحلت محلها عناصر جـــديدة تحسن القيام بالأمور ، وتعمل جادة مخلصة ، لا تساوم ولا تعبث ، ولا تبيع البلاد بدراهم معدودات ، هذه العوامل الجديدة هى العنصر المصرى الذى تتبعنا تطوره نحو القوة فى شىء من التفصيل . ثم محمد على الذى سيوجه نشاط هذا العنصر ويحسن الاستفادة منه على أحسن وجه يكون . هذه الحوادث التى تنتهى الى الثورة المصرية ، التى كانت الكسب الوحيد الذى يعزى المسلمين عن الخسائر المتواترة التى تعاقبت على بلاد الشرق الاسلامى فى هذا القرن العصيب .

الدور الذى لعبه محمد على

ونحب أن نعلق هنا على ما تجمع عليه الكثرة الغالبة من أن محمد على كان روح الحركة وعمادها طوال هذه الأيام ، وأن كل خطوة أو حركة لابد أن يكون له فيها أصبع وأثر . تلك مبالغة لامعنى لها ولا تضيف إلى عظمة الرجل شيئاً كثيراً ، لأن عظمته الحقيقية انما تتجلى فى سياسته وادارته بعد أن أصبح والياً لمصر ، أما صراعه للوصول إلى السلطة ومناوراته التى قام بها لبلوغ هذه الغاية ، فأمر متوارد كثير الحدوث فى التواريخ الشرقية . وقصارى مايقال فى ذلك أن الرجل أحسن انتهاز الفرص وأحكم سياستها ، وحرص أشد الحرص على أن لاتفلت منه الثمرة آخر الأمر . ولكنه لم يكن كل شىء . كانت الى جانبه قوى أخرى تشد أزره وتعاونه وإذا كان له أثر محسوس فى توجيه الحوادث فى هذه الأيام فلم يكن ذلك لأنه كان محمد على فقط ولا لأنه كان قائد الألبانيين ، بل لأنه كان حليف المصريين .

وليس بغريب أنه أصبح والياً لأن خسرو وطاهر واحمد وعلى الجزائرلى ثم خسرو مرة أخرى ثم خورشيد أصبحوا ولاة دون مشقة . لم يبق فى البلاد باشا تركى : ماراً فى الطريق أو واليا على الاسكندرية أو سجينا إلا أصبح والياً ، فلم لايصبح محمد على وهو التركى الوحيد الذى بقى فى البلاد ، إذا كان كل هؤلاء قد أصبحوا ولاة للدولة على مصر دون أن يحتاجوا لبلوغ هذا المنصب الى عبقرية خاصة أو تدبير واسع كان يكفى أن يكون المرء تركياً وقائداً لنفر من الأتراك حتى يصبح والياً على مصر فى تلك الأيام ، فاذا كانت لمحمد على سياسة خاصة تذكر ، فهى حذره الشديد وتريثه الطويل حتى تتم تصفية جميع القوى المؤثرة فى القضية المصرية حتى إذا انتهت تقدم فى كثير من الثقة والاطمئنان .

فاذا كانت ولاية محمد على أمراً عادياً لايفترق فى كثير عن ولاية غيره من الباشاوات الأتراك . فما ميزته عليهم ، ولماذا استطاع الثبات فى حيث فروا ، والنصر فى حيث انهزموا ؟

لم يكن هو وحده قائد الجند الألبان ، فقد كان طاهر باشا — وهو أفشل ولاة هذه الفترة — قائداً لهؤلاء الجنود . بل كانت قيادته لهم سبباً فى فشله وقتله والقاء رأسه لجنوده !

هل لفرنسا أثر فى ولاية محمد على

ولم يكن ذلك لأن فرنسا اصطفته من بين القائمين بالأمر فى القاهرة ، لأنها وجدت فيه رجل الساعة . . أو لأن المسيو دلسبس ارتأى فيه الرجل القادر على قيادة الأمور والخروج بالبلاد مما هى فيه ، ليس فى هذا الزعم ظل من الحق ، ولا ريب فى أن مؤرخ أسرة دلسبس كان مخطئا حين قال عن مهمة المسيو ماتيو دلسبس حينما وصل القاهرة فى سنة ١٨٠٣ :

" Il fut le prémier instrument de l'élévation de Mehemet Aly. Il avait pour mission de chercher en Egypte un homme de caractère, capable de rétablir l'ordre en s'élevant (au dessus des Mamélukes contraireo à la politique française). Il avait distingué et singnalé à son gouvernement Mehemet Ali qui était colonel ". (١)

كذب هذه الدعوة

هذا زعم باطل تنفيه المراسلات الرسمية الباقية من هذه الفترة ، إذ فى هذا الظرف بالنفس كان تاليران وزير الخارجية الفرنسية يشتد فى التنبيه على المواطن دلسبس بأن يبتعد عن كل نزاع ويتجنب أى تدخل فى شئون البلاد .

فرنسا تأمر سفيرها بموالاة الاتراك

" que le citoyen Lesseps apporte dans sa condite et ses démandes auprés du chef délégué par la porte toute la sagesse et la circonspection dont il est capable. Il s'applique à se concilier son éstime et sa confiance en évitant toutefois de s'immiscer dans les querelles des deux parties ". (٢)

(١) آثرنا أن نثبت هذا النص كما هو بدون ترجمة لأهميته عن :

Bridier : Une Famille française, p. 129.

عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٣ (٢) نفس المصدر

لم يكن دلسبس إذن مكلفاً بالبحث عن رجل يعهد إليه بشئون البلاد . وانما كان مكلفاً رسمياً بالتودد إلى الوالى التركى واحترامه ومعاملته المعاملة اللائقة بمقامه السياسى . والبعد عن المنازعات وعدم التدخل فى الأمور . .

تحالف ماتيو دلسبس مع المماليك

وكانت تصرفات لسبس كلها الاندل على أنه كان يسعى — ولو بصفة شخصية — الى ادراك هذه الغاية ، فقد حالف المماليك غداة وصل القاهرة واحتفلوا به احتفالا جليلا ، وقد لبث على هـذا فترة عجز بعدها تماما عن التدخل بأى سبيل . وتساءل فى حيرة : « الى أى النواحى يستطيع ممثل دولة أجنبية أن ينضم فى وسط هذه المذاهب المتباينة » . بل كان يشكو طول الوقت من قصر باعه وقلة موارده . كان ينظر بحسد الى المستر «ستْ» مندوب انجلترا الذى تمده حكومته بما عسى أن يحتاجه من المال . وبعد أن يئس تماما من المال ، انشأ يوزع الخمر كما قلنا ، على الألبان والمماليك لكى يعترفوا بوجوده على أقل تقدير .

رأى لسبس فى محمد على

وليت المواطن الماهر وفق فى هذا ، لقد فشل وتحرج موقفه وخرج الأمر من يده تماما ، وسارت الأمور فى مجراها وهو يرقبها دون أن يكون له أى أثر ، بل لدينا ما يؤيد أنه كان لا يرتاح لمحمد على ولا يرى فيه شيئا يستحق الذكر ، واليك رأيه فيه من خطاب أرسله لحكومته : « ان محمد على رئيس الألبان يطلب حماية فرنسا وتوسطها لدى الباب العالى (١) وأؤكد لكم مقـــدما أن مشروعه ليس أكثر من خيال . وأنه يرجو أن يصبح السيد الأعلى . ولكن على الرغم من أن هذا الرجل أقل وحشية من نظرائه ، فانه منضم لنا فيما يظهر ، ولا

(١) وهذه عبارة لها معناها ودلالتها على تصرفات محمد على قبل ارتقائه الولاية والوسائل التى كان يتخذها لبلوغ ذلك ، وهى — من بعض وجوهها — لا تكاد تختلف عما كان يفعله المماليك من تذبذب بين الفرنسيين والانجليز وحذر دائم من الاتراك .

أعتقد أن لديه القـــدرة على ترسيم مشروع لهذا السبيل وا كتشاف الوسائل لتحقيقه (١) » وهل كان دلسبس فى حال تسمح له بالتدبير ورسم الخطط ، لعلنا نظلمه بهذا الزعم اذا كان الرجل مسكينا لا يكاد يقف على قدميه ، وقد كاد يعجز تماما عن الدفاع عن نفسه ، وقد اعترف هو بذلك فقال « إن ما بذلته من التضحيات لاصلاح ما بيني وبين رؤساء الالبان قد أنقـدنى الى الآن » الى الان فقط . أما بعد ذلك فلا قدرة له على المقاومة أو الثبات ، أما التضحيات التى أشار اليها . فهى — كما يقول الأستاذ غربال — الخمر التى كان ينفقها دون حساب . بل كان الرجل غيران يأكل قلبه الحسد لما وفق اليه مسّت مندوب انجلترا بفضل ما لديه من مال « ليس لدى مع الأسف ما أعطيه وانجلترا تبعث الذهب والهدايا . . . » (٢)

لسبس يأس

بل كلما استعصب الظرف واقتربت الثورة كلما فكر الرجل — أى مندوب فرنسا الذى أرسل الى مصر لاختيار رجل الساعة فى الرحيل — حتى اذا تحرج الأمر وأنذرت بوادر الأحوال بثورة المصريين على المماليك — وهى أول موقف حاسم ظهر فيـــه محمد على — جمع الرجل متاعه ورحل الى الاسكندرية تاركا مرشحه ينقذ نفسه ان استطاع .

لسبس يفر الى الاسكندرية

تخرج فرنسا اذن من الميدان ، لم يكن لها فى ولاية محمد على يد بل لم تكن ترضى بهذا التعيين .

إذن لماذا انتصر محمد على . . ولماذا ثبت . ؟

لأنه كان مرشح المصريين وصديقهم ،

واليك التفصيل :

---

(١) من خطاب لدلسبس الى تاليران بتاريخ ٢٢ فبراير سنة ١٨٠٤ عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢٢٢

(٢) If republican poverty prevented him from scattering gold, republican virtue did not scruple at the use of liquor.

رأى الأستاذ الرافعى

يبالغ الأستاذ الجليل الرافعى فى تقدير حالة المصريين المعنوية ، ويذهب الى انهم لم يكونوا أقل من الفرنسيين الذين قاموا بالثورة المعروفة ، ونسى أن ثورة فرنسا كانت لها مقدمات بعيدة مهدت الطريق للفرنسيين حتى وصلوا إلى حالة معنوية قوية جداً ، كان الكتاب والفلاسفة قد ملأوا الأرض بآراء الحرية والمساواة وحقوق الانسان ، وأفاضوا فى مجد فرنسا ونبهوا إليه الأذهان ، ونسى أنه كانت هناك طوائف كثيرة من المتعلمين تعليما مدنيا فى القانون والآداب والفلسفة وما إلى ذلك .. وأولئك هم الذين قادوا الثورة وأشعلوا نيرانها وأفاضوا عليها هذا التألق الخالد الذى يحيط بها فى صحائف التاريخ .. ثم كان فى الأمة جيش وطنى ، مهما تكن حالته المعنوية فهو جيش على أى حال .. ولقيام الجندية فى الشعوب أثر اجتماعى معروف .. وللجنود القدامى فى الثورة الفرنسية أثرهم الذى لا يخفى .. أما فى مصر فلم يكن هناك إلا عمر مكرم وطائفة قليلة تفهم الأمور حق الفهم وتجرؤ على الثورة والمناهضة ، وهو — أى عمر — بعد ذلك كله ، عالم لا تميل نفسه إلى السياسة ولا يرجو السلطان ولا المنصب . بل انه كان اسلامى التفكير لا يكاد يرى الأمان إلا فى ظلال السلطان ولا يتصور الانفصال عنه . . بل هو ما زاد فى ثورته على أن خلع والياً تركياً وأقام مقامه والياً تركياً آخر ، وهـــذا لا يتنافى مع ما ذهبنا إليه فى تحليل فكره السياسى ، لأن ما ذكرناه كان يدور فى ذهنه أما عواطفه فقد ظلت اسلامية إلى النهاية ، وكانت عواطفه — كما ذكرنا — أغلب من رأيه .

هل الثورة المصرية تشبه الثورة الفرنسية

لنحذر إذن المبالغة فى هذا التقدير ، ولنعرف أن المصريين لم يكونوا يطلبون الحرية والاستقلال كما نفهمهما الآن . وانما رفع المظالم وتخفيض الضرائب وابعاد المماليك والألبان وهدوء الأحوال ، بل عمر نفسه

لم يكن يرجو أكثر من ذلك . ولم يكن ليعرف الاستقلال والحرية كما نفهما نحن اليوم ، أو ليطوف بخلده أن يرفع المصريين إلى مراتب الحكام وأصحاب الأمر والنهى فى البلاد .

تفكير السيد عمر السياسى

ولنذكر إلى جانب ذلك أن السيد عمر لم يكن يسعى للرئاسة أو الحكومة وإن استحقهما ، ولم ينفرد وحده بذلك لعفة نفسه بل كان مثله فيه كمثل كل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة من أهل البلاد مهما بلغت مطامعهم وترامى طموحهم ، فلم يكن أحد منهم يفكر فى أن يتولى بنفسه حكومة البلاد ، بل كان أقصى أمانيهم أن يتقربوا إلى أولى الأمر وأن يحظوا منهم بالعطف والقربى والرعاية على أى لون من الألوان . وتلك نتيجة طبيعية للوضع السياسى الذى وجد الشعب المصرى نفسه عليه فى ظل الحكومات التى تواترت عليه من قديم الزمان ، إذ اضعف فيه ثقته بنفسه وجعله يخشى المسئولية ولا يقتدر على إعباء الحكم ، فيكتفى بأن يكله إلى غيره من الأجانب ويتولى هو المعاونة والمساعدة ، وهذا ماسيفعله عمر مكرم ، فلم يكن لينقصه إلا أن يمسك الصولجان كما يقولون . . ولكنه ترك الأمر طواعية لمحمد على وسلمه كل مقومات الحكم ، كأنه كان يشعر فى نفسه أنه غير كفء له ولا قادر عليه . واستمر يعاونه سنوات طويلة ، وهو يعلم العلم كله أن لا بقاء لمحمد على إذا تخلى هو عن نصرته . ولكن نفسه لم تتطلع إلى الحكم أو مركز الولاية .

حالة المصريين المعنوية

فاختيار المصريين لمحمد على للولاية لا يسمى نضوجاً سياسياً ، ولا يعتبر دليلا على إحساس الشعب بنفسه أو فهمه أن من حقه أن يتخير حاكمه ويراقب أعماله ، فكل تلك أمور سيدركها الشعب المصرى بعد حين — بعد أن يرتقى تفكيره السياسى ويزداد إحساسه بنفسه — أما فى هذه الأيام فلم يكن المصريون ليطلبون إلا حاكما صالحاً قديراً على

نشر العدل وقطع دابر اللصوص والعابثين بالأمن ، فاذا وجدوه لم يكن لهم بعد ذلك مطمح ولا غاية ، ولا يصح الاعتراض على ذلك بأن المصريين كرهوا حكم نابليون بالرغم من أنه كان أصلح من حكم المماليك ، لأنهم إنما كرهوا نابليون بعواطفهم الدينية لا السياسية ، ولا يعترض عليه كذلك بأنهم كرهوا محمدا عليا بعد حين ، فقد كانت تلك الكراهية لأسباب أخرى سيرد تفصيلها بعد قليل .

بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أمراً آخر على جانب من الخطورة والأهمية ، وهو أن الشعب المصرى كان قد وصل فى تلك الأيام إلى حالة من التيقظ الذهنى والاحساس بالنفس جديرة بالتأمل والاعتبار ، ولو قد رزق الشعب رجلا قادراً يستطيع الاستفادة من تلك اليقظة لأفاد منها فائدة عظمى ، ولخطت البلاد فى سبيل التقدم السياسى خطوات سريعة واسعة نحو الشعور بالكيان والوطن ، ذلك ان للشعوب والجماعات لحظات من « الاشراق » تتفتح فيها عيونها ونفوسها . فتفهم بوحى البديهة واجبها وتحس بالغريزة بما يحيط بها من خطر ، وتتصرف من تلقاء نفسها التصرف الواجب ، وتلك هى اللحظات الحاسمة فى تواريخ الأمم ، اللحظات التى لها ما بعدها ، وإنما تصل الشعوب إلى تلك الحالة فى لحظات الحرج والضيق والاحساس العام بالخطر على الأرواح والأرزاق فيكون احساسها بالخطر المقبل منبها لعوطفها النائمة : تلك هى الحالة التى أدركها اليونان قبيل سلاميس ، والمسلمون قبيل بدر والمسيحيون قبيل بواتييه والفرنسيون قبيل فالمى ، لحظات تنسى الشعوب فيها نفسها فتأتى بما لم تكن لتستطيعه فى لحظات أخرى باضعاف العدة وفى قيادة أمهر القواد . ولو قد كان لشعب مصر فى هذه الأيام قادة محنكون يحسنون توجيهه لجنت البلاد من ذلك أعظم الخير ، ولأدركت فى ذلك الحين درجة من النضوج السياسى لن تدركها إلا بعد

ذلك بنحو قرن من الزمان ، ويكفى للدلالة على ما أدركه الشعب فى ذلك الحين من القوة والاقتدار ، انه أرغم القوى كلها على الخضوع لارادته واحترامها والتسليم له بما أراد (١) .

مقدمات الثورة المصرية

أدرك السيد عمر أن محمد على هو أصلح للناس لولاية أمور هذه البلاد ، وسعى محمد على نفسه جاهداً حتى استطاع أن يؤكد لصاحبه أنه لا يريد إلا الخير ولا يبغى إلا خلاص أهل البلاد مما هم فيه من الاضطراب وسوء الحال ، وكانت النكبات المتواترة والشرور المتوالية قد أيقظت فى نفوس العامة شعورا من الرعب جعل الحرب والسلم فى نظرهم سيان ، وأصبحوا - ولا أمل لهم فى الحياة - على تمام الأهبة للحرب والاستئساد ، وكان زعيمهم عمر يشعر شعوراً تاماً بأن لا أمان للأتراك ولا صلاح للمماليك ولا ضمير عند صحبه من العلماء ، وأحس بهمته العالية بما كان يعانيه الشعب من الآلام والحرج ، فعول على أن يبذل ما يستطيع من قوة حتى يقيم محمد على الصالح العادل على هذه البلاد ، فكان هذا إيذانا ببدء المعركة الحامية التى استمرت شهورا عدة وتنقلت فى ميادين مختلفة حتى انتهت آخر الأمر بانتصار السيد عمر ومن معه من أهل مصر . وكان محمد على قد يئس تماماً من أن يجعل لنفسه مكانا - أىّ مكانٍ - فى هذه البلاد : إذ خذله الأتراك وكرهه خسرو وعاداه وتخونه البرديسى وعبث به بعد أن « جرح كل منهما يده وأذاق زميله من دمه علامة على عقد الأمانة والاخلاص » (٢) وبعد

---

(١) وعلى الرغم من أن محمد على أوقف ذلك الشعور فانه استطاع أن يستفيد من نضوج الشعب المصرى فى جيوشه التى تمكن من أن ينتصر بها على الاتراك بعد حين . وهى انتصارات تدل على حالة معنوية طيبة جدا ، وبغير ذلك لم يكن محمد على ليستطيع الانتصار على الاتراك بجهد المصريين الذين لا عهد لهم بالحروب قبل ذلك

(٢) سيرة السيد عمر مكرم للاستاذ الجليل محمد فريد أبو حديد (طبع القاهرة سنة ١٩٣٧) ص ١١١

أن أحس الغدر والخيانة من جنوده ومواطنيه من الألبان إذ تهددوه بالثورة وتمردوا عليه كثيراً ، فلما أحس أن السيد عمر مرتاح إليه وأنه يرشحه للولاية عرف أن هؤلاء المصريين هم خير من يعول عليهم لادراك غايته ، وأحس بفطرته الهادية مدى ما يستطيعون من عمل فى هذه الأيام .

بدء المعركة : هزيمة المماليك

بدأت المعركة الحاسمة فى أواخر فبراير سنة ١٨٧٤ ، إذ بدأ السيد عمر ومن معه من أهل مصر يزيلون العقبة الأولى التى تعترض محمداً علياً : وهى المماليك الذين كانوا يدعون الحق فى حكومة مصر ويسعون لذلك عن أى سبيل : لا يستحيون أن يتوسلوا لذلك بالانجليز أو الفرنسيين . وكانت زعامتهم قد انتهت فى ذلك الحين إلى البرديسى الذى أصبح شبه حاكم على مصر بعد أن تخلص من الألفى وشرده فى نواحى البلاد . وأراد البرديسى أن يمضى على مثل ما كان عليه سابقوه من فرض الضرائب والأثقال على الناس بها . فلم يكد يفعل ذلك حتى هب الناس فى وجهه ، وأعلنوا عليه الثورة والهياج ، وأدركهم من ذلك يأس شامل وكمد مقيم ، فلبسوا السواد وناحت النساء ، كأنما أصبح الناس حيال ذلك الأمر كأنهم حيال قدر ظالم لا حيلة لهم فيه ، وتحمسوا وساروا إلى دار البرديسى يهتفون به « إيش تاخد من تفليسى يابرديسى » وأحس جند الألبان حرج الموقف وخافوا على أرزاقهم فوثبوا يعقدون الخناصر مع المصريين ، فوجد البرديسى نفسه بين نارين : نار الجمهور الساخط ونار مدافع الألبان ، فعجل بالهرب من القاهرة ، وتبعه عامة أمراء المماليك فى فزع لا يوصف وتفرق جمعه وجمعهم فى الصحراء أو الأرياف « وكانت سقطة حكم الأمراء هذه المدة آخر عهدهم بحكم البلاد ، فانهم لم يدخلوا القاهرة بعد ذلك حكاما ، بل مازالوا يحاولون ويعجزون حتى قضى عليهم محمد على

القضاء الأخير بعد ذلك بسبع سنوات »[1] وبذلك قرر أهل مصر مصير المماليك وأخرجوهم من الميدان فذللت العقبة الأولى التى كانت تعترض محمد على .

المصريون يقررون حقهم فى اختيار حاكمهم

هنا يبدأ الدور الثانى من المعركة : وكان العدو هذه المرة هم الأتراك أنفسهم ، فقد استبان الشعب أنه لا صلاح لأمور مصر معهم : إذ أرادوا من أول الأمر أن يرغموا الوالى التركى على أن يحسن السيرة فيهم وصبروا لذلك صبراً طويلا ، فلما يئسوا انعقد عزمهم على الخلاص منه واستبدال غيره به ، فلم يجدوا الجديد خيرا من القديم . ومن ثم عولوا على أن يختاروا هم بأنفسهم بعد أن أيأسهم السلطان بسوء الاختيار . كان الوالى فى هذه الأيام هو خورشيد باشا وكانت الأخطار قد أحدقت به من كل جانب ، إذ أحاط المماليك بالقاهرة وحصروها حصراً شديداً وأنقلب عليه جند الألبان ، فلجأ إلى القاهريين يطلب اليهم أن يعاونوه على أعدائه فأبوا ورفضوا أن يبذلوا له المال الذى طلب ، فأسقط فى يده وجعل يستصرخ الدولة فى أن تبعث اليه جنداً جديداً يخرج به من الحرج الذى صار اليه ، وازدادت الأحوال حرجا بعد حين إذ نفر منه رؤساء الجند من أمثال محمد على وصادق أغا وصار يتخوفهم أكثر مما كان يتخوف أمراء المماليك ، وأصبح أمله معلقاً بالنجدات التى بعث يطلبها من الدولة ، ويا ليته ما انتظر . . فقد كان وصول هذه النجدات ضغثا على إباله : إذ لم يكونوا غير شراذم من الأجلاف واللصوص جمعتهم له الدولة من نواحى الشام وآسيا الصغرى وحصبت بهم مصر فكانوا كالقذى استقر فى عينها ، إذ انصرفوا للسلب والنهب فزادت ثورة الناس واشتد هياجهم وأصبح العداء بينهم وبين ممثل السلطان عداء واضحا صريحا ، وأحس قواد

---

(١) سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ ابو حديد ص ١١٦

الألبان أن خورشيد لا يريد من هؤلاء الجنود إلا كسر شوكة من تحدثه نفسه بالمعارضة منهم ، فاتحدت غايتهم مع غاية المصريين وبدأ الاثنان يعملان متعاونين ، وشعر خورشيد بذلك فأحب أن يفرق شمل الحليفين فسعى لنقل محمد على من مصر ، واستطاع أن يستصدر من الدولة فرمانا بتعيين محمد على واليا على جده ؛ ولكنه خدم محمدا عليا بذلك خدمة كبرى من حيث لا يشعر ، إذ أصبح محمد على من باشاوات الدولة جديراً بولاية أمور البلاد ، ولم يكن المصريون ليفكروا فى إرغام الدولة على إقامته واليا لو لم يتطوع خورشيد بالسعى لرفعه إلى مرتبة الولاة الباشاوات ، اذ « ما دام محمد على جديرا بحكم جدة ، فهو أولى بأن يبقى فى مصر ليكون حاكما عليها » (١)

تعيين محمد على واليا على جده

وكان محمد على لا يرى ضيراً فى ذلك ، فهو وال على جده وليس هناك ما يمنع من نقله إلى مصر ، ومن ثم صارح صاحبه عمر مكرم بذلك واتفق الاثنان عليه . وأعلنه السيد عمر لأصحابه واتباعه فلقى من نفوسهم موقع الرضا ، ولم يلبث العامة أن نادوا به حاكما ، واحتفل الجميع بتعيينه احتفالا شعبياً جميلا لا يخلو من مظاهر شتى تدل على سمو الشعب وشعوره بقدر نفسه وفرحه بالانتصار الجزئى على السلطان التركى فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ .

المصريون يولون محمد على حكومته مصر : ١٣ مايو سنة ١٨٠٥

أنشأت هذه الحركة فى مصر موقفاً شاذاً ، فقد أصبح فى البلاد عاملان تركيان : أحدهما معين من قبل السلطان والآخر معين برغبة سواد أهل مصر ، وتلك هى المرة الأولى التى يستطيع أحد الشعوب الاسلامية أن يثور على الخلافة ثورة معقولة منظمة ، فقد جرت العادة قبلا بقتل الحاكم أو طرده والاعتداء عليه ، فيعد هذا خروجا صريحا على السلطان ، أما آل مصر فقد اكتفوا باقامة حاكمهم الذى

(١) سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ أبو حديد ص ١٤٢

ارتضوه وتركوا عامل السلطان يفعل مايريد متحصنا فى القلعة ، ثم بعثوا إلى السلطان يطلبون اليه تثبيت الحاكم الذى ارتضوا . ولم يفعلوا ذلك جبانة ولا خوفا وإنما حكمة وقدرة ، (١) وبعثوا ينتظرون رأى السلطان وهم على أحر من الجمر وعلى تمام الأهبة لتثبيت اختيارهم بقوة سواعدهم .

كفاح خورشيد

بيد أن خورشيد لم يرزق من الصبر مايعينه على انتظار رأى السلطان ، فلم يلبث أن ملكه الغضب وعجب لهول ما رأى : رعية تختار حاكمها وتعزل حاكم السلطان ! وانحاز اليه نفر من جنده وأخذ يستعد للقضاء على هذه الحركة ورأسها السيد عمر ، وهنا يبدأ القسم الثانى من المعركة الحامية التى أثبت فيها آل مصر أنهم مستمسكون برأيهم أشد الاستمساك ، وانهم مستعدون للمناخة دونه ، والبذل فى سبيله « وانه لمن المعجب أن تتصور شعب مصر وقد حمل شتى أنواع الأسلحة من العصى والهراوى الغليظة (النبابيت) والبنادق والسيوف والخناجر ، وهم وقوف جماعات فى شبه صفوف الجنود ، وقد أقاموا من بينهم نقباء وعرفاء يأتمرون بأمرهم ويطيعونهم ويقومون على انفاذ ما يلقونه إليهم من الخطط ، وهم بين تاجر وصانع ومحترف بحرفة أو صاحب مهنة ونفوسهم مضطرمة بالأمل الجديد الذى طلع عليهم ، يعتزون بأنهم يقيمون بناء استقلالهم بأنفسهم ويشترون حريتهم بدمائهم » (١) ، وقد وقف جند محمد على إلى جنب المصريين فى هذه المعركة ، ولكن أى وقوف : وقوف الأجنبى المتهاون الذى لا يتردد فى التخون والتخاذل لأتفه الاسباب ،

استبسال المصريين

(١) والغالب أن ذلك كان من ترسيم محمد على نفسه

(٢) سيرة السيد عمر مكرم : للاستاذ أبو حديد ص ١٤٥

وقد حدث أن تخونوا قائدهم فى هذه اللحظة العصيبة وأخذوا يهاجمون أحلافهم المصريين حتى كاد يسقط فى يد محمد على ، لولا أن سارع عمر مكرم فشد عزمه وأمر المصريين بقتال الألبان كأنهم أعداء ، ولهذا لا يخطىء من يقول إن آل مصر هم الذين ولوا محمد على وحموا ظهره وشدوا أزره ، ولو تخلوا عنه لحظة لانهار بنيانه ، ولو وقفوا منه موقف مواطنيه الألبان لضاعت أياديه سدى ولقضى عليه فى ذلك الحين ، إذ أن السيد عمر : « أقام منهم فرق حلت محل الجنود الذين تخلوا عن أداء واجبهم ، فأصبحت القلعة منذ اليوم السابع عشر من شهر يونيه ، وكل من حولها من المحاصرين من أهل مصر وعامة سكان القاهرة ، ولا ينبغى لنا أن ننسى أسماء بعض زعماء هذا الشعب النبيل ، ولو كان هؤلاء من أفقر الطبقات وأضعفها ، ولنترحم عليهم جاعلين إياهم رمزا للمجاهيل من أبطال تلك الثورة : فقد خلفت لنا الأخبار أسماء حجاج الخضرى واسماعيل جوده وابن شمعة شيخ الجزارين (١) »

عمر مكرم يقوم الثورة

وطالت مدة الحصار واستأسد المصريون وأبلوا بلاء طيبا ، وحاول الأتراك أن يأخذوهم بالحيلة والخديعة فلم يوفقوا ، وبدت على بعض أفراد المصريين مظاهر البطولة والقدرة على النضال والصراع ، واقتدر السيد عمر مكرم على قيادة الناس قيادة موفقة طيبة فكان حركة دائمة طوال هذه الأيام ، ينتقل بين أبواب القاهرة ويسرع من جماعة لجماعة يصدر الأوامر ويرسم الخطط ويدبر الأمور تدبير الزعيم الذى مارس الزعامة والقيادة ، واستمر الأمر على ذاك حتى استيأس السلطان من النصر على المصريين ، فلم يلبث أن أرسل إليهم فرمانا يقر اختيارهم ويثبت الباشا الذى طلبوا ، فكان وصوله فرجا من حرج ، وأحس

(١) سيرة السيد عمر مكرم : للاستاذ أبو حديد ص ١٤٨

المصريون يومئذ كيف يؤتى الثبات أكله ، استقبله القاهريون كلهم عن بكرة أبيهم ، وساروا به « حتى بلغ منزل محمد على باشا فى الأزبكية ، وكان حجاج الخضرى يسير فى طليعة الجماهير وفى يده سيف مسلول وابن شمعة إلى جواره تعلوهم علامات الابتهاج والاعتداد بالنفس، وفرق المرسوم الذى يحمله الرسول على النـاس » (١) فلا مبالغة فى القول بأن هذا اليوم العشرين من ربيع الأول سنة ١٢٢٠ هـ . والثامن عشر من يوليه سنة ١٨٠٥ يعتبر فاتحة نهضة الشعب المصرى الحديث ، والبشارة الأولى ليقظة الشعوب الاسلامية فى العصر الحديث .

آراء عمر السياسية

وليس إلى الشك سبيل فى أن عمر كان يتصرف إذ ذاك عن شعور وثيق بحق الأمم فى تقويم الحاكم إذا مال عن الهدى ، وانه لم يكن يفعل ما فعل جريا وراء جاه أو منصب أو مال ، فسنرى أنه كان طوال حياته عزوفا عن المال زاهدا فى الجاه منصرفا عن المناصب ، ولـكنه كان شديد التعلق بالمبادىء يفهمها حق فهمها ويرعاها حق رعايتها ، ومصداق ذلك هذا الحديث الذى جرى بينه وبين أحد أتباع خورشيد باشا . إذ قال مندوب الباشا : « كيف تثورون على من ولاه السلطان عليكم . وقد قال الله تعـالى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسـول وأولى الأمر منـكم » : فأجابه السيد عمر جوابا يفهم منه أن الرجل كان يفهم مهمة الحاكم حق الفهم ويعرف حقوق الرعية فى الرقابة على الحكام : إذ قال له : « ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل : وهذا الحاكم الذى أرسلـكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البـلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة ، بل أذكر لك أن

(١) سيرة السيد عمر مكرم للاستاذ ابو حديد ص ١٥١

السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه» وتلك مقالة تدل على فطانة ذلك الرجل وايمانه بمبدئه وفهمه لحقه وواجبه واستعداده لبذل نفسه فى سبيل العدل وصالح الناس ، وهى وحدها دليل على أن السيد عمر لم يكن رجلا عاديا بل كان زعيما صادق الفهم عزيز الارادة ، لا يجبن ولا يخاف ولا يتردد ، وإنه قد قبس الكثير من آراء الفرنسيين وأفاد منها ، فليس فى موروث الحكمة الاسلامية السياسية ما يؤيد السيد عمر فى موقفه ، ولم يحدث أبداً فى أية دولة إسلامية أن خوطب الحكام بهذه اللهجه الصادقة الواضحة الجديره بالاعجاب والنظر ، ولم يوجد بين المسلمين من يصارح الخليفة بحق الرعية فى عزله إذا استبد أو أساء . لم يفعل ذلك أحد فى ظل أعتى الحكام وفى وجود أعظم العلماء ، فعمر يعبر هنا عن شعور جديد ورأى جديد ونفس متوثبة للحرية ، لا تكاد تحفل للموت أو تطلب العافية على مثال من نعرف من سروات المسلمين قبل ذلك ، فهذا المصرى العريق يعد بلا نزاع أول الأحرار المسلمين ، وأولى بشريات البعث الجديد فى أرض المؤمنين . وليت عمر اكتفى بذلك فها هو يعلن لمندوب الحاكم ـ أى مندوب السلطان ـ استعداده للثورة قائلا إننا نقاتلكم لأنكم عصاة قد خرجتم عن الحق وثرتم على القانون » فهو لا يخشى المجاهرة بالثورة ويصر عليها إصرار المؤمن بما يفعل الواثق من حقه فى فعل ما فعل ، العالم بجرائر ما يأتى ، فأين هذا من المملوك المتخون الغادر الذى يكره السلطان ولا يجسر على المجاهرة ، والذى يثور ولا يجسر على المقاتلة إلا فى الظلام ، بل أين هذا من وزراء السلطان وعامة السراة والوجهاء فى كافة بلاد المسلمين

عمر مكرم
أول الاحرار

بيد أننا نلاحظ أمراً آخر . هو أن عمر لم يقل بحق الأمم فى حكومة نفسها ولم يجر لفظ الحرية أو الاستقلال على لسانه بل كان يبحث عن الحاكم

الصالح فقط سواء أ كان تركياً أوشركسياً . وهذا أصدق دليل على أن فكره لم يكن يترامى إلى الآفاق التى نعرفها نحن اليوم ، وأنه كان لا يريد لشعب مصر الاستقلال عن الأتراك أو القيام بشئون بلادهم بل لعل ذلك لم يخطر له على بال .

موقف محمد على

وكان محمد على يرقب الأمور تجرى بين يديه فلا تفوته العبرة تضمها ولا السر تطويه ، فهاهو يرى بعينيه كيف يقتدر هؤلاء المصريون على الكفاح والنضال ، وكيف يعيون مكر الأتراك وخديعة المماليك وقوة الاثنين معا ، وكان يعلم أن النصر نصرهم واليد يدهم ، وكان قد قبل أن يرقضى منهم رقباء عليه إذا قدر له الوصول إلى الولاية ، فلما تم له الأمر وأحس أنه أصبح حاكما بدأ يفكر فى تحديد العلاقة بينه وبينهم ، وكان رجلا ذكيا أريبا يلمس حقائق الأمور بفطنته وزكانته ، فعرف أنه لن يتفق وإياهم إذا بدأ العمل على النظام الذى رسم ، لأن إفهامهم مراميه كان يستدعى الصبر الطويل وهو معجل لا يستطيع أن يتئد ، لابد أن يحتج عليه المصريون ويرفضوا المضى وإياه إلى حيث يطلب من وجوه الاصلاح والتجديد ، وكان يعرف أنهم لن ينظروا إلى الاصلاح بعينه ولن يقدروه قدره ، فاحب أن ينحيهم عن هذه الرقابة التى بسطوها عليه لأنها تضرهم ولا تنفعهم ، وكان يرى بعينيه ما لقيه مصطفى الثالث من معارضة الشعب فى إصلاحاته ، فاحب أن يتخلص من تلك الرقابة حتى يستطيع أن يمضى فى سبيله حرا طليقا . وكان يعلم كذلك أن السيد عمر أقرب منه إلى قلوب الناس وأقدر على قيادتهم فصار يخشاه فى نفسه وان حمد له يده وأقر بفضله ، على هذا الأمر عقد محمد على النية حين استوى فى حكم مصر وبدأ العمل بنشاطه المعروف (١) .

---

(١) ويغلب أن محمد على كان قد أطال التفكير فى ذلك الأمر وأنه كان قد عقد العزم على تنحية المصريين والتخلص من رقابتهم إذا صار له الأمر على هذا يدل الحديث الذى دار بينه وبين المسيو

أما السيد عمر فكان يهيم فى واد آخر ، لم يكن يفكر إذ ذاك فى المعارضة ولا العداء ولا شىء من ذلك ، فقد كان قد أدرك غايته بتولية الرجل الصالح أمور الناس ، ولم يبق له ما يشغله إلا أن يعتكف كسابق عهده حين يقر باله وترضى نفسه ، فلا يتحرك إلا لشفاعة أو وساطة أو رد مظلمة ، وكان فى تفكيره السياسى يعلم أن « أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل » فكان يعتبر نفسه من العلماء وحملة الشرع الذين يشرفون على السلطان العادل ويردونه إلى حدوده إذا حاول الحيد عنها أو يعزلونه إذا اقتضى الأمر لأن لأهل مصر « أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض عنه الناس » وكان مطمئنا تمام الاطمئنان إلى محمد على فترك له الأمور واعتكف راضياً مطمئنا .

وانتظر محمد على الفرصة المواتية ليعلم صاحبه أن واجبه فى العمل قد انتهى ، وان أعباء القيادة قد سقطت عنه منذ الساعة ، ولكنه ظل محافظا على ولائه له حذرا من غدر يكون من جانب السلطان أو المماليك ، وقد أفاد محمد على من وده لعمر فوائد جليلة إذ استطاع أن يستعين به فى رد الألفى عن دمنهور ، واستطاع كذلك أن يتخلص من محاولة الدولة نقله إلى سلانيك بعد قليل ، وكان محمد على يبذل قصارى جهده فى هذه الأيام ليظهر بمظهر المصرى الخالص الذى لا ينتمى إلى الأتراك فى شىء فكان « يسير فى طرق القاهرة يحيى الناس وهو مرتد لباساً قريباً من لباسهم ، وقد خلع عنه لباس الجنود والأغراب ، واتخذ له عباءة كالبرنس تزيل بعد الشقة التى بين الناس وبينه » (١) وبذل المصريون

فيلكس منجان مؤرخ محمد على ومعاصره إذ قال محمد على بأنه سيحول بين المصريين وبين شئون الحكم والادارة.
Felix Mengin, Histoire d'Egypte .

(١) سيرة السيد عمر مكرم : للأستاذ أبو حديد ص ١٦٠

من جانبهم أعظم الجهد فى الاستمساك به ، وأظهر السيد عمر مكرم همة عالية فى ذلك السبيل ، فاستطاع أن يحمى دمنهور من الألفى ويفسد على الأتراك غايتهم ، وانتهى الأمر باستقرار الأمر لمحمد على وإلغاء أمر النقل إلى سلانيك .

خاتمة المماليك

وشهد محمد على بعينيه آخر طيف من أطياف المماليك يمضى أمامه على حافة الصحراء محزونا كئيباً بعد أن أعجزه المصريون عن الاستيلاء على دمنهور وخيبوا أمله فى التعاون مع الأتراك والانجليز ، رأى محمد الألفى يمضى فى الصحراء من البحيرة إلى الصعيد ، ويتوارى عنه خلف تلال الصحراء فازداد ثقة وأمنا ، وأيقن أنه آمن بعد ذلك ما عاش وما بقى هؤلاء المصريون إلى جانبه . ولابد أن ذلك الأمير العظيم - محمد الألفى - كان غارقا فى التفكير وقد ألقى رأسه على صدره ومضى به الركب إلى الصعيد أيسأ محزونا ، لابد أنه عرف خطأه وخطأ شيعته فى معاداة أهل مصر والاشتداد عليهم ومحاولة تخونهم والغدر بهم ، لابد أنه أحس جرمه وندم على مافرط فى أمر هـــذا الشعب بعد أن رأى ماوصل اليه محمد على بتأييدهم ونصرهم ، ولقد روى لنا الجبرتى أن الرجل كان شديد الحزن بالغ الأسى وأنه كان لا يفتأ يبكى مصر وآلها ومصيرها والكمد يأكل نفسه ، بل لقد أكد الجبرتى أن الرجل مات كمدا على ماضيع من أمور مصر ، وأسفا على ما أصابها بيده أو بيد غيره من المماليك ، فكانت خاتمته أروع ختام لقصة المماليك .

المصريون يهزمون الانجليز سنة ١٨٠٧

استوثق محمد على بذلك من أمر نفسه ، وغدا ينتظر الفرصة المواتية حتى يخلص من رقابة السيد عمر ويمضى فى برنامجه الاصلاحى مسرعا ، وقد سنحت الفرصة حين أرسل الانجليز حملة إلى مصر سنة ١٨٠٧ معظم جندها من المرتزقة لا لتحتل مصر بل لترغم السلطان

على الخروج على نابليون والتخلى عنه ، وكانت أنباء هذه الحملة قد روعت المصريين فهموا لردها ، وكاتبوا السيد عمر فارسل لهم يستحثهم إلى المسير إلى رشيد ، فتجمع الناس فى بيت القاضى واجتمعت الآلاف وأخذوا يستعدون للخروج لرشيد فى حماس وقوة عظيمتين «وأخذوا يدبرون الخطة للدفاع عن عاصمتهم ، وعزموا على أن يتبعوا فى ذلك خطة الفرنسيين (١) » ، وتوافد أهل رشيد والوجه البحرى إلى قرية الحماد حيث قابلوا الانجليز وهزموهم هزيمة منكرة ، وعاد محمد على من الصعيد بعيد ذلك فذهب إليه السيد عمر وأعلمه بما جرى فرضى الرجل واطمأن ولكنه رأى فى ذلك ما يهدد سلطانه : لقد كاتب الناس عمر مكرم ولم يكاتبوه هو ، واستوثقوا من أمر أنفسهم وأصبحوا يعتمدون عليها ويشعرون أنهم فى غير حاجة إلى الحاكم أو الوالى

تخوف محمد على من ذلك

نخشى محمد على مغبة ذلك ولم يحمد عقباه على نفسه ، وكان برنامجه يقتضى أن يشرف بنفسه على كل شىء وأن يسكت كل صوت معارض حتى يستطيع المضى فى سبيله ، فافهم السيد عمر وأصحابه أنهم لم يعودوا مكلفين بالدفاع عن البلاد بعد أن صار فيها جيش قادر وان عليهم أن يلزموا حدهم فيدفعوا ما يطلب اليهم لعدة الجند وكفاهم بذلك فضلا .

لماذا تصرف محمد على على هذا النحو

لم يفعل محمد على بذلك الا ما جرى به مألوف العادة فى كل الدول الاسلامية ، اذ أن الحاكم الشرقى يحس فى نفسه أن رعيته بعض من يخشى من العدو ، وان عليه أن يأخذ نفسه بالتقية منها كما يتوقى أى عدو مخطر فى الخارج ، حتى ليندر جدا ان نجد حاكما اسلاميا يجند جيشه من أهل البلد الذى يحكمه خشية أن يسخطوا عليه فيعزلوه ، فكانوا يفضلون الجند المؤجرين ليكونوا ملك يمينهم يضربون بهم الأهلين وغير الأهلين سواء بسواء . وكان هذا حال محمد على مع

(١) سيرة السيد عمر مكرم للاستاذ أبو حديد ص ١٦٧.

المصريين ، رأى بعينيه قوتهم واقتدارهم ، وكان يعلم ـ ويعلمون ـ أنه فى الحكم بساعدهم وتأييدهم ، فازداد خوفه وأحب أن ينحيهم عن الميدان فكان له ما أراد . وكان يعرف أن السيد عمر هو صديق هؤلاء الناس وملجأهم فاحب أن يبعده عنهم حتى لا يعودون يحتمون به ، وقد أسف عمر أسفا بالغا لما فاجأه به محمد على من الرد فأخذ يتباعد عنه ويجافيه . وهنا يبدأ نضال خفى على السلطة : فمحمد على يرى عمر يقبض على زمام الناس ويحسب أنه يريد أن يحل محله ، وعمر يرى نفسه حقيقيا برقابة الحاكم ورده الى حدوده اذا بغى أو طغى ، ولكن الفرق بين الرجلين كان عظيما : فعمر عالم مسلم لا قبل له بالسياسة ولا بتقلباتها ولا بأحوالها ، ولا يرجو غير العدل وهدوء الحال ، ومحمد على تربى فى أحضان السياسة وعرك ألوانها وطال مراسه لأفانينها وتأمله فى أحوالها ، فكان الكفاح بين خبير وغير خبير ، بين مدرب وغير مدرب ، وكان طبيعيا أن ينتصر محمد على وهو المدرب الخبير القادر وينتحى عمر المسالم الذى لا يرجو الحكومة أو السلطان

نفى عمر مكرم الى دمياط

ولا يتسع المقام لتفصيل ما وقع بين الرجلين ، وإنما نجتزىء بالقول بأن محمد على انتهز فرصة احتجاج عمر على بعض أعماله ونفاه إلى دمياط وأنه استعان على ذلك بنفر من علماء مصر وسرواتها : بادروا الى تخون زميلهم ليحظوا بمكانه وأمواله ، فظل الرجل فى المنفى حينا ، وكان محمد على يحفظ له يده ويعرف له فضله ، فلم ينله بأذى ولم يمسس أمواله بضر كما فعل مع الشيخ الشرقاوى مثلا ، وحاول محمد على أن يترضاه بالمال وان يكسبه بحسن المودة فأبى الرجل أن يتزحزح عما طلب من الاشراف والرقابة . والغالب أن الرجل لم يغضب لسلطة نزعت منه أو حق غصب على رغمه ، وانما كان يخشى أن يستبد محمد على بالناس وأن يسئ السيرة فيهم ، ولهذا لم يكد يعلم أن محمد على قد تمكن من فتح

الحجاز حتى أرسل اليه يهنئه ، ففرح محمد على بتهنئة عمر مكرم فرحا عظيما ، وأرسل اليه خطابا يفيض رقة وعذوبة بدأه يقوله « إلى مطهر الشمائل سنيها حميد الشئون وسميها ، سلالة بيت المجد الأكرم ، والدنا السيد عمر مكرم دام شأنه »(١) مما يدل على ما كان محمد على يكنه فى نفسه من الحب لذلك الرجل والتقدير له والعرفان لجميله .

عودة عمر من المنفى

وعاد عمر إلى القاهرة ليجد محمداً علياً قوياً مهاباً ينشر على الناس ظلال العدل ويقودهم إلى معارج العز ومراقى السلطان ، فرضيت نفسه وأقام ساكناً مطمئناً ، ينتظر لقاء ربه ، ولكن الأيام لم تهادنه حتى أيامه الأخيرة ، إذ ضج الناس بضريبة فرضها محمد على على المساكن فتهافتوا على السيد عمر يرجون وساطته ، فلم يلبث محمد على أن أمر بنفى السيد إلى طنطا ، فمضى إليها فى الخامس من ابريل من سنة ١٨٢٢ . ومات بعد ذلك بقليل . بعد أن وضع الأساس فى بناء مصر الحديثة ، وبعد أن خلص بلاده من الفوضى والاضطراب ، وبعد أن نفض عن شعب مصر أدران القرون ، وأنهضهم على أقدامهم وأعدهم ليلعبوا الدور الخطير الذى سيلعبونه فى السياسة العالمية بقيادة محمد على العظيم .

هل كان محمد على مصيبا فى تنمية المصريين .

أكان محمد على على الحق فيما ارتأى من ابعاد جمهور المصريين عن ميدان السياسة والاستئثار به وحده . أكان ذلك ضرورياً له لكى يستطيع المضى فى خططه الاصلاحية ؟ يبدو أنه بالغ فى التحوط حين سلك هذا السبيل ، إن سبيله كانت تكون أيسر وأهون لو لم يخرج المصريين من الميدان جملة ، فانه بات يشكو بعد خروجهم قلة الرجال وندرة الكفايات معه ، ولو لم يبادر الى الاستعانة بهم فى جيوشه لما استطاع أن ينتصر على الدولة الانتصارات التى ادركها ، نعم كان المصريون بعيدين عن أن يفهموا غاياته ومراميه ، وكانت عامتهم مستعدة للسخط

---

(١) سيرة السيد عمر مكرم : للاستاذ أبو حديد ص ٢٠٧

عليه إذا اجبرها على بعض ما تكره من وجوه التحضر ، ولكن لانزاع فى أن نفرا منهم كان قديراً على مجاراته ومتابعته بعد صبر قليل ، وان بعض أهلها كانوا إذ ذاك فى حالة معنوية تمكنهم من مجاراته وفهم مراميه إذا تفاهم معهم عليها ، لو فعل محمد على ذلك لما شكا الفقر فى الرجال والكفايات بعد قليل ، فقد كانت نفوس المصريين قد تفتحت فى ذلك الحين وتأهبوا للعمل العظيم ، فكان حالهم كحال الصبى الذى ينفعه التشجيع والاطراء واظهار الاعجاب ويقتله التخذيل والاغضاء واظهار الاحتقار والازدراء ، فلو قد شجع محمد على المصريين واحتمل منهم ما يحتمله الأب من الوصب فى تربية أبنائه ، لما شكا الفقر فى الرجال بعد قليل ، ولما أخرجهم من طاعته وحبه وأوقفهم منه موقف العدو بعد حين ، فقد تحمل المصريون فى رفعه وصبا وجهدا بليغا ، وقد بذلوا فى سبيله بذلا كريماً ، فكانوا حقيقين لديه بالتربية والتعليم ، وليست هناك أمة تهذبت وارتقت من غير معلم وليست هناك أمة تسمو وتعلو مع انصراف حكامها عنها وتخذيلهم إياها .

لو فعل محمد على ذلك لضمن لاصلاحه قوة وثباتا من روح الشعب وقوته ، ولوجدت بذوره تربة طيبة تغيب فيها لتنبت نباتا زكيا ، ولكان إصلاحه مس الأساس دون السطوح .. أما وقد أبعد أهل البلاد فقد جعل عمله سطحيا زائلا يقوم بقيامه ويموت بموته ، ولو قد كان المصريون شركاء له فى العمل لما انهدم عمله عن آخره بعيد وفاته ، ولو قد تمخض جهده كله عن خلق طائفة من المصريين تفهم الأمور فهمها وتحسن سياستها كما كان يحسنها ، ولو قد ربى معه مدرسة من المصريين يقومون على نواحى العمل من بعده لكان ذلك أجدى على البلاد من قونيه ونصيبين ، بل لوجد لنفسه حصنا آخر يحتمى به حين ضرب نابيير الاسكندرية .. لوجد نفس الحصن الذى

حماه من قبطان باشا ولما آل أمره إلى الخاتمة المحزنة التى صار إليها آخر الأمر ، لو فعل ذلك لربح وربحنا ، ولربح الشرق الاسلامى بربحنا خطوات واسعة فى ميدان الرقى والنهوض

* * *

ينبغى على القارىء أن يلاحظ بعض أمور قبل المضى فى دراسة محمد على والحكم على أعماله ، إذ بغير هذه الملاحظة لا يتأتى فهم الرجل وأعماله على وجهها الصحيح . بل قد يتعرض الباحث للخطأ الشديد فى فهم هذا الرجل إذا هو أهمل الالتفات إلى هذه النواحى .

طبيعة محمد على

فلنعرف أولا أن محمدا عليا كان تركيا شرقيا أولا ثم مصلحا حديثا ثانيا . كان تركيا عثمانيا فى تفكيره وتربيته وطبيعته وغاياته ، نلاحظ فى تصرفاته الأساليب التركية المعروفة من الحذق فى تدبير المؤامرات إلى الميل إلى اتساع السلطان إلى الرغبة فى الاستئثار بالسلطة والاستبداد بالرعية ، إلى الالتواء والتعقد ، إلى غير ذلك من الأمور التى نلاحظها بشكل واضح جدا عند غيرة من الأتراك ، كان كذلك فى أساسه وقبل كل شىء ، وغير ذلك أمور جدت عليه بعد ذلك أدركها بفكره الثاقب ونظره البعيد فحاول أن يستر بها طبعه فأفلح تارة ولم يفلح تارات .

شعب مصر قابل للتحضر

ولنذكر أن محمد عليا قام بأعماله فى بلد متحضر لأهله ماض قديم فى الحضارة والرقى والانتظام ، وأن الحالة التى وجده عليها يوم بدأ أعماله كانت طارئا لابد أن يزول ثم تعود البلاد سيرتها الأولى . فالأمة المصرية ليست أمة بدوية ولا همجية ولا طارئة فى عالم الدولات ، وإنما كانت شعبا ذكيا متحضرا يفهم واجبه حيال الحكومة ويمهد السبل لمن يريد النظام ، وليست الدول المنتظمة ولا الرخاء الشامل ولا الفتوح الواسعة بالأمر الجديد على بنى مصر . فلم يكن على محمد على

أن يعلم بل يوجه ، وكان عليه أن يبدأ فتتم الرعية ما بدأ ، بل لعلها لم تكن تطلب اليه أكثر من أن يشعرها بأن هناك حكومة قوية ساهرة تؤمنها على أرزاقها ، حتى تنشأ هى من تلقاء نفسها تعمل وتنشط فتبلغ من الرقى والانتظام مبلغا عظيما

لم يكن محمد على صنيعة فرنسا

ومن الخطأ أن نظن كذلك أن محمدا عليا كان صنيعة دولة من الدول أو ستارا تختبىء وراءه إحدى القوى الأوروبية ، فلم يكن الرجل آلة فى يد فرنسا ولا صنيعة من صنائعها ، لأنه كان أذكى من ذلك بكثير . ودراسة أعماله دراسة دقيقة تدل على أن الرجل لم يكن أقل مراعاة للخواطر الانجليزية من مراعاته لحسن ظن الفرنسيين . بل الظاهر الذى لا نزاع فيه أن الرجل كان أحرص على كسب ود الانجليز منه على إرضاء الفرنسيين ، وقد كان الرجل يحس أن بالمرستون لا يرضى عنه ويسىء الظن به ويكيد له . فظل شقيا بذلك مدى طويلا . وبذل الكثير من الجهد ليستعيد حسن ظن الانجليز به واذا كنا قد أيدنا بالبرهان البليغ أن الفرنسيين لم يكن لهم أى أثر فى ولايته ، فمن اليسير جدا نستنتج بعد ذلك أن الدعوى القائلة بأنه كان صنيعة فرنسا لا تقل كذبا عن الدعوى الأولى . بل كان الرجل نفسه يشعر بأن ادعاء الفرنسيين صداقته لهم وتقديره إياهم يضره ولا يفيده . فهو يثير عليه غضب انجلترا ولا يحميه من جرائر هذا الغضب ، ويخيف السلطان منه ولا يمنحه ما يأمن به غضبة السلطان ، ومصداق ذلك أنه أبى أن يفتتح الجزائر لحساب فرنسا خوفا من غضب انجلترا والسلطان ، ولو كان صنيعة فرنسا للبى طلبها مسرعا دون أن يحسب لغيرها حسابا ، بل لعمل على إرضائها لا على إرضاء غيرها كما حدث .

لماذا انصرف محمد على لشئون الحرب وحدها

وعسانا لا نتابع غيرنا فيما يسرفون فيه من لوم محمد على على اهتمامه بشئون الحرب وحدها دون التفات صادق إلى أية ناحية أخرى من

نواحى العمل والنشاط ، وعسانا أن نذكر - قبل أن نوجه اليه اللوم - أن محمدا عليا لم يكن فريدا فى هذا الباب ، وأن روح العصر كانت تفرضه فرضا وتمليه إملاء . كان الرجل يعيش فى عصر نابليون ، فى عصر الحروب والثورات والانتصارات والهزائم ، فى عصر انصرفت فيه قوى الدنيا كلها نحو الحروب والجيوش والأساطيل . وماذا فعلت فرنسا فى هذه السنوات الأولى من القرن التاسع عشر غير إعداد الجيوش وتنظيمها وتسييرها نحو الميادين . وماذا كانت تعمل انجلترا غير تنظيم الأسطول وإعداد الجنود وإرسالهم يحاربون فى نواحى القارة الأوروبية . بل ماذا كان قيصر الروس وامبراطور النمسا يعملان . . . وماذا كانت الدنيا كلها إلا مجدا حربيا ونظاما عسكريا فمحمد على إذن يمثل عصره ولا لوم عليه فى ذلك . بل لم يكن له عن هذا الاهتمام منصرف وهو سليل أمة حربية لم تعرف الحياة إلا فى ظلال السيوف وريش القشاعم . ولم يكن الفكر العالمى قد تعلق بعد بالمثل العليا الاجتماعية ولا النواحى الثقافية التى نعتبرها اليوم أساس حياة الشعوب . بل لم يكن الحاكم ليدخر لأمته من القوة أحسن من جيش قوى يرهب به جيرانه

وسائل محمد على وغاياته

ولنلاحظ كذلك أن خلافا جسيما كان يوجد بين وسائله وغاياته فى كثير من الأحيان ، فقد كانت وسائله الحديثة كفيلة بأن تجدى عليه أعظم الجدوى لو طلب منها غايات حديثة ، ولكنها لم تكن لتعين على إدراك الغايات القديمة التى طلبها ، فتنظيم البلاد واستصلاح أرضها وتعليم أهلها وتقوية مرافقها شىء . . ومحاولة الفتح والاتساع وانشاء الامبراطوريات شىء آخر . . والشيئان لا يتوافقان بل يتعارضان ، وكيف كان الرجل يبغى أن تنتظم الزراعة ويسود الرخاء وهو لا يكاد

يبق على الأرض مواطنا قويا صالحا إلا قذف به فى ميادين القتال ، وكيف كان يدخر المال للاصلاح والمشاريع ومن ورائه جيش عرمرم يحتاج إلى ميزانية تعادل ميزانية مصر عشرات المرات ، ثم كيف كان محمد على يرجو أن يرقى بنفوس الناس ويرتفع بحالتهم المعنوية وهو يحصد شبابهم حصدا ويلقى بهم فى ميادين الحروب ، فينفرهم من الحرب ، ويزرع فى قلوبهم كراهية النظام والعسكرية ، كان لابد أن يوجد محمد على شيئاً من التناسق بين غاياته ووسائله ، وبين غاياته وأحوال بلاده ، وكان لابد أن يجرى على شيء من النظام فى أعماله ، فلا يكلف الناس إلا وسعهم ، ولا يبهظهم بأمر ثقيل تنبت بعده قواهم ولا يستطيع أن يفيد منهم شيئاً بعد ذلك

ولنذكر كذلك أن الرجل كان مرغما فى كثير من الأحيان على إتيان كثير من الأمور التى نعيبها عليه ونأخذه من أجلها بالملامة ، لنذكر أنه كان مرغما حين قذف بجنده فى صحراء العرب لحرب الوهابيين ، فقد كان واليا من ولاة السلطان ليس عليه إلا الطاعة ، وما دام السلطان قد أراده على ذلك فليأته طائعا مسلما . وقد كان الرجل مرغما كذلك حين دبر للمماليك المذبحة المشهورة فى القلعة ، فقد تعذر عليه الاعتماد عليهم أو الاطمئنان إلى حل معقول فى شأنهم فلم يكن له بد من الخلاص منهم على أى سبيل ، وما داموا لا يثبتون له فى ميدان ولا يكاشفونه وجها لوجه ، فلم يكن له بد من الخلاص منهم على هذا السبيل لا على غيره .

محمد على يعمل منفردا

تلك أمور لابد من ملاحظتها حتى يصح حكمنا على أعمال محمد على ويصح تقديرنا له ، فلا نكون معه على محاباة ولا عليه على ظلم واجحاف ولنذكر كذلك أن الرجل كان يعمل بمفرده ، لا يؤازره أحد من أهل البلاد ولا من غيرهم ، فأما الأولون فقد كان استبد بالأمر من

دونهم وأرغمهم على المضى معه دون أن يوضح لهم غايته فكرهوه من أول الأمر ولم يؤازروه إلا على جبر واضطرار ، وأما الآخرون فقد كانوا أعداء له يخادعونه ويساومونه ولا يكاد أحدهم يخلص له فى قول أو فى فعل ، وازاء هذه الحقيقة يهون كل خطأ لمحمد على ، فلم يكن ليتاح له أن ينفذ هذا البرنامج الواسع كله ثم يأمن الخطأ بعد ذلك ، بل كيف نطالبه بعد ذلك بأن تكون أعماله وافية كاملة لا يفرط فيها من شيء . . .

فكرة الشرقيين عن الحكومات

بدأ محمد على إقامة حكومته والناس لا يرون فى الحكومات إلا أنها هيآت غاشمة من الظالمين والعفاة ، وذلك لكثرة ما تواتر عليهم من عهود الظلم ومساءات الحاكمين ، وما كان الناس ليحسنوا الظن بحكومة ما بعد أن تقلبت عليهم مظالم حكومات الترك والمماليك بضعة قرون . فكان الناس يكرهون الحكومة يأسا من الحاكم الصالح لا عن جهل بفكرتها ، ومن هنا كان طبيعيا أن ينظر الناس بعين الريبة إلى حكومة محمد على ونظامه ، فهم يتوقعون الشر فى كل ما يبدر لهم من أعماله حتى لو بدا لهم جانب الخير منهـــا ، فاذا افتتح لهم مدارس ودعاهم إلى دخولها حسبوا أن تلك مؤامرة يراد من ورائها الشر بأبنائهم نخافوا وأجفلوا ، وإذا أقام مستشفى تخوفوا دخولها مخافة أن يكون وراءها شرا ، وإذا كرى ترعة اجتنبوها خشية المغارم التى ربما قدرها على مائها وحذرا من رجال الحكومة والسلطان ، وبهذا حاقت مظالم أسلاف محمد على به وشقى هو بمرارتها وحده ، ولم يكن على المصريين لوم فى ذلك ولا تثريب ، فمن أين لهم أن يحسنوا الظن بهذا الباشا الجديد وقد آذاهم كل باشا قبله ، ومن أين لهم أن يفطنوا إلى الخير البعيد الذى يقربهم إليه بينما لا يجدون فى حاضرهم إلا غصصا وشقاء ، ولا لوم عليه هو الآخر إذا كرههم وأساء الظن بهم وتجنب

لاشراكهم معه فى أعماله فقد كانت ظروفه تتطلب السرعة ، وكان محتاجا إلى من يتابعه فى غير تردد ولا حذر ، فاذا لقى منهم الخوف وسوء الظن فلا غرابة ينكر ذلك عليهم ولا يراهم يصلحون لشىء إلا لحمل الأثقال وسوق الحمير (١)

لماذا نفر المصريون من محمد على

وربما بدا لنا موقف المصريين من محمد على غريباً وأنكرنا عليهم كراهيتهم لأساليبه ونفورهم من مظاهر الاصلاح والتجديد التى استحدثها ، فهذا رجل يسعى لخيرهم فيأبوا عليه ذلك وينفروا ، ويحقق لهم استقلالهم فلا يبالوه ويسخطوا عليه السخط كله ، ولكن الحقيقة أن آل مصر لم يكن يسعهم إلا أن يقفوا من محمد على هذا الموقف لبضعة أسباب :

أثر الاضطرابات الماضية فى المصريين

أولها أنهم لم يخلصوا من المظالم والمساءات إلا منذ هنيهة قصيرة جدا ، فكانت قواهم واهنة ، وعزماتهم منحلة وكانت الحوادث المتلاحقة التى تواترت عليهم فى السنوات الأخيرة قد زادت ذلك الضعف فكان لا بد لهم من فترة من الراحة يستجمون فيها ويستعيدون ما تفرق من قواهم ، فلما دعاهم محمد على إلى موافاته وموالاته والخروج معه إلى ميادين الحرب ، والنهوض وإياه لشئون الصناعة تخاذلوا عنه ، ولم يكن لهم من ذلك بد ولا محيص ، ولو قد أخذهم بالاصلاح على هينة دون أن يثقل عليهم بحرب ولا أسطول ولا ضرائب ثقيلة لتفطنوا هم إلى الخير الذى يعده لهم بعد أن يعوضوا ما فقدوا فى العصور الماضية .

المصريون وأنظمة الحكم السابقة

وثانيها أننا نتصور نظام الحكم فى البلاد الاسلامية تصوراً بشعا لم يكن يحسه أهل هذه الأزمان ، فاذا كانت المظالم كثيرة فقد كانت

(1) Dodwell : The Founder of Modern Egypt. (Cambridge 1931) P 194

الحيل للأفلات منها كثيرة أيضاً ، فاذا طلب الحاكم مثلا من الناس ضريبة عقارية توازى عشر قيمة العقار لما شقى الناس بذلك عشر الشقاء الذى نتصوره ، فقد كان فى الامكان تقديم الرشى إلى الجباة والمحصلين فلا يجبون الضريبة إلا على جزء صغير من العقار . وكانت الحروب إلى ذلك أمراً يقع عبئه على الحاكم لا على الرعية ، فلم يكن ليطالب الحاكم رعيته بالخروج معه الى الميادين والاستشهاد فى سبيله ، وإنما كان يشترى الجند من ماله ويبعثهم يحاربون باسمه من غير أن يكون على الناس إلا غرم المال الذى يطلب ، أما محمد على فقد طلب إلى الناس أنفسهم أن يخرجوا معه إلى الميدان وأن يخوضوا معه غمار البحار ، ومن ثم كان البلاء الذى ليس بعده بلاء . ولم يكن هذا الأمر غريبا على أهل مصر وحدها بل نفر منه أهل الشام أيضا — وهم أهل حرب وكفاح —

حريات الناس فى انظمة الحكم القديمة

وكانت الأنظمة القديمة تترك النـاس أحراراً فيما يأتون من أمر دون أن يكون عليهم حرج من حاكم أو قيود من حكومة ماداموا يؤدون للحاكم المـال الذى يطلب ، وما داموا يتركونه وشأنه فلا يسألونه ولا يستدركون عليه بشىء ، ومن هنا كان الناس يشعرون بشىء من « الحرية » فى ظل الأنظمة القديمة . فلما أراد محمد على أن يفرض عليهم الأنظمة الحديثة ساءهم ذلك ولم يروا فيه إلا « حجرا » على حريتهم وتدخلا فى شئونهم فأسخطهم ذلك ونفرهم من هذه الأنظمة ، اذلم يعد الناس يستطيعون اخفاء شىء أو التصرف حسبما يريدون . ومن هنا كان طبيعيا أن نجد شيخا مستنيراً كالجبرتى ينفر من أنظمة محمد على ولا يرى وجه الحق فيها . بل يشكو منها ويسخط عليها ، لأنه شعر بأن محمدا عليا يريد أن يحد من هـــذه الحرية التى كان الناس يستمتعون بها فى حكم أعتى المماليك وأشأم الأتراك

نفور المصريين من الأنظمة الحديثة

وثالثها أن أنظمة محمد على كانت أمراً جديداً — وكل جديد غريب ، وقد أراد محمد على أن يأخذ الناس بتغيير أساليب حياتهم وشئون معاشهم فشق عليهم التغيير ، خصوصا وهم لا يفهمون المراد منه . ولا يصلون بأبصارهم إلى الآفاق البعيدة التى كان محمد على يسوقهم نحوها ، فاذا ذكرنا إلى ذلك ما سبقت الاشارة إليه من تخوف الناس من الحكومات عرفنا أن نفورهم من أنظمة محمد على واجتنابهم أساليبه كان موقفا طبيعيا يتفق مع أحوالهم . وكان لابد من فترة طويلة حتى يتبينوا بأنفسهم الخير الذى يرجى من وراء هذه الأساليب

طبيعة اصطلاح محمد على

ورابع هذه الأمور أن محمداً علياً لم يدخل هذه الأنظمة الأوروبية كاملة بحسناتها ومساوئها ، وانما جردها من هذه المحاسن فى الغالب فنظام التجنيد الذى أدخله لم يكن يشبه نظام التجنيد فى فرنسا مثلا فالجندى الفرنسى كان يذهب الى الجيش فتفرض له الأعطية الوافرة ويكسى اللباس الفاخر ، وكان يجد فى معسكره الطعام الكثير والطبيب المعالج ، وكانت تطاق له بعض الحرية فيصيب نصيباً من المتعة فيما يفتح من البلاد ، أما الفلاح الذى كان محمد على يجره من داره إلى الميدان فلم يكن يتمتع بشىء من ذلك . كان يعطى أخس الأجر ، ويكسى أقل الكساء ، ولا يجد الطبيب المعالج ولا شيئاً من التسرية ولا جانباً من المتعة ، ثم لم تكن مدة الجندية محددة ، بل كان يدخل الجيش دخولا أبدياً (١) ، فهو شهيد أو كالشهيد ، ومن هنا نفر الناس من الجندية واقترنت فى أذهان المصريين بالويل والشر وأصبح الناس يبكون الداخل فى « الجهادية » بكاءهم على الذاهب إلى الآخرة ، لأنه لا فرق بين الحالين فى حسابهم ، وهم على حق فى ذلك . وعلى هذا القياس كانت بحرية محمد على ومدارسه ومصانعه ، حتى بعوثه العلمية . ولهذا لم ير الناس من

(١) مذكرات غير مطبوعة للاستاذ شفيق غربال

هذه الاصلاحات إلا وجوه الشر وخفيت عنهم وجوه الخير فابتعدوا عنها وأنكروها كل الانكار .

محمد على والمصريون

وكان طبيعياً أن يسيء محمد على الظن برعاياه المصريين لذلك . ولو قد فكر قليلا فى حقيقة أمرهم لما أشجاه وأسخطه نفورهم منه وعدم مجاراتهم إياه . ولكنه كان معجلا لا يملك من الوقت ما يفكر فيه، كان يريد أن يأمر فيطاع دون سؤال أو تردد ، ولم يكن لديه من الفراغ ما يمكنه من تربية هذا الشعب واعداده فى هوادة ورفق ، فلم يجد بدا من الاستغناء عنهم والاعتماد على طائفة من الأتراك من جهة وطائفة من الأجانب من جهة أخرى. ولو لم ينصحه درفتى Drovetti قنصل فرنسا بالاستعانة بالمصريين ويبصره بملكاتهم المكنونة واستعدادهم الفطرى لما فكر فى الاستعانة بهم أبدا ، ولظل على حذره منهم لا يكاد يباليهم أو يحفل لهم .

الاوروبيون ومحمد على

ولم يكن موقع الرجل من الأوروبيين بأحسن حالا من موقعه من المصريين ، بل كان الأولون أسوأ به ظناً من الآخرين ، وقد شقى محمد على بهم أضعاف شقائه بالمصريين، لأن هؤلاء كانوا ساخطين ولكن على صمت ، منطوين على أنفسهم لا يكادون يتوجهون إلى الوالى بنقد أو يجاهرونه بمعصية ، أما الأوروبيون فكانوا لا يترددون فى إعلان سخطهم عليه وسوء ظنهم به ، بل من قناصل الانجليز فى مصر والشام من كان يستمرىء التهجم عليه ويجد لذة فى إحراجه بما يثير ويسخط ، وكان محمد على يعلم ذلك ويبذل وسعه ليرغمهم على حسن الظن به . إذ كان يعتقد فى قرارة نفسه أن جانباً كبيراً من آماله قد يتحقق بمجرد ثقة أوروبا فيه واعتمادها عليه .

الانجليز ومحمد على

كان الانجليز أضرى أعداء محمد على وأشدهم خطراً عليه وأكثرهم إساءة إليه . وقد حاول مؤرخوهم أن يعللوا ذلك بالقول بأنهم كانوا

لا يرضون عن « طبيعة » الرقى الذى استحدثه فى مصر ، وانهم كانوا لا يرضون عن أساليبه ويرون فيها ألوانا من الظلم والارهاق لرعاياه ، وربما ذهب بعضهم إلى أن عداء الانجليز له راجع إلى تأكدهم من ضعفه وعجزه عن النهوض باعباء الدور الذى كان يريد أن ينهض به ، وانهم كانوا على ثقة من أنه لن يستطيع الحلول محل الدولة العثمانية وإيقاف التيار الروسى ، ولهذا وجدوا أن « التوازن الدولى » يقتضى حماية الدولة منه وإيقافه عند حده حتى تظل الدولة العثمانية على حالها ، ذلك لان محمداً علياً كان رجلا مسنا يعمل منفرداً وسط نيام . . ومن المنتظر أن تدركه منيته بين يوم وليلة . . فما العمل لو حدث ذلك . . ماذا تكون النتيجة لو هدم محمد على الدولة العثمانية اليوم ثم تهدمت دولته نفسها غداً . . إلا يجر ذلك إلى نتائج سياسية خطيرة أقل ما فيها حرب عالمية بين الدول على تقسيم هذا التراث الذى آل اليه ثم انفرط من بين يديه ؟

حقيقة موقف الانجليز من محمد على

بيد أن كل هذه تعلات كانت السياسة البريطانية تخفى بها أسباب سخطها على محمد على وشجاها بنهضته ، وحقيقة هذه الأسباب لا تكاد تخفى على من يتأمل الأمور تأملا دقيقاً ويسأل : لماذا كانت انجلترا تحرص على بقاء الدولة العثمانية ؟ . فيعرف أن سبب ذلك كان ضعف تركيا . ولو كانت تركيا قوية لشمر الانجليز عن ساعد الجد لهدمها والقضاء عليها . لأن مصالحها كانت تقتضى قيام دول ضعيفة على طول طريق تجارتها إلى الهند حتى تأمن على هذا الطريق ، فمعارضتها فى تقسيم تركيا لم تكن رحمة بها أو مراعاة لجانب الانسانية ، وإنما كانت خوفا من أن يقع جزء من أراضى الدولة فى حصة دولة قوية أوروبية فتهدد تجارتها بالخطر ، ومصداق هذا انها سارعت فأصابت أخطر جزء من أراضى هذه الدولة حين سنحت الفرصة . . فوضعت يدها على مصر وفلسطين

وامنت بذلك سبيل مواصلاتها . هذا إلى أن أفكار الساسة الانجليز بدأت تتجه إلى الاستيلاء على مصر بعد استيلاء فرنسا على الجزائر ، وتوغل الروس فى آسيا واستيلائهم على البحر الاسود ، وتمكنهم من تسيير السفن البخارية فيه وفى أنهار الروسيا ، إذ أحست انجلترا أن مركزها فى البحر الأبيض أصبح على خطر بوجود فرنسا ، وأن شمال الهند لم يعد آمنا لتقدم الروس ، ونادى بعضهم بضرورة إيجاد مركز لانجلترا فى البحر الأبيض . ولم يكن هذا المركز غير مصر (١)

نهوض محمد على يضر المصالح الانجليزية

وكانت لانجلترا كذلك مصالح تجارية نافقة فى بلاد الدولة العثمانية ، وكان سر انتشار هذه المتاجر خلو بلاد الدولة من المصانع أو معاهد الانتاج ، فكانت للانجليز احتكارات قوية وتجارات نافقة لا يكاد ينافسها فيها أحد ، فلما نهض محمد على أنشأ فى بلاده المصانع والمعامل واستغنى بذلك عن الوارد الانجليزى ، فاسخطهم ذلك وتوجه القناصل الى الحكومة الانجيزية بالشكوى ، وحاولوا أن يشوهوا أعماله ويتهموه بكل نقيصه وانذرو الدنيا بالبلاء من جرائر أعماله وأنظمته ، وصادفت هذا الشكاوى هوى من نفوس الساسة الانجليز فبالغوا فى تصويرها لمواطنيهم ، وزاد فى سخطهم حدة أن محمد عليا زاد الضرائب على الصادر والوارد فى البلاد التابعة له ، فبعد أن كان مُصَدِّر القطن يدفع ضريبه تصدير قدرها ٣ فى المائة أصبح يدفع ١٢ فى المائة ، وبعد أن كان التاجر الانجليزى يدفع ٢ فى المائة على ما يدخل من بضاعة فى الشام أصبح يدفع اثنى عشر فى المائة ، فلم يلبث الانجليز أن أحسوا بأن الباشا يحرج صدورهم فرفعوا اصواتهم بالشكوى والسخط ، وستروا هذه الأهواء بدعاوى السلام الدولى والنفور من أساليب الوالى . فبينما كان بلمرستون . يتحدى محمد على باسم سلامة الدولة العثمانية كان يسـعى بقناصله لدى الدولة ليقيض الثمن . وما كان الثمن

(1) Hoskins : British Routes to India. (New york; 1928) P.142

إلا تجديدا لامتيازات الانكليز فى مصر نفسها سنة ١٨٣٨ (١)

الانجليز يتهمون محمد على بممالأة فرنسا

ومسألة ثانية كانت تسخط انجلترا على محمد على وتحفز همتها إلى القضاء عليه ، وهى اتهامه بأنه كان آلة من آلات السياسة الفرنسية ، وصنيعة من صنائعها ، وقد سبقت الاشارة إلى خطأ المؤرخين الفرنسيين فيما يدعونه من أنهم أصحاب الفضل على محمد على وأنهم رفعوه إلى هذه الدرجة التى صار إليها ، وأنهم كانوا عماده فى كل ما أراد من اصلاح وما نهض به من عمل ، ومن ثم تخوف الانجليز من محمد على وتصوروا الفرنسيين يستترون فى أردانه فصارحوه بالعداء واشتدوا فى ذلك ، ظنا منهم أنهم يحيطون بذلك مسعى من مساعى الفرنسيين ويفوتون عليهم غرضا من أغراضهم

تلك كانت الأسباب الحقيقية التى أغرت انجلترا بمحمد على وأوقفتها منه موقف العداء ، ولا محل للسمو بالانجليز عن الأنانية والنفاق واعتبارهم أنصار الحق والعدالة حيثما كانوا ، وسترى كيف حاقت بمحمد على من جراء هذه العداوة مصائب وويلات شتى

هذا وكان اتساع محمد على وامتداد أياديه فى السودان وبلاد العرب والشام يخيفهم ويحد من مطامعهم ، فاما استيلاؤه على السودان والحجاز فقد جعل البحر الأحمر بحيرة مصرية ، وهــذا مالم يكونوا ليرضونه ، ولهذا عجلوا باحتلال بريم على الشاطىء الافريقى ثم عدلوا عنها إلى عدن على شاطىء بلاد العرب ، وأما إكماله فتح بلاد العرب فهدد سيادتهم على خليج فارس وزاد تخوفهم منه ان الرجل بدأ يساهم فى تجارة الهند فسير سفنا له فى هذا الخليج فاسخطهم ذلك وآذاهم ، وكان وجوده فى الشام يعوق مساعيهم فى الاستيلاء على الجزيرة

(1) Dodwell; Op-Cit, P. 22

العراقية والملاحة فى الفرات فى طريقهم إلى الهند ، إذ كان الشام فى قبضته فى نفس الوقت الذى بدأت بعثة الكابتن كسنى Chesney تقوم باختبار اتها فى مياه الفرات وطرق الشام ، فكان وجود محمد على سببا فى بعض ما لقوا من العقبات

موقف الفرنسيين من محمد على

أما الفرنسيون فقد اختلفوا مع أنفسهم ولم يقفوا من الوالى موقفا واحدا أو مفهوما ، فقد جاهروا بالاعجاب به ومناصرته ما أمكنهم الجهر ، ولكن عطفهم عليه كان « افلاطونيا » ، أى اقتصر على نية الخير وحسن الرجاء ، فخذلوه فى كل مناسبة احتاج فيها إلى المعاونة الجدية ، بل حاربوه برجالهم وسيوفهم فى تارات شتى ، وقد كان الرجل يحسن الظن بهم إلى حد كبير ، وكان إلى آخر لحظاته على أمل الخير فيهم والعون منهم ، ولهذا لم يلبث العجب أن ملكه حين وجد فرنسا تناجزه العداوة وتعقد الخناصر مع انجلترا عليه .. وحينما حاول قنصل فرنسا كوشليه M. Cochelet أن يبرر موقف دولته ازاءه بقوله « إن المسألة ليست مصرية بل شرقية وأوروبية ايضا إن فرنسا ايدتك ولكنها لم تستطع أن تتحلل من روابط السياسة التى تربطها باوروبا وبانجلترا خاصة » .. لم تجز هذه التعلات على هذا الشيخ المثار المحزون وأدرك آخر الأمر حقيقة هؤلاء الفرنسيين فقال « لست أطلب أن تتخلى فرنسا عن احلافها لخاطرى ، وإنما وددت لو أقصرت فلم تقف منى موقف العداء » (١) . وليت ضمير فرنسا احس بهذه الشكاة الصادقة التى توجه بها اليها هـــذا الرجل الصادق من كل نفسه .. ليتها أحست بذلك فلم تجر فى الكيد له إلى هذا الشوط البعيد

---

(1) Driault : L'Egypte et l'Europe. (Caire). Vol I P. LXIM et LXIV

اعوان محمد على من الفرنسيين

وعسى من يقول أن مساهمة الفرنسيين فى أعمال محمد على وإسراعهم للعمل معه ومعاونته فى مشاريعه ينهض حجة تدحض هذا الرأى ، وتؤكد أن فرنسا كانت لا تغادر جهدا فى سبيل محمد على إلا بذلته راضية قريرة العين ، وتلك حجة أبسط مايسقطها أن هؤلاء الفرنسيين الذين خفوا لعون محمد على لم يكونوا من طراز الرجال الافذاذ الذين تهديهم دولة لصاحبتها ، وإنما كانوا من النفاية التى تتخلص منهم بلادهم على هذا السبيل ، فلم يكن هؤلاء الفرنسيين الذين اعانوا محمدا عليا بالاكفاء (خلا الكولونيل سيف) الذين يمكن الاطمئنان اليهم والركون إلى خبرتهم ، بل كانوا ذوى كفايات محدودة جدا كما تدل على ذلك أعمالهم التىكانوا بها . . وأمامك القناطر الخيرية التى أقامها ليتان تؤيد مانقول ، هذا إلى أن هؤلاء الرجال لم يكونوا مبعوثين من قبل الحكومة الفرنسية ، وإنما دخلوا خدمة الباشا عن رغبه فى الكسب والمغامرة لاغير

محمد على وتركيا

أما موقف الدولة العثمانية منه ، وموقفه هو من هذه الدولة فموضعه الفصل التالى من هذا الكتاب ، وإنما يهمنا أن نذكر أثر هذه العلاقات بينه وبين الدولة فى حكومته ونظامه . لكى نعرف هذا الأثر ينبغى أن نسأل . هل كان محمد على يستعد من بادىء الأمر ليلعب هذا الدور مع الدولة ، أوأنه انساق اليه رغما عنه ؟ الجواب نعم ولا .

فأما نعم فلأن حال الدولة فى ذلك الحين لم يكن مما يبعث على الاطمئنان والاستقرار ، وكان ولاتها كلهم يعرفون تقلب أحوالها واضطراب سياساتها وميلها إلى الغدر بالحكام أو إرهاقهم بالمطالب المشروعة وغير المشروعة . وكان محمد على نفسه أولى الناس بأن يفهم ذلك ويأخذ الأهبة له ويتوقاه ، فقد مارس سياسة الدولة وناوش

رجالها قبل ارتقائه الولاية ، فعرف آخر الأمر أن هؤلاء الرجال لن يعفوه من الكيد واللدد إلا إذا اعتصم منهم بجيش قوى وعدة صالحة وإدارة حكيمة تستطيع أن تقيمه ولا تتخونه ، وبهذا كانت هذه العلاقات سببا من أسباب نشاطه الادارى ، واما لا . فلأننا نستبعد أن يفكر محمد على من بادىء الأمر فى أن تصاريف الأيام ستضطره إلى حرب الدولة ومطاولتها واجتياح أرضها والاشراف على القضاء عليها ، وأغلب الظن أن الجيش كان يعد فى بادىء الأمر « للتخويف » والاشعار بالقوة التى تكبت الكائد وتحبط الساعى ، ولهذا بادر إلى إجابة طلب السلطان حين ندبه لحرب الوهابيين وبذل فى هذه الحرب جهده لكى تظهر هذه القوة . .

***

لم يكن عصر محمد على يطالبه بأكثر مما فعل ، وإذا قارنا الأمور التى استحدثها فى البلاد بما كان فيها قبل مجيئه لتجلت لنا عبقريته واقتداره ، بل لعل عصره يتألق لو قارناه بمن أتى من بعده من أبنائه و سلائله .

وأعمال الرجل ناطقة بذلك تدل عليها الأرقام والمبالغات . . فهذا رجل يبلغ متوسط ايراداته السنوية حوالى النصف مليون من الجنيهات على أحسن التقادير ، فاذا قلنا أن ميزانيته انتظمت على هذا المنوال مدى ثلاثين سنة لكان مجموع ما اتصل به من إيراد خمسة عشر مليونا من الجنيهات . فتصور أن الرجل أنشأ من المصانع والمعاهد فقط ماقدرت قيمته باثنى عشر مليونا من الجنيهات . . ومن الملايين الثلاثة الباقية أنشأ القناطر الخيرية والمحمودية وميناء الاسكندرية والابراهيمية وقلعة القاهرة . بنى أسطولين فى كل منهما عشر سفن كبيرة . . واستطاع أن يمون

جيشا عدته مائة ألف بضع عشرات من السنين ، وانفق على حملة الوهابيين وحروب اليونان وحروب الشام وفتح السودان . وأرسل الاموال الى القسطنطينية واشترى ضمائر رجالها فى أوليات أيامه وأخرياتها، تصور هذه الميزانية الصغيرة واذكر ما نشأ فى «حدودها» من الأعمال الباقية تعرف أى مدبر كان هذا الرجل ، وأى حكيم عالم بشئون المال حتى قام بذلك كله ولم يقترض ماليما واحداً . . بل استطاع فى معظم أيامه أن يحفظ النسبة بين الدخل والمنصرف . فكان لديه دائما مبلغ احتياطى كبير نسبيا

حقيقة كان الكثير من أعماله سطحيا وصار أكثرها إلى زوال ، ولكن الرجل ليس هو المسئول الوحيد عن ذلك . . فقد غرس البذرة وكان على خلفائه والقادرين من رجال أمتـــه أن يتعهدوها بالعناية والتثمير . . ونقول القادرين من أمته ، لأن الغالبية من أمته لم تكن على درجة من حسن التقدير لتعرف ما يعود عليها من الخير ببقاء هذه المصانع والمعاهد . فكان على خلفائه ورجاله أن ينفقوا ما ملكوا من جهد للمحافظة على هذه المعاهد والمؤسسات باقية حتى يعرف الشعب جدواها ويقدرها قدرها فينهض لحمايتها والمحافظة عليها ؛ هذا ولم يكن أحد من معاصريه — فى مصر أو أوروبا — لينظر بالعين التى ننظر بها الآن ، بل كان معظم المنشئات التى انشئت يومئذ فى أوروبا نفسها سطحيا ، وما كان الفرنسيون بأحكم من محمد على فى تشييد امبراطوريتهم التى ملئوا بذكرها الآفاق .

هل كان محمد على مجددا

بيد أن محمدا عليا لم يكن مجدداً غاليا فى التجديد . ولم يقلب نظم العمل والحياة فى مصر رأسا على عقب ، كما قد يقع فى أخلاد الكثيرين ، وإنما الحقيقة أن نظم الحياة ظلت على عهدة شرقيـــة كما وجدها ، ولم يستعمل الأساليب الأوروبية إلا لتهذيبها واصلاحها فقط ، أو

نظام الاحتكار

لضبطها حتى تفيء عليه غاية درها من المال ، فنظام الاحتكار الذى يعد أساس نظامه المالى والحكومى نظام شرقى سبقه اليه الكثيرون من حكام الشرق ، بل كان يعاصره فى الهند وفارس وغيرهما حكام يتناولون التجارة ويحتكرون بعض أصنافها كما فعل . ولكن الرجل يمتاز عن هؤلاء كلهم بأنه عرف كيف يستفيد بهذا المال الذى وصل إلى يديه عن هذه الأساليب ، بل أفاد منه إلى حد أدهش معاصريه من الأوروبيين وحير ألبابهم . فقد كان كثيرون من الأوروبيين ينتظرون إفلاسه بين آونة وأخرى ، ولكنه لم يكن يلبث حتى يخيب ظنونهم ويتخلص من أثقال الضائقات التى تهبط عليه ، ففى سنة ١٨٢٧ مثلا أبهظته تكاليف حرب المورة وهبط النيل سنتين متتاليتين . . فتبادل القناصل التهانى بالفراغ من أمره . . أخيراً . ! . . فاذا به يضاعف همته فى إنشاء المصانع والاحواض فى الاسكندرية ، وبعد أربع سنوات أخرى ، كان آخذا فى مشاريع تفوق حرب المورة نفقات وتكاليف ! . (١) وفى سنة ١٨٣٧ اطمأن المستر باركر إلى أن الرجل معلن افلاسه ولا شك بعد ما أنفق فى حرب السلطان ، وإذا به يفاجأ بأن محمدا عليا قد أمر بدفع متأخرات جنوده ! ، فلم يشك باركر فى أن الرجل قد عثر على كنز عظيم ، عثر عليه بمصباح علاء الدين (٢) ! .

أجل ، كان للرجل كنز عظيم لا يفرغ على كثرة ما يؤخذ منه ، ولم يكن هذا الكنز إلا تدبيره وحصافته فى شئون المال .

طبيعة محمد على الشرقيه

وليس أدل على شرقية محمد على وأساليبه من أنه لم يضع لماليته ميزانية أو شيئا يشبه الميزانية إلا بعد زمن طويل ، بل كان يضع ما يريد إليه من المال فى خزائنه وينفق منه بغير حساب مكتوب على أسلوب الحكام

(١) Dodwell P.207

(٢) Ibid . وباركر هو قنصل انجلترا العام فى مصر اذ ذاك

الشرقيين من قديم الزمان ، ولكنه اجتهد دائما فى أن يكون منصرفه أقل من إيراده وظل على ذلك حتى وضع له وزير ماليته بوغوص بك حسابا منظما كالمتبع فى أوروبا بمعاونة الفرنسى جومار .

محمد على ورعيته

ودليل آخر على ذلك ، هو أن « الرعية » لم يكن لها حساب فى مشاريعه ، ولم يكن لها حظ من خيراته وأرباحه ، فقد استصلح من الأرضين مائة ألف فدان وأدخل محاصيل جديدة وفيرة الربح والخير كالقطن والتوت ولكن الفلاح لم يربح منها مليما واحداً . بل عاد ربحها كله على الوالى وحده ، وظل الفلاح أجيرا مسكينا مسخرا كما كان على عهد المماليك والأتراك . وقد كانت للرجل مصانع عظيمة تدر الربح العظيم . . ولكن رعيته كلها كانوا أجراء لاينالون من المال إلا مايتبلغون به ، وكانت للرجل جيوش حارب فيها الآلاف من رعاياه واستشهد فيها آلاف كذلك ولكن أحداً من هذه الرعية لم يرتفع عن مكان الجندى المسكين الذى يؤمر فيطاع وحسبه ذلك . وهكذا كان الرجل شرقيا بل تركيا صميما

أساليب محمد على السياسية

ودليل ثالث على ذلك ، وهو أن أساس سياسته وخططه كان شرقيا . فكان الرجل ماهرا فى تدبير المكائد ، قديراً على حبكها بالخداع والوقيعة والتفريق وما إلى هذا ، كما رأينا فى موقفه من زعيم المصريين عمر مكرم ، وكما ظهر بشكل جلى فى مصانعته للمماليك واحتياله عليهم حتى تخلص منهم ، وكان يؤمن إلى ذلك بفائدة المال فى السياسة وأثره البعيد فى نفوس رجالها ، فأكثر من الرشوة لرجال الدولة والقناصل ، وقد جنى من ذلك ثمراً طيبا ، اذ اشترى ضمائر طائفة من قناصل الدول فأصبحوا أسرى فضله وعبيدا إحسانه وظلوا على ذلك زمانا طويلا (١)

فكرته عن التعليم

وكانت فكرة الرجل عن التعليم شرقية لاغربية . ليس المراد منها

(١) Dodwell P. 219 .

تعليم الشعب و تثقيفه وتحسين حاله ، بل المراد اخراج نفر يدخل فى خدمته ويفى بحاجاته ، ومن هنا كان أول الأساتذة الذين جلبهم من أوروبا إيطالى اسمه كوستى ، أخذ يعلم تلاميذه الرسم والحساب ، وكان أكثر مدارسه صناعيا ، وعلى هذا الغرار كانت بعوثه . ولكن فكرته لم تلبث أن تطورت بعض الشىء فبدأ يفكر فى إنشاء مدارس للتثقيف ورفع مستوى الأمة بعد ذلك بقليل .

بيد أن الرجل كان عمليا يعرف ما يريد بالبداهة الهادية ، ويعرف كيف يدركه بالفطنة والزكانة ، فلم يستغلق عليه وجه العمل أبدا ، ولم تشتبك فى وجهه المسالك قط ، ولم يجعل نفسه مركبا لقنصل من القناصل ، أو غرا يركبه الشطار بالحيلة والبراعة ، وأعانه على ذلك أنه كان حذرا لا يكاد يثق فى أحد غير نفسه ، فصدر فى كل أموره عن رأيها وكان على الحق فى ذلك فلم يكن فيمن حوله رجل — شرقى أو غربى — يساويه فى فطنته وذكائه .

محمد على لا يتقيد بالتقليد

ومن فضائل الرجل أنه كان صادق التقدير للتراث التركى الذى انتهى اليه ، فكان يعرف ضرره وسوءه ووخامة عقباه ، فكان على استعداد دائما للتخلى عنه أو عن بعضه ، فلم يتقيد باشراط الدين وحدوده وساهم فى تجارة الخمر واحتكر العرقى ، وأنشأ محاكم تجارية تقضى بالعرف التجارى ولا تتقيد بأحكام الشرع التى كان المسلمون يتقاضون فى حدودها ، وأباح تشريح الأجساد وغير ذلك مما كان معاصروه يتحرجون من فعله .

اسراع محمد على فى كل شىء

ولنذكر إلى ذلك أن الرجل كان قد أدخل فى الشيخوخة حين استهل أعماله وإصلاحاته ، فكان عليه أن يسرع حتى يرى نتيجة أعماله قبل أن يحين حينه ، فكانت السرعة رائدة فى كل شىء . . فالعمل الذى

يتطلب عشر سنوات لاتمامه لابد أن يكون تاما فى عام ، والخطة التى تستلزم عاما لانفاذها تنفذ فى شهر واحد وربما فى يوم فقط ! . . وفى غمار هذه السرعة أخطأ الرجل جوانب شتى من التوفيق ، فلم يكن لديه الوقت للتجويد والاتقان والتجريب ، وكان هذا عاملا من عوامل ضعف أعماله وقلة ثباتها . نشأت كلها فى يوم وليلة وضاعت فى يوم وليلة غير مخلفة بعدها أثرا .

***

محمد على والجيش

توجه محمد على بهمته إلى نواحى الادارة جميعا . وتناولت أعماله نواحى النهضة كلها ، فباشر التجارة وأنشأ البحرية وكون الجيش ونظم المالية وأقر الأمن ورعى الصحة العامة ونهض بالزراعة واهتم بالتعليم . ولكن الجيش والبحرية كانا موضع اهتمامه وسر نشاطه كله ، لأنه كان فى أشد الحاجة اليه لحماية نفسه فى عصر كثرت فيه الحروب والوقائع والجيوش ، ويشهد التاريخ بالعبقرية لمحمد على فى ذلك ، عبقرية استطاعت أن ترسل إلى الميدان آلافا من خيرة العسكر يحاربون مخلصين بشجاعة ومهارة ، يشهد له بأنه أقبل على البلاد وليس فيها جندى واحد جدير بهذا الاسم ، فاستطاع فى فترة قصيرة جداً أن يحول مصر إلى « قوة » حربية من الدرجة الأولى يخشى بأسها ويحسب حسابها ، ملأ بها نواحى الدولة الاسلامية حربا ونصرا . . من السودان إلى بلاد العرب إلى الشام إلى الأناضول واليونان وكريد ، فأى توفيق ذلك وأى نجاح ، لقد أثبت هذا الرجل للرأى الأوروبى أن الشرق لازال قادرا على إعداد الجيوش وتسيير الجحافل وكسب المواقع والانتصارات ولو لم تكن السن قد علت به حين تأزمت الأزمات واصطلحت عليه الدول ، لكان له شأن آخر مع المتحالفين عليه سنة ١٨٣٩، ولكنه كان يرى رجله فى القبر، ولم يحب أن يغادر الدنيا إلا وعرشه آمن .

جهود محمد على في الصناعة والزراعة

أما أعمال محمد على الأخرى فيكاد شرها يعادل خيرها ، ولا نرى فيها شيئا يستلزم عبقرية لقيامه ، فلا مصانعه تستوقف النظر ولا مزارعه تستحق الاعجاب ولا منشآته فى البحر والبر مما يستحق الذكر ، وإن كانت كلها مجتمعة تصور نظرية الرجل عن النظام المالى للدولة ، وهى نظرية « الاستقلال الاقتصادى للدولة » وتمكينها من سد حاجاتها بنفسها ، اهتدى اليها هذا الرجل الذكى بفطرته السليمة ، ولم تهتد اليها أوربا نفسها إلا بعد الحرب الكبرى ، وها هى الدول كلها تحاول اليوم أن تصل إلى ماحققه محمد قبل قرن من الزمان .

إيمانه بنظرية الاستقلال الاقتصادى للدولة

ومن الملاحظ أن إيرادات مصر فى أيامه كانت فى صعود يتناسب مع صعود مشاريعه واتساع دائرة أعماله ، ولم تزعزع هذه المشروعات نظامه المالى ، فظلت النسبة بين الايراد والمنصرف محفوظة ، ولم يكن الرجل من الحكام الذين يدخرون المال ويبذلون الوسع فى ملأ الخزائن بالذهب ، وإنما كان ينفق على مشاريعه وأعماله بسخاء ، ويعرف الوجوه التى يجمع من أجلها المال ، وتلك ناحية أخرى تميزه عن غيره من الحكام الشرقيين ، فقد فطن هذا الرجل إلى أن قوة الحاكم ليست بما لديه من ذهب وإنما بما فى بلده من مصانع وما على سواحله من موانى ودور صناعة وما فى أرضه من محصول وما فى مياهه من سفائن ، ولم يكن فى أوربا ملك يعاصره يفهم مهمة الحاكم على خير من هـــذا الوجه « فلو قد قسمت الأيام لمصر خلفا لمحمد على يرث مواهبه ومشاريعه لضربت البلاد لأهل الغرب مثلا فى الاصلاح السياسى لا يقل عن مثل اليابان ، ولكن أمرءاً واحداً ينفق عمره فى تأثيل ملك سياسى ، لايملك بداهة أكثر من أن يضع برنامجا للتقدم الانشائى » . (١)

1— Dodwell PP. 209 – 207

***

أغراض محمد على الاساسية

ماذا أراد محمد على من ذلك كله ؟ . . ماهى الأغراض التى كان يرمى اليها من وراء هـذه الحكومة التى أنشأها والقوة التى هيأها ؟ . . لقد ثبت أنه لم يكن يرجو فقط خير مصر وأهلها من وراء ذلك المسعى، وثبت كذلك أنه لم يكن من الحكام المثاليين الذين يصلحون للاصلاح فى ذاته ولا يمكن القول كذلك بأنه كان يرجو انهاض الاسلام وإقالة عثرته من أول الأمر ، فماذا كان غرضه من ذلك ؟

لقد بدأ يستعد لغرض بعيد من يوم استقر على ولاية مصر : بدأ يعد الجيش ويفكر فى الأسطول وينظم نفسه ليدرك هذه الغاية التى طواها فى نفسه ، فأى الغايات هى ياترى ؟

خوف محمد على من رجال الدولة

لا نزاع فى أن محمدا عليا كان يلمس ضعف الدولة العلية ويحس أنها مقبلة على نهايتها ، ولا نزاع فى أنه كان يعرف أن سوء نظامها واختلال أمورها قد هبطا بها إلى الدرك الذى لا نهوض لها بعده ، ولا شك فى أنه ـ يوم استقرت له الأمور فى مصر ـ أحس بأنه لن يزال فى خوف من رجالها ـ أى رجال الدولة ـ ماظلت الأمور متصلة بينه وبينها ، ولا نزاع كذلك فى أنه كان يعرف أن السلامة مكتوبة له فى الخلاص منها والنجاة بنفسه من الهوة التى كانت تسير نحوها ، بهذا تنطق البينات الأولى وتؤيده تصرفاته فى أوليات أيامه وعلاقاته مع رجال الدولة والبارزين فيها ، وإلا فما كانت حاجته لاعـــداد الجيش العظيم فى مصر من زمن مبكر جداً إذا كان قد وطن نفسه على أن يكون والياً عاديا من ولاة الدولة لا يظهر نحوها غـــير الولاء والطاعة ؟

١ ـ الدور الاول الاستقلال بمصر

نستطيع إذن أن نقول أن آمال الرجل فى هـذه السنوات الأولى

كانت لا تتعدى الرغبة فى الاستقلال عن الدولة وإقامة دولة قوية فيها له ولأولاده من بعده

ولكن مصر أعطته أكثر مما طلب اليها ، لم يكد يبدأ العمل فيها بنظامه وتدبيره حتى وجد خيراتها وازوادها تنثال عليه فى وفرة ظاهرة ، فاذا جيشه أضعاف ما طلب وسلاحه يوفى على الحاجة من الاستقلال ويزيد . . وإذا بآماله تنمو مع قواته وازدهار حاله . . وإذا به يجد نفسه على حال من القوة تفوق سلطانه وخليفته ، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى أحس أن الناس يرون فيه هذا الرأى ، ويدركون أنه أصبح « أكبر قوة فى الدولة الاسلامية » بل لم يلبث أن وجد السلطان نفسه يعترف بهذا ويؤكده ، ويستعين به على الخارجين عليه الذين عجزت يده عن ردهم إلى الطاعة . . فيستنجد به على الوهابيين ، وإذا به — أى محمد على — يحقق الأمل الذى رجاه فى نفسه والذى رجاه الناس فيه ، فيهزم الوهابيين ويعيد بلاد العرب إلى طاعة السلطان

ب — الدور الثانى
اتساع آماله
الى غير مصر

فاذا دخل الحجاز فى زمامه فقد استتبع ذلك نتائج سياسية على جانب عظيم من الخطورة ، أصبح محمد على أمير مكة والمدينة وصاحب الأمر فى الحجاز ، وهو بعد أقوى قوة فى الدولة الاسلامية ، ودولة الخلافة عاجزة كل العجز عن أن تقيم نفسها . ومن هنا أخذ الناس يتساءلون : من أحق بالخلافة .. أهذا العاجز المنبث فى القسطنطينية أم ذلك القوى الناهض الذى يملك القاهرة ومكة والمدينة ؟ بل لم يملك ابراهيم أن كتب الى أبيه يلمح الى هذا الأمر ويشير إليه — من خلف حجاب — قائلا إن السلطان لن يذكر بعد ذلك على المنابر كخادم الحرم الشريف(١) ، ولم يلبث الناس كلهم أن جعلوا يتناقلون

(١) الدكتور صبرى : الامبراطورية المصرية فى عهد محمد على ص ٢٨١
ويجد القارئ تفصيلا اوفى لهذه المسألة فى الباب الرابع من هذا الكتاب

الفكرة ويرددونها ، حتى لتوقعوا أن يعلن شريف الحجاز أن صاحب الكعبة وحاميها هو خليفة المسلمين (١)

السياسة الاوروبية تعين على اتساع آمال محمد على

وكانت السياسة الأوروبية فى ذلك الحين تعين على ظهور هذه الفكرة وتنميها فى نفسه ، فقد كان ذلك أوان الصراع بين الانجليز والفرنسيين من جهة ، وزمان الكفاح بين الروس والانجليز من جهة أخرى ، ومن ثم وجد الفرنسيون أن مصالحهم تستدعى تقويته وإنهاضه ، بل فكر بعض الانجليز فى الأخذ بيده ليوقف تقدم الروس .. وأخذ دعاة من الجانبين يتحدثون بذلك الى أنفسهم وربما تحدثوا إليه فيه ، « وأخذت الصحف والمراسلات الفرنسية الرسمية تغذى فى نفسه الاعتقاد بأن إعلانه الاستقلال بنفسه سيلقى التأييد والعطف فى كل مكان ، وزاده التفاتا نحو هذه الوجهة ما كان يرى من ظواهر العداوة التى كان السلطان ووزراؤه يطالعونه بها » حتى كتب كامبل من القاهرة الى بنسنبى فى الشام يقول « ان التهديد ومظاهر العداء التى يبديها السلطان نحو محمد على لحرية بأن تزيده تعلقا بالاستقلال ، وبمحاولة تحقيق الغرض الذى لا أراه إلا مفكراً فيه دوماً وهو إنشاء خلافة عربية ، انه شديد الطموح بطبعه نحو القوة والأبهة ، وأنه لينفرد من بين عامة المسلمين برغبة قوية تخالط دمه فى أن يخلد اسمه فى صحائف التاريخ .. ولقد طالما حالفه الطالع السعيد (٢) . »

موقف السلطان منه يدفعه الى الوثوب به

وأى طالع أسعد لمحمد على من هذه الاخطاء السياسية الكبرى التى اجترحها السلطان حياله ، فخدعه وغرر به وآذاه ، ولو قد وفى له

---

(١) من خطاب من باركر الى س كاتنج فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٣٢ (مكاتبات وزارة الخارجية البريطانية رقم ٧٨ — ٢١٣) عن دودويل وكامبل قنصل انجلترا العام فى القاهرة وبنسنبى قنصلها العام فى الشام

السلطان بما وعد يوم طلب عونه فى حرب اليونان ، لما وجد محمد على فرصة يحقق بها أمله فى الاستقلال التام عن السلطان . بل أى طالع أسعد من هذه الانتصارات المجيدة التى منحه الله إياها على جنود السلطان ، لقد أصبح بعد نصيبين سيد الدولة بلا نزاع ، ودخلت فى طاعته دمشق فلماذا لايصبح خليفة المسلمين ، لقد كان السيف أصدق الحاكمين فى مصائر الدول والخلافات فيما مضى ، فماذا يمنع محمداً علياً من التفكير فى تحقيق هذه الغاية الإسلامية ، وليس عليه من حرج أو جناح إذا فكر فى ذلك.

قوة محمد على تمهد له سبيل السيادة

حـ ـ الدور الثالث محمد على يفكر فى اصلاح الدولة العثمانية

بل لم تلبث عواطف المسلمين كلهم أن أيدته فيما صبا إليه ، لقد استعان السلطان بالروس وألقى بنفسه فى أحضانهم فماذا بعد ذلك ، وإلام طاعة هذا الخليفة الضعيف الذى يستعدى جند النصارى على جند الاسلام . هكذا كان الناس يفكرون فى القسطنطينية نفسها ، وترامت الى محمد على نفسه أخبار تؤكد له أن الناس هناك يرون فيه الحصن الأخير للدولة من الاخطار المحيطة والنوازل المتكاثرة (١)

محمد على يختبر الانجليز

يغلب على الظن أن محمداً علياً طرب لذلك ورجا أن يحققه ، ولكنه كان يعرف أن تحقيقه لن يتم بالسهولة التى كان الناس فى القسطنطينية يتصورونها ،كان يعرف أن الانجليز لن يخلوا بينه وبين مايريد ، فأخذ يفكر فى سبيل لاقناع هؤلاء أولا ، ومن ثم كتب مذكرة وسلمها الى قنصل انجلترا ليبعث بها إلى دولته ضرب فيها على الوتر الحساس عند ساسة الانجليز، فأثبت بذلك حصافة رأيه وحسن

---

(١) Dodwell P. 129

مذكر محمدعلى الى الدولة البريطانيه

حيلته . ذهب فى هذه المذكرة الى أن غايته الأولى إنما كانت القضاء على سلطان الروس فى تركيا ، وإعداد قوة كافية لارغامهم على احترام استقلال تركيا وفارس أيضا ، وأنه لم يرم من وراء احتلاله الشام إلى غير هذه الغاية وأنه كان يرجو بعد موقعة قونية أن يحدث فى حكومة الدولة فى القسطنطينية من التغييرات مايحبط مساعى الروس لو أعانته انجلترا وفرنسا . وذكر أنه لن يلبث أن يعد جيشا عدته مائة وخمسون ألفا من الأجناد لمعاونة الانجليز لادراك غايتهم السامية وهى الخلاص بتركيا وفارس من نير الروس ، ثم رجا فى آخر المذكرة أن تكون العدالة الانجليزية إلى جانبه حين يعلن استقلاله لأنه سيفعل ذلك اذا استمر السلطان على عدائه(١) . وبهذا أثبت الرجل ذكاءه ورعى عهد التاريخ فى زكانته وبعد نظره ، نعم أن هـــذا الخطاب لم يحقق الرجاء الذى علق عليه ، ولكنه دل على أن الرجل كان يحسن التفكير فى موقفه ، وأنه كان يزن الأمور وزنا عادلا دقيقا ، ومن دلائل ذكائه أنه لم يتوجه برجاء كهذا للفرنسيين لأنه كان يعرف أنهم كالطبل ضخامة صوت وقلة جدوى .

د ـ الدور الرابع يأس محمدعلى من بعث الدولة العثمانية

كانت نفس محمد على إذن متعلقة بانشاء دولة إسلامية جديدة ، وكانت عدته كله وآماله كلها تتجه نحو هذه الغاية ولو لم يقف الانجليز فى وجهه ، ويقضوا على آماله لتحقق غرضه هذا ، ولفتح فى تاريخ البلاد الاسلامية فصل جديد ، ولاتجهت الشعوب الاسلامية نحو القوة ، ولصار لها مستقبل لا يقل عما صارت اليه اليابان كما قال دودويل .

---

(١) من رسالة من بوغوص بك الى كاميل فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٣٤ . عن دودويل ص ١٠٣

انشاء دولة إسلامية عربية جديدة

فاذا يئس محمد على من ذلك الأمل الواسع فقد اختصر آماله بعض الشيء وقنع بما كان فى زمامه ، وكان سلطانه يشمل فى ذلك الحين مصر والسودان والحجاز والشام ، فأحب أن يستقل بهذه النواحى ، وأن ينشىء من الشعوب التى تتحدث العربية دولة إسلامية عربيـــة ، فعاد يعرض على الانجليز هذا الرأى ويجس نبضهم حياله ، فخير الانجليز بين أن يؤيدوه فى هجوم على القسطنطينية أو يعززوه إذا خرج على السلطان وأعلن استقلاله فى البلاد التى يحكمها باسم الدولة ، ويبدو أن أمله كان قوياً فى أن يوافق الانجليز على الرأى الثانى ، ولكن رجاءه لم يلبث أن تحطم إذ أبى الانجليز ذلك بحجة أنهم لا يستطيعون مناصرة ثورة على صاحب عرش من أحلافهم ، ولم يكن ذلك إلا حجة تذرعوا بها ليخفوا أغراضهم التى سبق بيانها ، (١) وزاد عليها سبب جديد أبان عنه بالمرستون فى خطابه إلى السير وليم كمبل وهو الحذر من تسليم طريق الانجليز إلى الهند عن سبيل الفرات إلى محمد على بعد أن أصبح فى يده طريقها عن سبيل السويس (٢)

ذلك كان الغرض البعيد الذى كان محمد على قد رمى إلى تحقيقه فحالت الأيام بينه وبين ماطلب كما سيجىء بيانه ، ولكنه حرى أن يستوقف انتباهنا لأنه كان محاولة جدية لاقالة الدولة الاسلامية من عثرتها التى صارت اليها .

العقبات فى سبيل انشاء دولة اسلامية

بيد أن الدلائل كلها كانت ناطقة بأن هذا الأمل كان مآله الحبوط حتى لو لم تمانع انجلترا فى تنفيذه ، وذلك لعدة أسباب ، أولها أن هذه البلاد التى رجا محمد على أن يجمعها فى لواء واحد لم تكن بينها رابطة غير

---

(١) دودويل ص ١٣٢

(٢) دودويل ص ١٣٤

الدين واللغة ، وفيما خلا ذلك كانت تختلف فيما بينها أشد الاختلاف بحيث كان من العسير جداً حكمها زمانا طويلا . وثانيها أنه كان لا بد من محمد على آخر يخلفه ليقوم على شئون هذه الدولة ويتعهدها بفكر صائب ورأى حصيف وقدرة عظيمة، ولم يكن فى الميدان امرؤ آخر من هذا الطراز ، لا من سلالة محمد على ولا من غيرها ، وثالثها أن قيام هذه الدولة كان لا يحل الأزمة القائمة ، إذ ماذا يكون مصير القسطنطينية وخلافتها ، وقد فصل عنها جسدها وبقيت قائمة تنوشها الرياح الهوج ولا تكاد تثبت للروس ، ورابعها أن الروس لم يكونوا ليخلوا بين محمد على وذلك الأمل ، بل كانوا خليقين أن يسعوا له بالمكيدة وسوء التدبير . وغير ذلك أمور كثيرة

هكذا حالت أوروبا دون بعث الدولة الاسلامية من جديد ، وأصرت على أن تبقيها فى حيث هى : ضعيفة عاجزة ينخر السوس عظامها ولا يجرؤ أحد على أن يتقدم اليها بعلاج . ولقد حاولت مصر — أى محمد على — أن تصلحها وتبعث الحياة فى كيانها الواهن فلم تستطع بل انتهى الأمر — كما سترى — بالقضاء عليها نفسها . فلا مفر للاثنتين — تركيا ومصر — من أن تصبرا لهذا المصير وتعملا الحيلة للخلاص والفرار من نيره ، فلنخلفهما فى مكانهما لنطوف طوفة على الشعوب الاسلامية الأخرى لنرى أثر هذا الاتصال بأوروبا فيها .

***

أثر الحملة الفرنسية على مصر فى الدولة العثمانية

كانت ضربة الفرنسيين فى مصر قنبلة هائلة أفزعت الدولة وأقضت عليها هجوعها الطويل، فأفاقت على عجل وأخذت تلتمس السبل للخلاص من هذه النازلة التى فجأتها على غير موعد ، ولو قد أحست فى نفسها القدرة على دفع ذلك الشر بسلاحها لما كان ثمت مجال للحيرة ، ولكنها كانت قد عرفت أنها لا تملك من الجند والعدة ما يمكنها من مدافعة الأعداء ومغالبة الخصوم ، ومن ثم قصرت همها على محاولة التقرب من الدول

ذوات القوة والسيادة لتحتمى بها وتعيش فى كنفها ، ولم يكن يوجد فى هذه الأيام من القوى التى يعتمد عليها غير الانجليز والروس .

احساس الدول بقرب تفرق الدولة العثمانية

وأحست الدول كلها بذلك فتسارعت إلى القسطنطينية حتى لا تفوتها حصتها عند التقسيم ، ومن ثم حفلت القسطنطينية بعـــدد حافل من السفراء والقناصل والمندوبين فوق العادة والقائمين بالأعمال وغير هؤلاء من رجال السلك السياسى ، وأخذ هؤلاء كلهم يبحثون الموقف فلم يخطئوا فى « تشخيص » المرض ولكنهم أخطئوا فى العلاج ، وكان الشفاء الذى يطلبونه لهذا المريض هو ابتلاعه والخلاص منـه على أهون سبيل .

اختلاف الدول على تقسيم الغنيمة

بيد أن اختلاف الأعداء كتبت السلامة للفريسة ، فوقفت كل منها عن كثب حذر الأخريات ، وأخذت كل منهن تحتال على الأخرى وتخادعها وتغرر بها ، أخذ الروس يتقربون من الانجليز ويتوددون إليهم حتى يوافق الأخيرون على تقسيم تركيا ، وفهم الانجليز أن ود الروس لم يكن فى حقيقته إلا خبا سـيئا ، كأنهم عرفوا بالفطرة ماتنطوى عليه الرسائل السرية التى كان يتبادلها ديتالنسكى مبعوث الروسـيا فى القسطنطينية وتشارتوريسكى وزير خارجيتها فى أكثر هـذه الأيام فرفضوا اجابة الروس إلى هـذه المطالب وأبوا الاشتراك وإياهم فى تقسيم الدولة العثمانية

بيد أن كلا منهما ـ روسيا وانجلترا ـ كانت فى حيرة من أمر فرنسا وعلى حذر منها ، وكان نجم نابليون الصاعد يثير فى نفسيهما قلقا مؤسيا اذ حسبتا أنه لا يبغى شيئا بعد ابتلاع الدولة العثمانية والفوز بأرضها جملة ، ولم يكن العهد بعيداً بحملته على مصر منذ سنوات ، بيد أن الأمر لم يكن فى حقيقته كذلك ، فما كان نابليون ينتوى شيئا نحو تركيا ، وما كانت فكرة تقسيمها لديه إلا وسيلة يخيف بها أعداءه أو يجتذبهم بها إلى صفه حسب الحاجة (١) ، ولهذا لن نجد له أى أثر إيجابى على كثرة

---

(١) عن نشأة المسألة المصرية للاستاذ غربال ص ١٨٤

ما نجد من مشاريعه وخططه فى هذا الصدد ، وحتى بعد تلزت ـ بعد أن أصبح فى امكانه أن يفعل مايريد دون أن يكون عليه حرج من ذلك ـ لم يكن يرجو من وراء مشروع التقسيم الذى عرضه وزيره تاليران على النمسا ، إلا إخافة الروسيا وارهابها (١)

نابليون والمسألة الشرقية

بل كان نابليون يرجو مخلصا أن ينهض الأتراك على أقدامهم فيغلقوا الباب فى وجه الروس من جهة ويحبطوا مساعى الانجليز ويأخذوا عليهم طريق الهند من جهة أخرى ، ولكن تركيا كانت أعجز من أن تأتى من الأمر شيئا ، لا لصالحها ولا للأخريات « فقد كان الباشاوات فى الولايات لا يربطهم بالدولة غير ولاء ظاهرى ، وكان الانكشارية لاينفكون يثورون بالدولة ويعقدون الخناصر مع اللصوص سراً وعلانية ، وكانت عصابات السراق تصل بغاراتها إلى أبواب القسطنطينية ، وكانت مصر قسمة ضائعة بين المماليك والألبان ، وخرجت مكة والمدينة من يدهم إلى الوهابيين ، ولم يكن بين أنصارها أو خصومها خلاف على أن نهايتها أوشكت أن تكون »(٢) فكيف تستطيع والحالة هذه أن تحرك ساكنا

نابليون يحاول إيقاظ السلطان

ولكن نابليون لم يطق على هذه الحال صبرا ، ولم يلبث العجب أن ملكه من أمر هذا السلطان الذى يرى الأعداء يجتاحون بلاده فلا يتحرك لرد أحد منهم ، فأهاب به . « أنت ! . . ياسليل آل عثمان العظام . . ألم يعد لك حكم ولا حيلة . . انهض ياسليم ! » (٣) ولكن سليما لم ينهض ! لا عن انصراف عن النهوض ، بل خوفا من الروس ، وهم يشرفون عليه من شمال ولا يعفونه من شر إذا هو مد يد الحليف لعدوهم نابليون ، ويغلب على الظن أن هذا الأخير قد أدركه اليأس من الأتراك فأرسل سفيره سبستيانى يستطلع الأمر ويدرس شئون

1 Vandal Napoleon et Alexandre I, P. 4

2 Driault, Question d'Orient. P. 82

(٣) نشأة المسألة المصرية : ص ٢٠٠

الدولة ، فلم يكد هذا الرجل الماهر ينزل بلاد الدولة حتى وجد أمراً عجبا ، وجد النفوس عطشى الى الخلاص والآمال حيرى تبحث عن مخرج من حرج الروس وضيق اليـأس ، فلم يكادوا يرون رسول نابليون بينهم حتى هللوا لمقدمه واحتفلوا به أحسن احتفال سواء فى ذلك أهل طرابلس والاسكندرية والقاهرة وعكا وأزمير وجزائر اليونان ، أو أية ناحية أخرى زارها ، ولم تكن دهشة الرجل لهذا وحده بل لما لمس من ضعف القوى الاسلامية حتى لقد أكد فى تقريره الذى نشر فى مجلة المونيتير سنة ١٨٣٠ أن ستة آلاف جندى فقط قديرون على احتلال مصر (١)

تقرير سبستيانى يثير مخاوف الانجليز

أثار هذا التقرير مخاوف الانجليز ، ولكنه لم يبلغ من الاتراك مثارا ، فظلوا يطوون خوفهم حذرا من الروس ، فلما ترامت إليهم أنباء أوسترلتز، وأمنوا شر الروس « هبوا دفعة واحدة يعلنون لسيد أوربا ماأمسكهم الخوف عن اعلانه ، وبدا بوضوح أنهم يرون فى نابليون يداً أرسلتها العناية لعقاب عالم مسىء » (٢)

ونهض سليم ، وكان يفكر منذ حين فى الاصلاح ، ولم يكن له عن ذلك محيص وهو يرى الموت يدب فى أوصال الدولة ويسرع بها نحو الفناء ، فلم يكد يفعل ذلك حتى قامت فى وجهه الحوائل وأنذرته النذر بشر مستطير ، وذكرته بأنه لا مفر له من أن يزيل حطام البيت القديم ليستطيع إقامة الجديد على أساس جديد

بدء الاصلاح فى تركيا

ولكن سبيله لم يكن ميسرة ولا مأمونة ، أيريد السلطان أن يبنى جيشا جديداً على النظام الحديث ؟ فماحيلته اذن فى هؤلاء الانكشاريين الذين أصبحت الحرب فى يدهم احتكارا لا يكاد ينازعهم فيه أحد ،

(١) Moniteur Afficel, 30 Jan, 1803
Driault, Op. Cit P. 82

(٢) عن خطاب من المستر اربثنو سفير انجلترا الى ملجراف : ١٥ فبراير سنة ١٨٢٦

أيريد أن يستبدل بهم جندا جددا على « نظام جديد » ؟ إذن فليأخذ الحذر تقية من ثورة تكون منهم ، فهم لا يسلمون أنفسهم بهذه السهولة وما كان لهؤلاء « التنابلة » أن يفهموا من دعوة الاصلاح الا انها مؤامرة لا يراد منها غير القضاء عليهم والخلاص من أمرهم

معارضة الاصلاح

من ثم بدأ صراع طويل بين الجديد والقديم فى تركيا : سلطان يرى الخطر بعينه ويوجس خيفة من المستقبل المظلم ، وشعب راكد مجهد ، ران على نفسه الكسل وفاضت روحه باليأس وأغلق أذنيه مخافة أن يسمع شيئا ولا يسمح بالتغيير أبدا . وهذا خلاف ما رأيناه فى مصر ، فهناك شعب كره الاصلاح لأنه لم يفهمه على وجهه ، ولم يحاول أن يقف فى وجهه أو يعوق سبيله ، وإنما سمح به لأن طبيعته — أى طبيعة الشعب — تسمح بالتقدم وتألف التغيير — فتركيا شعب طال به الأمد فى جهل الغرور وأحلام السيادة ووجد فى قبول الاصلاح مسبة له وعارا ، فأصر على العناد ، وفى مصر شعب أعزل يستطاع فرض الاصلاح عليه وتحبيبه إلى نفسه . أما فى تركيا فجيش على شيء من القوة لا سبيل إلى إرغام أنفه وإذلاله ، وهذا هو الفرق بين البلدين وهو السبب فى تفوق المصريين على الأتراك فى أوائل القرن التاسع عشر ، وتفوق المصريين على غيرهم من أمم الشرق فى ميدان التقدم والتحضر .

بدء الاصلاح الحربى

حاول السلطان سليم الثالث أن يصلح ، فبدأ باصلاح الناحية الحربية فاصطدم بالانكشارية . وكان من حظ السلطان أنه لم يكن وحيدا كما كان محمد على فى مصر ، بل وجد من رجال دولته أنصاراً أقوياء على رأسهم البيرقدار مصطفى (١) ولكن الانكشاريين انتصروا وأرغموا السلطان على سحب « الخط الشريف » الذى أعلن به تأليف

(١) يجد القارىء تفصيلا للاصلاح فى تركيا فى الباب الثالث من هذا الكتاب

الجيش الجديد ، ولم يسكن غليان النفوس بذلك إذ لم يزل السلطان على نيته ولم يزل الانكشارية على الحذر ، وانتهى الأمر بثورة أخرى من جانب الجند عزلوا بها السلطان وقتلوا سبعة من وزرائه ليستريحوا من شرهم .

انتصار الرجعية

وتعاقبت الثورات وكثرت الاضطرابات وخلف السلاطين بعضهم بعضا على يد الجند ، وانتهى الأمر بانتصار الرجعية والجمود ، وخمود فكرة التقدم والعودة إلى النوم(١).

ولكن ذلك لم يكن إلا ظاهراً يستر تحته أموراً أشد خطرا ، لقد نسى السلطان وجنده أن أفكار الحرية تنتشر مع الهواء ، وان دعاوة العصر الحديث لاتحتاج للرسميات لتقرر أو تلغى ، فلينتظر الحيان قليلا على مضض اليأس وخوف الكيد واللدد ، وليؤمنا ماشاءا بأن النهاية كربت أن تكون ، ولينظرا فى يأس إلى هذا المصير الأسود ، ولكنهما عسيان أن لاينسيا أن صروف الأيام سوف تخلف منهما كل مقدور ومنظور

***

أثر الاتصال بالغرب فى الشعوب الاسلامية

وعلى هذا الغرار قس بقية البلاد الاسلامية ، سرى إلى نفوسها الاحساس بالخوف من الغرب والحضارة الغربية ، وزادها خوفا وقلقاً ان أوروبا طالعتها بمظاهر قوتها قبل أن تطالعها بمظاهر حضارتها ، أو قل أنها فهمت وجهها الأول وغاب عنها وجهها الثانى ، ولما كانت شعوب الشرق قد نفضت أيديها من السياسة من قديم الزمان وتركت ميادينها للحكام والأمراء فقد وجدت أن الخطر الأوروبى لايعنيها وإنما يعنى حكامها وأمراءها ، لأنه — بعد — شأن من شئون الحرب

---

(١) ذلك ايجاز للحركة . ويجد القارىء عنها تفصيلا فى الجزء الخاص بالاصلاح فى تركيا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب.

والسياسة وتصاريف الدول والحكومات وليس لها نصيب فى ذلك كله ، ولهذا أحس بالخطر سلطان تركيا ووزراؤه ولم يحس به شعبها ، واهتم للأمر محمد على ولم يحفل له عامة شعب مصر ، وروع للخطر شاه فارس ولم تبال به أمة الفرس لأنها حسبت الأمر ، لا يعنيها ولا يتهددها بشر ، ومن يدرى فربما رأت فى غلاب القوى الغربية لحكوماتها سبيلا للخلاص من هذه الحكومات ، وكان من المعقول جداً أن يقع من كثرتها موقع الرضى لو لم تكون أوروبا مسيحية ولو لم يعد هجومها على الشرق بغياً على الاسلام .

ضعف الدول الاسلامية

وكانت أمم الإسلام كلها قد وهن أمرها وحل فيها الضعف فى مطالع العصر الحديث ، حتى فارس التى لم تكن لها بالدولة العثمانية صلة ، والتى كانت حرية أن تظل على حالها من القوة لقلة ما نزل بها من الاحداث وما عرف عن أهلها من اتصال النشاط واضطراد الجهود والنهضات ، ولكن الغالب أنها كلها - أى أمم الاسلام - كانت تمر فى دور من الانحلال السياسى والاجتماعى ، يؤذن ببدء عصر جديد .

فارس والروسيا

أحست فارس بخطر الغرب احساساً ظاهراً ، إذ تهددها الروس من بدء الأمر ، أى من أيام بطرس الأكبر . أذ كان سبيلهم اليها بين البحرين — قزوين والأسود ، وبين النهرين أى تركستان ، وقد سهل للروس هذه المهمة أن هرقل حاكم أقليم جورجيا أسلم للروس بلاده فى أوائل القرن التاسع عشر ، وبهذا انفتح الباب على مصراعيه ، ووجد الفرس أنفسهم وجها لوجه أمام الروس فملكهم خوف شديد (١)

الشاه فتح على

وكان على عرش فارس فى هذه الأيام أمير على جانب من بعد النظر

---

(١) تجد فى الباب الثالث من الكتاب تفصيلا وافيا لتاريخ فارس فى العصر الحديث

وحسن الفهم وهو الشاه فتح علي ، عرف بالفطرة - والتجربة أيضاً - أن قواه لن تثبت لطوفان لروس فأسرع يستعين بالسياسة الأوروبية يستفيد من أحوالها وصروفها، ولا نزاع فى أنه كان على اتصال بأوروبا لأنه لم يلبث أن عرف عــداء الروس للفرنسيين فعجل بارسال مندوبيه إلى نابليون يستعديه ويحتمى به ، وكان نابليون يميل كل الميل إلى استعمال القضية الشرقية لارهاب أعدائه الروس والانجليز ، فلم يكد رسل الفرس يلقونه فى فنكنشتين فى ٤ مايو سنة ١٨٠٧ حتى وقع معهم معاهدة من هذه المعاهدات التى كان لا يعنى ما يقوله فيها ، وإنما يوزعها ترضية للناس وسلوى ، فضمن لهم حقهم فى جورجيا واستأذنهم فى أن تمر جنوده ببلادهم فى سبيلها إلى الهنــد ! .. وما كان يرجو من وراء ذلك كله إلى أكثر من أن يتسامع الانجليز بأنه لازال يدبر للهند ويلتمس السبيل اليها ؛ بل لعله لم يندب « جاردان » ويبعثه إلى فارس ليدرس خطة فتح الهند منها ، إلا لكى يشعر الانجليز أنه لازال يسعى لحتفهم ، ومصداق ذلك أنه لم يكد ينتصر على الروس ويكسب ودهم بعد فريدلند فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٧ حتى نفض يده من فارس وغير فارس ، ولا عليه بعد ذلك : أكلها الروس أو أبقوا عليها فما كان له فى عونها أرب ولا غاية .

* * *

اللقاء الاول بين الشرق والغرب

كان اللقاء الأول بين الشرق والحضارة الغربية شراً مستطيراً على شعوب الشرق الاسلامى ، لأنه كشف للغرب عن حقيقة هذه الشعوب فلم تعد يخشاها ولا يحسب لها حساباً ، وأخذ يرسم الخطط لابتلاعها . وتقسيمها ، وعادت إلى أذهان الغربيين ذكرى الحروب الصليبية فسار بعضهم - كالروس - فى الأمر وكأنه يثأر ليوم حطين .

وأدركت شعوب الشرق ضعف أمرها وهوان شأنها ، وعرفت

أن لامحيص لها عن دفع الخطر الغربى بالأساليب الغربية ، فحاولت أن تستعين بأوروبا لادراك هذه الغاية فوجدت أوروبا تخدعها ولا تبيعها ذلك إلا بأغلى ثمن وهو الحرية ، بل أحست أن أوروبا كلها يد واحدة ورجل واحد وإن اختلفت النزعات والألوان والأحوال ، وعرفت أن أوروبا مستعدة لأن تفهم المسألة على أنها حرب صليبية ، فتقف كلها صفا واحدا كما وقفت قبل ذلك بقرون .

ازاء ذلك لم يبق للشرق من أمل فى غير نفسه ، فعاد اليها ينظر فيها ويبحث أمرها ، وقرنها إلى مارأى من حضارات الغرب وأحواله فاستطاع أن يفهم حقيقة علته ، وأخذ يلتمس السبيل للخلاص منها ، ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى وجد السبيل تؤخذ عليه فلا يسمح له بأن يصلح من أمره على هينة ؛ حيل بين الوهابيين وما طلبوا من اصلاح المسلمين فى أمور الدين ، وحيل بين محمد على وبين تحضير مصر وأنهاضها ، وحيل بين سلطان تركيا وبين اصلاح بلاده ، وحيل بين شاه فارس وبين حماية نفسه من الروس ، فما العمل إذن ؟ فاما التسليم بالموت والهزيمة فأمر لم يحن حينه ، وأما انتظار العدل والانصاف فانتظار للموت والفناء ، فـلم يبق إلا التعجيل بالعمل ، وإذا كانت الحوائل تحول دون هذا التعجيل فلا سبيل إلا الثورة ، وما دامت « الدولة الاسلامية » بحالتها الراهنة عقبة من عقبات النهوض فليبدأ بالثورة عليها جملة ، ثورة عليها كنظام دينى وكنظام اجتماعى وكنظام سياسى ، ثورة شاملة يشترك فيها المسلمون أجمعون بدوهم وحضرهم ، فلعل الدولة الاسلامية ، أن تخرج من مرجل الثورة وقد صهرتها نيرانها فتستطيع أن تسير إلى الأمام بخطى ثابتة بعد أن نفت عنها النار أو شاب الماضى وعقابيل القرون .

الثورة على الدولة الاسلامية

تفكك الوحدة الاسلامية

قرأت الشعوب على ملامح عواهلها علائم الخيبة ، وقد حاول هؤلاء الحكام أن يتكتموا أخبار الهزيمة أو يستروا أمارات اليأس فظلوا على حالهم من الترفع على الرعية والتعالى عنها ، كأن ما نزل بهم لم يهز منهم جنانا ولم يثر روعا ، فكانوا فى ذلك مخطئين ، ولو أنهم فكروا منذ تلك اللحظة فى الاستعانة بالشعوب ودعوها للتعاون معهم لكان لهم منها حمى ومأمن ، ولكنهم لم يفطنوا إلى ما فطن اليه أباطرة اليابان قبيل ذلك الزمان ، فقد فطن هؤلاء إلى أن رعاياهم أحنى عليهم وأرعى لعهدهم من أية قوة شرقية أو غربية ، ومن ثم بدأ ذلك التعاون الجليل الذى ارتفع باليابان من الحضيض الى الاوج فى سنوات ، ولكن حكام الشرق كانوا يحكمون بوحى الماضى لابوحى الحاضر ، فكان ذلك سبباً فى هذه المآسى المتتالية التى ستغمر تاريخ الشرق الاسلامى فى ذلك العصر الحديث ، والتى ستحمل الوبال على الحاكمين والمحكومين معا .

وكانت الشعوب قد أدركت منذ حين ضعف حكوماتها وعبرت فى مناسبات عدة عن سخطها على هؤلاء الحكام وعدم اقتناعها بصلاحيتهم للحكم ، وسرى فى كثير من الأقوام الخاضعة لآل عثمان شعور بأن القائمين بالأمر قد وهن أمرهم واضمحل حالهم واجتاحتهم موجة الترف التى انتابت الدول الاسلامية قبلهم . وأحس هؤلاء الأقوام بأن التاريخ يناديهم ليتموا دورة العمران التى تكررت على مسرح السياسة الاسلامية مثنى وثلاث ، فبدأت أقوام البدو تتحرك لتشن غارتها على الحضر لتزيلهم وتبعث الحياة فى جسد الدولة الاسلامية من جديد .

هكذا نستطيع أن نعلل الحركات الاصلاحية التى نشأت فى بعض النواحى الصحراوية فى الدولة الاسلامية ، وليس من الصواب القول

سببها بأن الأول هو الاتصال بأوروبا وانتشار آراء الحرية بين المسلمين كما يزعم نفر من المؤرخين (١)

لا نزاع فى أن معظم الحركات التى ستحدث فى العالم الاسلامى ستكون ناشئة عن الاتصال بأوروبا ، ولا جدال كذلك فى أن الاتصال بالغرب والحضارة الغربية قد فتح عيون المسلمين ودفعهم إلى التفكير فى الاصلاح ، ولكن القول بأن الحضارة الأوروبية أصبحت السبب الوحيد فى كل ماسيقع فى نواحى الدولة الإسلامية من الحركات والاحداث مبالغة لا يؤمن معها الخطأ، فقد فكر المسلمون فى الاصلاح قبل الاتصال باوروبا بزمن طويل ، وتبينوا تماما أن القائمين بالحكم فيهم أصبحوا غير قادرين على القيام باعباء الحكم على الوجه المطلوب وان استبدال غيرهم بهم أصبح من ألزم الأمور للاحتفاظ بكيان الدولة الاسلامية .

المقياس الدينى

ذلك ان المسلمين درجوا على أن يزنوا دولاتهم بميزان الدين ، ويقدروا صلاحية حكامهم للحكم أو عجزهم دونه بمقدار محافظتهم على قواعد الدين واشراطه ، وهذا مقياس بين واضح ، لا يحتاج المسلمون إلى آراء الغرب ليعرفوه ، فما دام الحاكم مستمسكا باهداب الدين فحكومته بخير وعافية ، واذا تغاضى عن الدين وأهمل جانبه فحكومته باغية لابد من الخلاص منها .

بيد أنه لابد من القول بان الحضارة الغربية ساعدت على ظهور هذا الضعف من ناحية ، وأبرزت هذا السخط من ناحية أخرى ، فقد كان ضعف الحكومة الاسلامية لا يضير المسلمين ماداموا فى أمن من العدو المهاجم الذى يهدد حياتهم وأرزاقهم بالخطر ، وقد كانوا فى غنى عن الثورة عليها مادامت لها هيبتها وقوتها ، أما وقد رأوا بعيونهم

(١) راجع . Driault, La Question d'Orient. P.89

جيوشها تهزم وألويتها تتهافت ، أما وقد وجدوا الروس يعبثون بها والفرنسيين لايرعون لها حرمة ولا مكانة فقد بدا لهم ضعفها واضحا ولم يعد للمسلمين بدمن أن يتداركوا أنفسهم قبل أن تصبحهم النازلات بخيلها . ومن هنا برز السخط وتجلى بعد أن كان خافيا مستوراً .

وأيقظ الاتصال بأوروبا عوامل الحقد بين الأجناس فأوجد بذلك سبباً جديداً من أسباب الثورة على الدولة الاسلامية ، فرفعت الأجناس المتنافرة رءوسها وبدأت تطالب باستقلالها وخروجها عن سلطان آل عثمان ومن هنا نشأت الحركات الاستقلالية فى العرب واليونان وعامة شعوب البلقان

وتبينت دول أوروبا ضعف الدولة الاسلامية فأخذت تفكر فى تقسيمها والخلاص منها ، فلما وجدت أن ذلك سيطول أمره أخذت كل منها تفكر فى الاستيلاء على ما تقدر عليه من أراضيها ، ومن هنا فكر الفرنسيون فى الاستيلاء على الجزائر والروس فى الاستيلاء على فارس .

ثورات فى كل مكان

من هـــذا كله ، تجتمع لدينا سلسلة من الأحداث والثورات الداخلية والخارجية ترمى إلى الخلاص من الدولة العثمانية والقضاء عليها ، فثار الوهابيون على نظامها الدينى ، وثار محمد على على نظامها السياسى ، وثار البلقانيون على حكمها ، وثار السلطان نفسه بنظامها الحربى ، وثارت أوروبا بوجودها جملة

إزاء ذلك كله كان على العثمانيين أن يعرفوا أن علاج ذلك كله هو أن يثوروا هم الآخرون بأنفسهم ، فينفضوا عن أنفسهم وضر الماضى بعلاته وعيوبه ويبرزون للدنيا أمة جديدة فى كل شىء تساير العصر الحديث وتقتدر عليه كما فعلت اليابان

— ١ —

الوهابيون
ثورة على النظام الديني للدولة العثمانية

فكرة الاصلاح الديني عند المسلمين قديمة جدا ، فكروا فيها منذ منتصف القرن السابع الهجري ، ونادى فيها منهم دعاة على جانب عظيم من الاخلاص والايمان والاقتدار وكان ظهورها موافقا لظهور الضعف في الدولة الاسلامية ، وخوف المسلمين من انهيارها ، كأنما رأوا في إصلاح الدين صلاح السياسة . ولهذا نلاحظ توافقا عكسيا بين حال الدولة ونشاط الدعوة إلى الاصلاح : فكلما تصدع كيان الوحدة الاسلامية وبدا عليها الوهن كلما اشتد المسلمون طلابا للاصلاح وتعلقا به ، ولهذا ستلاحظ أن حركات الاصلاح ستكثر وتشتد ويعظم اقبال الناس عليها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : أي خلال الفترة التي ظهر الخطر على الدولة الاسلامية فيها واضحا جليا .

ابن تيمية

وقد بدأ هذه الدعوة عالم من علماء حران هو ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن محمد) قام ينبه المسلمين إلى ما وقعوا فيه من الفساد بسبب الانحراف عن جادة الايمان الصحيح فهاجم الحكام واتهمهم علانية بالمروق ومخالفة الدين وهاجم علماء عصره وانتقد طرقهم في التعليم والافتاء والتشريع ، وهاجم العادات الشائعة في زمانه إذ وجد فيها مخالفة للشريعة الحنيفة ، ولم يقتصر على ذلك بل « هاجم بقلمه ولسانه كل الفرق الاسلامية كالخوارج والمرجئة والرافضة والقدرية والمعتزلة والجهمية والكرامية والاشعرية وغيرها » و « طعن كذلك على الرجال الذين يعتبرون حجة في الاسلام ، فقال على منبر جامع الصالحية أن عمر بن الخطاب

وقع فى كثير من الاخطاء ، وقال أيضا : أن على بن أبى طالب أخطأ ثلثمائة مرة » ولم يتردد فى مهاجمة كثير من الأعلام الذين سبقوه وانعقد اجماع الناس على تفردهم بالعلم والتفقه فى الدين والفلسفة « فهاجم الغزالى بشدة كما هاجم محيى الدين بن عربى وعمر بن الفارض والصوفية بوجه عام.» (١) وبهـــذا ثار ابن تيمية وتلاميذه على نظام الدولة الاسلامية الدينى ، ودعا الناس فى كثير من الجرأة والقوة إلى اصلاح شأنها وتقويم أمرها ، ووصف للناس سبيل هذا الاصلاح والتقويم بأن نصحهم بالرجوع إلى القرآن والحديث والاكتفاء بنصيهما ، كما فعل مارتن لوثر حين دعا المسيحيين إلى إصلاح شأن دينهم بالرجوع إلى الكتاب المقدس وحده (٢)

رحب الناس بابن تيمية واستمعوا إليه وأعجبوا به وتعصب له منهم فريق ، ولكن دعوته لم تلق من التوفيق ما هى جديرة به لأن الناس كانوا فى زمانه مشغولين عن الاصلاح الدينى بحرب التتار وغيرهم من الشعوب التى تهددت المسلمين بالهجوم فى ذلك الحين ، وكانت دعوته كذلك خليقة بأن يعرض عنها الحضر الذين عاش وتنقل بينهم فى مصر والشام ، ولو قد كانت دعوته فى قوم من البدو لفعلت فيهم فعلها منذ ذلك الحين . ولهذا ظلت دعوة الرجل على ركودها زمانا طويلا حتى تأذن الله لها بان تصل إلى آذان بدو العرب فى جزيرتهم بعد ذلك بنحو أربعة قرون ونصف ، حملها إليهم محمد بن

---

(١) محمد بن شنب فى دائرة المعارف الاسلامية . مادة ابن تيمية — الترجمة العربية (طبع القاهرة)

(٢) سعادة الاستاذ حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين (طبع القاهرة ١٩٣٦) ص ٣٣٤ — ٣٣٥

عبد الوهاب الذى عاش فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى (النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى)

محمد بن عبد الوهاب

حول محمد بن عبد الوهاب مبادىء ابن تيمية إلى برنامج سياسى ، فقد عرف بداهة أن لا نجاح لآرائه مادام الناس خاضعين لهذه الدولة العثمانية التى أصبحت تعتبر الاصلاح أيا كان لونه خطراً على كيانها وأضحت مع الجامدين إلبا على كل مصلح وناصح ، وكانت حياة أستاذه الأول ابن تيمية قد أكدت له أن لا أمل له فى عون رجال الدين فى الحواضر الاسلامية كالقسطنطينية ودمشق والقاهرة ، لأن هؤلاء الرجال قد تحولوا بمرور الأيام إلى موظفين رسميين جامدين ، لا يميلون إلى التغيير أو التطور أو الثورة ، وأصبحت لهم أرزاق موصولة ومراكز مرموقة لايجازفون بها فى سبيل نظريات لايؤمنون بها كثيراً ، وعرف كذلك أنه لابد له من سند سياسى يعزز مبادئه الدينية ، لأن النظريات لاتنتصر بقوتها وصدقها بل بما يؤيدها من قوى السياسة ، فباعد نفسه عن هذه الحواضر وأوساط المدنية وعاد بآرائه ودعوته إلى البيئة المناسبة لها وهى البيئة الصحراوية التى تميل إلى الزهد والتقشف بطبيعتها ، وكانت طوائف البدو تنطوى على الكراهية والاحتقار لهذه الجماعات الاسلامية الحضرية المترفهة ، وكانت ترميها بأنها كانت السبب فيما أصاب الاسلام من نكبات فاحسن ابن عبد الوهاب استغلال هذا الشعور ، واستطاع أن يكسب ود أمير الدرعية محمد بن سعود جد آل سعود الحاليين ، واستعان بقوته وسلاحه لكى ينشر مبادئه بين قبائل العرب بحد السيف حتى استطاع قبل موته سنة ١٧٩١ ميلادية أن يجمع جزيرة العرب كلها إلى لواء آل سعود ، وأن يفرض آراءه ويعاونه على أهل الجزيرة جمعاء . (١)

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين : ص ٣٣٨

فانقطعت الصلة بين بلاد الدولة العثمانية وأصبحت خارجة عن طاعة خليفة المسلمين .

ابن عبد الوهاب والاسلام الرسمى

لم تلق أفكار الوهابيين قبولا عند عامة المسلمين لأن القائمين بأمر « الاسلام الرسمى » فى الحواضر الاسلامية تصدوا لهدم الدعوة وحرصوا على أن يشوهوا مبادئها لكى يثيروا السلطان عليها ، فأفلحوا فى ذلك ، إذ وقع فى ظن السلطان ورجاله أن حركة الوهابيين حركة انفصالية ينبغى القضاء عليها عن أى سبيل ، وذلك لأن الوهابيين أعلنوا سخطهم على كل الطوائف الاسلامية الحضرية التى استسلمت للترف والرخاء ، ولأنهم لم يقفوا عندهذا الحد بل أخذوا يصارحون الدولة بالعداء والتحدى، وأخذوا يعملون صراحة للاستقلال والانفصال إذ استطاع سعود الثانى الذى خلف أباه سنة ١٨٠٢، أن يفتح المدينة سنة ١٨٠٣ ومن ثم أرسل الى السلطان ينهاه عن إرسال المحمل السنوى إلى الحجاز مصحوبا بالزمور والطبول ، وجرى فى مخاوف الدولة أن الرجل يعد حملات لا تلبث أن تغير على العراق والشام (١) .

الوهابيون يشرعون فى الجهاد الدينى

واشتد إيمان الوهابيين بأنفسهم حين ترامت اليهم الأنباء بهزائم الدولة أمام القوى الأوروبية واضطرارها إلى الخضوع لهذه القوى، فنسب الوهابيون ذلك كله إلى تهاون العثمانيين فى شئون الدين وأحسوا أن واجبهم الدينى يتطلب منهم أن يخفوا للدفاع عن حوزة الاسلام فى هذه اللحظة التى أرادت فيها النصرانية أن تقضى عليه ، وهكذا فهم الوهابيون وغيرهم من الجماعات الاسلامية هذا الصراع الجديد بين الشرق والغرب على أنه عدوان من النصرانية على الاسلام ، وعادت الى أذهانهم ذكرى الحروب الصليبية الراقدة فى عقولهم الباطنة ، فوقع فى ظنونهم أن حماية الاسلام انما تكون بالاعتصام بحبل الدين

(١) انظر تفاصيل غارات الوهابيين على العراق فى الجزء الخاص به فى الباب الثالث من هذا الكتاب

والرجوع الى أصوله ، والابتعاد عن كل جديد على اعتبار أنه بدعة تضر الاسلام وتضعفه فى صراعه مع النصرانية .

أهمية بلاد العرب الدولة العثمانية

لم تكن بلاد العرب من البلاد الغنية التى تحرص الدولة العثمانية على الاستيلاء عليها ، ولم يكن فى موقعها ما يغرى بالمحافظة عليها أو يساوى جهد الاحتفاظ بها ، ولكن بقاءها فى يد الخليفة كان أمراً لا بد منه حتى تتم « شكليات » خلافته ، لا بد أن يكون خليفة المسلمين حامى البلاد المقدسة وصاحب الخطبة على منابرها ، ومن هنا كانت خشية السلاطين من أن يظن الناس بهم الضعف والوهن لعجزهم عن استرداد هذه البقاع .

لماذا عجلت الدولة القضاء على الحركة الوهابية

ولم تكن ثورة الوهابيين أخطر ما نزل بالدولة من الثورات والأخطار فى ذلك الحين ، فان نواحيها جميعا كانت تفيض بالحركات الهدامة والمبادىء الانفصالية . وكانت الهزائم التى أصابت الدولة فى ذلك الحين على يد الروس والفرنسيين قد أيقظت الرعية فى كل مكان ودفعتها إلى التفكير فى الثورة ، ولا يعلل اهتمام الدولة بالبدء باخماد ثورة الحجاز الا بحرص السلطان على أن تتم له شكليات الخلافة حتى لا يهون أمره على رعاياه المسلمين ، وربما بالغ بعض المؤرخين فذهب إلى أن الدولة لم ترد من الاستعانة بمحمد على الا القضاء على قوته التى كان ماضيا فى انشائها فى ذلك الحين ، لأن جيش محمد على لم يكن قد بلغ إذ ذاك المبلغ الذى يخيف الدولة منه ويدعها إلى السعى للقضاء عليه وإنما الحقيقة ان السلطان أحس بضرورة الاسراع بالقضاء على هذه الحركة الثورية الناشئة ، ولم يجد فى يده الجند الكافين للقضاء عليها فى هذه اللحظة التى كاثره الأعداء فيها ، ثم وجد أحد أتباعه — محمدا عليا — قادراً على القيام بهذا العمل فكلفه به ، ولم يجد محمد على بدآ من الطاعة والاذعان .

الوهابيون ومحمد على

لايهمنا تفصيل حوادث الصراع بين محمد على والوهابيين ،(١) وإنما يهمنا أن نلاحظ كيف سارت هاتان القوتان اللتان كانتا ترميان إلى غاية واحدة — وهى إحياء الدولة الاسلامية — احداهما نحو الأخرى ، كان الوهابيون يريدون أن يعيدوا مجدالدولةالاسلامية من الناحية الدينية ،وأراد محمدعلى أن يعيد مجد الدولة الاسلامية من الناحية السياسية ، وكان من خير الاسلام لو تعاونا وتصالحا ، ولكن صروف السياسة قضت أن تكون إحداهما حتف الأخرى ، فكأنما خنق الاسلام نفسه بيده .

فكرة الوهابيين عن اصلاح الدولة الاسلامية

أراد الوهابيون ومحمد على غرضاً واحداً ، ولكنهما اختلفا فى السبيل التى اختارها كل منهما لادراك هذه الغاية ، فأما الوهابيون فقد اختاروا سبيل الارتداد إلى الاسلام الأول ، لأنهم رأوا — وكانوا على حق — أن الاسلام كان بخير مارعى المسلمون حدوده وأشراطه ، وأنه ضعف وهان أمره حين أهملوا حدوده واستهانوا بأسسه ، وجرى فى ظنهم ان العودة إلى التقشف والابتعاد عن البدع الدخيلة وتنقية العقيدة مما ليس منها يبتعث فى نفوس المسلمين روحا جديدة فيعودون كما كان أجدادهم الأول حماسا وحمية ، أى انهم فكروا فى « إصلاح بدوى » ، يتفق تمام الاتفاق مع البيئة التى كانوا يعيشون فيها ، وكان برنامجهم هذا خليقا أن يفلح لو أن الدنيا كانت فى أيامهم كما كانت

(١) يمكن ايجاز حوادث فتح المصريين لبلاد العرب فيما يلى . اتفق محمد على مع الشريف غالب فى ينبع على التعاون للقضاء على الوهابيين ، وكان أهل مكة والمدينة وينبع ساخطين على الوهابيين لاشتدادهم فى تطبيق مبادئهم ، ونزلت الحملة المصرية الاولى فى ينبع سنة ١٨١٢ يقودها طوسون بن محمد على . فانتصر طوسون أولا عند بدر ثم عاد الوهابيون فأوقعوا به ، فلم يسع طوسون الا التقهقر الى ينبع بخسائر فادحة فى الجند والمال . وسارع محمد على فارسل مددا جديدا لطوسون ، فخرج من ينبع قاصدا المدينة فحاصرها حتى استولى عليها ، ثم سقطت جدة فمكة فالطائف فى يده ، ولكن المصريين لم يلبثوا أن تخلوا عن هذه المواقع بعد قليل فسارع محمد على بارسال ابنه ابراهيم فاستطاع الاستيلاء على الدرعية فى ابريل سنة ١٨١٨ ودمرها وأسر قائد الوهابيين عبد الله ، وبعث به الى القاهرة ومن ثم الى القسطنطينية حيث أعدم فيها .

فى أيام أجدادهم ، أو أيام ظهر عبد الوهاب : صحارى وبلاد قريبة من الصحارى ، أو يوم كانت البيد موطن القوة ومنبع النهضات فى العالم ، ولكنهم نسوا التطور العظيم الذى شمل الدنيا ، وغابت عنهم قوة الحضارة الجديدة التى استحدثها الأوروبيون ، ولم يكن الذنب ذنبهم ، فلم يكن ينتظر منهم أن يفكروا إلا على هذا النحو ، ولو أنهم اطلعوا على مظاهر الحضارة الجديدة وعرفوا مكانها من القوة لاخافهم ذلك وألقى الروع فى نفوسهم . ولا يبعد أنه كان يفت فى عضدهم من أول الأمر ، ولو أنهم عرفوا سبيل الاستفادة منهما لما استطاعوا أن يفيدوا ، لأن الأساليب الأوروبية لا تنهض باعبائها غير الدول المنتظمة ذات المال الوفير ، ولم يكونوا على مال أو ثراء . لهذا سهل على محمد على أن ينتصر عليهم لأنه كان يحاربهم بقوة الحضارة الجديدة ، ولو لم يقض عليهم هو لقضت عليهم الحضارة الأوروبية عن سبيل أخرى . كما ستقضى على الحركتين المشابهتين لها بعد حين وهما السنوسية والمهدية .

كانت نهضة الوهابية غنية بالروح والايمان ، وكانت نهضة محمد على غنية بالرأى والمادة ، ولم يكن الاسلام لينهض إلا إذا اجتمعتا فى يد واحدة ، وسيمضى على الأمم الاسلامية كلها حين طويل حتى تعرف ان النهوض الصحيح لا يكون إلا باجتماع هاتين الناحيتين — لأن الأوروبى الحديث روح قوى ورأى سديد — وهنا تتغير صفحة العالم الاسلامى وتفلح حركاته كما سنرى .

النتائج السياسية لفتح بلاد العرب

استتبع فتح بلاد العرب نتائج سياسية هامة ، أولها أنه أعاد لخلافة آل عثمان هيبتها وجمع إلى لوائها العالم الاسلامى من جديد ، فقد كان انقطاع الحج قد روع المسلمين وقطع سببا من أسباب التواصل والتفاهم بينهم ، ولو قد استمر الحجاز خارجا على السلاطين لزاد عامل جديد من عوامل التفكك والانحلال فى جسد الدولة الاسلامية . فهذا الفتح أعاد إلى

الخلافة هيبتها الشكلية على الأقل . وكان انتصار المصريين على الوهابيين أول حجر فى زعامة مصر على العالم الاسلامى فى ذلك العصر الحديث فقد انهالت على محمد على آيات الولاء والاعجاب من انحاء الدولة الاسلامية، فأرسل اليه الصفويون صولجانا محلى بالجواهر، وترددذكره فى انحاء العالم الاسلامى ؛ ومن هنا نشأ تفكير محمد على فى إنشاء دولة عربية جديدة ، وقد كسب المصريون لأنفسهم أنصارا فى بلاد العرب نفسها ، لأن ابراهيم كان قد سار فى فتح بلادهم سير المخلص لا الفاتح فكان لا يأخذ زق ماء ولا بلحة ولا قطعة خشب إلا دفع ثمنها مضاعفا ، وحال بين الجند وبين النهب والسلب فاعتبرهم الأهلون مخلصين ، ومن هنا لم يكن غريبا أن نسمع أن شريف الحجاز انحاز لجانب محمد على أثناء صراعه مع الدولة العثمانية ، وكان مستعداً للخطبة باسمه على منابر الحجاز . بل ان نفرا من الأتراك أنفسهم كانوا ينظرون إلى المصريين نظارهم إلى المخلصين المنقذين ؛ وسيلجأون إلى عونهم كلما أحاطت بهم المصاعب والأزمات .

التفات الاوروبيين إلى بلاد العرب

كذلك فتح الغزو المصرى أعين الأوروبيين إلى بلاد العرب ، وأيقظ الخوف فى قلوب الانجليز من هذه القوة الجديدة التى أصبحت تشرف على طريقى الهند العظيمين ، طريق البحر الأحمر وطريق الخليج الفارسى، وزاد مخاوفهم أن الرجل لم يقنع بمجرد دخول هذه النواحى فى طاعته اسميا ، بل بدأ يفكر فى المساهمة فى تجارة الهند فعين « فوربس وشركاه » وكلاء له فى بمباى ، وأخذ يصـــدر إلى الهند البضائع الأوروبية ، ولم يقتصر على ذلك بل فكر فى أن ينزل أسطولا تجاريا فى الخليج الفارسى ، ليقضى على قراصنة الوهابيين من جهة وليسهم فى تجارة الهند من جهة أخرى . واتجه ببصره نحو البحر الأحمر الذى أصبح بحيرة مصرية بعد فتح السودان فأخذ يحد من حرية السفن الأوروبية

الانجليز يتخوفون من محمد على

التى كانت تمرح فيه دون رقيب ، وأصدر أمراً يحرم على السفن الآتية من بمباى أن تصعد فى البحر الأحمر شمالى جده ، مما آثار مخاوف الأنجليز وجعلهم ينظرون إلى محمد على كخطر جديد على طريق الهند ينبغى القضاء عليه عن أى سبيل (١) . وكان اعتماد الانجليز فى البحر الأحمر على موانى السودان واليمن ، فلما أصبح السودان فى يد محمد على زاد اعتمادهم على اليمن ، ولما دخل اليمن فى طاعة محمد على (٢) أحس الانجليز أن البحر الاحمر خرج من يدهم إلى مصر . فسعوا لاستخلاص التجارة منه جهرا وعلانية . فأبوا على سفينته المسماة « افريقيا » التى كان أرسلها لتطوف بافريقية عن طريق الرأس - أن تصل إلى البحر الاحمر عن ذلك السبيل ، وأرسل القنصل سولت الى حكومته يقول : « أما فيما يختص بمصر ، فقد اندمج الباشا فى تيار التجارة حتى لقد جعل نفسه تحت رحمتنا تماما ، إن موارده تعتمد اليوم على التجارة كل الاعتماد ، بحيث أصبح من المستحيل عليه أن ينهض بتكاليف حكومته بدونها ، ولهذا يستطيع أمير البحر الانجليزى فى البحر الابيض - فى رأيى - أن يضطره إلى الطاعة إذا جنح إلى عدائنا ، بغير أن يحتاج إلى قوة جديدة زيادة عماله، وذلك بأن يلقى مراسيه فى أبى قير ويطلق مدافعه على الساحل وكذلك الأمر فى البحر الاحمر ، إذ تستطيع سفينتان بين جده والسويس أن تأخذا عليه سبيل البحر فلا يلبث أن يعود إلى الطاعة (٣) » وسارعوا بكسب حقوق تجارية

---

(١) انظر : دودويل : ص ٥٥ — ٥٧

(٢) كان امام صنعاء خارجا عن طاعة السلطان حتى قيام الثورة الوهابية ، ولم يكن للخليفة سلطان عليه ، فلما أتم محمد على فتح بلاد العرب نزل لامام اليمن عن بعض نواح شمالى الحديدة على أن يقدم الامام كل عام قدراً من البن للسلطان ، فاعتبر هذا البن جزية تدل على طاعة الامام للدولة واعتبرت البلاد بذلك داخلة فى طاعة السلطان من ذلك الحين : انظر دودويل ص ٦٠

(٣) دودويل ٥٨ — ٥٩

الانجليز واليمن

فى اليمن ، فطلبت شركة الهند تعويضا من امام صنعاء ، فلم يحفل لهم الامام، فعززوا طلبهم بضرب مخابا المدافع وهاجموا حصون البلد مما اضطر اليمنيين الى التسليم بمطالب الشركة ، وعقدت معاهدة أصبح للمقيم الانجليزى بمقتضى نصوصها الحق فى أن يحيط نفسه بحرس كما هى الحال فى بغداد والبصرة ، وأن يسير فى الطرقات على ظهر حصان ، وأقطع الأوربيون قطعة أرض يدفنون فيها موتاهم ، وأدخل تجار سورات فى حماية الانجليز . وخفضت المكوس التى يدفعها التجار الانجليز فأصبحت مساوية لما يدفعه الفرنسيون (١٥ يناير سنة ١٨٢١) وبذلك اطمأن الانجليز إلى أنهم أخذوا الطريق على محمد على وحصروه بين أسطولهم فى البحر الابيض وأسطولهم فى المحيط الهندى .

سيطرة انجلترا على سواحل بلاد العرب

ولم يخف على الانجليز كذلك وجه الفائدة من أعمال محمد على ، فقد كان قراصنة الوهابيين ينزلون بمتاجر شركة الهند أذى كبيرا ، ولم يكونوا يتحرجون عن ذبح من يقع فى يدهم من بحارتها ، واستولوا على بعض سفن الشركة ونهبوها ، فسارعت وأرسلت اليهم حملة تأديبية استطاعت أن تقضى على كثير من سفنهم ، واستولت على مركز أعمالهم فى « رأس الخيمة » بمعاونة أمام مسقط ، وأصبحت كل الامارات العربية الواقعة على سواحل بلاد العرب الجنوبية والشرقية شبه خاضعة لنفوذ الانجليز(١) ، ولهذا لم تكد أخبار انتصارات محمد على تتصل بهم حتى سارعو للتحالف معه والاستعانة بسلطانه الذى شمل بلاد العرب كلها من البحر الأحمر الى الخليج الفارسى ، ولكن محمدا عليا لم يحفل لذلك كثيرا لأنه لم يكن ينظر إلى هذا المدى الواسع من وراء فتحه لبلاد العرب . كذلك كانت هذه البلاد سرا مغلقا أمام انظار الأوروبيين إذ لم يجسر أحد منهم حتى الساعة أن ينزلها أو يتوغل فى مجاهلها ، فلما مهدتها جيوش مصر سارع الأوروبيون فدخلوها فى حماية الحراب المصرية ،

(١) أنظر تفصيل ذلك فى الباب الرابع من هذا الكتاب .

واستطاع سادليه الانجليزى أن يخترق البلاد للمرة الأولى ، وكان قد أرسله مستر قنصل انجلترا فى مصر ليهنىء إبراهيم باشا بانتصاره فى الدرعية(١) .

قضى محمد على على قوة الوهابيين الأولى ، وأعاد البلاد إلى طاعة السلطان ، ونشر فى نواحيها الوية الأمن والطمأنينة من جديد ، فكان أول من ألقى الضوء الجديد على أهلها ، ثم سلمها للدولة أكثر انتظاما فاستطاعت هذه أن تحكمها بيد أقوى وسلطان أظهر مما كان لها قبل فتح محمد على

* * *

ظهور مصر فى عالم السياسة الدولية

بهذا ، أصبحت مصر قوة جديدة يحسب لها حساب فى عالم السياسة الدولية ، أصبحت عماد الدولة الاسلامية ودرعها الذى يقيها من كل عدو خارجى أو داخلى ، فتطلعت إليها الدول الاسلامية كزعيمة ومنقذة ، وأخذت الدول الأوروبية ترصدها بعين الحسد والطمع ، لأنها اثبتت — بزعامة محمد على — أنها قديرة على أن تنهض بنفسها وتسترد ماضاع من عافيتها ، وأن تنفض ماتراكم عليها من غبار القرون ومسادات الأجانب فى لمحة عين

— ٢ —

فتح السودان وأسبابه

كان فتح السودان مشروعا اقتصاديا من مشاريع محمد على الكثيرة ، وقد قدمه على غيره من المشروعات لأنه رجا أن يجده أسهل من غيره مئونة وأقرب جنى ، وكان الرجل يتسامع بما تضمه أرض السودان من مناجم الذهب ومعادن الفضة ، وكان إلى ذلك ضيقا بجنوده الألبان الذين فرغوا من حرب الوهابيين وعادوا إليه يشغبون عليه ويسببون له متاعب شتى ، فخطر له أن يقذف بهم فى مجاهل السودان وفلوات الاستواء ، ولم يكن بحاجة إلى تشجيعهم على الاسراع فى الذهاب بعد

(١) وانظر أثر ذلك فى السياسة الانجليزية الشرقية فى الباب الرابع من هذا الكتاب

أن علموا هم الآخرون أن السودان يفيض ذهبا وفضة ، وانهم غانمون من خيراته وأمواله الشيء الكثير ، ولم يكن يخشى افتقاره إلى الجند بعد الخلاص منهم لأنه رجا أن يستبدل بهم جندا من عبيد السودان الذين كانوا يعجبونه في الحرب والطاعة والاخلاص ، وربما أسرع به إلى تنفيذ هذا المشروع عرفانه جهل أهل البلاد بوسائل الحرب الحديثة وعجزهم أمام النار ، فلم يكن في المشروع شيء يخشاه فعجل بالتنفيذ . وكان الرجل يرجو كذلك أن يزداد علما بما وراء مصر من النواحي لعله يجد فيها مجالا جديدا للرزق والكسب، ولم يكن بعسير عليه أن يقدر أن هذه البلاد أغنى من مصر وأكثر زرعا وماشية وأوفر ماء ، وأنه إذا تم فتحها جنى من أرضها البكر الخير الكثير .

لماذا اراد محمد على جلب الجند من السودان

غير أننا نلاحظ في هذا الفتح بضع نواح جديرة بالنظر : أولاها تفكيره في جلب الجند من السودان وأمامه الكثيرون من المصريين يستطيع أن يجندهم في جيشه دون أن يكلفه ذلك عناء الحرب والفتح ، فاننا لا نظن أن محمداً عليا كان يفضل السوداني على المصري في ميدان الحرب ، أو يراه أقدر منه عليها وانهض باعبائها منه ، لأنه لمس بيديه اخلاص المصريين وثباتهم واقتدارهم على مواصلة الحرب واحتمال مضانكها ، ولا نظن كذلك أنه فضل أن يترك المصريين في زراعة الأرض حتى لا يحرمها اليد العاملة ، لأنه لن يتأخر عن تجنيد المصريين حين يلفت دْرُوفِتّي نظره إلى ذلك ، وربما كان التعليل الوحيد لذلك أن محمدا عليا اتبع خطة حكام المسلمين جميعهم في الاعتماد على الأجانب في الجيوش والحذر من استعمال أهل البلاد ، خشية ثورتهم وانقلابهم عليه ، وذلك أمر طبيعي جدا من رجل كان يحس إلى الساعة أنه غريب عن البلاد وأنه « كسبها بالسيف » كما قال ، فلم يكن له بد من قوة غريبة تحس الأخلاص والولاء نحوه فقط ، وكان الى ذلك يشعر أن

نفوس المصريين قد بدأت تتغير عليه ، ولا ترضى عن الارهاق المالى الذي أخذ يريدهم عليه ، اذ كانت اعباء حرب بلاد العرب قد ثقلت عليهم وبدأت ضرائبه ومغارمه تزداد ، ولا بد أن نفوسهم حدثتهم بالخروج على طاعته وولائه ، ولا بد أنه خشى ذلك على الأقل فمضى يبحث عن حرس أجنبي جديد .

استصداره فتوى تشرع له فتح السودان

ومن هذه النواحى أنه استصدر فتوى تشرع له فتح السودان وما كان بحاجة إلى ذلك ، لأن النواحى التى كان قد أزمع فتحها لم تكن داخلة فى طاعة السلطان ، ولم يكن على محمد على حرج فى أن يفعل بها مايريد ، ولا يعلل ذلك إلا بأن الرجل لم يكن مطمئنا إلى هؤلاء الألبانيين الذين سيرهم فى طلب هذا الفتح : لعله خشى استبدادهم بما يفتحون من الأرض على اعتبار أنها إنما فتحت بسيوفهم وحدها ولا شأن للسلطان بها ولا طاعة له عليهم فيها . وكانت هذه البلاد اسلامية يعمر الدين الحنيف نواحيها ولا يبيح الشرع الاسلامى حرب أهلها أو سبيهم ، واسترقاقهم بغير سبب ، فاحتاط لذلك بتلك الفتوى الشرعية التى أحلت له الفتح وجعلته مشروعا ، والغالب كذلك أنه خشى أن يلقى من أهل هذه البلاد حربا شديدة فرجا أن تؤثر فيهم هذه الفتوى الشرعية فيسلمون له طائعين مختارين .

محاولة تحضير السودان

ومن هذه النواحى كذلك أنه أصحب الحملة نفرا من العلماء تشبها منه بالفرنسيين فى حملتهم على مصر ، وقد يكون غرضه من ذلك يختلف تمام الاختلاف عن غرض نابليون من العلماء الذين استصحبهم معه إلى مصر ، فقد أراد نابليون أن يدرس البلاد دراسة علمية حديثة حتى يتمكن من حكمها واستغلالها على أحسن سبيل ، فى حين رجا محمد على أن يبث هؤلاء العلماء دعاية اسلامية له حتى يوفروا عليه كثيراً من الجهد فى الحرب والنضال ، ولكن ذلك لا يخلو من دليل على أن الرجل

قبس الكثير من أساليب الفرنسيين وتمكن من استعمالها والاستفادة منها.

سهولة فتح السودان

كان فتح السودان فتحا يسيراً سهلا لم يتكلف جند محمد على فيه عناء كبيرا ولا مشقة زائدة، وكانت نفقاته كذلك يسيرة لم يثقل بها على نفسه، ولو لم يكن قائد الحملة اسماعيل قد أساء السيرة مع أهل البلاد، وأبدى لهم من الجفاء والاحتقار ماأبدى لما كانت كارثة شندى ولما كان للحملة خسائر تذكر. ذلك أن جند محمد على كانوا مذودين بالبنادق والمدافع فاستطاع جيشه أن يحصد أهل البلاد حصداً فى غير عناء ولا مشقة، وقد استمرأ الأتراك يسر الفتح وضعف أهل البلاد فانزلوا بهم أذى شديداً، وقسوا عليهم قسوة لاهوادة فيها، حتى ان الدفتردار صهر محمد على لم يرض بأقل من عشرين ألف رجل من أهل البلاد فدية لاسماعيل بن محمد على: إذ قتلهم شر قتله.

نتائج الفتح

لم يؤت هذا الفتح محمدا عليا بشيء من طلب، فلا الذهب وجده ولا الجند استطاع الحصول عليهم، فأسف لذلك أسفاً شديداً، ولم يطمئن إلى ما كان يبلغه إياه قواده من ندرة الذهب، ولم يزل على شكه حتى مضى هو بنفسه محتملا متاعب الشيخوخة سنة ١٨٣٨ ليستوثق من ذلك الأمر، فما كان ليصدق أن هذه الآمال التى عقدها تنتهى إلى هذا الفشل، وقد حاول أن يعوض خسارته فى انعدام الذهب باستغلال مزارع السودان، فندب نفرا من مزارعى مصر وأرسلهم إلى السودان ليعلموا أهله أساليب الزراعة، ومنح نفرا من الذين درسوا أساليب الزراعة الحديثة قطعا من الأرض مساحة كل منها مائة فدان معفاة من المال، وأباح لكل منهم أن يأخذ نفراً من أهل البلاد يعملون فى أرضه دون مقابل، وكان لايفتأ يخاطب أهل البلاد ويستحثهم على الاقبال على الزراعة والتعلم، «حتى يرتفعوا من درك السوائم إلى مستوى البشر وحتى

محاولة تعليم السودانيين أساليب الزراعة

يدركوا الثروة ويتعلموا كيف يستمتعون بخيرات يحول جهلهم دون تصورها »[1] ولكن ذلك لم ينتج إلا أثرا ضئيلا .

فتح باب السودان للعالم

بيد أن هذا الفتح فتح باب السودان بعد ان كان موصدا ، وجعل بينه وبين العالم سببا ، فمن ذلك الحين بدأت طوالع الحضارة الحديثة تتوغل فيه ، وبدأ الأوروبيون يفكرون فى استكشاف نواحيه ونواحى النيل معاً ، وكان وصول أول هذه الطوالع على يد محمد على إذ أرسل البكباشى سليم أفندى فى ثلاث رحلات مختلفة بين سنتى ١٨٣٨ و ١٨٤١ ليستكشف أعالى النيل ومنابعه ، فاستطاع هذا أن يجمع بعض المعلومات عن بعض أجزاء النيل كنهر السوباط ، وبعض التفاصيل عن مناخ البلاد وأهلها .

دراسة السودان علميا ومحاولة استكشاف منابع النيل

حاجة محمد على إلى الحكام القادرين

ولو قد وفق محمد على إلى عمال قادرين على القيام باعباء الحكم لاستطاع أن يجنى شيئا من الثمر من هذا الفتح ، ولكان لأهل البلاد خير من ورائه ، ولكن معظم العمال كانوا يستبدون بأهل البلاد ويشتدون فى تجنيدهم واسترقاقهم دون رحمة ولاهوادة ، كانوا يجمعون عشرات الألوف بأقسى الأساليب وأبعدها عن الانسانية ، ويرسلونها إلى مصر كما ترسل السوائم ، لا يحرصون على صحتهم ولا على طعامهم ، فكانوا يتساقطون فى الطريق صرعى المرض وقلة الغذاء والضرب الشديد ومتاعب المشى الطويل وما إلى ذلك ، فأصاب السودان وأهله من جراء ذلك أذى شديد ، ولو قد وفق محمد على إلى عمال قادرين مصلحين لأفاد من ذلك ، ولأفاد أهل البلاد منه كثيراً . ولكان هذا الفتح الجديد خيرا للسودان وأهله .

تنظيم السودان وتقسيمه وتحديده

ولعل أهم نتائج هذا الفتح هو تنظيم البلاد وتحديدها ، وتقسيمها

---

(١) Campbell, No: 28, May 8, 1839 F. O. 78 — 373
عن Dodwell

إلى مديريات بعد أن كانت فضاء غير محدود ولا معروف ، فقد أوجد لها هذا الفتح كيانا سياسيا ونظاما إداريا ، وأقام فيها حكومة منتظمة بعض الانتظام ونقلها من الفوضى التى وقعت فيها بعد اضمحلال سلاطين الفونج والفور ، وأنشأ لها عاصمة جديدة هى الخرطوم التى وجدها جند محمد على قرية صغيرة خاملة فسكنوها وأنشأوا بها المبانى واستحدثوا فيها المنشآت فلم تلبث أن أصبحت مدينة عامرة فى عهد خورشيد باشا ، وكثرت فيها مزارع التين والعنب ، ولم تلبث أن اتخذت مركزا لحكم البلاد .

الخرطوم

امتداد سلطان مصر الى أعالى النيل

واستتبع هذا الفتح نتائج سياسية كثيرة ، أهمها بسط سلطان مصر إلى أعالى النيل بعد أن كانت عند حلفا ، فاصبحت هذه البلاد من ذلك الحين جزءا من مصر يحرص حكامها على حكمها وبسط سلطانهم عليها ، وأصبح واجب السياسة المصرية تمكين الصلة بين البلدين ، وهذا أمر طبيعى يحتمه الوضع الجغرافى لمصر والسودان واتفاق مصالحهما واشتراكهما فى نهر واحد هو النيل . كذلك أيقظ الفتح المصرى المطامع الأوروبية نحو السودان فتخوف الانجليز من انبساط سلطان مصر على شواطىء البحر الأحمر كلها شرقا وغربا ، فبدأوا يعملون من ذلك الزمان على محاربة سلطان محمد على الذى أصبح قابضا على زمام هذا الطريق الخطير إلى الهند .

المطامع الاوروبية فى السودان

— ٣ —

ثورات البلقان

وثورة ثالثة بل ثورات ثالثات ، اضطرمت نيرانها فى البلقان فى سنوات متقاربات كأنما كانت كلها على موعد ، حتى أصبح البلقان شعلة ذاكية اللهب لا يكاد السلطان يخمد منها جانبا حتى تأخذ النار فى جانب ؛ ففى أواخر سنة ١٧٩٧ وثب بالدولة عثمان باشا البسنى المسلم المعروف بپسوان اغلو وظل يطاول الدولة حتى سنة ١٨٢٧ ، وما هى إلا سنوات حتى تجاوبت انداء الثورة فى مخارم الجبل الأسود ، ونادى أمير الجبليين

بأن الجبل الأسود لم يكن قط ولاية إسلامية ، وماهو إلا قليل حتى تنادى بالثورة أهل اليونان ، فأصبح البلقان كله خارجا عن طاعة السلطان لا يكاد يملك حياله أمرا .

شعوب البلقان

يقف أهل البلقان بين الشرق والغرب ، ولكنهم إلى الشرق أقرب ، سواء من ناحية الجنس أو العقيدة أو الأخلاق والعادات أو الحضارة ، فخضوعهم للاتراك لم يكن أمرا شاذا كما قد يقع فى أخلاد البعض ، بل لعلنا لانخطىء إذا قلنا إنهم كانوا أسعد رعايا الدولة وأحسنهم حالا ،

اليونان

وكان اليونان منهم خاصة يساهمون فى حكومة الدولة ويشتركون فيما تنزله بالناس من مظالم ومساءات ، بل كان هؤلاء اليونان على الخصوص أظلم من الأتراك للرعية ، وماتولى أحد منهم فى ناحية إلا عسف الناس وآذاهم أشد الايذاء . ومن هنا ليس بصحيح مايراه البعض من أن فتوح العثمانيين فى البلقان كانت أمرا غير طبيعى ، وأن سلطانها هناك كان حريا أن يزول ، لأن أهل هذه النواحى كانوا طوال تاريخهم أعداء أوروبا لا أصدقاءها ، وكانت أوروبا تشعر أنهم غرباء عنها ، ولم يتصادق الجيران الا فى فترات صغيرة جدا كبعض سنوات الحرب الصليبية ، ولم تكن الصداقة بينهما الا خداعا من الجانبين ، ينطوى فيه كل منهما نحو الآخر على الشك والحذر والريبة ، بحيث لانخطىء اذا قلنا أن الصليبيين

حرب صليبية على شرق أوروبا

الغربيين كانوا يشعرون أن امبراطور بيزنطه عدو لهم لا صديق ، ومصداق ذلك أن هؤلاء الصليبيين لم يطيقوا كتمان هذا الشعور ، فلم يلبثوا أن أعلنوه صراحة وأعلنوا « حربا صليبية » على الدولة البيزنطية ، فهاجموها وأقاموا فيها دولة غربية سنة ١٢٠٤ ، لافرق فى حسابهم بينها وبين الشام أو مصر الاسلاميتين ، ولا حاجة بنا الى الاشارة الى العداء الذى

العداء بين الكنيستين الشرقية والغربية

ظل يتأجج فى صدر كل من الكنيستين الغربية والشرقية ، والصراع العنيف الذى استمر بين باباواتهما . وقد ظل هذا العداء بين الجانبين

زمانا طويلا خلال العصر الحديث ، فلم تعن الدول الأوروبية بشأن البلقان إلا بدوافع سياسية صرفة ، بل الامبراطورية النمساوية نفسها لم تكترث للبلقان الا فى زمان متأخر جدا ، وكان التفاتها اضطرارا لا اختيارا ، أى حينما أقفل بسمرك فى وجهها باب التوسع فى الغرب فالتفتت الى الشرق مكرهة

ثورة البلقان

فثورة البلقان إذن لم تكن تعصباخالصا للغرب ولا رغبة من أهله فى الحرية أو صدى لانتشار مبادىء الثورة الفرنسية ، ولم تكن ثورة أوروبا من أجلها صادرة عن تعاطف بين هذه الدول وأهل البلقان ، بل كانت فى الغالب صدى مباشرا للصراع بين الروسيا وتركيا ونتيجة طبيعية لتوالى هزائم الثانية على يد الأولى . بل ليس من الخطأ فى شىء أن نقول إنها لم تكن تعبر عن ميول عامة اليونانيين ، ومصداق ذلك أن طلائع الثورة لم تلق قبولا عند عامة أهل البلقان فاصدر بطريق القسطنطينية قراراً بحرمان قائدها الأول « اسكندر ابسلنتى ، وتخلى عنه أنصاره ، وقعد عامة اليونانيين عن مناصرته ، فلم تلبث حركته أن ماتت فى مهدها (١)

سيريل لوكاريس

ومصداق ذلك أن آراء الغرب وأفكاره ظلت زمنا طويلا لا تلقى من أهل اليونان إلا الزراية والانكار ، فحينما قام سيريل لوكاريس فى أوائل القرن السابع عشر يتغنى بمبادىء الغرب ويحض قومه على التمثل بأهل غرب أوروبا ، ويملى على مواطنيه من كرسى البطرقة فى القسطنطينية مبادىء الكلفنية التى كان يعجب بها كل الاعجاب ، ويتخير النابهين من أبناء الكنيسة ليلقى بهم فى كنائس الغرب ومعاهده ليتشربوا هذه المبادىء والأفكار ، لم يكد يفعل هذا

---

(١) تاريخ مصر السياسى للاستاذ رفعت ص ١٦٤ — ١٦٥

حتى ثار به مواطنوه وأنكروا أمره ، واستعدوا عليه خليفة المسلمين ، وطردوه من كنيستهم سنة ١٦٩١ (١)

الشاعر كوريس

ولا يتنافى هذا مع القول بأن بلاد اليونان ضمت فى ذلك الحين طائفة قليلة من السراة وذوى الثقافة العالية ، ممن اتصلوا بالحضارة الغربية وأعجبوا بها وسعوا فى نشرها فى بلادهم ، كالشاعر كوريس الذى جاهد طويلا لخلق اللغة اليونانية الحديثة ، وظل طول حياته يدعو أهله للأخذ بأسباب حضارة « أوروبا المستنيرة » كما كان يسميها (٢)

مبادىء الثورة اليونانية

وحقيقة الثورة اليونانية أنها كانت نتيجة للعلاقات السياسية بين الروسيا وتركيا ، وحيلة من الحيل التى لجأ الروس إليها للقضاء على تركيا ، فالروس والبلقان إخوة فى البيئة الجغرافية والمذهب الدينى والأخلاق ، وكان الروس يبذلون قصاراهم إذ ذاك للقضاء على تركيا والوصول إلى البحر الأبيض ، فلما عز عليهم ذلك عن طريق القسطنطينية ، حاولوا أن يبلغوه عن طريق إثارة شعوب البلقان إلى جانبها والعمل على تحريرها من غير الدولة العثمانية ، فاما أدخلوها فى زمامهم أو أصبحوا ذوى الكلمة النافذة فى مرافقها ونواحيها ، وكانت دول أوروبا تعرف هذه الحقيقة ولهذا تدخلت فى المسألة اليونانية وعملت على انهائها ، ولو لم ير الانجليز والفرنسيون والنمساويون شبح الروس مستترا خلف دخان الثورة اليونانية لما تدخلوا وأعانوا اليونان على التحرر .

فمن الخطأ إذن أن ننظر لثورة اليونان على أنها كانت ثورة شعب ثقلت عليه وطأة الحاكم الأجنبي وسعى للحرية فقام يجاهد فى سبيلها ،

(1) Toynbee : The Western Question in Greece and Turkey P. 8

(2) Ibid P. 9.

نعم كان فيها شيء من ذلك ، ولكنه لم يكن كل شيء ، بل لم يكن أكبر شيء . حتى زعماء الثورة أنفسهم لم يكونوا يصدرون فى أعمالهم عن وحى من الشعب اليونانى بقدر ماكانوا يعبرون عن ميول القيصر السياسية ، «فكابو د سترياس» مثلا — من أوائل زعماء هذه الثورة — لم يتوان عن خذلان مواطنيه اليونانيين حين أحس أن القيصر راغب فى ذلك ، وقد كان فى استطاعته أن يفعل كثيرا إذ كان وزيرا لخارجية القيصر فى ذلك الحين ، بل كان نفر من « الشعب اليونانى » نفسه يبيع السفن لمحمد على ويمد جيشه فى المورة بالامدادات لكى يمضى فى حرب مواطنيه .

اصبع الروسيا فى الثورة

ثورات البلقان إذن مظهر من مظاهر الصراع الطويل بين روسيا وتركيا ، ولم يكن اليونانيون أنفسهم إلا آلات يحركها الروس ، ومن دلائل هذا أن رجال الثورة لم يلبثوا ان أصبحوا قراصنة ينهبون السفن الانجليزية والفرنسية فى البحر الأبيض وهم على علم بأن الانجليز والفرنسيين يعطفون على قضيتهم الوطنية ، ولكنهم لم يكونوا ليحفلوا لذلك ، إذ كان الغنم والنهب أحب إليهم وأقرب إلى أفهامهم من دعوى الحرية والاستقلال . ولا يقتصر ذلك على ثورة اليونان وحدها ، بل ينطبق على ثورة الصرب كذلك ، بدليل أن ميلوش ابرونوفتش الزعيم الصربى لم يتردد فى قتل زميله الزعيم قره جورج حين وجد أن هذا الأخير ينافسه السلطان الذى وصل إليه ، بعد أن نال من الدولة حق الاستقلال الداخلى للصرب سنة ١٨١٧ (١)

المذابح بين الفريقين

أما الذى أقلق الخواطر وأجج نيران الثورة وأقام الشعب اليونانى كله عن بكرة أبيه فهى المذابح التى أنزلها كل من الفريقين بالآخر جهلا

(١) Driault : La Question d'Oriet.n P. 90

وزيادة فى التطرف والنكاية ، وهى مذابح تقع مسئوليتها على اليونانيين وحدهم ، إذ لم يكن ينتظر أن يتلقى المسلمون بالسكوت نبأ مقتل عشرين ألف مسلم فى اليونان ، بل المعقول أن يجيبوا عليها بمثلها ، ولو قد قيل لدعاة الانسانية من جماعات الهيلينيين ـ الذين كانوا يتشدقون بالانسانية فى ذلك الحين فى مجالس لندن ـ أن عشرة انجليز فقط ذبحوا فى الهند لدفعت الهند ثمناً لذلك آلافا من أبنائها ، ولكان دعاة الانسانية أنفسهم غرقى فى الدماء إلى ذقونهم ، باسم الانسانية أيضا ، ولكن هؤلاء المتحمسين الخياليين من أمثال بيرون وكشران كانوا صليبيين فى الباطن ، وأن تستروا بالشعر حينا وبالانتصار لآباء الثقافة الأوروبية حينا آخر .

عجز الدولة عن القضاء على هذه الثورة

غير أن الغريب أن الدولة عجزت عن القضاء على هذه الثورة فى أدوارها الأولى ، لأننا لانستطيع أن نفهم كيف لاتستطيع الجيوش العثمانية أن تقضى على جماعات من الثوار وليس بينهم وبين بلادهم إلا بحر صغير ، ولا عبرة بالقول بأن اليونان كانوا قد أخذوا البحر على الأتراك وملكوا ناصية الشواطىء ، فقد استطاع ابراهيم باشا أن يصل البلاد ويعبر البحر الأبيض وهو أوسع وأحفل بالخطر ، هذا إلى أن بلاد اليونان كانت تضم فى ذلك الحين حاميات تركية كثيرة كافية جدا للقضاء على الثورة لو شاءت ذلك وعملت له باخلاص .

فساد رجال الدولة

لا يعلل هذا إلا بأن رجال الدولة من الصدر الأعظم إلى الانكشارى البسيط كانوا قد فسدوا تماما ، ولم تبق فى قلوبهم ذرة من الوطنية أو الحمية أو الاخلاص أو الشرف ، ولو لم تكن لدينا بينات صادقة لكفى بالهزيمة بينة ، فما كان ثوار اليونان بحاجة إلى « نظام جديد » حتى تخمد حركتهم وإنما كان يكفى جدا أن يبرز لهم جنود مخلصون ذوو حمية وإخلاص ، ولم تكن الدول قد تدخلت بعد ، ولم تكن الروسيا قد أسفرت عن

وجهها. وكانت النمسا تومىء بالميل إلى معاونة السلطان على الروس ، وكان فى الامكان تدارك الأمر وإقفال الباب وتسوية المسألة لو أن للسلطان فرقة واحدة من الجند المخلصين الأوفياء . فلم يكن دودويل مبالغا حين همس فى أذن السلطان محمود الثانى بأن أيامه لم تعد أيام سليمان القانونى (١)

خسرو باشا

كان الصدر الاعظم إذ ذاك خسرو الذى لقيناه فى مصر منذ حين ، وكان لا يحفل أوفق السلطان أو اندحر ، فلم ينصرف فى معمعان القتال عن أن يناجز محمدا عليا ويكيدله ويعابثه ، فكان يتأخر عن معاونته ويتركه فى ساعة الحرج أو يشى به عند السلطان ، كأن الأمر صفاء والحال رخاء ، وكأن ما بينه وبين محمد على أعظم شأنا مما بين السلطان وبين اليونان ! ، وأما الجند فكانوا هم الانكشاريون، وليس هناك دليل على انحطاط شأنهم أكثر من أنهم انهزموا أمام طوائف من الثوار على طول الخط ، واضطروا قائدهم خورشيد باشا إلى الانتحار بعد انهزامه عند « ترموبيل » وبسبب هؤلاء الجند أعلنت اليونان استقلالها بزعامة ماوروكروداتس بطل ترموبيل ، وديمترى ابسلنتى أخى اسكندر ابسلنتى فى يناير سنة ١٨٢٢ .

تدخل النمسا

فى هذه اللحظة العصيبة تقدمت النمسا إلى السلطان بالنصيحة فلفتت بصره إلى واليه فى مصر وقوته، ونصحت له بأن يعتمد عليه فى القضاء على هذه الفتنة قبل أن يتفاقم أمرها وتتدخل الدول فيها ، ولم يكن دافع النمسا الى ذلك مجرد الاخلاص للدولة ولا محض العداء للافكار الثورية وإنما كانت تأخذ نفسها بالتقية من الروسيا ، وذلك بأن تقفل باب الثورة اليونانية قبل أن تجد الروسيا الفرصة المواتية للتدخل وكسب حقوق من الدولة العثمانية .

---

(١) دودويل : ٧٣

موقف محمد على من الامر

أغلب الظن أن محمدا عليا لم يرحب بهذا الطلب ، فسياق الحوادث يدل على أنه كان مكرها عليه يود لو ينفض يده منه فى أقرب الأوقات، ذلك أنه عرف أن تلك الحرب ستنزف قواه وتفسد عليه نظامه ، وتشغله عن شئون مصر ومرافقها - وكان مهتما بها أشد الاهتمام فى ذلك الحين - ولم ينس الرجل بعد الخسائر التى أصابته من حرب العرب على قلة الجدوى وانعدام الجزاء . لهذا كان محمد على لا يفتأ يشكو تكاليف هذه الحرب ومساءات رجال الدولة وكيدهم له خلالها ، وزاد زهدا فيها حين ألفى انجلترا لا ترضى عنه من أجلها فبدأ يتلمس الفرصة للانسحاب منها .

اثر تدخل مصر

تغير الموقف تماما فى بلاد اليونان بعد تدخل المصريين فى أمرها، فانقلبت انتصارات الثوار هزائم ، وتراجعت سفنهم ، وطلب قرصانهم عرض البحر فرارا ، واستطاع الجيش المصرى الجديد أن يجتاح البلاد ويستولى على معاقلها ويشل حركة الثوار تماما ، واستولى المصريون على امنع معاقلهم «مسولنجى» بعد حصار خمسة عشر شهرا فى ابريل سنة ١٨٢٦ ، وانحط مركز الثوار أدبيا وبدا أن الثورة مقضى عليها ولا شك بدون تدخل الدول .

تدخل الروسيا والنمسا

ولكن ، أترضى الروسيا عن ذلك ؟ أيرضيها أن يساكنها فى اليونان شعب فتى جديد ، ويقف فى وجهها رجل كابراهيم يأخذ عليها السبل . لقد أثارت هذه الحرب لتضعف مركز السلطان لا لتقويه ، فكيف ترضى عن ذلك ؟ ولمح مترنيخ الروسيا تتحرك للعمل فعجل يشد على يد محمد على ويستحثه على الاسراع فى القضاء على ثورة اليونان ، فبعث مندوبه بروكش أوستن الى محمد على فى الاسكندرية لاقناعه بالاسراع فى العمل ، وأخذ هذا الرجل يشرح لمحمد على حقيقة نوايا الانجليز ويؤكد له أنهم إن يطلبون الا أضعاف مصر والقضاء عليها ، ويؤكد

له الخير العميم الذى يعود عليه من التعجيل بالقضاء على ثورة اليونان والقضاء على مطامع الروس ، ولكن محمدا عليا لم يقتنع ، لا لأنه كان متحمسا للسلطان ولا راغبا فى القضاء على ثورة اليونان ، وإنما لأنه كان يريد أن يفوز من الأمر بصفقة طيبة ، وهى كسب ود الانجليز وأخذ إقرار مبدئى منهم باستقلاله ، كان ينتظر أن يتقدم الانجليز اليه طالبين اليه الانسحاب لكى يساوم فى الأمر ويطلب الثمن ، وكم كان ستراتفورد دى ردكلف بعيد النظر حين لمح من محمد على هذه النية فخاطب سولت مندوب انجلترا فى القاهرة يسأله عما اذا كان الباشا لا يرى أن الافضل له أن ينسحب من الحرب ويفوز بنصيب من الجزية التى ستفرض على اليونانيين، وربما ضمن له الانجليز ولاية الشام أيضا ، لقد أنكر سولت ذلك وعده أمرا خياليا، لأنه كان يعتقد أن محمدا عليا يحارب مع السلطان بيده وقلبه (١) ، ولكنه لم يتمالك نفسه من الدهشة حين وجد أن العرض لقى من الرجل قبولا طيبا ، ومن ثم بدأت مفاوضات طويلة أبدى محمد على فيها مكرا بعيدا وحصافة طيبة، فكان يقول متحايلا « سيظل كل شىء على ماهو عليه الآن حتى الربيع ، فاذا أبدت حكومتك خلال تلك الفترة مايدل على رغبتها فى فعل مايرضينى لكنت على استعداد لأن أقبل ماتعرض على ، ولالتمست السبل لأسحب جندى من اليونان » ثم يقول مهددا : « فاذا لم يكن ذلك فسأجمع قواى كلها وأستعين بمالى من النفوذ عند السلطان وأجمع فى يدى قيادة البحرية العثمانية . . . ثم أجعل نفسى على قيادة الحرب وأختم ذلك الأمر » (٢) ولم يلبث سولت أن عرف غرض محمد على، فأقبل يسأله عما يطلب من الانجليز فأجابه الرجل فى شىء من المكر أنه لا يرجو أكثر من أن تعاونه انجلترا فى زيادة

المساومة بين الانجليز ومحمد على

---

(1) Dodwell P. 38
(2) Ibid P. 48

اسطوله وإطلاق يده ليمتد كيفما شاء فى بلاد العرب ، وعرف سولت أن الرجل يطوى فى نفسه أمرا هو الرغبة فى ضمان موافقة انجلترا على اعلان استقلاله اذا اضطرته الظروف الى الوثوب بالسلطان.

حقيقة موقف مصر

بهذا ينجلى الأمر على حقيقته ، فلم يشترك محمد على فى حرب اليونان حبا فى السلطان ولا كراهة لليونان ، فقد كان لا يأبى على اليونان فى مصر أن يسافروا لينتقموا لاخوانهم فى الثورة ! .. وإنما أراد أن يجعلها صفقة يجبر الدول بها على الاعتراف به وبقوته ، وقد كاد يدرك هذه الغاية لولا أن الروسيا فوتتها عليه عامدة أو غير متعمدة . فقد كان من الممكن أن يظل ميزان الأمور على ما هو عليـــه فترة طويلة فى البلقان : فجيش ابراهيم قابض على زمام الأحوال ولا يلبث إلا قليلا حتى تختنق بقايا الثورة باستمرار الضغط على عنقها ، وكان من الممكن أن تجرى المفاوضات بين محمد على والدول أثناء ذلك ، ولكن الروسيا لم تطق الصبر ، لقد زال عنها كابوس الاسكندر ومخاوفه ، ونفضت عبء مترنيخ واستوى على عرشها نيقولا الأول ، فلم ير وراء هذا التسويف خيرا يرجى ، فعجل بالعمل ، وفاجأ السلطان بانذار نهائى عرض عليه فيه شروطاً مهينة أولها الانسحاب من بلاد اليونان ، فأفاق الانجليز من غفوتهم ، وخشى كاننج أن يحل الروس المسألة على هواهم ، فعجل بارسال الدوق ولينجتون ليؤكد له تعزيز انجلترا لآراء القيصر ، ويؤكد له أنها لا ترى مانعا من أن تمنح اليونان استقلالا داخليا وتظل فى طاعة السلطان .

سعى الروسيا وانجلترا لاستقلال اليونان

بهذا انقطع أمل محمد على فى تحقيق غايته الكبرى ، ولم يبق أمامه إلا المضى فى معاونة السلطان ، فسمح أخيراً لأسطوله الذى كان قد ارتهنه فى الإسكندرية - لينتظر جلية الأمر — بالمضى إلى بلاد اليونان ، فمضى

نوارين

ليلقى مصيره فى نوارين فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٠ ، فزاد ذلك فى نفور

محمد على من اليونان ومسألتها ، فهذه صفقه انقلبت عليه ، فبعد أن كان يرجو أن يفوز منها بتأييد انجلترا ، إذا به يجد نفسه ضحية الانجليز ، ولو قد اقتصر الأمر على ذلك لتعزى الرجل بالفوز بالاياب ، ولكن ما حيلته والسلطان يأبى إلا الاستمرار ، فيجمع رجال دولته ويستثيرهم لحرب الروس ، مما انتهى بهؤلاء إلى اعلان الحرب على الروسيا صراحة سنة ١٨٢٨ ، فلم يعد محمد على يفكر إلا فى الانسحاب ، وبدا عليه الندم للاشتراك فى تلك الصفقة المشئومة .

موقف انجلترا بعد نوارين .

ويبدو أن انجلترا كانت على وشك أن تجيب محمدا عليا إلى ما أراد ، لأنها أحست أن كارثة نوارين كانت أشبه بالخيانة لهذا الرجل الذى لازال يطمع فى ودها ، فأعلنت أسفها لما أصابه من هذا الحادث الذى لم يكن منه مفر The untoward event (١) وسارعت باخراجه من التبعات الجسام التى ستترتب على الاستمرار فى الحرب ، ووعدته بالاعتراف باستقلال شخصيته عن الدولة إذا هو لزم الحياد فيما يلى من أدوار الكفاح ، فقد جاء فى نص الاتفاق بين محمد على وكدرنجتن أمير البحر البريطانى « أن جلالة الملك – من غير تدخل منه فى العلاقات بين الباشا والسلطان الذى يعترف له الباشا بحق السيادة – مستعد للاعتراف لسموه بالحيدة التامة ، متى تعهد هو أيضا بمراعاتها مراعاة تامة ، إذا ما نشبت الحرب بين الحلفاء والدولة » (٢)

الاتفاق بين محمد على والانجليز

انسحاب محمد على

بهذا أحس محمد على أنه أدرك بعض غايته ، فقد اعترف الانجليز بكيان له مستقل عن كيان الدولة ، فليسرع بالانسحاب قبل أن تأتى الحوادث التالية بما يعكر عليه صفو هذا الغنم اليسير ، فلم ينتظر حتى

---

(١) الاستاذ محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى ص ١٧٥ (الطبعة الرابعة)

(٢) نفس المصدر ص ١٧٦

يأذن له السلطان بالانسحاب، وانسحب متعللا بقلة جنده أو بقلة سفنه أو بانتشار الوباء فى اليونان .

موقف الاتراك بعد انسحاب مصر

أما السلطان فلم يكن فى استطاعته أن ينسحب بهذه السهولة ، فكيف يجيب الدول الى ما تطلب منه وهو الموت أو أشبه شىء به ؛ بل زاده اليأس قوة ، فأبدى فى آخر أدوار حرب اليونان بعض القدرة ، وكسب جنوده بعض النصر فى سلستريا ؛ وكان فى استطاعته أن يوقف تقدم الروس عند أدرنة حين تقدموا نحو القسطنطينية ، ولكن الخوف ملك عليه وعلى وزرائه كل سبيل ، فاسرع بتوقيع معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩ وفيها اعترف باستقلال اليونان

معاهدة ادرنة

وقد وصفها الاستاذ دريو بقوله «لقد كان انتصارا باهرا لسياسة نيقولا ، الأول، وربما عد معتدلا إذا قيس ما وصل اليه باطماع كترينة الثانية وأسلافه الآخرين ، ولكنه عوض ذلك بامتيازات أدبية عظيمة كان يستطيع كسبها من بعض مواد المعاهدة ، لقد تفتحت له أبواب الامبراطورية العثمانية كلها من ناحية القوقاز ومن ناحية الدانوب ، ولقد تغلغل فيها النفوذ التجارى الروسى ، وأصبحت أدرنة الآن تحت رحمته بفضل الحماية التى اعترفت له بها المعاهدة على ولايات الدانوب (١).»

تركيا تحت رحمة الروسيا

بلى ... أصبحت تركيا بأسرها ، ومركز الخلافة تحت رحمة الروس وقد كانوا مستطيعين القضاء على دولة الاسلام القضاء المبرم فى ذلك الحين ، ولكنهم تريثوا ، فقد كان فى بقائها ، ذليلة خاضعة مفتحة الأبواب مهيضة الجناح ، كسبا تجاريا وسياسيا لا تحصل عليه إذا ووريت التراب ونمت مكانها دولات جديدة طامحة (٢)

---

(1) Driault : OP. Cit, P. 128

(٢) راجع تاريخ مصر السياسى : ص ١٧٧

— ٤ —

الصراع بين مصر وتركيا

«فى القسطنطينية ميت مسجى ، كما قال أحد الوزراء ، أما هنا فيوجد الجسم الحى ، هنا الحياة ، وسوف تدب الحياة فى كل شىء فى تركية أوروبا وآسيا الصغرى فى الخريف ، فهلا تجد أن صاحب مصر والشام ومكة وبلاد العرب وصديق شاه الفرس ومعبود أمته وكل أصحابه فى الدين ، هلا تجد هذا أقوى يدا من هذا الذى يقوم بالأمر فى القسطنطينية ؟ سوف يكون لى فى الخريف القادم مائة ألف من الجند وثلاثون سفينة حربية ، فاذا احترموا رأيى ومالى وفضيلتى فلن أطلب بعد دمشق شبرا من الأرض ، ولن يجد السلطان فى كنانته أخلص منى ، وأما إذا أقلقوا بالى ، ومالوا الى خيانتى ، لم أتردد فى الاستيلاء على حلب ، وسأذهب فى حيثما وجدت أرضا عثمانية ، وبهذا ينحسم النزاع بين رجلين : محمود ومحمد على » (١) هكذا قال محمد على لقنصل فرنسا المسيو ميمو فى معرض الحديث بينهما عن النزاع بينه وبين الدولة العثمانية ، وهى قالة صادقة تكشف لنا عما كان يدور برأى هذا الرجل قبل حرب الشام ، وقبل اشتعال الخصومة بين مصر وأوروبا ، فهذا الرجل يرى فى الدولة جسدا فانياً لا أثر فيه للحياة ، ويرى فى مصر الناهضة جسدا فتيا يتوفز بالقوة والحياة ، فكيف يحكم الميت الحىّ ، وكيف يحكم الضعيفُ القوىّ . ثم هو يرقب الحياة بعين مفتحة ونفس لا تغفل ، إذ كان يعلم أن مصير هذه الدولة بات قريبا ، فربما كان فى الخريف المقبل ، ولهذا انشأ يستعد ويعد العدة لكى يكون على الأهبة ساعة العمل ، وهو لا يكره الدولة ولا يحقد عليها ، وإنما يرق لها ويشفق عليها ، ويرى يده أحنى عليها من أولئك الذين يحكمون عليها بالموت بسوء السيرة وعبث الألاعيب وضلال الجهل ، وهو يشعر أنها لا تكرهه بل

حقيقة شعور محمد على نحو الدولة

(١) Driault : L'Egypte et l'Europe P. XXVIII

تحبه لأنه صديق المسلمين كافة وأمل الاسلام فى كل مكان ، ولكنه يعرف أن هناك نفرا يكيدون له ويأبون الاعتراف بفضله وقدره ، وهذا مايغير نفسه ويقلق باله ، ولو قدر هؤلاء النفر مقامه واعترفوا بفضله لما طلب الرجل غير دمشق يحكمها باسم السلطان ، ولكان أخلص المخلصين لخليفته ، أما إذا أبى هؤلاء النفر الاعتراف بقدره فدونه وأرض الدولة ليعرفوا قدره ويقروا بمكانته ، فلم يكن الرجل جشعا ولا ثائرا ولا عنيدا يرضى شهوة خاصة فى نفسه ، وإنما كان يبغى خير الدولة الاسلامية كلها ، ويرى الخير لها بين يديه وفى رعايته ، وهو رفيق بالسلطان مشفق عليه ، يرجو أن يعاونه فيما يبغى من الاصلاح ، ويحب لو أطلق يده فى الشام يصلح أمرها ويبعث فيها الحياة التى بعثها على ضفاف النيل .

موقف الدولة من محمد على

أما فى القسطنطينية فكان الأمر على خلاف ذلك ، كان السلطان محمود رجلا واسع الذهن شديد الشعور بالمحرج الخطر الذى كانت تقع الدولة فيه ، وكان لا ينفك مفكرا فيما ينقذ الدولة من هذا المهوى فاعدم جنده القديم « الانكشارية » سنة ١٨٢٦ ، وأخذ فى إنشاء جيش جديد ، ومضى يبعث الحياة فى هذا الخراب الذى أحاط به . فكان خليقا به أن ينظر إلى محمد على فى كثير من عدم الرضى ، فهو يرى نفسه سلطان الدولة المسئول عن أرضها كلها ، عليه أن يأخذ ولاته بالطاعة ، ويحافظ على بلاده كاملة غير منقوصة ، فمطالب محمد على مرفوضة من أساسها لأنها ترمى إلى فصل جزء من الدولة والاستقلال به ، ثم هو يريد أن يفرض أمره ، فعلى الخليفة أن يأبى وإلا لم يعد خليفة ولا سيدا ، وكان نصحاؤه ووزراؤه يعرفون منه ذلك ، ولكنهم لم يكونوا يحسون إحساسه ، فهم نفر من الخونة الانذال يبيعون الدولة ، ويأخذون السياسة مجالا للعبث وارضاء النفوس فى

هذا الوقت العصيب ، كان على رأسهم خسرو عدو محمد على : لا يرى فى النزاع بينه وبين السلطان إلا فرصة لاشفاء اللدد الذى يشعر به نحوه ، ولا يعرف لسيادة السلطان على ناحية من النواحى معنى إلا أنها تضيف مبلغا من المال يدخل خزانته ، فسهل عليه بالطبع أن يستغل شعور السلطان نحو محمد على ويوجهه الوجهة التى ترضاها نفسه ، فساق الدولة بهذا العبث المزرى إلى هاوية سحيقة، قضت على كل أمل لها فى الحياة والنهوض .

موقف الدول أثناء النزاع

وحول هذين وقفت الدول تؤجج النار وتثير الخلاف ، لأن كلا منها ترجى أملا من وراء قيام الخلاف أو سكونه ، ولا تبغى آخر الأمر إلا هلاك الاثنين معا ، ولا تكاد تشعر نحو أحد منهما بعاطفة ولا اشفاق ؛ تختلف فيما بينها اختلافا هينا أو يسيرا ، وتتصاحب أو تتخاصم ، ولكنها تتفق أخيرا على كراهية السلطان وواليه معا ، كراهية لا تمنعها كلها — وهى خمسة دول عظمى — من الاتحاد على حرب محمد على وهو الضعيف المسكين ، ولو قد كانت هذه الدول تريد بأحد الخصمين خيرا ، لحل المشكل وانتهى الأمر كما انتهى فى اليونان وفى بلجيكا وفى مستعمرات أسبانيا فى أمريكا ، وما كانت مشكلة مصر أشد تعقدا من أى هـــذه المشكلات ؛ ولكنها كانت مشكلة الشرق والغرب، مشكلة أجيال وخصومة أحقاب، فأين منها الانصاف والعدل والسداد .

فقيصر الروسيا ـ نيقولا ـ ووزيره نسلرود وإخوانه كلهم يرون أن الوقت قد حان لتحقيق حلم الروسيا القديم والخلاص من الدولة العثمانية واحتلال ناصية البحر الأسود والنزول إلى البحر الأبيض ، ولو قد ترك الأمر لتصرفها لحلت المشكل فى أيام، فقضت على الدولة واحتلت القسطنطينية وتركت محمدا عليا يفعل بالشام وبلاد العرب

ما يريد ، ولكنها كانت ترى الدول الأخرى ترقبها بعين الحذر ، وترى انجلترا على وجه الخصوص تتخوف نياتها وتخشى غدرها بطريق الهند ، فلا بد لها من مراعاة انجلترا ومحاولة اقناعها بأنها لا تنوى بها شرا ، فهى تتقرب إليها وتبعث رسلها إلى لندن بين الحين والحين يعلنون هذا الحب والولاء ، ثم هى لا تنسى اثناء ذلك أن تزيد نفوذها السياسى والاقتصادى فى أنحاء الدولة ، فاذا لم تستطع القضاء على السلطان فلتبسط عليه حمايتها ، ولتأخذ عن الانجليز هذا الدرس للصالح ، ومادام قد عز عليها أن تنزل جندها أرض الدولة على عداء ، فلتنزلها على حب وحماية ، لتدّع الخوف على كيان تركيا من محمد على ولتسارع ببذل العون مااستطاعت الى ذلك سبيلا .

موقف انجلترا

وفى طرف القارة تقف انجلترا ، وقد مدت أساطيلها فاحتلت البحر الأبيض وراقبت الأحوال فيه خوفا على طريق الهند الذى كان يخترق أرض الدولة خلال مصر وخلال الشام ، وكانت تعلم أن سلامتها مرهونة بسلامة هذين السبيلين أى بسلامة الدولة العثمانية ، فهى تأبى على الروس أن يعتدوا عليها ، وترد محمدا عليا إلى حدوده إذا أراد بها بغيا ، وهى تحارب السياسة الفرنسية التى تعمل على كسب ود محمد على والسيطرة الأدبية والدينية على المارونيين فى جبال لبنان ، وهى تعرف أن فرنسا تقول ولا تعمل ، فهى لا تخشاها ولا تقيم لغضبها أو لرضاها وزنا كبيرا وإنما هى تخشى الروس ، أولئك الذين يندفعون بجموعهم الحاشدة فى غير روية ولا تفكير .

موقف لوى فيليب

وبين هاتين تقف فرنسا لا تكاد تنهض على أقدامها ، على رأسها ملك يحس فى أعماق نفسه أنه مدين بعرشه للانجليز ، فهو لا ينفك يرصد موضع رضاهم ولا يطيق لهم خلافا ولا شيئا يشبه الخلاف ، يعيش فيها شعب ثقلت عليه عقابيل الثورات والحركات ، وحيرته الدنيا فى

أمره فهو لا يستطيع عملا ، ولكنه يحيا بذهنه مايزال فى الامبراطورية الماضية لم تفارقه بعد نشوة الانتصارات ، فهو لا يفتأ بين الحين والحين يثور لكى يظهر للعالم قوته ، ويرد الناس عن حياضه ، وربما ذهب مع الغضب مبلغا لا يكون بينه وبين الحرب فيه الا خطوة ، ولكنه لا يلبث أن يسترد صوابه ويعود الى نفسه ويعرف قوته وحاله ، وهنا يفارقه الحماس ويسكن الغليان كأن لم يغن بالأمس .

بهذه العيون تنظر هذه الدول الثلاثة الى المسألة الشرقية ، تراقب كل منها الأخرى وتخشاها أشد الخشية ، وربما كره قيصر الروسيا ملك فرنسا فاتجهت الدولتان بالعداء إحداهما نحو الأخرى ، وربما خافت النمسا اتساع سلطان الروسيا فى تركيا والبلقان فانضمت الى انجلترا ، وربما أملت بروسيا أن تقع حرب بين الانجليز والفرنسيين فتجد فرصة تثأر فيها من هؤلاء الأخيرين — الذين آذوها فى السنوات الماضية أبلغ الأذى — فانضمت الى انجلترا ، ولم تبال أن تشترك بذلك فى خنق أمة لا حول لها ولا طول .

موقف مصر وتركيا من الدول

كان السلطان والوالى يفهمان ذلك حق الفهم ، وكان كل منهما يعرف من أمر هذه الدول ماتعلن وما تبطن ، فأما السلطان فقد ضمن السلامة فما عاد يخشى كثيرا ، فألقى الحبل على الغارب وترك الأمور تجرى فى أعنتها ، وهو واثق من أنه واجد العون من الروس أو الانجليز فى أى زمان ، ومضى يشتط فى معاملة الوالى ويفرض عليه طاعته فرض القوى المتجبر الذى يعتز بيمينه وسلطانه لا بيمين غيره وسلطانه ، وحققت الدول ظنه فيها فطغى وتجبر ومضى فى العناد إلى حد بعيد ، وأما الوالى فكان يعرف أنه فى مسبعة لا نجاة له فيها إلا بسلاحه وحيلته ، فاستنفد هذين إلى حد أرهق البلد الذى يمده بالسلاح ، وحطم الرأس التى ترسم له الحيلة ، فانتهى بهذين إلى خمود وذهول .

مسئولية محمد على

ولم يكن لمحمد على كذلك محيص عن عداء الدولة العثمانية والوثوب بها ، فقد كان خرج إلى حرب اليونان على أمل الفوز بولايات الشام ، وقد كانت الدولة وعدته ذلك ، فكان من الحق أن يعطى ماوعد به بعد إذ قام بتبعاته فى حرب اليونان خير قيام ، فقد فيها أسطوله ومعظم جيشه وأنفق من المال شيئاً كثيراً ، فاذا أبى السلطان عليه ذلك لم يكن له بد من أن يستعين بالقوة على تحقيق ما عجز دون الحصول عليه بالرأى والاقناع ، بل يبدو أنه لم يكن له مفر من عداء الدولة لأنها كانت على نيـــة الالتجاء إليه كلما حزبها أمر ، فقد استدعته لاخضاع الثائرين فى الروملى ولما يفرغ من عقابيل حرب اليونان ، كأن هذا الرجل إنما كان يعمل لخدمة هذا النفر من المبطلين المفسدين فى القسطنطينية ، يستنزف دماء شعبه ويرهق نفسه وابنه لكى يريحهم من العمل ويؤمنهم من الخوف ، وليس له بعد ذلك نصيب من مال أو شكران ؛ إنما كان على الدولة أن تسلم له بما طلب فقد كان الرجل خيّراً مصلحاً بل كان خير من فى الدولة كلها ، وكانت ولايات الشام التى طلبها فى حاجة إلى رأيه ويده ، « فقد كانت فى حال سيئة ، وكان الأمن فيها مروعاً إلى حد استحال معه على الرسل أن ينفذوا خلالها دون توقع الأذى والعدوان ، وقد طال بها الزمن يحكمها باشوات يستنفذون وسع جهدهم فى إرضاء جشعهم ، ولم يكن أحد ليستطيع أن يظهر بأى مظاهر الغنى ، وكان الجميع فقراء أو تظاهروا بالفقر ، وكان أهلها كلهم — بأديانهم المختلفة — مختلفين متدابرين طرائق » (١) فماذا كانت الدولة تريد من بقائها على هـذه الحال ، وما ضرها لو أطلقت فيها يد هذا القدير فأصلح من شأنها واستنقذها من مظالم آل الجزار فى عكا ، والشهابيين فى بيروت ، وخلص بها من فوضى منازعات

حال الشام قبل الفتح المصرى

(١) Dodwell p, 107

الدين فى كل مكان ، لو فعل السلطان هذا لزاد سلطانه على الشام ولم يضعف ، فقد كانت هذه الفوضى فرصة طيبة للدول لتتدخل فى أمور هذه الولايات وتأتى فيها من الأمر ماتريد ، فاستطاع الانجليز أن ينشروا متاجرهم ويشرفوا بأنفسهم على طريق الهند ، وأمكن للفرنسيين أن يبسطوا سلطانا أدبيا على لبنان وآله من الموارنة ، فلم يكن للسلطان ظل من القوة هناك ، فماذا ضره من مطالب واليه ؟

النزاع بين محمد على والدول

يبدو أن النزاع لم يكن بين الوالى والسلطان ، بل كان بين الوالى والدول ، فقد اصطلح السلطان والوالى مراراً أثناء الكفاح وبداعليهما الميل إلى الهدوء ، فابت الدول ذلك وأخذت تثير أحدهما على الآخر وتغريه به ، بل أبت انجلترا وحدها ذلك وأصرت على القضاء على محمد على و « إلقائه فى النيل » كما قال بلمرستون ، من هنا يصح أن ننظر لهذا النزاع على أنه مشكلة دولية ، لا مسألة داخلية ، وأن نعتبره دورا من الكفاح بين الشرق الاسلامى والحضارة الأوروبية ، فالنزاع فى الشام كان بين الانجليز ومحمد على لا بين هذا الأخير والسلطان ، وهو نزاع يشهد التاريخ فيه للوالى بأنه لعب فيه دوره بمهارة واقتدار ، بحيث نستطيع أن ننظر إلى سياسة محمد على حيال المسألة السورية كقطعة طريفة من السياسة الذكية الرشيدة .

ضرورة ولايات الشام لمحمد على

وكانت ولايات الشام لازمة لمحمد على فى ذلك الحين ، فقد كان له أسطول لا يستغنى عن أخشاب لبنان ، وكانت له متاجر تصلح لها أسواق الشام ، ولم يكن فى استطاعته أن يترك فلسطين — مفتاح بلاده — ليهدده الأعداء منها ، وليقيم فيها ولاة لا يدخرون وسعا فى ايذائه والنكاية به كأنهم موكلون بهذا (١) ، وقد كان الانجليز على حق حين تخوفوا

---

(1) Dodwell p, 157

مطالبه لأنه لم يكن ليدعهم أحرارا فى الشام يأتون من الأمر ما يريدون كما هم الآن .

الروسيا تحول النزاع من مسألة داخلية إلى مسألة دولية

ولم يكن تقدم المصريين الأول فى الشام بالأمر الجديد ولا بالحدث الخطير ، فقد كانت المنازعات والحروب دائمة بين ولاة السلطان ، لا يفتأون يحتربون فيما بينهم لسبب أو لغير سبب ، فربما أصلح السلطان بينهما أو تركهما على حالهما ما دام اختلافهما لا ينقص المال الذى يأتيه من أحدهما ، وقد كان من المعقول أن يظل الشام فى يد محمد على زماناً بعد انتصار ابراهيم الحاسم فى قونيه فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ ، لولا تدخل الروسيا الذى أخاف الدول ودفعها إلى التدخل ، فقد كانت الروسيا تعتبر الدولة العثمانية منطقة نفوذ لها ، وكانت مصالحها تقتضى بقاء الدولة على حالها من الضعف ، فلما رأت أجناد مصر يجتاحون الشام ويشرفون على جبال الاناضول ، تخوفت مسيرهم إلى القسطنطينية واستيلاءهم عليها ، وأنهاضهم الدولة من جديد والقضاء على مطامعها فيها لهذا حرصوا على أن يثيروا مخاوف السلطان من ناحية واليه من بادىء الأمر (١) ، فبالغوا فى تصوير المسألة وجعلوا حرب محمد على للجزار حربا للسلطان ، وأخرجوه بذلك عن حلمه ، فتورط فى عداء محمد على ، ومن هنا يسهل علينا تصور السبب فى توجيه السلطان قواته لحرب محمد على من جهة وتحريضه الولاة الآخرين عليه من جهة أخرى ، ثم حذفه اسمه واسم ابنه من سجل الباشاوات الذى نشر فى عيد الأضحى الذى تلا ذلك أى سنة ١٨٣٢ ، وقد كانت الدلائل كلها تدل على أن محمدا عليا لم يكن يرجو شيئا بعد الشام ، فلو قد كان السلطان فاوضه قبل قونيه لأراح نفسه من عناء طويل ،

---

(١) Driault : Questiou d'Orient; P. 141

ولكن تخويف الروس أرهبه فوجه نحو الوالى قوته كلها ، فسار الصدر الأعظم رشيد محمد نفسه نحوه ، وبهذا لم يعد الأمر نزاعا بين محمد على والجزار بل بينه وبين السلطان ، ولو قد أراد محمد على القضاء على السلطان إذ ذاك لهان عليه فى شغل من الدول ، ولما أرسل يستوقف ابنه عند كوتاهية بعد أن أصبحت القسطنطينية قاب قوسين أو أدنى فلم يكن الرجل يفكر فى الاستيلاء على بغداد فى ذلك الحين ولم يأمل فى الصدارة العظمى فى ذلك الحين كما زعم المسيو دريو (١) .

الروسيا تسرع بالتدخل

ولما كانت الروسيا تكره أن يتدخل غيرها فى منطقة نفوذها . فقد حرصت على الاسراع بقفل الباب قبل أن تتنبه الدول الأخرى ، غير عالمة أن تدخلها هذا هو الذى سيثير مخاوف الدول ويدفعها إلى التدخل ولو قد اصطنع الروس الكياسة فستروا أغراضهم لكان فى الصلح أمل ولما اضطربت الأمور هذا الاضطراب ، ولكنهم بالغوا فى سوء التصرف — لو استقام هذا التعبير — فارسلوا قائدهم مورافيف Muraviev إلى محمد على فى الاسكندرية لا ليتفاهم معه ، بل ليأمره بالانسحاب من الشام جميعه وتسليم أسطوله إلى السلطان وإنقاص جيشه إلى عشرين ألفا فقط ، وهذا بعد شهر واحد من انتصار قونيه ، أى والرجل فى غلواء النصر ونشوة الظفر ، ولو طلبوا إليه هذا وهو فى عقابيل الهزيمة وذل الانكسار ، لأباه وهو على حق فى الاباء .

غضب الرعية على السلطان

هذه الخطوة الروسية فتحت أبواب البلاء . لا على محمد على وحده بل على السلطان والروسيا ، فقد ثار ثائر الوالى حين وجد السلطان يستعدى عليه الروس النصارى » وتفشى الغضب على السلطان فى نفوس الرعية حتى لقد سبه درويش صغير على قارعة الطريق (٢) ، وأحس

---

(١) Driault :Question d'Orient; P 141

(٢) Ibid

محمد على بذلك فدارت برأسه فكرة خلع السلطان بالمضى إلى القسطنطينية ، بهذا صارح باركر مندوب انجلترا ، وأرسل لابنه ابراهيم يطلب اليه أن يحصل على فتوى تشرع له عزل السلطان قبل أن يعلن خلعه ويسقطه من الخطبة ، وقبل أن يمضى إلى القسطنطينية ليزيل منها هذا الذى لا يأنف أن يستعدى خصوم المسلمين على المسلمين(١)

تدخل الانجليز والفرنسيين

أزاء هذا التقدم الروسى لم يسع الانجليز والفرنسيين إلا أن يتدخلوا ، فما كان بالمرستون ليترك الروس يبسطون حمايتهم على الدولة ويخاطبون الناس باسمها ، وما كان للوى فيليب أن يسمح لعدوه نيقولا ـ الذى كان لا يفتأ يعيره ويستثيره ـ بأن يستمرىء هذه اللقمة السائغة ، ومن ثم أسرع الاثنان بالعمل ، فأما الفرنسيون قد كانوا لا يطلبون أكثر من كف يد الروس واعادة الدب إلى عقاله ، فاكتفوا بأن وجهوا لمحمد على النصح بان يلزم القنوع فى مطالبه ، وأن يعجل بالصلح مع السلطان قبل أن يتسع الباب إذا استمرت الحرب والشحناء ، ولهذا عجلت بارسال مندوب خاص هو البارون بوالكُمْتْ ليعجل بذلك .

بلمرستون ومحمد على

أما الانجليز فلهم بعد رد الروس مطالب أخرى ، فقدرأوا رأى العين أن هذا الرجل الناهض قوى ، وأنه ينبىء عن قوة مقبلة وفتح عظيم . فهذا الشام له طال الحين أو قصر ، وطرق الهند فى يديه عن أى السبل فهو لا يقل عن الروس خطرا والقضاء عليه ضربه لازب ، وهنا بدأ بلمرستون يلعب دوره الخطير فى هذه المسألة ، وهو دور يبالغ المؤرخون كل المبالغة فى تصويره والاعجاب بالرجل من أجله . وينسون أنه كان يغالب خصما ضعيفا هو محمد على ودولة صغيرة هى مصر ، وينسون انه لم يكن على شىء من الكياسة لا مع مصر وحدها بل مع فرنسا أيضا ،

(1) Dodwell p, 114

(2) Douin : Mission du Baron de Boisecomte أنظر

وأنه كان يلعب لعبا مكشوفا صريحا فى أكثر الأحيان ، وأنه كان يغامر فى غير حذر معتمدا على أسطوله فى البحر الأبيض ، ينسى المؤرخون هذا ليعجبوا بانتصاره فى آخر الأمر ، مع أن الرجل لم يكن له مفر من من الانتصار — إذا استقام هذا التعبير — مادامت المسألة صراعا بين أسد وحمل ، ومادام على ثقة من انتصار أوروبا له على خصمه الضعيف

باترك كامبل

كان قنصل انجلترا فى مصر فى أوائل أيام الصراع الكولونيل باركر ، فاثاره انتصار محمد على ولم يملك غضبه ، فلم يهنئه باستيلاء ابنه على عكا ، وانتهز فرصة عزل السلطان له لكى يتحدث عنه بازدراء فكان ينعته بالوالى السابق حينا وبالثائر حينا آخر ، فوجد بالمرستون انه يوشك بذلك أن يفضح نيات الانجليز ، فسارع بعزله وأقام بدله الكولونيل باترك كامبل أقدر معتمدى بريطانيا فى مصر ، وأوسعهم فهما ابان حكم محمد على (١) وأكثرهم عطفا عليه وتقديرا لأعماله ، وإنما احتال بالمرستون بذلك ليعرف بواسطة كامبل نوايا محمد على وأغراضه عن سبيل المودة والصداقة ، وفهم محمد على ذلك فغير أسلوبه من المصارحة إلى الدهاء ، فبعد أن كان يصارح باركر برغبته فى فتح فلسطين ، وبعد أن كان يعلن له رغبته فى عزل السلطان ، أسر إلى كامبل أنه لا يبغى بالدولة شراً وإنه يرجو انقاذها وإصلاح شأنها ، وأنه لا زال العبد الخاص للدولة التركية وإن خاصم سلطانها ، ولم يستطع بالمرستون أن يفعل أكثر من ذلك إذ ذاك لاشتغال جيوش انجلترا فى هولنده والبرتغال وغيرهما ، فوقف يرقب الحوادث ، وألح عليه السلطان فى التدخل فرد سفير انجلترا السير ستراد فورد دى ردكلف قائلا : « ان المسألة أصعب مما يتصور الباب العالى ، وإن الحكومة البريطانية ستحتاج إلى وقت تجيب فيه ،

---

(١) Dodwell; Op. Cit. P. 112 – 113

ولكنها — فى الوقت نفسه — سترسل الى محمد على فى أقرب فرصة ، معبرة عن الأسف الذى سببته خطته وعن أملها فى أن يعقد الصلح مع السلطان مباشرة (١) »

فرنسا ومحمد على

أما فرنسا فلها فى السياسة سبيل أخرى ، فهى لا تعتذر عن عجزها عن التدخل الفعلى ، وإنما تريد أن يطيعها الناس طائعين مختارين ، وأن لا يعصى محمد على لها أمرا ، أليس هو صنيعتها وثمرة جهدها ، ففيم يعصاها ولا يسمع نصحها ؟ وفيم حاجتها للجند تقهره بهم وفى استطاعتها أن تأمر فيطيع من غير مطاولة ولا مكابرة ؟ ولا يكلفها الأمر إلا أن يتحرك مندوبها فى القسطنطينية « دى فَارِنْ » فيأمر إبراهيم بان يقف عقب قونيه ، فيقف إبراهيم ويمتثل ، فاذا لم يمتثل وتقدم ، استطاعت فرنسا أن تحل الأمر من جهة أخرى ، فتأمر السلطان بأن يعيد الروس الذين أتوا لعونه ، فاذا أبى ، كان عليه أن يجيب مطالب محمد على دون تردد أو سؤال (٢).

مركز فرنسا فى الليفانت فى ذلك الحين

وليس أغرب من موقف فرنسا وتصرفها فى هذه الأزمة الطويلة إلا دعوى مؤرخيها أنها مشكورة على مافعلت ، وأن مركزها فى البحر الأبيض كان يستدعى ذلك التصرف ويبرره ، وليس أغرب من دعواهم بأن الفرنسيين عاضدوا مصر وتولوا حمايتها فى هذه الأزمة التى كاثرها الأعداء فيها ، مع أن كل الأذى الذى أصاب محمدا عليا لم يكن سببه إلا هذه الدعوى ، فقد استثارت عليه الانجليز والروس . يزعم مؤرخو فرنسا أن البحر الأبيض كان فى ذلك الحين بحيرة فرنسية « كان سلطان فرنسا — إذ ذاك — عظيما فى البحر الأبيض المتوسط ، فكانت تبسط على الأحراز فى إيطاليا شبه حماية منذ

(١) تاريخ مصر السياسى ، للاستاذ رفعت ص ١٩٠

(٢) تاريخ مصر السياسى ، للاستاذ رفعت ص ١٩١ — ١٩٢

احتلالها انكونا ، وكان لها فى اليونان حزب قوى جدا لا يلبث أن يصبح صاحب السلطان النافذ فيها ، وكانت فتوحها فى الجزائر تسير سيرا موفقا على رغم كيد الانجليز . . وكان الفرنسيون أصحاب الرأى المسموع فى مصر ، إذ كان نصحاؤهم أدنى الناس إلى ثقة الباشا ، ومن هناك امتد سلطان فرنسا حتى فلسطين والشام ، وطرق أبواب آسيا الصغرى والعراق ، فلم يكن الناس مخطئين حين زعموا أن البحر الأبيض كاد يصبح إذ ذاك بحيرة فرنسية» (١) كما يزعم المسيو دريو ، ولو قد قرأ هذه السطور سولت أو تيير أو جيزو لاستحيى وهو يرى أساطيل انجلترا تذرع هذا البحر وتملك نواصيه فلا تجرؤ فرنسا أو غيرها على الخوض فيه إلا بعلم الانجليز ورضاهم ، وما كانوا بعاجزين عن أن يحرموا على الفرنسيين نزوله الآن ، وقد حرموه عليهم فى أوجهم أيام نابليون ، هذا وقد كان السلطان وواليه لا يحفلان لفرنسا نصف حفلهم للروسيا أو لانجلترا ، ولا حاجة بنا إلى القول بأن احتلالهم لانكونا أثار عليهم بغض الايطاليين لا حبهم ، وأن أهل اليونان كانوا يعرفون أن استقلالهم منسوب للروس والانجليز ، ولم يفعل الفرنسيون أكثر من مظاهرة فى البحر أثناء نافارين ، ومظاهرة فى البر قام بها الجنرال ميزون حين نزل اليونان فى ختام ثورتها ببضعة آلاف من الفرنسيين لم يشتركوا فى موقعة ولم يغيروا أمراً .

ادعاء الفرنسيين حماية محمد على تؤذيه

إنما الحقيقة أن محمدا علياً شقى بهذه الدعوى الفرنسية الباطلة . شقى بها لأنها أثارت مخاوف الانجليز من ناحية فاتهموه دائماً بأنه يعمل لحساب الفرنسيين ، فحاربوه وهم على ثقة من أنهم يحاربون فرنسا . ولو قد سلم محمد على من تهمة العمل لحساب فرنسا لما أصر الانجليز

---

(1) Driault : La Question d'Orient, P. 141

على عناده هذا الاصرار ، فالانجليز أكيس من أن ينفقوا كل هذا الجهد فى عداء دولة ضعيفة كمصر الناشئة . وشقى بها محمد على مرة أخرى، لأنها غررت به ودفعته من حيث لا تنوى معاونته فعلا، فتركته يصلى نار الهزيمة وحده ، وليتها اكتفت بذلك ، بل أهوت بيدها على رأسه فى آخر الامر كألد الاعداء والخصوم .

قلق محمد على

وكان محمد على يرقب الحوادث إذ ذاك بعين القلق ، فقد أفزعه تقدم الروس وانزالهم الجند لعون السلطان ، وكان يرجو مخلصا أن يتقدم اليه هذا الأخير فى طلب الصلح قبل أن يستفحل الأمر ويقتتل الروس والمصريون على القسطنطينية ، فتستطير أوروبا كلها نارا حامية ، وكان يرجو أن يعينه الله على الاتفاق كما نصحته انجلترا وفرنسا ، وبلغ منه الخوف مبلغا عظيما ، حتى ليذكر «سنت جون» — وهو شاهد عيان — أن الباشا تأثر وجمع ٥٠٠٠٠ مصرى لحضور صلاة جامعة امام قصره سائلين الله النصر للباشا ورجوع جنوده ظافرين سالمين(١) .

انتصار محمد على فى الدور الاول من الكفاح

فاذا هو فى هذا إذ أتاه الفرج ، وإذا برسول السلطان يطرق بابه عارضا عليه الصلح ، مقدما له الشام كله علاوة على مصر، فرضى جذلان طربا ، وطاول فترة من الزمن حتى كسب لابنه درجة محصل لولاية اطنه ، فانتهى الأمر بذلك واستراحت النفوس بهذا الصلح الذى عرف بصلح كوتاهيه فى ١٦ مايو سنة ١٨٣٣

بين مصر والدول

صفيت المسألة بين الوالى والسلطان ، ولكنها لم تصف بينه وبين الدول ، فقد رضى السلطان بهذه الحال واطمأن إلى أن وجود محمد فى الشام لن ينقص من ماله أو هيبته . واطمأن محمد على الى مركزه الجديد فاخذ يثبته ويقويه ، أما الدول فلم يرضها ذلك ، فكيف تغفل الروسيا الباب وتترك الدولة مطمئنة البال ، وكيف تسمح لها بذلك الرخاء الذى قد

(١) مصر فى حكم محمد على — لسنت جون ، ج ٢ ص ٥٢٤

يمكنها من اصلاح شأنهـا والوقوف فى وجه الروسيا ومطامعها . فلتسرع إذن ولتؤكد حمايتها للدولة من أى اعتداء ، وذلك لتستثيرها إلى عداء محمد على من جهة ، ولتتغلب على أى نفوذ دولى آخر فى القسطنطينية من جهة أخرى ، فأرسلت سفيرا فوق العادة هو الكونت أرلوف Orlof وكلت إليه مهمة عقد معاهدة دفاعية مع الدولة العثمانية ؛ ورحب السلطان بذلك لأنه عرف « من تجاربه الحديثة درسا جديدا ، وهو أنه لما اشتدت الأزمة وانهزمت جيوشه ولى وجهه نحو أصدقائه يطلب المساعدة الفعلية ، فلم يسعفه أولئك الذين طالما أعلنوا إخلاصهم له (إلا) بالكلام والقول الجميل ، أما الروسيا فلما وجه إليها الطلب أجابته على الفور بالجيوش والأساطيل ، من ذلك عرف السلطان الناحـــية التى يجب أن يولى وجهه شطرها إذا ما اضطر لطلب المساعدة (١) » ، ومن هنا عقدت معاهد سرية عرفت باسم « هنكار اسكلسى » تعهد القيصر فيها بالدفاع عن السلطان ، وأخذ السلطان على نفسه ان يقفل المضايق فى وجه السفن الحربية لأية دولة عدا الروسيا

معاهدة هنكار سكلسى

بهذا كادت الصفقة كلها أن تخرج من يد الانجليز : ويبعت الدولة لمحمد على ونيقولا مناصفة ! وقعت طرق الهند فى يد الأول وأصبح شرق البحر الأبيض تحت رحمة الثانى ، فلو دام الأمر على ذلك لانقطع رجاء الانجليز فى الصلة بالهند عن هذا السبيل ، ولأمكن الروس أن يهاجموها آمنين وقد أحكموا رتاج الباب ، فلا يملك الانجليز لهم دفعا ؛ ولهذا لم يلبث بالمرستون ان أحس أن هذه القسمة ثقيلة على نفسه ، وما يطيق الرجل صبرا على هذا الحل الذى أصبحت الدولة به شطرا للروس وشطرا للفرنسيين .

اثرها فى السياسة العامة

---

(١) تاريخ مصر السياسى : ص ١٩٧ — ١٩٨

انجلترا تتهم محمداعلياً بأنه سبب البلاء كله

من ثم أنشأ بلمرستون يعمل بجد ونشاط ، وكان يرى أن محمداعليا سبب هذه المصائب كلها ، أليس هو الخطر الوحيد الذى يدفع السلطان إلى الاحتماء بالروس، وأليس هو الستار الذى يختفى خلفه الفرنسيون ، ففيم بقاؤه؟ ولم لا يقضى عليه ويستراح من شره ؟ ولم لا تسلك انجلترا كل السبل للوصول إلى هذه الغاية ، ولن تشفع للرجل عند الانجليز اصلاحات ولا تقدم ولا عمران ، ولن يشفع له جهد بذل أو مال انفق أو شعب ضحى نفسه للوصول إلى هذه الغاية ، ليهدم العمران وليذهب الجهد هباء ولترم الضحية للكلاب ، ليسلم الانجليز ويعيشوا موفورين

انجلترا وحركات الاصلاح فى الشرق

هذا هو الخطر الجديد الذى سيلقى الدولة الاسلامية الناشئة فى فى دورها الجديد ، خطر يعوقها عن التقدم ويأخذ عليها سبل الاصلاح ، لأن انجلترا عرفت أن كل إصلاح من شأنه أن يقوى الدولة ويعز من جانبها ويجعلها قوة على طريق الهند انما هو خطر على انجلترا ، وإذن فكل إصلاح على هذا الطريق خطر على انجلترا ، وإذن فانجلترا تعتبر القضاء على الاصلاحات والنهضات فى الشرق الاسلامى دفاعا عن نفسها ، تحاربها بداهة وبغير تردد ، ذلك مفتاح السياسة الانجليزية إلى يومنا هذا ، ومادامت عيون الشرقيين قد تفتحت للاصلاح وسعوا إليه ، فذلك يعتبر إعلانا للحرب على انجلترا ، فمن اليوم الذى تستيقظ فيه الشعوب وتأخذ للاصلاح سبيلها ، يصبح الصراع بين المسلمين فى كل مكان وبين الانجليز

انجلترا تحارب مصر حربا سلبية

وليس أدل على ذلك من الحرب التى أعلنتها على محمد على جهراً وعلانية ، فى الشام وفى مصر وفى القسطنطينية ، وفى أوروبا كافة .

بتسببى الدأعداء محمد على

فاما فى الشام فقد شمر قنصل انجلترا عن ساعده ونزل الميدان صراحة ، وأخذ يتصل بزعماء القبائل ويحرضهم على الثورة ويقدم اليهم السلاح ، وما كان هؤلاء الزعماء بحاجة إلى من يحرضهم على الثورة

أو يدفعهم إليها ، فقدكانت يد محمد قد ثقلت عليهم منذ حين ، وأبوا عليه أن يجندهم فى جيوشه وينزع سلاحهم ويحتكر دونهم تجارة الحرير وما اليه ، وما كانوا يطيقون أنظمته ولاقوانينه ، فما ان همس بُنْسُبْني بالثورة فى آذانهم حتى هللوا ورحبوا ، فاشتعلت الثورة ، وحق للانجليز أن يؤكدوا للدول أن محمداً علياً يخرب الشام بحكمه ، وان العدل يقضى بتخليصه من نيره ورده إلى السلطان العادل القادر !

ستراتفورد دى ردكلف يسعى لزيادة الحالة حرجا

وأما فى القسطنطينية فلا ضير على ستراتفورد دى ردكلف أن هو ألح على السلطان فى اعلان الحرب على الوالى واحراج مركزه ، واقناعه بأن الانجليز خدم له إذا هو فعل ذلك. وأما فى أوروبا فلا أقل من إقناع النمسا بأن اتساع سلطان الروسيا فى تركيا خطر على كيانها ، فلا بد من القضاء على ذلك السلطان، وهل من سبيل الى ذلك الا بالقضاء على محمد على ؟ ولا تعجز انجلترا عن أن تفهم بروسيا بان القضاء عليه اضعاف لفرنسا واحباط لمساعيها ، فلا يلبث البروسيون أن يقبلوا . وبهذا تجتمع السياسة الدولية كلها لحرب مصر

محاربة محمد على فى مصر نفسها

وأما حربه فى مصر فبمعا كسته فى رزقه وماله ، فاذا كان الرجل يعول على التجارة فلتحرم عليه التجارة ، وليحصل الانجليز من الدولة على حق التجارة فى بلاد محمد على ، فيضربونه بذلك ضربة قاضية بالقضاء على الاحتكار الذى هو أساس نظامه المالى .

محمد على يتوقى الحرب محافظة على كيانه

بديهى بذلك أن نعرف أن الحرب كانت مستطيرة بين الوالى والسلطان عاجلا أو آجلا ، لسبب معقول أو لسبب غير معقول ، من ناحية السلطان أو من ناحية محمد على ؛ وكم كان هذا الأخير مسكينا، وكم توقى الحرب ، وكم احتمل الحرج والاعنات فى صبر وإناة ، وكم رأى اليد ترتفع لتطعنه فملأها مالا وريحانا ، ولم يشفع له دفاع كامل عنه وحسن رأيه

فيه ، ولم ينجه دفاع بعض الوزراء الانجليز أنفسهم عنه حين أرسل إلى بلمرستون يقول « لايمكنني أن أرضى بترك ماشيدته بمصر من المنافع والمرافق الحيوية بها طوال هذه السنين — مما كلفني أموالا طائلة ، كدور الصناعة البحرية والاسطول والبواخر والمصانع وعددها وعمالها . . — لايمكنني ترك كل هذا للفناء في يد الباب العالي بعد موتي، وإن قلبي لينفطر حزنا كلما ذكرت أن ثمرة اتعابي ضائعة ومصيرها للفناء ، وأن أولادي وأسرتي سيتركون بعد موتي تحت رحمة الباب العالي »(١)

انجلترا هي التي اثارت حرب الشام الثانية

ولعلنا لانخطىء إذا قلنا أن انجلترا هي التي أثارت حرب الشام الثانية بعد أن استوثقت أن أوروبا كلها — عدا فرنسا — معها على محمد على. فلم يكد بنسنبي Ponsonby يستوثق من ذلك حتى أنشأ يحرض السلطان على الحرب صراحة وعلانية، فأكد له أن انجلترا معه فى هذه الحرب وأن أسطولها فى خدمته ، فتشجع السلطان وأقدم على حرب هو الكاسب فيها على أى حال ، فاذا انتصر كان بها ، وإذا انهزم كانت حماية الروس والانجليز مأمنا له من عدوان محمد على . وكان السلطان قد بدأ منذ حين يصلح جيشه وينظمه ، فظن أن العدة اكتملت له ، وأنه مقتدر هزيمة المصريين على أهون سبيل ، فأمر جنوده بالمسير ، وأحست فرنسا أن السلطان وقع فى الفخ وأن انجلترا بالغة ماأرادت ، فأسرعت تطلب إلى الجيشين المتحاربين أن يتهادنا ؛ وكلفت مندوبين لها بسط الأمر على حقيقته أمام بصريهما ؛ ولكن الرسولين تأخرا فلم

---

(١) سجلات وزاره الخارجية (مصر) كامبل الى بالمرستون ٢٥ مايو سنة ١٨٣٨ عن تاريخ مصر السياسى لرفعت بك ص ٢٠٨

يصلا إلا بعد موقعة نصيبين ، أي بعد القضاء على جيوش السلطان وانفتاح طريق القسطنطينية أمام محمد علي ، لا يعارضه معارض .

الصراع في الشرق يصبح صراعا بين فرنسا وانجلترا

هنالك أصبح الصراع بين فرنسا وانجلترا صراحة ، وانتقل ميدانه من القسطنطينية والقاهرة إلى لندن وباريس ، وأصبح مدار النزاع كرامة كل من الدولتين وقدرهما فى أوروبا ، ذلك أن الفرنسيين وجدوا فى ذلك فرصة يعلنون فيها ما طال بهم الزمن وهم يضمرونه من كراهية انجلترا وسخطهم على عبثها بحكومتهم وتدخلها الدائم فى شئونهم ، ولم تكن الوزارة الانجليزية تتوقع أن تثور فرنسا هذا المثار لخاطر محمد علي ، وتأكد لديها «إجرام» محمد علي بحب الفرنسيين له ، فأصرت الاصرار كله على موقفها ، وقررت لتهدمن كل أمل لمحمد علي هذا .

العلاقة بين محمد علي وفرنسا فى سنوات الأزمة

والحق أن العلاقة بين محمد علي وفرنسا تطورت تطورا سريعا خلال هذه الأزمة ، فلم يكن الفرنسيون الذين ثاروا من أجل محمد علي يرون فى تشجيعه نشراً للحضارة وعملا للرقى بقدر ما رأوا فيه سبيلا للنكاية بالانجليز ، فقد بدا لهم بوضوح أن انجلترا تستهين بهم ولا تحفل لرضاهم ، وترجو أن تقودهم من آذانهم فى كل حين ، ومن هنا تريث بلمرستون فى العمل مع شعوره التام بأن الموقف يستدعى الاسراع فى التنفيذ ، وكانت فرنسا تحيره من أمره فلا يكاد يعرف ما التوت من أمر ، فبينما يتصافح سولت وملبورن كالأخوين فى لندن وباريس إذا بالأسطول الفرنسى يكيد للأسطول الانجليزى فى مياه البحر الأبيض ، ويعين الأسطول التركى على الانضمام لمحمد علي .

بيد أن روسيا تطوعت لانقاذ بلمرستون من هذه الحيرة ، فأعلنت تنازلها عن الحقوق التى تتيحها إياها معاهدة هنكار اسكلسى ، فتنفس بلمرستون الصعداء ، وأيقن أنه مستطيع الاستغناء بجيوش الروسيا عن جيوش فرنسا ، فبدأ يعمل على حل الأزمة بغير رأى فرنسا ،

ولعل الروسيا لجأت إلى هـــذا الحل لكثرة ما أحرجها الفرنسيون وجابهوها بالعداء ، فكان من الطبيعى أن تنحاز إلى جانب أعداء فرنسا ، وذلك بعد أن تأكدت أن هذه المعاهدة لم تصبح ذات بال أمام انتباه الانجليز وحذرهم ، ومن هنا سارع نِسِلْرُودْ وزير خارجية الروسيا فأرسل مندوبه برنوف ليؤكد لانجلترا استعداد الروسيا للعمل مع الدول جنبا إلى جنب

فرنسا تتكلم باسم محمد على

إزاء ذلك تشجع بلمرستون وبدأ العمل ، ولكنه أحب أن يستوثق لنفسه قبل ذلك ، فأعلن إلى سبستيانى سفير فرنسا فى لندن أن الدول لاترى مانعا من منح محمدعلى مصر وعكا وراثيتين ، وهنا أخطأت فرنسا الخطأ الذى جر علينا — نحن المصريين — الويل ، فقد استباحت الرد باسمنا ، وكان يجب أن تتركنا نتكلم عن نفوسنا ، فرفضت ذلك رفضا قاسيا ، وأكدت أنهالاتوافق على استعمال القوة فى قهر محمد على

محمدعلى يسعى للاتفاق مع السلطان

أما محمد على فكان يسعى عن سبيل أخرى ، كان يسعى ليحل المسألة باتفاق خاص بينه وبين السلطان ، ولمح بنسبنى ذلك فرأى فيه محاولة لتضييع الفرصة التى طال بانجلترا الأمل وهى ترقبها ، فسارع إلى السلطان يحذره من الاتفاق ، فلم يجدرجال الدولة بدا من الوقوف وانتظار رأى الدول ، وبهذا حرم على محمدعلى أن يفتح فمه فى اللحظة التى أصبح مصيره فيها فى الميزان ، وحكم عليه بأن ينتظر نتيجة الموقعة ، وما كانت نتيجتها بخافية ، إنما كان الرجل موقنا أن فرنسا تسوقه لحتفه وتضعه فى فم المدفع ، وكان منذ حين يصرف أموره فى كثير من القدرة والسياسة .

المعركة فى دورها الأخير

وبدأت المعركة ، فكانت أسلحة فرنسا خطبا رنانة فى البرلمان ومقالات طنانة فى الصحف ، وأسلحة انجلترا خطوات عملية حاسمة

غاية خسارة لمصر !... بدأ النائب جوفرى فى يونيو سنة ١٨٣٩ فالقى فى البرلمان الفرنسى بيانا بليغا أكد فيه عزم فرنسا على أن تقف مع مصر جنبا إلى جنب ، وأعلن استعدادها للمعاونة على إنشاء امبراطورية عربية توازن الامبراطورية العثمانية التى صارت إلى يد الروسيا (١) ، وبعد ذلك بقليل ألقى تيير خطابا قويا أيد به كلام جوفرى وأعلن أن شرف فرنسا مرهون بعون مصر ، فاشتعلت فرنسا ناراً ، وتجاوبت الصحف تنادى بالعداء ، فلم تملك وزارة سولت المعتدلة أن تقر فى موضعها ، فاستقالت ليحل محلها تيير صاحب محمد على ونصيره ، وأيقن الناس أن الحرب واقعة لامحالة ، وعجل تيير بالضغط على الباب العالى للأسراع فى عقد الصلح مع محمد على مباشرة ، فلم يكد يتصل بلمرستون ذلك حتى فاجأ فرنسا بتوقيع المذكرة المشتركة بين الروسيا وبروسيا والنمسا وانجلترا ، تعلن فيها ضمانها لسلامة الدولة وحرية الملاحة فى المضايق ، وتمنح محمد على مصر وراثية والشام مدى حياته

فرنسا تثور لمحمد على

هنالك توقدت فرنسا ناراً ، فاعلن « لامرتين » أن هذه المعاهدة «ووترلو السياسة» ، وخشى تيير أن يجمع مجلس النواب مخافة أن يتورط فى إعلان الحرب ، فتريث ، وملك الحماس أمة الكلت فقالت «الطان» « أن أوروبا لا تثبت لنا » فأجابت الديبا مؤكدة « أن المعاهدة إهانة لا تقبلها فرنسا ، إن شرفها يمنعها من قبولها» حتى لوى فيليب نفسه على ما به من كراهة الحرب وخوف التورط فيها حذراً من ضياع التاج ، لم يملك أعصابه وعادت إليه ذكريات جيماب فقال . «انى أجاهد لرد الثورة إلى عقالها منذ عشر سنوات ، وقد عرّضت فى سبيل ذلك حب شعبى وراحتى وحتى حياتى للضياع ، إنهم مدينون لى بالسلام فى أوروبا وبثبات عروشهم ، وهذا جزائى منهم ، أيحبون لو لبست شارة الثورة

(1) Drialut: La Question d'Orient, p.p. 147 —148

علانية » وكأنما لم يكفه هذا العتب فعاد يقول مهددا مندوبى النمسا وبروسيا « إنكم لمنكرون للجميل ، إنكم تطلبون الحرب ، فستصلون نارها ! فان كان ذلك ، فانى مطلق النمر من مقاله ، إنه يعرفنى وأعرف كيف أتفاهم معه ، وسنرى إن كان يعرف لكم قدرا (١) » .

الخلاف فى الوزارة البريطانية بسبب مسألة مصر

ولم يكن الرجل يستطيع أكثر من التهديد ! كان يخشى على نفسه من نمر الثورة أن يأكله أول المأكولين ! وكان بلمرستون يعرف ذلك ، فلم يهز التهديد منه جنانا ، وثاربه زملاؤه فى الوزارة ، واحتج عليه اللورد هولاند ، فهدد بالاستقالة ، فتركه ملبورن يفعل مايريد .

اتساع نطاق الخلاف دخول بروسيا

وهلل القيصر واستبشر ، فهذه عدوته فرنسا تنساق إلى الحرب راضية ، ورجا أن يرى بعينيه مصرع « ملك المتاريس » عن قريب ، واشتعل الحقد فى قلب الألمان ، ورحبوا بالحرب ، واستطارت الخصومة بينهم وبين الفرنسيين ، وتناكر الشعبان ، وتحول الأمر بينهما من خصومة فى محمد على إلى خصومة فى الرين ، فنادى بكرْ شاعر الألمان :

لن يكون لهم ، هذا الرين الحر الألمانى
فرد عليه لا مرتين :ـ
لقد كان لنا ، هذا الرين الألمانى الذى تدعيه
وسيمضى الطفل إلى حيث كان أبوه .

أى سيعود الرين إلى فرنسا . وليحمد محمد على الله على ذلك !

انجلترا تبكر بالعمل بيير فى مياه الشام

فى ذلك الحين كان محمد على ينتظر ، فأبى أن يجيب الدول إلى ما طلبت فى المذكرة المشتركة ، ولبث يرقب ما تنجلى عنه المعركة بين فرنسا وانجلترا من أجله ، ولكن الدول لم تنتظر ، فنزل الكولونل نابيير عند بيروت ، وثار شمالى الشام بمساعى الانجليز وأصبح مركز

الثورة فى الشام

(1) Driault, La Question d'Orient P, 150

محمد على فى الشام حرجا جداً ، وخشى أن يقطع الأسطول الانجليزى على جيشه خط الرجعة إلى مصر فتراجع ابراهيم مسرعا .

فرنسا تتراجع

وهنا فوجىء الناس بأمر جلل ! . . لقد سقطت وزارة تيير وعاد سولت وقام جيزو المعتدل بشئون الخارجية . . وإذا بنيران فرنسا تخمد ، وحماسها يسكن ، وإذا بها تستبدل الغلو بالتواضع وتقنع بمصر لمحمد على ، كأنما مصر من أملاك يمينها يصرف الأمر فيها لوى فيليب كما يشاء ويهوى ، وما هى الا أيام حتى هدأت ثائرة الفرنسيين وتركوا محمدا عليا تلعب به الأقدار ، وكان هذا جزاؤه على تعلقه بها وانتظاره رأيها ، ولو قد عرف أنها ستتصرف على هذا النحو لقبل ما عرضته الدول عليه من أول الأمر ، ولما تحداها هذا التحدى ، ولوفر على جنوده عناء حرب الشام الثالثة ، ولما وقف الرجل هذه اللحظات العصيبة يلتمس الرحمة من يد الأعداء ؛ أحس محمد على أنه بين الحياة والموت

محمد على يستعد للدفاع عن نفسه

فانشأ يحصن مصر تحصينا بالغا ، وكون جيشا جديدا من المصريين ، واستدعى جنوده كلهم ووحد أسطوله فى يد واحدة ، واستعد للمعركة الفاصلة فى حدود مصر بعد أن فقد الأمل فى الشام . ورأى الكولونيل شارلس نابيير ذلك ، وعرف استحالة أخـــذ مصر من محمد على ، اذ استيقظت فيه عزة نفسه فابى شروط الدول مرتين . وأخيرا وبعد أن ناء ظهره تحت ضربات الحلفاء وخيانة فرنسا وعبث السلطان ، قبل مصر وراثية ، ورجا أن يعطيه السلطان مصر . . وإذ ذاك تقدم نابيير ففاوضه رأسا على ذلك الأساس ، وأكد له أن الحكومة البريطانية لا تعارض فى أن تترك له مصر وراثية ، فقبل الرجل . . وتعلل السلطان تعلل القادر الذى يحتمى بسلاحه يمينه ، فلم تتمالك الدول — وهى أعداء محمد على — من أن تعجب لهذا الاسراف فى البطر ، واحتجت ، وانتهى الأمر بفرمان ٢٢ مايو سنة ١٨٤١ الذى أصبحت به مصر

نابيير يفاوض محمدا عليا

فرمان ٢٢ مايو سنة ١٨٤١

وراثية فى أكبر أبناء أسرة محمد على ، وحددت الجزيه باربعمائة ألف جنيه مصرى ، ومنح الباشا بعض حقوق بسيطة فى منح الرتب وما إلى ذلك .

أثر الصدمة فى شعب مصر

ذلك كان نصيب مصر من الدنيا على طول الجهد وطول العناء ، ولو قد انهزمت فى كل حروبها وقصرت فى كل تضحياتها لما منحها اعداؤها غير هذا ، فلم يكن مقدراً لها إلا نصيب المهزوم فى أى الحالات ، ومن ثم سئمت النصر وسئمت العمل ، والقت نفسها فى احضان نوم طويل لن تفيق منه إلا بعد سنوات طوال ، ففيم يلومها الناس وماذا يأخذون عليها ، وماذا كان يطلب اليها أن تعمل فوق الذى فعلت فى هذه السنوات القليلة : لقد أعلنت حقها فى اختيار حاكمها ثم طهرت نفسها وأثبتت حقها فى الحياة جنبا إلى جنب مع أعظم قوى الدنيا ، وأثبتت بالبرهان القاطع أن هناك فرقا بين شعبها والشعوب الأخرى المستنيمة للنوم ، ومدت يد الشرف للعالم فاباها لأسباب خاصة ، وانحط عداء الشرق والغرب كله مدى قرون على رءوس جنود مصر ، فلم يكن لهم بد من أن يسلموا سلاحهم فى ميدان الشرف . ولقد حاول أعداؤها أن يتخلصوا من وصمة خنقها ، فزعم بالمرستون انه حارب محمداً عليا لأنه كان يحارب لنفسه وليس من ورائه شعب يطلب الحرية ويستأهلها ، كأن عصابات اليونان — التى كانت تبيع السفن لمحمد على والتى كانت تعتدى على سفن الانجليز — فى اللحظة التى اشتعلت مجالس الانجليز فيها حماسا من أجل اليونان — كأن هذه العصابات تستحق الاستقلال ومصر لا تستحقه . ولو بحثت مصر عن سبب لهذا الفشل الذى حاق بها فى النهاية لما وجدت غير سببين اثنين : هما وقوعها على طريق الهند واتهامها بالعمل لحساب فرنسا

لعنة الموقع الجغرافى

فاما الوقوع على طريق الهند فذنب فى نظر السياسة البريطانية لا يغتفر ، ولو قد قاد مصر اللورد ملبورن نفسه لما كان فى نظر

بلمرستون غير همجى يعمل لحساب نفسه ولا يستحق الا الاغراق فى النيل ، وذلك هو « ثمن » الموقع الجغرافى يدفعه شعب مصر من دمه وحريته بين الحين والحين ، ولو قد كانت مصر فى طرف من أطراف الدنيا لكان لها تاريخ يختلف كل الاختلاف عما نراه اليوم .

وأما الانتماء لفرنسا فقد عدته السياسة الأوروبية جريمة كبرى فى ذلك الحين ، إذ كانت فرنسا عدوة الدول جميعا ، تصارحها بالأذى وتنطوى نحوها على اللدد ، ولو قد دعت انجلترا الدول إلى حرب فرنسا فى سنة ١٨٤١ لأجابت الدعاء فى أغلب الظن ، فما بالك والدعوى إلى خنق مصر هينة الاجابة يسيرة التحقيق ، فمن هنا سهل على انجلترا أن تجمع الدول فى يدها ، وتأتى من الأمر ما تشاء ، ولو قد كسبت فرنسا إلى صفها دولة واحدة كالروسيا أو النمسا لغير الانجليز موقفهم ولمالت قضيتنا الى جانب العدل والانصاف ، وكان على مصر أن تفهم ذلك ، وتعتبر بما أصابها فى ذلك الحين ، ولكن مصر لن تعتبر !.. فبعد نصف قرن من هذه الخيبة الظاهرة لا زال فى مصر ناس يؤملون الخير فى فرنسا ، فكان جزاؤهم على يدها أنكى من خيانتها لمحمد على كما سنرى .

حقيقة الحركة المصرية

وكانت محاولة مصر صريحة لا تقبل اللبس أو الشك ، محاولة لانهاض الدولة الاسلامية وتكوينها من جديد ، وتحضيرها والموافقة بينها وبين عصرها ، ومدافعة أوروبا بسلاحها والاندماج فى المجموعة الأوروبية ، والسير مع الدنيا وأهلها ، وقد وفقت مصر توفيقا طيبا : فاعدت جيشها ونظمت مرافقها وعلمت من أبنائها من يستطيع المضى فى ذلك الطريق ، ولكن المصائب أقبلت زرافات كما يقول شيكسبير ، واجتمعت الدنيا كلها على أن تردها إلى الوراء ، فما كان لها والحالة هذه إلا أن تسلم سلاحها فى هزيمة أقرب ما تكون إلى النصر والظفر

محمد على بعد الهزيمة

لم يعمر محمد على بعد ذلك غير سنوات قلائل ، قضاها ضيق الصدر بادى الحزن ، وكانت الدنيا قد عرفت فضله بعد أن قصت جناحه ، فانهال عليه التقدير من كل صوب ، تلقاه أعداؤه فى الاستانة بالدموع والأسى ، وأحسوا هول جريمتهم فى هذا الأمل الذى خنقوه ، وبعث اليه ملك الفرنسيين وسام فرقة الشرف ، ولم يستح الانجليز أن يبعثوا اليه سفينة كعلامة على التقدير والاعتراف بالفضل ، حتى بلمرستون نفسه أرسل يدعوه الى انجلترا ويرحب به أجمل ترحيب ! ، ولكنه أبى وفضل زيارة الاستانة ، فذهب اليها وعاد وقد ذهب عنه بعض ما كان يجد . وكان الرجل يمشى نحو الثمانين يحمل على ظهره هذه الخيبة الفاجعة فكان لابد أن ينوء تحتها ، وخيم على مصر ذهول أصابه منه نصيب ، فاختصم مرة مع بعض عماله واحتد عليهم ، ونام ليلته نوما مضطربا ، ثم نهض فى الصباح ليلقى بعض وزرائه ، فاعتذر عنهم ، وجلس على أريكته وبكى بكاء مرا ، ثم نزل ومضى إلى القاهرة عن طريق المحمودية لايتكلم ولا ينبس ، بعد أن اتهم وزراءه ورجاله جميعا بالغدر والخيانة .

وارتدت عافيته اليه بعد حين ، ولكنه كان بين الحياة والموت

وهنا أحس أعداؤه الانجليز بما أذوه فلم يسعهم الا الاعتراف بفضله ، ففى هذه السنوات كتب قنصل انجلترا الى بلمرستون يقول « . . وفى الحق ياسيدى ، لاجدال فى أن محمدا عليا رجل عظيم ، فقد استطاع أن ينهض من وضاعة النسب وقلة المال ، ويشق طريقه نحو القوة والشهرة بشجاعته التى لا ترد ومثابرته وحكمته » (١)

---

(١) من جراى الى بلمرستون : ٥ أغسطس سنة ١٨٤٩
عن دودويل ص ٢٦٣

وكان هذا من أجمل ما قيل فى الرجل الذى مات بعد ذلك بقليل

— ٤ —

الاصلاح فى تركيا

أزاء هذه الأخطار كلها ، والهزائم التى أقبلت بعضها فى أثر بعض أحس بنو عثمان أن نهاية أمرهم قد أوشكت أن تكون ، وترامى الى سمعهم ما اتفقت عليه الدول من تقسيم بلادهم واحتلالها ، فبدا لهم الخطر واضحا جليا ، وحفزهم ذلك إلى التفكير فى سبيل يخلص ببلادهم من هذا الموت المحيط بها من كل جانب .

وإحساس الأتراك بخطر أوربا قديم يرجع إلى أوائل القرن الثامن عشر ، حين اشتد ساعد الروسيا وعقدت النية على أن تزيل تركيا من موضعها ، فقد هال الأتراك ما وجدوا من انكسار جيوشهم وانكماش دولتهم انكماشا متتاليا بسبب الضغط الأوروبى من الغرب على يد النمسا ومن الشمال على يد الروس ، وما كان للأتراك إلا أن يشعروا بالخطر بعد إمضائهم معاهدات مهينة للشرف العسكرى العثمانى كمعاهدة كارلوفتز ١٦٩٩ التى سلمت بها المجر وطريق قلب أوربا إلى النمسا ، ومعاهدة بساروفتز ١٧١٨ التى فقدت بها جزءا مهما من البلقان أو معاهدتى كتشك كينارجى ١٧٧٤ وياسى ١٧٩١ اللتين أذلتا تركيا للروس .

حركة اصلاحية سلفية

لم يكن الأتراك قد تبينوا قوة أوربا وعرفوا أسباب نهضتها وتفوقها ، فوقع فى ظنهم أن سبب هذا الاضمحلال العثمانى هو تفريطهم فى سنن أجدادهم الأولين ، ومن ثم اتجهت أفكار المصلحين منهم وجهة سلفية كالتى سنراها فى غير تركيا من البلاد الاسلامية بعد حين . وهذا التفكير السلفى معقول جدا ، بل هو الخاطر الوحيد الذى يخطر فى أذهانهم إذا فكروا فى إصلاح أمورهم والعودة إلى التفوق الذى كان لهم فى سابق الأيام ، فقد كان أجدادهم ينتصرون حيث

ينهزمون هم ، وكان آباؤهم يسوسون الدنيا وأهلها . . فما السبب فى عجزهم اليوم وقصورهم ؟ وكان المسلمون قبل أن يتبينوا حقيقة الحضارة الغربية « يعيشون فى الاسلام » ، ويرون أنه السبيل الوحيد للعز والعظمة والرفعة . . فلم تكد المصائب تنزل بهم حتى جرى إلى أذهانهم أن السبب الوحيد هو التفريط فى شعائر الاسلام والانصراف إلى الدنيا والاسترسال مع الشهوات ؛ هذا النمط من التفكير نجده فى تركيا اليوم وفى مصر وجزيرة العرب بعد قليل ، وفى كل بلد اسلامى تنكسر جيوشه أمام أوربا ويحس خطرها .

كنشى بك

بدأ كنشى بك فأهاب بالأتراك إلى الارتداد إلى النظم العثمانية القديمة والاعتصام بها ، وأكد لمواطنيه أنهم مفلحون أن عجلوا بهذه الرجعة الى أنظمة محمد وسليمان ، فلم يلبث أن ظهر من السياسيين من آمن بهذا وأخذ به كوزراء أسرة كبريلى ، فانتعشت الدولة إلى حين ، ولكنها عادت فاسترسلت فى نومها العميق .

هنا عرف الأتراك أن الأمر ليس مجرد اضمحلالهم ، وإنما سببه أن أوربا لم تعد ما كانت عليه أيام سليمان ، وإنما شملها تغير عظيم نهض بها من الضعف إلى القوة ، ومن الهزيمة إلى الظفر ، ولم يكن الأتراك [ح]اجة إلى كبير جهد ليتبينوا ذلك على وجهه ، فقد كانت الروسيا إلى شمالهم تعرض عليهم الأمر عرضا واضحا لا يحتاج إلى بيان ، فعرفوا أن بقاء الدولة الاسلامية على حالها لا يغنى عنها شيئا ، وان القوة الأوروبية الحديثة لا تقاوم بالارتداد إلى الاسلام الأول أو بالاعتصام بالأساليب العثمانية الأولى ، بل بالسير فى نفس الطريق التى انتهجتها أوروبا ، والتى أوصلتها إلى هذا الأوج من التفرق والانتصار .

التفكير فى ادخال الأنظمة الأوروبية

فكر الأتراك فى هذا منذ أواخر القرن الثامن عشر ومضوا فى تنفيذه من ذلك الحين ، ولم يكونوا ـ كما يظن الكثيرون ـ جامدين ولا

مصرين على العناد، بل استطاعوا أن يقطعوا فى هذا المجال خطوات واسعة جدا تعادل أضعاف ما أتاه الكماليون بعد الحرب الكبرى ، وربما وجد القارىء غرابة فى مثل هذا القول ، لأن الرأى السائد بين الناس هو أن تركيا ظلت جامدة ساكنة محافظة على القديم حتى الحرب الكبرى وحتى قام الكماليون بحركتهم ، فنفضوا عنها القديم وأسرعوا بها فى ميادين التجديد وتطرفوا فى ذلك تطرفا ظاهرا . ولكن الحقيقة أن الكماليين لم يفعلوا أكثر من إتمام مابدأ به السلاطين . ومقارنة بسيطة بين ماأدخله السلاطين من وجوه التجديد وما أدخله الكماليون تنطق بهذا . فقد استبدل الكماليون مثلا القبعة بلباس الرأس التركى القديم ، ولكن السلاطين هم الذين استبدلوا الزى الأوروبى بالأزياء التركية القديمة ، وقد استبدل الكماليون القانون السويسرى بالشريعة فى مسائل الأحوال الشخصية ، ولكن السلاطين هم الذين أدخلوا القوانين الأوربية محل الشريعة فى غير المسائل الشخصية ، وهكذا ، لا نجد إصلاحا للكماليين إلا وهو فى حقيقته إتمام لما بدأ به السلاطين(١)

الوضع السياسى لتركيا قبل حرب القرم

ولعل دافع الناس إلى الأخذ بهذا الرأى هو مايرونه من أن هذه الاصلاحات لم توف على الغرض المراد منها ، فلم ينتقل الأتراك من الهزيمة إلى الظفر ، أو من الاضمحلال إلى النهوض ؛ والذين يذهبون هذا المذهب ينسون أن الدولة العثمانية كانت إلى حرب القرم تعتبر نفسها - ويعتبرها الأوروبيون كذلك - خارج المجموعة الأوروبية ، وأن علاقاتها الطبيعية بها كانت - ولا بد أن تكون - علاقات حرب ، وهى العلاقة الطبيعية الوحيدة المعقولة بين الاسلام والنصرانية ، وينسون أن هذا الاعتبار حال بين الأتراك وبين أن يحققوا أحلامهم فى النهوض والأخذ بأساليب الحضارة الأوروبية ، إذ أن شعور العداء

---

(١) من مذاكرات غير مطبوعة للأستاذ شفيق غربال

والنفور والاحتقار من الجانبين لم يبرح قائما بينهما . وهذا الاعتبار نفسه غل يد السلاطين عن الاصلاح الواسع الصحيح ، فالسلطان لا يستطيع - وهو حامى الاسلام من النصرانية - أن يقلد «النصارى» تقليداً ظاهرا ، أو يفرض على «المسلمين» أموراً «نصرانية» يكرهونها ويرون أنفسهم أرفع من الأخذ بها . فكان لابد له من أن يصطنع الأناة والحذر فى كل ما يطلب من وجوه الاصلاح ، بل كان لايملك التغيير إلا فى حدود ضيقة جدا لاتتعدى جنده وحرسه وقصره ، ثم إنه سلطان دولة مترامية الأطراف والنواحى ، تضم اليونانى المهذب بعض التهذيب ، والمغربى الذى يعيش على القرصنة والمصرى المتحضر الوادع والكردى المحارب الخشن والعربى الفطرى البدوى والتركى العنيف الشديد ، فكيف يستطيع أن يفرض على هؤلاء نظاما واحدا فى طرفة عين ، كيف له أن يجمعهم كلهم فى لواء واحد ويسوى بينهم ، ويجعل الدولة العثمانية وحدة متماثلة كفرنسا وانجلترا مثلا ، وهب أن السلطان استطاع ذلك - على استحالته - فكيف يستطيعه والقلاقل تحيط به من كل جانب والأخطار تتهدده كل يوم ، وما من قرش يدخل خزانته إلا استنفدته الحروب لرد العدى أو لكبت الخارجين والواثبين ، وكيف يستطيعه وأوروبا لا تعينه عليه العون المفيد المجدى ، فهذه روسيا لاتكاد تترك له فرصة العمل ، ولا تفتأ تثير عليه الحروب والفتن ، بل كيف يستطيعه وأوروبا تتدخل فى شئونه وتحول بينه وبين رعاياه فلا تبقى له على الهيبة اللازمة فى هذه الأحوال ، فيدّعى الروس لأنفسهم حق حماية المسيحيين فى البلقان ، ويزعم الفرنسيون لأنفسهم حق رعاية الأراضى المقدسة ، ويرى الانجليز أن البحر الأحمر منطقة نفوذ لهم فيها ما للسلطان وزيادة ، كيف يستطيع السلطان والحالة هذه أن يعقد أمرا أو يصلح شأنا أو يقيم بناء ، بل كيف

العقبات التى تعوق السلطان عن الاصلاح

يستطيع الاصلاح وهؤلاء رعاياه تتسرب إليهم المبادىء الحديثة فيؤمنون بها ويصارحون السلطان بأنهم أحرار أو لا بد أن يكونوا أحراراً ، فاذا أخذهم بأمر عصوا ، وإذا نصحهم بنصح عاندوا وأصروا ، ووجدوا من دول أوروبا معينا ، فثاروا وخرجوا على الطاعة جملة ، فاذا أرادهم السلطان على الطاعة اعترفت أوروبا باستقلالهم فلم يكن له بد من احترام هذا الاستقلال :

تلك كلها أمور ينبغى أن نحسب حسابها قبل المضى فى دراسة حركة الاصلاح فى تركيا ، ولنذكر إلى ذلك أمورا أخرى كالتنافر وعدم الثقة بين السلطان ورعاياه ، وهو شعور طبيعى بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الشرقية . فقد حال هذا الشعور — وما يصاحبه من التخوف والريبة — بين السلاطين وبين أن يقنعوا رعاياهم بحسن نواياهم أو بالخير الذى يرجى لهم من وراء اتباع السلطان فيما يريد . ولم يكن السلاطين يجدون المال اللازم للانفاق على وجوه الاصلاح . فقد كانت إيرادات الدولة قد هبطت هبوطا مزريا جعلها تعجز عن أن تهيء لنفسها العدة اللازمة لمقاومة الدول الأوروبية الأخرى . ولو قد وجد السلاطين الرجال المخلصين والأعوان الصالحين لهانت عليهم السبيل ، ولكن الأتراك لم يكونوا خيرا من المصريين فى هذه الناحية .

فقر الدولة العثمانية

ويبدو ان أقوى أسباب فشل السلاطين فى تحقيق وجوه الاصلاح والنهوض هو أنهم لم يكونوا مخلصين فى طلبها ، ولم يعنوا بها عن ثقة بفضلها وجدواها ، وانما عن اضطرار واكراه ؛ لجأ اليها السلاطين على رغمهم ليقاوموا بها هجوم أوربا ، ومن هنا غابت عنهم محاسنها فلم يستطيعوا الاستفادة منها على وجهها الصحيح ، ولو قد وجه السلاطين الاصلاح لصالح الرعية لكانت الفائدة أعم والبنيان أقوى ، لأن

هل كان السلاطين مخلصين فى طلب الاصلاح

الحضارة الغربية حضارة شعوب لا حضارة ملوك ، فهى إلى نفوس الجماهير أدنى ، وما من شعب يتبين خـــيرها حتى يؤمن بها ويسعى هو لتحقيقها دون الحاجة إلى ايحاء ملك أو توجيه سلطان

نفور الشعب التركى من الاصلاح

من هنا لا لوم على الشعوب الاسلامية إذا هى نفرت من الحضارة الغربية ولم تتبين وجه الخير فيها ، فقد اعتبرت الدعوة إليها ضربا من تحكم الملوك والسلاطين ، واعتبرت اتباع مبادئها لونا من الخضوع لهم ، والبعد عنها فنا من فنون العناد والمقاومة تلجأ اليه كلما أرادت مقاومة أو عنادا ، ولنضف إلى ذلك أن هذه الحضارة أقبلت على أيدى النصارى فاعتناق مبادئها مناصرة للنصرانية على الاسلام ، واحتقارها ضرب من التعبد والتقوى خليق بالمؤمن الصحيح .

تلك كلها عوامل جعلت سبيل الاصلاح صعبا شائكا فى وجه السلاطين ، كان عليهم أن يتغلبوا عليها قبل أن تثمر ثمرة واحدة من الثمار التى بذلوا الجهد فى انباتها ، فلنحسب حسابها عند دراسة تاريخ الاصلاح فى تركيا ، وعسانا لا نخطىء فنذهب مع القائلين بأن محمدا عليا وفق فى حين فشل السلطان ، وأنه لهذا أقدر وأحجى ، إذ فرق بين من يعمل فى دولة مترامية الأطراف وفى ميدان ملىء بالصعوبات ، وبين من يعمل فى بلد متحد آمن محـــدود قابل للتحضر عاجز عن المقاومة إذا طلبها.

فشل الحركة السلفية

فشلت الدعوة السلفية التى نادى بها كتشى بك لأنها جاءت متأخرة جداً — فى الساعة الحادية عشرة كما يقولون — فبدأ السلاطين يفكرون فى السير فى السبل التى انتهجتها عدوتهم الكبرى - روسيا - التى استطاعت أن تنتقل من دولة مضمحلة متأخرة إلى دولة حديثة قوية يحسب لها كل حساب فى السياسة الأوروبية ، وهذا السبيل هو محاربة أوروبا بسلاحها ، أى بنقل مظاهر الحضارة الأوروبية

سليم الثالث

بدأ هذا العمل السلطان سليم الثالث الذى مر ذكره ، وكان طبيعيا أن يبدأ بالناحية الحربية ، لأن مظهر الضعف العثمانى كان حربياً ، ولأن روح العصر كلها كانت تهتم بالحروب وتحسب لها كل حساب ، ولأن الأخطار التى أحاطت بالدولة كانت تستدعى وجود جيش قوى يحفظ عليها كيانها وهيبتها . فبدأ باعداد جيش على « نظام جديد » إلى جانب الجيش القديم ، فلم يكد يمضى فى ذلك حتى تبين له أنه لم يكن على الصواب فيما قصد إليه ، لأن الجيش القديم لن يدعه يمضى فيما طلب ، لأن قيام هذا الجيش الجديد قضاء على القديم ، ومن ثم بدأ الصراع بين السلطان والانكشارية هذا الصراع الذى انتهى بقتله والقضاء على حركته .

الغاء الاقطاع

وحاول سليم كذلك أن يدخل على نظام الدولة الاجتماعى والسياسى تعديلا مهما ، وهو الغاء الاقطاع ، والأقلاع عن السنة التى جرى عليها اسلافه من التشكك والريبة فى العمال والولاة وقصر ولايتهم على سنة واحدة . فاما عن المسألة الأولى فقد كان زمان الاقطاع قد انقضى فى العالم كله ولم يعد يلائم الأحوال الدولية الجديدة ، وقد كان الاقطاع التركى قد فسد نظامه وانعدم وجه الفائدة منه ، إذ كان السلطان — فيما مضى — يقطع رجاله الاقطاعات على أن يقدموا له خدمات حربية لقاء ذلك ، ولكن المقطعين كفوا عن أن يقدموا الجند والعون الحربى ، وأعانتهم فترات الاضمحلال فأصبحوا ملاكا فعليين لما بيدهم يتوارثونه ويتصرفون فيه . أراد سليم أن يقضى على هذه العلة فقرر ضم كل اقطاع يموت عنه صاحبه إلى أراضى الدولة ، وارصد دخل هذه الاقطاعات المستردة على الانفاق على الجيش الجديد وهنا كان بديهيا أن يهب أمراء الاقطاع (أو الأمراء الاقوياء — دره بك — كما كانوا يسمون) لرد هذا الاعتداء على كيانهم . وأما عن

تعديل نظام ولاة الدولة

المسألة الثانية فقد وجد سليم أن قصر الولاية على سنة خليق بأن يكف يد الوالى عن الاصلاح ، وخليق أن يجعل الولاية سلعة تباع وتشترى بالمال والرشى ، فقرر أن تكون الولاية ثلاث سنوات قابلة للتجديد وهنا وجد السلطان أن هذا النظام عسير التطبيق على الحكام القدماء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ذئاب الدولة واعداءها لا انصارها ، يترقبون غفلتها أو ضعفها ليثبوا بها ويقطعوا الصلة بينهم وبينها ، فلم يستطع المضى فى هذه السبيل طويلا (١) .

انشاء علاقات سياسية بين تركيا ودول أوروبا

وأراد سليم أن يخطو بالدولة خطوة أخرى لا تقل أهمية عن كل ما بدأ به ، وهى المحاولة الأولى لادخال تركيا فى الهيئة الأوروبية ؛ فقد سبقت الاشارة إلى أن العلاقة « الطبيعية » بين الدولة وغيرها من الدول الأوروبية كانت علاقة حرب وعداء ، فلا يجتمع الحيان على مائدة واحدة إلا لامضاء معاهدة أو لحل مسألة طارئة ، وفى غير ذلك لم يكن ليوجد بين تركيا وغيرها غير الحرب والنضال . وكان هذا النوع من العلاقات علة تركيا وسبب تأخرها عن غيرها من الدول ، لأنه قطع الأسباب بينها وبين غيرها وعزلها سياسيا ، فتقدمت الدول ولزمت هى مكانها ، ولو قد كانت العلاقات غير ذلك لسارت تركيا جنبا إلى جنب مع غيرها من دول أوربا ، ولما وجدت الهوة السحيقة التى فصلت كلا من الجانبين عن الآخر ، فأراد سليم أن يوجد بين الدولة وغيرها من الدول علاقات سياسية ، باقامة السفراء فى عواصم أوربا . ليكونوا صلة بين الأتراك وعصرهم الذى يعيشون فيه . وربما بدا لنا هذا الأمر ميسور التنفيذ ، فما على السلطان إلا أن يندب السفراء الذين يريد أن يمثلوه لدى حكومات الغرب ليتم الأمر ، ولكن من أين للسلطان الرجال الذين

---

(١) الاستاذ شفيق غربال : مذكرات غير منشورة .

يحسنون القيام بمثل هذه المهمة ، فيندمجون فى الأوساط السياسية فى البلد الذى يقصدون اليه ، ويستطلعون أخباره وأحواله وينهونها إلى دولتهم؟ لقد فشل السلطان فى ذلك فشلا بينا ، ولقى مندوبوه صعوبات كبرى فى القيام بوظائف السفراء ، وهى صعوبات ناشئة عن نفورهم من أوربا والحضارة الأوروبية وعدم فهمهم لطبائع هذه البلاد ، وضيقهم بالحياة فى البلاد الأوروبية ، وغير ذلك من الصعوبات التى تجدها مفصلة فى الكتاب الذى وضعه «هربت» بعنوان «سفارة تركية لدى حكومة الديركتوار» يصف فيه الصعوبات التى لاقاها على افندى سفير تركيا فى باريس من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٨٠١ وعجزه عن القيام بمهمته على الوجه المطلوب (١) ويبدو أن سليما لم يرد من هؤلاء السفراء أن يقوموا بمهام سياسية فى أول الأمر ، لأنه لم يكلفهم بشىء من ذلك ، ولم يعتمد عليهم فى حل مشاكله السياسية مع الدول ، وإنما أراد أن تكون السفارات مدارس فيخرج فيها شبان قادرون على الاضطلاع بمهام التمثيل الخارجى ، بدليل أنه الحق بكل سفارة نفرا من الطلاب الأتراك لهذا الغرض . بيد أن سليمان لم يطل به الصبر على التعليم والاعداد ، فلم يلبث أن كف ، واكتفى بأن يقيم فى العواصم الأوروبية قائمين بالأعمال من اليونان ، إذ لم تتمكن الدولة من إيجاد أتراك قادرين على القيام بمهام السفارات الاخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

انشاء مجلس وزراء مسئول

وأراد سليم وجوها أخرى من الاصلاح ، فحاول انشاء مجلس وزراء مسئول بالتضامن عن شئون الحكومة ، وغير ذلك مسائل أخرى ، فلم يكن توفيقه فيها بأكبر من توفيقه فيما مر ذكره من نواحى الاصلاح ، وعلة فشله فى ذلك كله هى أنه أراد أن ينشىء الجديد والقديم

---

(1) Herbette; Une Ambassade Turque sous le directoire

باق على حاله ، وكان عليه أن يفهم أنه لابد من ازالة المنزل القديم وآثاره حتى يمكن اقامة الجديد .

أثر الحملة الفرنسية على مصر فى نفوس الاتراك

فشل سليم فى ادراك ماطلب ، وانتهى الأمر بقتله ، ولكن النية فى الاصلاح لم تبارح إذ هان السلاطين ، لأن الاخطار لم تبرح تهدد تيجانهم ، فكانوا مجبرين على التماس سبيل اخرى للاصلاح ، وقد بدا لهم بعد الحملة الفرنسية على مصر أن أوربا لن تتركهم يستسلمون للنوم مرة أخرى ، فبدأوا بمحاولة جديدة تختلف عن هذه الاولى بعض الاختلاف

محمود الثانى

بدأ هذه الحركة الجديدة السلطان محمود الثانى ، وقد تعلم من سلفه سليم أن ازالة معالم القديم جزء من بناء الجديد ، فكانت تلك خطته فى كل وجه من وجوه التجديد التى طلبها ، فقبل أن يبدأ بانشاء جيش جديد أباد الانكشارية فى مذبحة قريبة الشبه جدا من مذبحة المماليك التى أباد فيها تابعه محمد على المماليك قبل ذلك بخمس عشرة سنة .

هل كان محمود الثانى يتأثر محمدا عليا

ويبدو أن محمودا الثانى كان يتأثر واليه محمدا عليا فى كثير من الأعمال التى قام بها ، وذلك لأن النهضة التى وفق اليها محمد على كانت خليقة أن تكون قدوة صالحة يتأثرها الحكام إذا طلبوا الاصلاح ، ولا نزاع فى أن أسلوبه صادف اعجابا من نفس محمود ، حين رآه يوفق هذا التوفيق فى حرب اليونان التى فشلت فيها جيوش السلطان ، وكانت تركيا ساعة ولى أمورها أشبه « بسفينة ينبغى تجديد قاعدتها وصواريها وأشرعتها وبحارتها » (١) أى كان ينبغى تغيير كل شىء فيها

تأمين الرعية

بيد أن محموداً لم يكن ليستطيع المضى فى سبيله قبل أن يحسن مركز تركيا فى نظر الدول ، فقد كانت ثورة اليونان وحروب محمد على والأزمان التى نشأت عن ذلك قد هبطت بسمعة الدولة إلى الحضيض

---

(1) Engelhardt : La Turquie et Le Tanzimat (Paris 1848) P. 5

ولم يعد لأية دولة ثقة فيها أو فى نظام حكمها . ووجد السلطان أن يبدأ بإصلاح حال رعاياه ، وإيجاد وضع جديد للمسيحيين منهم فى الدولة . وكان يحس كذلك أن رعاياه المسلمين يكرهون الحكومة ولا يثقون فيها ، فبادر وأعلن إلى الرئيس افندى بأنه يريد « أن يصبح العرش من الآن مأمن الشعب لا مخافته ، انى أقرر إلغاء المصادرات ، وحتى أولاد الثائرين لهم أن يتمتعوا بميراث آبائهم » (١) ولكن المصاعب الكثيرة التى أحاطت به حالت بينه وبين أن يتم مابدأ ، فكانت ثورة اليونان وحروب محمد على والروسيا شغله الشاغل طوال حكمه ، فلم يستطيع أكثر من إصلاحات بسيطة بعضها لتحسين القسطنطينية وتنظيمها ، وبعضها تناول نواحى الادارة كتقسيم الدولة إلى أربع ولايات كبرى لتحل محل الثمانية عشر قسما القديمة التى كانت تعرف بالايالات ، وإدخال الزى الأوربى وفرضه على رجال البلاط والحكومة وغير ذلك عدة مسائل أخرى قليلة الخطر .

محمود الثانى والاصلاح

بيد أن الحوادث تنطق بأن محمودا لم يكن مخلصاً فى هذه الوجوه التى طلبها ، وإنما كان يبغى أن يصطنع أمام الدول مظهرا يخفى تحته ضعف الدولة وتأخرها ، بل لم يكن يؤمن بما يفعل أو يحرص على اتباعه ، فبعد أسبوعين فقط من إلغائه المصادرة صادر أموال رجل يهودى اسمه شبتشى . وعقب على ذلك بمصادرة أملاك الرئيس افندى الذى أعلن إليه قانون إلغاء المصادرة منذ أيام ! وكان محمود إلى ذلك قليل التوقير للدين ورجاله ، كثير الاستهانة بالتقاليد والاوضاع . فأثارت تصرفاته مخاوف الناس وسخطهم ، وبلغ غضب الناس أن سبه درويش على قارعة الطريق وأتهمه بممالأة النصارى على المسلمين ، وأنذره بسوء المصير ، وفى الواقع لم يكن محمود كفئا للنهوض بالمهمة

(1) Engelhardt, Op. Cit. P, 7

التى تعرض لها فقد كان يحس الحاجة إلى الاصلاح ، وكان يشعر بتفوق أوروبا ، ولكن آراءه لم تكن لتظهر إلا فى فترات قصيرة. ولم تكن له طاقة لفهم المسائل الكبرى ، وظل تركياً فى الوقت الذى أراد فيه أن لا يكون كذلك ، وقد بالغ المؤرخون كثيرا فى تقدير الدور الذى قام به والاصلاح الذى أدخله .

قيمة أعمال محمود الثانى

ولكننا نلاحظ أن أعمال محمود أفادت الدولة بعض الفائدة ، فأثارت فى كيانها لونا من النشاط على الأقل . وعلى الرغم من كثرة الحروب التى اشترك فيها والهزائم التى منى بها ، والكوارث التى نزلت بالدولة على أيامه ، على الرغم من ذلك نجد الدولة عندموته أقوى منها فى أول ولايته ، فقد زاد سلطان الدولة على ولاياتها وولاتها ، فلم نعد نسمع بولاة خارجين عليها كالجزار باشا فى الشام ، وسليمان باشا فى بغداد . (١) ويبدو أن ذلك راجع إلى خوف الولاة من أوروبالا من السلطان ، فلم يعد أى حاكم يفكر فى الوثوب بسلطانه مخافة أن تتدخل الدول وتقضى عليه ، وإلى هذا الخوف من أوروبا نستطيع أن نرد مابدا على الدولة من دلائل النشاط الأخرى كزيادة دخلها من ولاياتها لأن حكام الولايات باتوا يعتقدون أن الدولة أصبحت فى حماية أوروبا وكنفها ، والثورة على السلطان ثورة عليها ، وليس العهد بعيداً بمحمد على وقصته .

عبد المجيد

مات محمود الثانى سنة ١٨٣٩ وخلفه ابنه عبد المجيد فى السادسة عشرة من عمره ، فكان صغر سنه هذا فرصة مكنت بعض النابهين من الاتراك من الظهور على مسرح السياسة التركية والعمل على اصلاح حالها ، وعلى رأس هؤلاء المصلحين رجلان قديران قدما للدولة خدمات جليلة هما رشيد باشا ورضا باشا .

---

(١) مذكرات غير مطبوعة للاستاذ شفيق غربال

رشيد باشا

كان رشيد باشا قبل ذلك سفيراً للدولة في لندره ، وكان رجلا ذكيا مخلصا ، فاستطاع أن يلمس نواحي ضعف بلاده ، وتفطن إلى الوسائل المجدية لانهاضها ، وقد رأى بعينه كيف كانت حماية الدول لتركيا منقذة لها من الموت حين أحدق بها ، وكان يعلم كذلك أن الدول لاتحسن الظن بالدولة العلية ولا تثق فيها ، فأحب أن يبدأ عمله باكتساب ثقة أوروبا ، فسعى حتى استصدر من السلطان الاعلان المعروف « بخط شريف جلخانه » أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن سراي الزهر .

خط شريف جلخانه

أعلن الخط الشريف في مظاهرة حافلة لايخفى جانب الفكاهة فيها ، فقد اجتمع لسماعه رجال الدولة وعلماؤها ورجال الدين فيها وطائفة من رجال السلك السياسي ، وأطلقت له مائة طلقة وواحدة ، وسبقته صلاة تخير وقتها منجم معروف ، ثم قرأ السلطان : « ان النظم الأهلية تضمن لرعايانا من الآن أمنا شاملا على أرواحهم وشرفهم وأموالهم .. وهذه المنح حق للجميع من أية ملة أو مذهب . . يستمتع بها الكل على السواء » (١) ولم يمض على ذلك الاعلان كبير وقت حتى عززه السلطان بتصريح آخر ، إذ اجتمع نفر حافل من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود في جزيرة متلين ، وهناك خطبهم رضا باشا باسم السلطان ، فقال أيها المسلمون والنصارى واليهود ، انكم رعية امبراطور واحد وأبناء أب واحد ، ان السلطان يسوي بينكم جميعا » (٢)

تصريح السلطان يقلب التقاليد الاسلامية

بهذا التصريح الخطير الذي أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوروبا — فأكدت انها دولة متحضرة تقيم العدل بين رعاياها ولا

---

(1) Engelhardt : op. cit P. 39

(2) Driault : La Question d'Orient P: 153

تحسب لمذاهب رعاياها الدينية حسابا ، ولا تتعصب للمسلمين على غير المسلمين ـ بهذا التصريح مس السلطان التقاليد العثمانية فى الشغاف وتناول الشريعة الاسلامية بالتحريف ؛ فان التقاليد والشريعة كلاهما لا يبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق فى رعاية خليفة المسلمين ، لابد أن يكون هناك تمييز بين المسلمين ومن فى ذمة المسلمين ، فاما هذا التصريح الخطير فله دلالته ، فهو ينطق بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزانا صالحا للحكم ، ولا بد من الأخذ بأساليب الغرب ولو تعارض مع الشرائع والسنن ، وهذا الاعلان وحده يكفى للدلالة على أن رجال الدولة فى ذلك الحين لم يكونوا أقل رغبة فى الاصلاح ولا جرأة عليه من الكماليين .

رشيد باشا رجل عملى

وكان رشيد يمتاز عن غيره من رجال الدولة بانه كان يقول ويفعل فى حين كانوا يقولون ولا يفعلون ، وهذا هو الفرق الجوهرى بينه وبينهم ، وهو الذى جعل له عليهم فضلا وجعل أعماله ثابتة ذات أثر ، ولهذا بادر بعقاب حاكم أدرنة لأنه حكم على رجل بالموت بدون رأى السلطان .

انشاء مجلس نواب

أيقن رشيد أن هذه السياسة الجديدة لابد كاسبة عطف الدول ، فمضى فى طريقه وأنشأ للدولة مجلسا يضم نوابا من مختلف النواحى ، يناقش النواب فيه المسائل ويقترعون عليها فى حرية ، ويسرى رأى أغلبيته على السلطان نفسه (١) ، وأعقب ذلك اصلاحات شاملة فى

الغاء نظام الالتزام

أساليب الدولة ونظم حكمها ، فألغى نظام الملتزمين إلغاء فعليا ، ووضع للدولة نظاما ماليا دقيقا حديثا ، وعهد فى جمع الضرائب إلى هيئات محلية من أهل الاقاليم حتى لا تثقل يد الحكومة على الناس فى جمع الضرائب ، ثم وضع للدولة قانوناً للعقوبات وفق الشرائع الحديثة ،

(1) Engelhardt, Op, Cit : P. 44

وضع قانون مدنى

واستقدم رجلا فرنسيا ليضع قانونا مدنيا حديثا للدولة ، واشتد فى تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنت احترام الناس لها ؛ فلم يعف خسرو باشا الصدر الأعظم القديم فحاكمه وعاقبه على الرشوة ؛ وأقام من العلماء مفتشين يتفقدون الولايات وينهون اليه أخبارها وأحوالها ،

مفتشون للولايات

ويوافونه بأخبار الحكام الذين يقبلون رشوة أو يعسفون الناس أو ينزلون بهم ظلما . وأعقب ذلك بانشاء بنك جديد للدولة وأصدر أوراقا مالية .

بنك للدولة

الرجعيون يعارضون رشيدا

على هذا النمط توالت جهود رشيد باشا ، ومضى فى تنفيذها بحزم لايعرف التوانى أو اللين ، فلم يلبث الناس كلهم أن أحسوا ثقل يده ، ولم يلبث القدماء أن شعروا بالخوف منه فبدأوا يكيدون له ويأتمرون للخلاص منه ، وأعانهم على ذلك أن أحسوا أن بالعامة شعور استياء وتخوف من أعمال رشيد ، وهذا التخوف طبيعى من جهة العامة ، فقد وجدوا الدولة تساوى بهم النصارى واليهود ، وتستبدل بالشريعة الحنيفة قوانين النصارى ، وتخلع الأزياء القديمة (الشريفة) لتتخذ زى النصارى ، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لاتكاد تأتى أمراً إلا راعت فيه خاطر النصارى وحرصت أن لا تمسهم بأذى أو تنالهم بضيم ، فلم لايكون هذا الرجل آلة فى يد النصرانية تستتر خلفه لتبغى على الاسلام ، ولم لايكون بقاؤه خطرا ينبغى القضاء عليه قبل أن يعم ويشمل ؟ . . هكذا فكر العامة وعلى هذا الأسلوب فهموا أعمال رشيد ، ولم يكادوا يرون الروس يحتضنون الدولة ويتقدمون لحمايتها من محمد على حتى استحالت شكوكهم يقينا . فرشيد ستار يختفى خلفه الروس النصارى « وإن السلطان لأفرنجى وإنما المسلم محمد على » (١) ومادروا أن المصريين كانوا يقولون عن محمد على

---

(1) Engelardt 39. 40

عزل رشيد باشا

مثل ذلك ! وأحس أعداء رشيد ذلك فأخذوا يكيدون له ويعملون على إسقاطه . فلم يلبث أن عزل سنة ١٨٤١ .

الارتداد الى الوراء

وكان عزله معناه الغاء نظامه والارتداد إلى النظام القديم بمساوئه ، ولم يكن ذلك عن رغبة من السلطان أو إيمان منه بصحة القديم وخطأ الجديد ، ولكنه خشي وثوب رعاياه به لما رأى من نفورهم وقلة ثقتهم فيه وفى مستشاريه ، حتى رعاياه من النصارى الذين رفع من مكانهم وأعلى من قدرهم لم يثقوا فى حسن نيته ، ومضوا يطالبون بالاستقلال والانفصال ، وإزاء ذلك السخط العام وجد السلطان أن لاحاجة به إلى الأثقال على نفسه بالأنظمة الجديدة وتبعات الاصلاح ، فترك رفعت باشا الوزير الجديد يأتى مايريد ويرد البلاد إلى سابق عهدها فى نظام المال أو الحكومة .

بقاء حركة الاصلاح

بيد أن الظروف كلها لم تكن تسمح بعودة النظام القديم بحذافيره ، لأن فكرة التقدم لم تعد ملكا للسلطان يعلنها أو يخفيها كما يشاء ، وإنما استيقظ نفر من رعاياه وأخذوا يطالبون بها ويشعرون بأن الدولة صائرة الى القضاء اذا لم تسارع فى القيام به . والواقع أن كثرة المصائب والازمات كانت قد أوجدت بين الأتراك نفرا من ذوى الرى الصالح والتفكير الحديث ، وكان جل هؤلاء ممن بعثتهم الدولة للعمل فى التمثيل السياسى الخارجى أو للدراسة العسكرية ، وكان من هؤلاء من يفهم السياسة الأوروبية ويحسن الاستفادة من أحوالها وتقلباتها ، وعلى رأس هذا النفر رشيد باشا الذى مر ذكره ورضا باشا . وكان الرجلان متفقين فى الآراء والغايات ،

رضا باشا ورشيد باشا

متقاربين فى القدرة والذكاء والوطنية وان اختلفا بعض الشيء فتطرف رشيد واعتدل رضا ، وقد تناوبا قيادة الدولة وتوجيهها طوال عصر عبد المجيد وعبد العزيز واشتركا معا جنبا إلى جنب فى مناسبات عدة ،

والى تضامنهما وقدرتهما يعود الفضل فيما أدركته الدولة من تحسن وانتصار نسبي في حرب القرم ، هذا الانتصار الذى صان كيانها حتى الحرب الكبرى ؛ فالى هذين الرجلين يرجع الفضل في ادخال تركيا في هيأة الدول الأوروبية ، والحيلولة بينها وبين الفناء في الأزمات الخانقة التى أحاطت بها على أيامهما أو بعدها .

رضا باشا

تولى رضا باشا قيادة الأمور بعد عزل رشيد بقليل ، فقضى على سياسة رشيد في التقرب إلى الدول بالاحسان إلى الرعايا والرفق بهم رفقا ظاهراً لا يكاد يجاوز مدى البلاغات والتصريحات ، لأنه إذا كان السلطان وبعض مستشاريه يؤمنون بفائدة الدولة من المساواة بين رعاياها وإذاعة العدل بينهم جميعا ، فان عامة الشعب كانوا بعيدين كل البعد عن هذه الآراء ، ولم يكونوا مستعدين للعمل بما يصدر لهم من نصائح وما يوجه لهم من تقارير ، بل كان قواد الدولة وحكامها أشد الناس إنكاراً لذلك ، وأثقلهم يدا على المسيحيين من رعيتهم في نفس الوقت الذى كانت تذاع فيه القرارات . ولم يكن السلطان ليكره من رعاياه المسلمين هذا العناد ولم يكن ليغضب على أحد من ولاته إذا آذى ذميا أو عسف يهوديا ، لأن السلطان ومستشاريه كانوا يعلمون أن النصارى الذين يعيشون في الدولة قد هللوا لمصائبها وأسرفوا في الانتصار للدول الأوروبية الكبرى كروسيا وفرنسا ، مما آذى شعور المسلمين ودفعهم إلى عسف هؤلاء النصارى عسفا جاوز الحد . وكان القناصل قد دأبوا على موالاة هؤلاء الذميين بالمناصرة والتشجيع فأصبحوا يدا على الدولة يشلون يدها ويأخذون عليها السبيل ، مما جعل الحكام ينظرون إلى المساواة بين الرعية كلون من الخضوع للدول ، ويعتبرون تحسن حال الذميين ضربا من الهوان للاسلام ودولة الاسلام . لهذا ينبغى أن نعلم أن المبادىء النظرية التى أعلنها

روح الشعب تميل إلى الجمود

محمود وعبد المجيد ، والأفكار الجديدة التى سعى اليها رضا ورشيد ، لم تكن أكثر من مظاهرات لايتعدى أثرها جلخانة وجزيرة متلين ، وأن دول أوروبا — التى كان يرجى خداعها عن هذا السبيل — كانت أعلم الناس بحقيقة الحال ، وأنشط العاملين فى عرقلة هـذا الاصلاح المزعوم .

رضا يصلح الجيش

تناوب رشيد ورضا قيادة أمور الدولة زمنا طويلا ، وحققا لها من وجوه الاصلاح طائفة شتى ، فتناول رضا الجيش وأصلحه واعده ليقوم بدوره الحاسم فى حرب القرم ، بل أعطاه القوة التى مكنته من الثبات إلى الحرب الكبرى ، وشمل رشيد نواحى الادارة كلها بنشاطه وكفاءته ، فأنشأ مدارس مدنية للتعليم الحديث ، وأسس جامعة وأنشأ للدولة مصرفا ماليا على النظام الحديث ، وأصدر باسمها أوراقا مالية ، وأعاد تقسيم الدولة الادارى ، ووزع وحدات الجيش الحديث على هذه الأقسام ، ووضع برنامجا حديثاً للتعليم العام ، وأنشا مستشفيات تعالج الناس بفنون الطب الحديث ، وألغى الرق بمشيئة السلطان ، وغير ذلك مسائل شتى ، فلم يغادر الرجلان وأعوانهما ناحية من نواحى الحكومة إلا تناولاها وبعثا فيها روحا جديدا ، ولكن أعمالهما لم توف على الغاية المطلوبة ولا بشرت ببلوغها فى مقبل الأيام ، بل انتهى الأمر بعودة الرجعية وخمود حركة الاصلاح ، فما أسباب ذلك ؟

رشيد يعنى بالادارة والتعليم

إنشاء جامعة

إصدار اوراق مالية

إلغاء الرق

أسباب فشل الاصلاح

لعل أقوى أسباب ذلك هو ندرة المتعلمين النابهين فى الدولة إذ ذاك ، فلم يكن هناك ممن يفهمون الاصلاح أو يؤمنون بفائدته إلا نفر قليل جدا ، ولم يكن المصلحون ليجدون من يعتمدون عليه فى التنفيذ الذى هو أساس هذا الأصلاح ، لهـذا كان السلطان يقرر ثم لايجد من ينفذ فتبقى القرارات قرارات فقط ، بل إن الشعب التركى لم يكتف بهذا الموقف السلبى وإنما حرص على أن يأتى من الأمور مايعارض

اوامر الحكومة الجديدة ظنا منه أن هذه « التنظيمات الخيرية » رجس من عمل النصرانية فلابد من اجتنابه ، ومن دلائل ذلك أن مسلمى الشام اشتدوا فى إيذاء الذميين وتعصبوا عليهم حين بلغتهم أوامر السلطان باحترام هؤلاء الذميين ومساواتهم بأنفسهم . بل كان الحكام أنفسهم يخالفون هذه الأوامر ويذيعون ما يناقضها كما فعل درويش باشا حاكم دمشق الذى أذاع على المسلمين منشورا جاء فيه « . . . . فالبادى هو أن النصارى عندكم عمال يقلدوا الاسلام (كذا) فى ملابسهم وعمائمهم ونعالهم ، وتعدوا درجاتهم وخالفوها فهذا ضد رضانا ولا يعطى به رخصة ، فبناء على ذلك أرسلنا لكم مرسومنا هذا لأجل أن تحذروهم وتنذروهم من عواقب ذلك المراد حالا ، وتنبهوا عليهم أن لا يلبسوا ملبوس أزرق وعمامة سوداء ونعال سوداء . . . . . وان بلغنا أن واحدا تعدى الحدود المذكورة فما له لا يغنى عن حاله وخطيئته فى عنقه ونطالع من حقكم وحقه » (١) وهذا بعد إذاعة الخط الشريف بقليل . من هنا نظر الأتراك إلى الاصلاح بعين السخط وكفوا عن متابعته أو مناصرته ، فظل محصورا فى دائرة ضيقة ولم يظهر له أى أثر .

غرض الدولة من الاصلاح

ولنضف إلى ذلك ان الدولة لم تكن تصدر فى ذلك الاصلاح عن نية الخير للشعب والرعية ، وإنما الغالب انها طلبت بذلك مرضاة الدول وكسب ودها « فكانت هذه التصريحات الجميلة التى أُكدت وجددت مرات لاحصر لها ، معتبرة مظاهرات لخداع أوروبا ، ولم يكن الناس ليرونها على أنها رغبة أكيدة صادقة من الحاكم » (٢) ولسنا نقطع بأن هذا كان الغرض الوحيد لعبد المجيد ورشيد ، لأنه يغلب كذلك ان المصلحين كانوا مدفوعين برغبة صادقة فى انقاذ الدولة وإنما

---

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام لمؤلف مجهول طبع مصر سنة ١٨٩٥) ص ٤٤

(٢) Engelhardt Op. Cit ; : P. 81

لا نزاع فى ان الناس — فى تركيا وخارجها — أصروا على اعتبارها كذلك وحسب هذا سببا للفشل والخسران . "

فقر الدولة فى المال والكفايات

كذلك كانت الدولة فقيرة فى المال وفى الكفاءآت التى تنتج المال فلم ترزق خلال هذه السنوات كلها رجلا اقتصاديا يحسن الهيمنة على مواردها ويحسن التصرف فيها على نحو يهيء لها المال للمشاريع الاصلاحية ، بل وقع المصلحون فى اخطاء مالية كبرى كاصدار أوراق مالية لا يعادلها رصيد معدنى ، فلا تلبث أن تفقد قيمتها » وعدم وجود ميزانية حقيقية للدولة ، وبمعنى آخر : عدم وجود خطة تتبع فى تصريف أموالها ، وحاجتها إلى أساليب تمكنها من إيجاد توازن بين الدخل والخرج» (١) هذا إلى حيرة الدولة فى أساليب جمع الضرائب، واعطائها للملتزمين تارة ، وتكليف رؤساء العشائر والأقاليم بجمعها تارة أخرى ، والاعتماد على القادة العسكريين فى جبايتها تارة ثالثة ، وعسف الناس وظلمهم فى أدائها فى مختلف التارات والحالات . وإزاء ذلك وجدت الدولة نفسها فى أزمة مالية مستمرة . فلا هى واجدة المال ولا هى قادرة على تصريفه إذا وجدته ، حتى لقد توقفت عن دفع اعطيات جندها فى كثير من الأحيان مما جعل الجند والعمال يتخوفونها ولا يحفلون بما يصيبها من هزيمة أو اندحار ، بل كان الكثيرون لا يترددون فى ترك صفوفها واللجوء للعدو فى عنفوان المعركة وحومة القتال ، ولنضف إلى ذلك ما نعرف من فساد ذمة الموظفين الأتراك وقبولهم الرشى وميلهم إلى اختلاس أموال الدولة. (حتى رشيد نفسه لم يسلم من هذه التهمة فأدين وثبتت عليه تهمة السرقة والارتشاء فى قضية خطيرة). (٢) إذا ذكرنا ذلك استطعنا أن نعلم كيف كان توفيق الدولة ضئيلا ، وكيف كانت تجد نفسها عاجزة

فساد الموظفين

(1) Engelhardt; Op. Cit. P, 101

(2) Ibid. P. 61

عن القيام باصطلاحات واسعة تنجو بها من الحرج الذى كان يزداد بها يوما بعد يوم

موقف الدول من الاصلاح

ولم تكن الدول كذلك بخالصة النية فيما كانت تعلن من الحدب على مصلحة الدولة والأخذ بيدها ، وقد سبقت الاشارة إلى ما كان من فساد نظم الدولة المالية ، مما يدل على أن نصحاءها الأوروبيين لم يكونوا من ذوى الكفاية أو ذوى الاخلاص ، فسماحهم للدولة باصدار أوراق مالية غير مضمونة يدل على كلا الأمرين ، وبخلهم على الدولة بالنصح فى مسائل النظام المالى والميزانية يؤكد أنهم كانوا يخادعون ، لأن تلك الأمور من أوليات التنظيم الأوروبى المالى ، يعرفها رجل الشارع لا المستشار الذى ينتدب لتنظيم أموال دولة بأسرها . وكانت الحكومات لا تتأخر فى القيام بأى عمل من شأنه عرقلة الأتراك فى اصلاح أمورهم ، فلم يكف الروس عن اقلاق الدولة والتدخل فى شئونها ، وكانت تحارب المصلحين صراحة وتعمل على إفساد ما بينهم وبين السلطان ، حتى لقد تمكنت من عزل رشيد باشا فى مرة من المرات ، وكان مترنيخ ينظر إلى اصلاحات الدولة فى شىء من القلق ، ولم يتردد فى اعلان استيائه منها ورغبته فى الغائها وعودة تركيا إلى ما كانت عليه ، وحتى انجلترا وفرنسا لم تكفا عن التدخل بين السلطان ورعاياه وادعاء الحماية على طوائف منهم ، مما قلل هيبة الحكومة وشل يدها وجعلها بين نارين : نار الرقابة من الدول ونار الصلف من رعية تعتز على راعيها برعاة آخرين .

حيرة المصلحين

وماذا يبقى لرشيد أو لغير رشيد من الوسائل أو الآمال ، إنه لملام إذا أصلح وملام إذا قصر ، مخطىء إذا أعلن المساواة مخطىء إذا أذاع الاستبداد ، مهان إذا تقرب من أوروبا مهان إذا ابتعد عنها ، لا يجد المال إذا طلب وإذا وجده لم يجد الوجه الذى ينفقه فيه ، فاذا وجد

وجه الانفاق لم يجد شاكراً ولا عارفا ، فماذا يستطيع . . لعله لو استطاع مافعل ، فكيف وهو العاجز المغلول ؟ فليدع الاصلاح وليترك الأمور تجرى فى أعنتها فما هو مبدل من الأمر شيئا ، وما زاد عليه الا قول مترنيخ — يحكم على عمله وجهاده — ان الدولة العثمانية كيان فى دور الاضمحلال ، ومن أسباب هذا الاضمحلال « بل السبب الذى نشأت عنه كل بلاياها — هى فكرة الاصلاح على الطريقة الأوروبية التى وضع أساسها السلطان سليم ، والتى اندفع فيها السلطان الأخير مسوقا بجهل شديد وبطائفة من الخيالات » (١) ، ليدع الرجل العمل وليخل بين الناس والدعة فما كان الناس ليطلبون اليه الاثقال عليهم بالعمل وباتباع النصرانية وأهلها ، ليدع الأمر هو وأصحابه وليتركوا عبد المجيد وحده فانه لا يرضى عنهم بل يتهمهم بافساد الأمر عليه ، لينصرف رشيد بسلام فى أواخر حكم عبد المجيد (أوائل يناير سنة ١٨٥٢) وليدع السلطان يجرب حيلته أمام الدول والناس وجها لوجه ، ليجر الرجل على نفسه سحائب النسيان ، فما يكلف الله نفساً إلا وسعها وماهو ببالغ أمرا بعد الجهد والاعياء .

عزل عبد المجيد

وليبق عبد المجيد وحده فى الميدان ، ليتلقى سخط الناس ويسمع بأذنيه اتهامهم إياه بمبايعة النصرانية على تاجه وشعبه ، وليتلق وحده جوارح المهانة ومظاهر السخرية من عواهل أوروبا وساستها ، وليرى بعينيه جنده يشغبون عليه ولا يقيمون له وزنا ؛ وليرحل عن هذه الدار محزونا آسفا ، مخليا بين أخيه عبد العزيز ومرجل الحكم ، معزيا نفسه بقوله : « لا أحد ينكر انه على الرغم من العناية التى بذلت لتنفيذ آرائى

(١) Engelhardt Op, Cit p, 48 .

لم يثمر شيء من هذه المشاريع الثمر الذى رجوته منه ، خلا الاصلاح الحربى ، وحتى هذا لم يقم على أساس مكين . . . . انى محزون بالغ الأسى » (١) ليتعز بهذا الأسلوب من التفكير ، وليتقبل عزل الناس له بنفس راضية ، وليكن عزاؤه انه كان صادق النية وان قسا ، حريصا على خير الرعية وان تبدل الوزراء وأساء اليهم وصرفهم غير مقدر فضلهم أو حاسب لهم حسابا . ليحمل نصيبه من سخط الناس ولعنهم اياه ولتكن له حسنة المؤمن الذى أخطأه التوفيق. وماله يجاهد سيل الرجعية ورغبة الارتداد الى الحال الأولى ؟ لقد طالما حال بين الحزب الرجعى فى القصر والحكومة وبين الاستبداد ؟ وقد طالما حارب جنوده وأتباعه على غير طائل ، ولقد طالما استمع إلى وشاياتهم وصانعهم على قلة الجدوى ، فليخل بينهم وبين ما يريدون ، وهذا عبد العزيز يشاركهم الرأى والفكر ، فليرفعوه على أنفسهم خليفة وسلطانا

السلطان عبد العزيز

وليقبل عبد العزيز ليجرب حظه ، فيعهد بالأمور الى رجل أمى لا تعززه كفاية ولا خبرة ولا معرفة ، هو محمد على ، وليدعه يمضى فى فى الاصلاح والتنظيم حينا عساه يبلغ من الأمر مرادا . وليصدر فرمانا جديدا فى نوفمبر سنة ١٨٥٢ فينظم به أمور الدولة من جديد ويصلحها مما ابتلاها به رشيد وعبد المجيد ، وليعد بالدولة إلى نظام قديم جدا يرضى عنه السلفيون ويرون فيه اعزازا للشرع والماضى وإن كان فيه مهانة للرعية ، فليكن على رأس كل ولاية حاكم عسكرى يقابل الوالى أيام الخلفاء ودفتردار يقابل صاحب الخراج وليخضع الوالى العسكرى للصدر الأعظم ، وليتبع الدفتردار لوزير المالية ، ولتجر الأحكام بهذا من غير تعاون بين رب الادارة ورب المال ، وليمض عبد العزيز فى هذا العلاج مستعينا بنصحاء بعضهم مثقف فى مدارس فرنسية ، ولا عليه إذا توالت اليه انباء عجز ادارته وحكامه وشرطته عن ضبط الأمن

العودة الى القديم

(1) Engelhardt. Op, Cit, vol I P. 49

فى مختلف النواحى . لا عليه إذا أصبحت أدرنه وطرابيزون وأزمير مسرحا للفوضى والاضطراب ، لا عليه من ذلك كله ، فاصلاحه يخرج عن طاقة الناس ، ليدع هذا كله لينظر ما تأتيه الدول فى الشام ، وما تثيره عليه من الحرب والقلاقل ، وليجد نفسه آخر الأمر مسوقا إلى حرب لا يعرف لنفسه فيها مصيرا .

— ٦ —

الشام

فى ذلك الحين كانت الشام تشقى وتئن تحت وابل حافل من الويلات والآلام ، ولعلها كانت أحفل بلاد الاسلام إذ ذاك بالمصيبة وأعضلها بالداء إصابة ، فقد كانت تحمل على عاتقها — فوق مصاعب العصر الحديث — عقابيل قرون ماضية ، بعضها ناشىء عن تكوين البلاد وبعضها مرده إلى تاريخها وتاريخ الشرق الاسلامى كله .

مركز النصارى فى الشام

ذلك أن الحروب الصليبية كانت قد وضعت أهل الذمة فى الشام فى موضع لا يخلو من حرج ، فلم يكن ينتظر بعد هذه الحروب الطويلة التى اشتعلت نيرانها فى بلاد الشام بين النصرانية والاسلام ان يتصافى المسلمون ومن بقى فى البلاد من النصارى ، فكما اشتد نصارى الاندلس على المسلمين بعد حروب الاسترداد ، فقد اشتد مسلمو الشام على النصارى بعد الحروب الصليبية ، والأمران قريب من قريب ، وقد استمر الأمر على ذلك من نهاية الحروب الصليبية إلى أوائل القرن الثامن عشر ، فظل الذميون يعاملون معاملة شعب مغلوب على أمره مستضعف مسكين فكان النصرانى لا يملك أن يساوى نفسه بالمسلمين فيما يلبسون أو يركبون أو يفعلون ، ولم يكن ليجسر على المسير عن طريق المسلم ، حتى لقد كان يقابله فى الطريق فلا يلبث أن يتياسر فى طريقه أدبا واحتراما ، ولو لم يكن لنصارى الشام من تسامح المسلمين وقاية لحاق بهم فى الشام ما حاق بالمسلمين فى الأندلس ، إذ عفى القوم على آثارهم تماما

ولم يكن ذلك كل ما فى الأمر ، فقد كان تاريخ الشام قد فرض عليها أن تكون « متحفا » لكل غريب طريف من الأديان والمذاهب ، فهذه البلاد — التى لا يزيد عدد سكانها على بضعة ملايين — تضم كل ألوان الأديان بمذاهبها المختلفة ، وتنفرد بطائفة لا تحصى من المذاهب الخاصة بها ، كطوائف الموارنة والدروز والسمرة والنصيرية التى لا توجد إلا فى بلاد الشام وحدها . وبديهى أن يكون هذا الخليط الدينى حائلا بين توحد البلاد واجتماعها إلى لواء واحد ، مما جعل حكم الشام من أعقد الأمور وأصعبها ، فاذا أضفنا إلى ذلك ما نعلمه من من اختلاف البيآت فى الشام بين السهولة والحزونة ، وبين الصحراء والمزارع ، وبين بلاد الساحل والداخل ، وبلاد المرتفعات ونواحى المنخفضات ، وما نعلمه كذلك من اختلاف المهاجرين إلى هذه الأرض العريقة فى القدم ، واتجاه الناس والفاتحين اليها من كل حدب وصوب ، إذا عرفنا ذلك وأضفنا اليه أن حكامها فى العصر الحديث كانوا هم الأتراك العثمانيون الذين يصعب عليهم حكم بلد آمن وادع متحد متجانس كمصر ، هان علينا تصور الحال التى كانت الشام عليها فى مطالع العصر الحديث .

نظام الشام الادارى

قسم الأتراك الشام إلى أربع ولايات تعرف بالايالات هى حلب وبيروت والشام والقدس ، يقوم على ادارة كل منها باشا خاضع بدوره لحاكم الشام الأعلى الذى يقيم فى دمشق ويلقب بمشير العرضى الهمايونى وكانت البلاد تحكم حكما عسكريا وتجبى ضرائبها على طريق الالتزام المعروف . ولم يكن الحاكم ليعنى إلا بجمع المال والرشى وسرقة الدولة ، فكان يلزم الأهلين بمضاعفة الأداء وإلا ضوعف العذاب ، وكان عماد

الانكشارية والقبيقول

الحاكم التركى على ما بيده من الجند ومعظمهم من الانكشارية وطائفة أخرى تسمى القبيقول ، وكانت الطائفتان لا تفتآن تتنازعان وتحتربان

فى المدن والمزارع حتى هبطت حالة البلاد هبوطا تاما . وشغل الجند بما بينهم من المنازعة فانصرفوا عن حماية الناس ورعاية مصالحهم ، فاختل الأمن واضطرب الحال ، واشتد هؤلاء الجند على الناس وعسفوهم حتى أصاب أهل الشام على أيديهم أكثر مما أصاب أهل مصر على يد المماليك ، « إذ كان رجال كل قسم يتشمون على أيديهم بشارة وجاقهم (فرقتهم) ، وأكثر اجتماعهم فى القهاوى ، وجرت العادة أن يرسم فوق وجاق كل قهوة أشارة الوجاق الذى يجتمع رجاله فيها ، ولم يكن لهم نظام عسكرى فى ذلك الوقت إلا أن رجال كل حارة كانوا يخضعون لآغا (رئيس) الوجاق الحال فيها ، والجميع يخضعون لكبير الوجاق المنتخب من بين الأغوات لامتيازه بالجسارة وصداقة الوالى أو لغير هذا ، ولم يكن يمكن لحدث أو لامرأة شابة جميلة المرور أمام القهاوى التى يجتمع فيها العساكر خيفة أن يضحوا فريسة أولئك الجهال »(١) و « كان النزاع بين الأقسام قائما على قدم وساق ، وقد نشأ عنه حروب كثيرة بين هذه الأقسام المتضاعفة فتسبب عن ذلك مخاوف كثيرة ولحق بالأهالى أضرار عظيمة ، حيث كانت تنهب الدكاكين وتقفل الأسواق وتتعطل الأشغال ويتعذر على أبناء السبيل الخروج من بيوتهم ، وكم من مرة أضحت بعض المدن — وخصوصا الشام وحلب — مطمعا للنار من جراء ذلك ، ولم ينصرف المشكل إلا بمداخلة الولاة أو بعض الأعيان ، ولكن ليعود الشر بعد وقت قصير عند مايحدث له موجب صغير . . . . ولطالما نهض القوم على الولاة أنفسهم وقتلوهم وعساكرهم كما جرى فى دمشق سنة ١٨٣١ لسليم باشا حيث قتل هو ومعظم عساكره لأجل ضريبة جزئيـة فرضها على

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام : ص ٣٣

الدكاكين والمخازن والبساتين ، وقد كان الاعتداء على العرض والقتل مما يحدث كل يوم » (١)

الاتصال باوروبا يثير الخلاف بين النصارى والمسلمين

فلما أقبل العصر الحديث ، وتسامع المسلمون بتفوق أوربا ، وبدا للرعية ضعف الدولة العثمانية وسوء حالها ، انضافت لمصاعب الشام مصاعب جديدة زادت الحال سوءاً على سوء. ذلك ان طوائف النصارى لم تكد تتنسم أخبار تفوق دول أوروبا حتى رفعوا رءوسهم وأخذوا يستعدون ليردوا للمسلمين ما أسلفوا لهم فى العصور الماضية ، وزاد الطين بلة ما جرى عليه الأتراك من التفريق بين الرعية وضرب طوائفها بعضهم ببعض مما أجج النار وجعل الشام كلها كمخزن البارود لا يكاد يشم النار — عن بعد — حتى ينفجر انفجاراً مخرباً. وأخذ السائحون

السائحون الاجانب يتدخلون

الأوروبيون يرتادون البلاد وينهون أحوالها الى دولهم . واتصل نفر منهم ببعض الطوائف المهيضة واستمع إلى شكاته فلم تلبث الدول أن تنبهت إلى هذا الحال السيء ، وزادها رغبة فى التدخل ما رأوا من هوان الذميين فى هذه البلاد وما لمسوا من اختلال الأمن الذى كان يهدد التجارة — وهى غرض الأوروبيين الأول — فلم تلبث عناية الدول أن اتجهت نحو هذا القطر ، ولم تكذب أن أرسلت قناصلها ومعتمديها وأخذت تتدخل فى الأمر وتزيد الأمر على الدولة العثمانية حرجا .

اتجاه التفات الدول نحو الشام
عكا

اتجهت أنظار الأوروبيين الى ثلاث نواح من الشام : هى عكا ولبنان وبيت المقدس . فأما الأولى فقد كانت قد أخذت طريقها إلى إلى القوة والاستقلال خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، إذ تولى أمورها ضاهر العمر شيخ قبائل صفد ، وكان أميراً قوياً قادراً استطاع أن يمد سلطانه على ناحية الجليلى وحصنها وخلصها إلى حين من

ضاهر العمر

مساءات الحكم التركى ، فلم تلبث المدينة أن نهضت فى رعايته وبدأت

---

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام : ص ٣٢

أهميتها السياسية والتجارية فى الظهور ، وظل مستقلا عن الباب العالى مدى خمس وعشرين سنة من ١٧٥٠ إلى ١٧٧٥ ، واعانه على ذلك أمرا. مصريون كعلى بك وأبى الذهب ، وكان العداء إذ ذاك بين الروس والأتراك على أشده ، وكان أمير مصر على بك قد سعى للاستعانة بالروس على الأتراك . فجاراه فى ذلك ضاهر ، فاستطاع أن يفيد من معاونة الروس أكثر مما أفاد صاحبه على بك ، لانهم استطاعوا أن يمدوه بأسطول وحامية ، واستمر يناضل الأتراك حتى مات وهم على حصار بلدته سنة ١٧٧٥ .

الانجليز يحمون عكا

من ذلك الحين أخذت عكا سبيلها إلى القوة والرقى ، واتصلت الأسباب بين ولاتها وبين الأسطول الانجليزى الذى كان يرابط فى شرق البحر الأبيض منذ الحملة الفرنسية ، إذ وجد الانجليز أن الاعتماد على ولاية صيدا وميناءها عكا يجعل للاسطول الانجليزى ملجأ وموردا للمئونة وقت الحاجة ، ومن هنا كان هذا التعاون الموفق الذى اشترك فيه الأسطول الانجليزى مع الجزار والى عكا وانتهى باحباط مساعى نابليون فى الشام سنة ١٨٠٠

عبد الله الجزار

وحوالى سنة ١٨٢١ تولى إمارة صيدا أمير شاب سيكون له أثر بعيد فى مستقبل الشام السياسى ، هو عبد الله الجزار . وقصة هذا الفتى وأعماله وسياسته تدل على الروح التى سادت زعماء الشرق الاسلامى فى ذلك الحين ، وتكشف لنا عن كثير من جوانب الضعف التى كانت الدولة ترزح تحت عبئها ، والتى مهدت الطريق لانهيار الوحدة الاسلامية وأعانت الغرب على التمكن من بلاد الشرق .

حياة الجزار

بدأ عبد الله الجزار حياته العملية فى سن مبكرة جداً ، إذ أقيم فى التاسعة عشرة من عمره حاكما لسواحل الشام ، فلم يلبث إلا قليلا

حتى استطاع أن يستولى على امارة دمشق وضمها إلى زمامه . وكان الفتى طموحا تخامره نزعة الوثوب بالدولة والاستقلال عنها بالشام ، بل كانت آماله البعيدة تترامى الى خلع الخليفة محمود الثانى واعلان نفسه خليفة على المسلمين ، ولهذا لم يلبث الخلاف ان دب بينه وبين الباب العالى ، فأغرى السلطان به حكام دمشق وأطنة وحلب فمشوا اليه يريدونه على الطاعة ، فاعتصم منهم خلف مينائه الحصين عكا ، وظل يناجز ويقاوم تسعة أشهر . فاذا أشرف على الهلاك فقد أراد أن يستعين بمحمد على صاحب مصر على هذا البلاء الذى حل به ؛ وكان هذا يرقب الأمر بعين النمر ويلتمس الفرصة للأستيلاء على الشام بعد أن أثبت قدرته وكفاءته فى حرب الوهابيين ؛ فأخذ يقلب الأمر على وجوهه والرجل مرتقب العون ، تتفرق عنه بلاده ونواحيه يوما بعد يوم ، فلما استيأس من نجدة مصر اتجه إلى أمير لبنان بشير الثانى ، فعجل هذا بمعاونته معاونة عادت على لبنان بالخسار ، إذ ضيق أنصار السلطان على بشير حتى اضطر إلى مغادرة بلاده والهرب إلى مصر ، واشتد الأمر بعبد الله مرة أخرى فتوجه إلى محمد على يستعطفه من جديد ، فأخذ يبعث اليه برسائل تفيض ذلة واستعطافا وتمليقا ، مؤكداً له أنه عبده الخاضع وعامله الأمين . ومضى فى الرجاء إلى حد تقديم عكا إلى محمد على ثمنا لهذه المعاونة ، وهنالك تحرك محمد على للعون ، وكان طوال الوقت لا يغلق موانيه فى وجه سفن عكا ولا يمنع ارسال الامداد من البحر اليها ، وربما أرسل بعضها بنفسه ؛ تقدم محمد على يرجو السلطان أن يعفو عن عبدالله ويؤكد له حسن نيته وتوبته وندمه على ما أتى من الأمر فلم يلبث السلطان ان عفا عن الجزار ورده إلى ولايته (١)

الجزار يحاول الاستقلال

الجزار يستمر بمصر

الجزار يستمر بلبنان

تدخل محمد على والعفو عن الجزار

---

(١) Asad Rustom : The Royal Archieves of Egypt and the origins of the Egypian expedition to Syria. P. 20.

مطامع محمد على فى عكا

أغلب الظن أن محمدا عليا لم يبذل هذا السعى خالصا لوجه عبد الله؛ وإنما رجا أن يدوم اعتراف هذا الفتى بفضله عليه وبتبعية عكا لصاحب مصر تبعية معنوية ، ويذهب الأستاذ اسدرستم إلى أن الجزار لابد قد وعد محمدا عليا بالمعاونة الحربية وقت الحاجة(١) ، وليس هناك مايمنع من قبول هذا الرأى ، خصوصاً وقد ظل الجزار يعترف بفضل محمد على سنوات طويلة ، بل استطاع هذا الأخير أن يفيد من ولاء صاحب عكا حتى نهاية حرب اليونان « فى أثناء حرب المورة طالب محمد على منه تهيئة عشرة آلاف مقاتل من لبنان لانجاد ولده إبراهيم فتلقى الطلب بالقبول ، على أنه لم يطلب منه تنفيذه ، ثم لما وقع النزاع بين الأمير بشير — صديق محمد على — وبين الشيخ بشير جنبلاط ، كتب إلى عبد الله باشا يستحثه على انجاد الأمير فلبى عبد الله باشا هذا الطلب ، فأرسل إلى لبنان شرذمة كشافة وأعد حملة لتأييد حزب الأمير بشير » (٢) ولكن عبد الله هو الآخر لم يفعل ذلك كله عرفانا بالجميل ولا اعترافا منه بالتبعية لمصر ، وإنما كان يخدع محمد على ليستعين به وقت الحاجة ، وليجد منه التعضيد حين تسنح الفرصة ليستقل بالشام .

رجال الدولة يسعون بين محمد على والجزار

أولئك كانوا ولاة الدولة و « أعمدتها » كما يقولون ، فما أوهى البناء ! .. يخاتل أحدهم الآخر ويخدعه عن نفسه ، ويتعاونون معا على سلطان لا يتقى الله فى نفسه ولا فى رعيته ، ولا يتحرج أن يخدع ولاته ويغرر بهم فى ساعة الحرج والأزمات ، وما كان يخفى على السلطان تدبير أحد الواليين ، وكان الخوف لا يفتأ يدب فى صدره كلما ذكر عكا وصاحبها ومصر وواليها ، وما دام يحس من نفسه العجز أمامهما ويتخوف ائتلافهما عليه فلا أقل من إفساد ما بينهما وضرب أحدهما بالآخر ، وأحس رجال الدولة « بغريزتهم » عسر

(١) نفس المصدر السابق والصفحة

(٢) نفس المصدر والصفحة

محمد على عليهم وسهولة كسب عبد الله الجزار ، فلم تلبث سعاية رجال الدولة ـ وعلى رأسهم خسرو باشا ـ أن فعلت أفاعيلها فى نفس صاحب عكا ، حتى انعقد بينه وبين رجال الدولة شبه تحالف على الوقوف فى وجه محمد على ساعة الحرج . وأحس محمد على بذلك فبات على الحذر من الجزار ، وأنشا يترقب الفرصة للقضاء عليه وإعادته إلى حدوده. وفى هذه اللحظات التى اطمأن خسرو فيها إلى أنه خدع صاحب عكا وعبث بصاحب مصر كان عبد الله لا يتحرج من المصارحة برغبته فى الخلافة والعمل على خلع محمود الثانى ونقل مركز الخلافة من القسطنطينية إلى عكا (١) !

هذا اللون من العلاقات يعرض لنا مقدمات الحرب بين السلطان ومحمد على ، وهى حروب طبيعية جدا بين آمال متعارضة وسياسيات ملتوية ورغبات بعيـدة ومؤامرات معقودة فى ذلك الحين بين رجال الدولة الاسلامية ، أو بين الاستانة ودمشق والقاهرة . وللحرب مقدمات أخرى فى نواحى أخرى من نواحى الشام وهى لبنان وحوران وجبل الدروز فلنمر بها مسرعين .

لبنان

كانت أمارة لبنان وما يجاورها من جبـال حوران تعيش فى شبه استقلال عن الدولة ، فلم يكن للسلطان على سكانها من السلطان ما كان له على مصر وبقية بلاد الشام مثلا . لأن الجبال كانت معتصما لأهل هذا الأقليم يطلبون فيها الأمان من جيوش السلطان ، فاذا عز عليهم الأمان فى لبنان لم يكن عليهم بأس إذا التمسوا النجاة فى سفن البحر والهروب إلى الجزائر أو إلى اليونان . ولهذا تصالح أهل لبنان والدولة على أن تنزل لهم عن بلادهم يحكمونها على أن يؤددوا إلى الدولة مالها .

الدروز والموارنة

كانت أرض لبنان قسمة عادلة بين طائفتين دينيتين فريدتين فى

(1) Asad Rustom : op. cit. P. 23

بابهما ، أولاهما الدروز والثانية الموارنة ، والأولون أقرب إلى المسلمين والآخرون أقرب إلى النصارى ، وكلاهما خارج عن طاعة الخليفة والبابا معاً . وكانت الفئتان ذواتى ماض مجيد فى الحرب الصليبية ، إذ أبلى الدروز فى جانب المسلمين ، وابلى الموارنة فى جانب اللاتين ؛ فلما انقضت الحروب الصليبية ظلت أواصر الولاء معقودة بين الفرنسيين والموارنة من أهل لبنان ، حتى أن لويس الرابع عشر ادعى الحماية على المارونيين وأبدى عليهم عطفاً ظاهراً .

العلاقة بين الموارنة وفرنسا

أمراء الدروز

وكان حكم البلاد فى أول الأمر إلى الدروز ، إذ هم أهل بأس وسطوة ، واشتهرت منهم بيوت أثبتت قدرتها على الحرب والنضال ، فتوالى على حكم لبنان وحوران وجبل الدروز أمراء من بيوت تنوخ ومعن وارسلان وجنبلاط وعماد وشهاب . ولما كان الفريقان خارجين على الاسلام والنصرانية معا ، فقد نجت بلادهما من العداء الدينى وتصافى الحليفان ، وجرت الأمور بينهم على ما يجرى الأمر بين الحليف والحليف « فكان الدروز يخضعون لمشايخ النصارى ؛ والنصارى يخضعون لمشايخ الدروز عن نفس طيبة نادرة » (١) وأنتهت أمارة لبنان فى نهاية القرن الثامن عشر إلى الأمير بشير شهاب الذى ظل على ولايتها إلى سنة ١٨٤٠ ، وكان فى أول أمره مسلما ثم اعتنق النصرانية وصار مارونيا وظل الصفاء معقودا بين الدروز والموارنة فى أغلب أيام حكمه

الأمير بشير شهاب

بين الامير بشير ومحمد على

وكان طبيعياً أن تتصل الأسباب بين بشير ومحمد على . فكلاهما رجل قادر واسع الرأى يؤسس لنفسه ملكا ، يتخوف الدولة ويأخذ نفسه بالتقية من تدبيرها وكيدها ، وتفطن بشير إلى قوة محمد والخير الذى يرجى للشام على يديه إذا هى صارت اليه ، وكان محمد على — كما سنرى — آخر من يقيم للاعتبارات الدينية وزنا فى مسائل السياسة والحكومة ، ومن ثم جرت مراسلات بين بشير ومحمد على ؛ وسواء

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام ص ٦٦

أتواعد الرجلان على التعاون على الوثوب بالدولة ، أم كانا قد اتفقا على ذلك على يد رجـل إيطالى اسمه بيانكى ، وسواء أصدق عبـد الله الجزار فيما ادعى من أن هذه المراسلات وقعت فى يده مصادفة فطـير نبأها للقسطنطينية (١) أم لم يصدق ، فقد أصبحت الدولة توجس خيفة من بقاء لبنان على حاله ، ومن قوة أهله واستعدادهم للتفاهم مع رجل كمحمد على ؛ تدل الدلائل كلها على فساد العلائق بينه وبين الدولة ، وعلى أنه لا ينوى بالدولة خيراً .

الدولة تسعى بين الدروز والموارنة

من ثم أخـذت سعايات الدولة تنشط فى التفريق بين الموارنة والدروز ، فبعد أن كان الود معقودا بين أمير الدروز الشيخ بشير جنبلاط ، وأمير الموارنة بشير شهاب «» اختلفا فى آخر عهدهما بدسائس الأتراك ، ولما قتل الشيخ بشير جنبلاط فى عكا على يد الجزار المشهور بالظلم وظن أهـل لبنان أن ذلك كان بطلب الأمير بشـير قاموا عليه وشقوا عصى طاعته ،، (٢) وبهذا وضعت الدولة هذه الطائفة المسيحية فى حرج مخطر ، ومهدت السبيل لتدخل فرنسا فى شئون الشام تدخـلا فعليا خطيرا .

المذابح بين الدروز والموارنة

فسدت العلائق بين الدروز والموارنة ، وعمت المذابح والمنازعات ذلك الجبل الآمن المطمئن ، وساءت الأسباب بين الجزار ومحمد على وكان كلاهما يخدع صاحبه عن نفسه ويحاول السيطرة عليه ، فكانت العلائق بين الولاة والأمراء والصـدور العظام علاقة خـداع وتدبير

بعض أسباب حرب الشام الثانية

وكيد وكراهيـة ؛ ولم يكن هناك بد من أن تقع الواقعـة بينهم جميعا عاجلا أو آجلا ، فاذا كانت أسباب حرب الشام القريبـة ترجع إلى

---

(1) Douin : La mission du Baron de Boislecomte, P.65-66.
وانظر
Asad Rustom. Op. cit. P.P. 24-25

(٢) انظر حسر اللثام عن نكبات الشام : ص ٦٦

النزاع بين محمد على وعبد الله الجزار ، وإذا كانت أسبابه البعيدة نوعاً ترجع إلى تغرير السلطان بمحمد على وحنثه بما وعده من ولاية الشام، فان أسبابها البعيدة ترجع إلى هذا العداء الباطنى المتحكم بين رجال الدولة كلهم حكاما كانوا أو رعية ، وخوف بعضهم من بعض وسعيهم كلهم القضاء على بعض عن أى سبيل ، هذا الشعور السيء الذى انتهى بهم جميعا إلى خاتمة محزنة حقا ، انتهى بالقضاء على آمال محمد على ، وزوال بيت الجزار ، ونفى الأمير بشير ، وبتسليم السلطان عاصمته إلى الروسيا فى معاهدة هنكيار سكلسى .

محمد على يفتح الشام

بدأت حرب الشام فى صورة خلاف بين محمد على وعبد الله الجزار ، ولكنها لم تلبث أن تكشفت عن حقيقتها ، فأصبحت حربا بين محمد على والسلطان كما مر بيانه ، وقد لقى الجزار فيها جزاءه على ماتخون من عهد محمد على وما أثم فى حقه ، إذ اشتد عليه ضغط ابراهيم باشا حتى سقطت المدينة فى يد المصريين والجزار مرتقب معونة السلطان ، فسلم نفسه وهو يصف السلطان بأن شرفه كشرف العاهرة ، وأصبحت الشام كلها بعد قونية فى يد المصريين .

الحكم المصرى فى الشام

حكم المصريون الشام مدى تسع سنوات تعد خير سنوات الشام فى هذه الفترة العصيبة ، فقد بدأ ابراهيم فأخذ العصاة والثائرين بالشدة حتى قضى على كل مقاومه ، ودانت له البلاد وأسلمت له قيادها ، ثم أعقب ذلك بفرض أنظمة محمد على وأساليبه على الشام فاعلن التجنيد الاجبارى واحتكر معظم المنتجات وجمع السلاح .

ابراهيم يسوى بين الطوائف فى الشام

وتلك كلها أمور لم يعرفها أهل الشام فى أسود أيام الحكم التركى ، فلم يلبثوا أن نفروا من حكومة مصر نفوراً شديداً ، ولكن الذى زاد نفورهم وملأ قلوب أهل الشام حفيظة وغماً هو المساواة التى أعلنها ابراهيم بين أهل الشام نصارى كانوا أو مسلمين أو يهودا ، مساواة

شاملة فى المعاملة وأمام المحاكم والقضاء ، وهذا أمر لا يقبله مسلمو الشام ، ودونهم وقبوله خرط القتاد ، وقد حسبوا أول الأمر أن ابراهيم راجع إلى صوابه ومعيد النصارى إلى حدودهم من الذلة والضعف ، فذهب نفر من علماء الشام يشكون إليه انقلاب الأوضاع ، ويبسطون أمامه ألمهم من استعلاء الذميين وركوبهم الخيل كالمسلمين ، وتلك فى نظرهم جريمة لا تغتفر ! وحريب على الذين لا تمسحها إلا توبة حوباء فلم يكن من ابراهيم إلا أن سخر منهم سخرية مرة وردهم كاسفى البال ، إذ نصحهم أن يركبوا الجمال من اليوم حتى يصيروا أعلى من النصارى كافة ! (١) ثم فجعهم وخيب آمالهم بأن حضر حفلا من حفلات النصارى ، وشهد طقوسهم بنفسه جذلان طربا

اطمئنان الناس فى الشام فى أوائل أيام الحكم المصرى

بيد أن الأمن لم يلبث أن ساد ربوع الشام ، فعاد الناس إلى زراعة الأرض ، وأمن الناس على أموالهم فاخرجوا ما كان مخبأ منها أيام الأتراك وأخذوا يتاجرون به ، واستطاعت الجنود المصرية أن تعصم البلاد من غارات اليهود التى كانت تهدد المزارع الآمنة فاطمأن الزراع وعادت الأرض قيمتها والمزارع نضرتها ، حتى لقد وصف أحد قناصل الدول حكومة محمد على فى الشام بأنها كانت تضمن للناس الأمن من الأوامر الاستبدادية — إلا فيما يتصل بالتجنيد — وتؤمنهم على أموالهم ، وتترك لهم حرية جديدة فى أمر دينهم وتهىء لهم أسباب الاستمتاع بالحياة ، وعدلت بين الناس فى توزيع الضرائب ، وعلى الجملة هيأت لهم أسباب الحرية التى يستطيع الناس أن ينعموا بها فى ظل حكومة حرة على قدر المستطاع ، بل قد لاحظ القنصل أن الادارة تحسنت حتى جاوزت الحد الذى كان منتظرا منها ؛ ولكنه يضيف إن الناس لا يحبونها . . . . (٢)

(1) Dodwell; Op. Cit. P. 251
(2) Ibid ; P 352

الانجليز والحكم المصرى فى الشام

الواقع أن أهل الشام كانوا لا يحبون حكومة مصر للأسباب التى سبق بيانها ، ولكن شاركهم فى هذا الشعور نحو الحكم المصرى أناس آخرون . فقد كان الانجليز يرصدون محمداً علياً بقلق لايخفى ؛ إذ أن وقوع الشام فى يده من شأنه أن يجعله يسيطر على طريق الهند البرى الآخر ، ومن ثم ضاقت صدورهم به وودوا لو نفضوا عن الشام سلطانه . ثم ان امتداد حكومته إلى هذا المدى الواسع من شأنه أن يجعل منه قوة خطيرة فى شرق البحر الأبيض ، وهذا أمر لم تكن انجلترا لتطيقه أو ترضاه ، وما دام الرجل مصرا على أن يحتفظ بأسطول قوى ، فان مياه « الليفانت » فى خطر ، وإذن فلا بد من القضاء عليه . هذا إلى أن بقاءه فى الشام واضطراد قوته فى الزيادة من شأنه أن يغريه بالاستزادة من أرض الدولة ، وهـذا بدوره يجعل للروس تعلة يتدخلون بها فى أعمال الدولة العلية ويدعون الحماية عليها ، ومن ثم كان لابد من ابطال حجة الروس بالقضاء على الخطر الذى يهدد الدولة وهو محمد على . لهذا لم يسترح الانجليز لما أدرك محمد على من التوفيق فى ادارته بلاد الشام ، فبـدأوا يعملون لاثارة البلاد عليه .

الانجليز يبدءون العمل لاثارة الشام على محمد على

وأظهاره بمظهر العاجز عن حكم البلاد ، ولخلق مبرر للتدخل فى أمور حكومته ، ومن ثم أوحى بلمرستون إلى قنصله فى الشام بنسبنى بأن ينظم حركة الثورة فى سوريا ، وكان هـذا الأخير فى غير حاجة إلى أن يغرى بمحمد على حتى يبدأ فى الكيد له ، فقد كانت نفسه تفيض حسرة وحسدا لهذا الرجل الذى خيل إليه أنه يتهدد انجلترا بالشر المحيق . فنشط الرجل فى العمل نشاطاً جاوز الحد المألوف حتى لقد بالغ فى إيذاء محمد على والاساءة إليه . وهل يصعب على إنسان ما — مهما قلت قدرته وحصافته — ان يثير ثورة فى الشام فى هذه الأيام ، أيام كان المسلمون يكبتون النفس على مضض من تسامح ابراهيم وما

تصوروه من اعتدائه على الدين ، وأيام كان النصارى يتنسمون المعاونة من أية دولة مسيحية ، فكيف ببريطانيا ذات الحول والطول ، من ثم أفلحت سعاية الانجليز فأخذت نيران الثورة تتلظى فى نواحى الشام كلها ، وأسرع رجال الدولة ينفخون فى النيران ، ويعدون أهل الشام باعفائهم من التبعات التى كان يفرضها عليهم بقاء المصريين فى الشام كالجندية الاجبارية والاحتكار وجمع السلاح وما إلى ذلك ، وانضاف الى ذلك كله ما كان أهل الشام يجدون من الحرج فى نفوسهم من استعلاء الذميين ومناصرتهم ، فلم تلبث نيران الثورة أن اشتعلت سنة ١٨٣٤ .

ثورة الشام

واضطر ابراهيم إلى الاشتداد على الثائرين ليعيد الأمر إلى نصابه فانضافت شدته هذه إلى مساءاته الأخرى فى نظر أعدائه ، فلم يدخروا من الآن وسعا فى القضاء عليه وإخراجه من الشام . ولم يكن الانجليز يخفون أيديهم وهم يعقدون أطراف الفتنة فى نواحى البلاد ، بل عملوا جهارا على أن يقطعوا المواصلات بين مصر وسوريا بواسطة اسطولهم فى البحر الابيض ، ونشط بنسبى فى اثارة الناس نشاطا بالغا ، حتى اضطربت البلاد كلها على ابراهيم ، وخلع الناس عن أنفسهم ما كان المصريون قد ألزموهم به من مظاهر الاصلاح ، والتوت السبل على المصريين وعاد السلطان يجدد الحرب فخرج الشام عن يد مصر جملة ، وامحت منه معالم الاصلاح والنظام وعاد فوضى كما كان ، ثم نزلت جيوش الانجليز أرض الشام تحارب ابراهيم وتضيق عليه الخناق فكان ذلك ايذانا بانتهاء أيام السكينة فيه ، ونذيرا بعودته إلى نير الاتراك ينزلون به من المساءات أضعاف ما كانوا يأتون قبل غزو مصر ، وبهذا أدركت انجلترا ما أرادت على حساب الشام ومستقبله ، فابعدت عنه المصلح وسلمته للمسىء ، ونفضت عنه السلام والاطمئنان واسلمته للفوضى والاضطراب ،

الاسطول الانجليزى يشد ازر الثورة

الانجليز ينزلون جنودهم فى الشام

تقلص الحكم المصرى من الشام

على الرغم من أنه « لم يكن من الشهامة فى شىء أن تتولى سفارة بريطانيا فى القسطنطينية تحريض قوم عرفوا بتمردهم ضد أى حكومة نظاميه ، وخاصة بعد اعتراف ممثلى انجلترا نفسها بكفاءة ومقدرة الحكومة المصرية» ولقـــد حق لتيير أن يستفهم من الحكومة الانجليزية : « هل كان التحريض على الثورة من الأعمال التى تفيد الدولة العلية التى هى فى حاجة إلى الراحة والطمأنينة ، وهل الثورة فى الشام تولد حب الطاعة والنظام فى قلوب رعايا السلطان ، وهل ينجح السلطان فى حكم هؤلاء القوم بعد أن أثارهم الباب العالى فى وجه الوالى (١).

الحكم المصرى فى الشام وفكرة الدولة العربية

بيد أن وجود ابراهيم فى الشام أوحى اليه الفكرة التى سبقت الاشارة اليها قبل ذلك ، وهى فكرة « الدولة العربية » وسلخ الناطقين بالعربية عن جسد الدولة . فقد كان ابراهيم وأبوه يحكمان الآن معظم الناطقين بالضاد ، ولم يعد خارجا عن سلطانهما إلا أهل الجزيرة وبغداد ، وكان صوت محمد على قد طار كل مطار ، واتجهت اليه الأنظار فى لحظة يئس المسلمون فيها من الدولة العلية وسلطانها ، ومن ثم أخذ ابراهيم يبسط لأبيه هذه الفكرة ويعرض عليه الآراء للوصول إلى الانفصال وإعلان الدولة الجديدة ، ومضى محمد على يستمهل ابنه وينصحه بالاناة ويسأله أن يتحسس موقع الأمر من نفوس العلماء والسراة وذوى الرأى فى الشام ، ولو قد ترك ابراهيم وحده لأعلنها ولما حفل لثورة الدول ، فقد كان الرجل لا يؤمن بغير سيفه ، ويكاد يكون عربيا خالصا لا يفتأ يذكر العرب ومجدهم الذاهب القديم ، وقد تكون هذه الآراء والنيات بعض ما أثار الدول على ابراهيم وحفزها إلى العمل على طرده من الشام. وعلى أى الأحوال فقد كانت جهود الانجليز ومساعى الأتراك قاضية على كل هذه الآمال الزاهرة التى كانت ترجى للشام.

(١) تاريخ مصر السياسى للأستاذ رفعت : ص ٢٤٥ .

والعروبة على يد محمد على وابنه لو ظل الشام فى ايديهما ، سواء من ناحية اصلاح أحوال البلاد وإعادة الأمن اليها وبعث الحياة والرخاء فيها من جديد ، أو من ناحية انقاذ الدولة الإسلامية بانشاء دولة عربية خالصة تضم مصر والشام والعراق وتبدأ للدولة الإسلامية والاسلام حياة مجيدة زاهرة .

المصريون يخلون الشام

أخلى المصريون الشام خلال سنة ١٨٤٠ دون قتال طويل، فعادت البلاد إلى « أصحابها » الترك ، عادت اليهم ليعيدوا اليها مباذلهم ومساخرهم وليهبطوا بها مرة أخرى إلى الدرك الذى كاد محمد على يستنقذها منه « وكأن الأتراك لما عادوا إلى امتلاك الشام رأوا أن يعوضوا مافاتهم فى السنوات التسع التى حكم فيها رجال الدولة المصرية ، فبالغوا فى تحقير المسيحيين وإنماء أسباب البغضاء بينهم وبين المسلمين ، وكانت الحزازات فى الصدور من أيام ابراهيم باشا لأنهم ظنوا أن النصارى تجاوزوا حد الأدب فى طلب المساواة بالمسلمين وحسدوهم على تقدمهم فى المراكز الأميرية وفى صناعتهم وتجارتهم ، وأضمروا لهم السوء وساعدهم على ذلك تحريض الأتراك لهم سراً وعلناً ، واضطر المسيحيون فى المدن إلى العود لملابسهم وحالتهم القديمة وكثر التعدى عليهم من الرعية والحكومة » (١) .

مساوئ الحكم التركى تعود

ولو قد اقتصرت مشاكل الشام على ذلك لكان ذلك حجة كافية تبرر بها الدول تدخلها فى البلاد ، فقد عاد الأمن فاختل وتهددت المتاجر والأرزاق بالأخطار ، وتوالت مساءات الأتراك حتى ضج القناصل بالشكوى وأخذوا يبعثون إلى دولهم بالتقارير يصفون الحال ويصورون لها الهاوية التى تنساق اليها البلاد من جديد فى حكم

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام : ص ٧١ .

الأتراك ، لو اقتصر الأمر على ذلك لكان فيه الكفاية لتبرير تدخل الدول الفعلي وسلخ الشام عن الدولة ، فكيف وذلك كله لا يعدو أن يكون جانبا يسيرا من أسباب الاضطراب ، ولو قد كانت إحدى هذه الدول حرة تفعل ما تريد لأتمت الأمر على أهون سبيل ، أما وهى ترى الأخريات رقيبات عليها وليس لها إلا أن تسعى للتدخل فى شئون الدولة تدخلا سلميا تحت ستار المحافظة على كيانها وصيانتها من الاعداء.

انجلترا تحصل على امتيازات اقتصادية فى الشام

وكان الانجليز أسرع الدول تفطنا إلى هذه الناحية فمدوا متاجرهم فى نواحى الشام ، وحصلوا من الدولة على احتكارات وتسهيلات شتى حتى أصبحت الشام منطقة نفوذ تجارى لهم لا يكاد ينافس منسوجاتهم ومنتجاتهم الأخرى منافس فيه .

فرنسا ومطامعها الدينية

أما فرنسا فقد سلكت للتدخل سبيلا أخرى ، إذ مدت سلطانها عن طريق الدين ورعاية المسيحية فى الشام . سبقت الاشارة إلى ما كان من رعاية فرنسا للموارنة واعتبارها إياهم تحت حمايتها واتصال الأمر بينها وبينهم ، وكان الفرنسيون قد حصلوا من الدولة فى أوائل القرن السابع عشر على حق رعاية الأماكن المقدسة والعناية بها وترميمها ، ولا زالت فرنسا تنمى فى هذا الحق البسيط حتى أصبحت تملك الكنائس المقدسة عرفا وحصلت من الدولة سنة ١٧٤٠ على تعهد بأن يباح للحجيج زيارة الأماكن المقدسة فى أيام الحرب والسلم على السواء (١) . ومضى الأمر على ذلك والدولة لا تحس له خطرا ولا تعلم أن بقاء طائفة من رعاياها فى حماية دولة أخرى يمس شرفها ، وأن امتلاك الفرنسيين للمبانى المقدسة فى بيت المقدس من شأنه أن ينتقص من سلطتها كدولة محترمة لها كيان واعتبار بين الدول . ولم تكن تحسب أن التدهور سيصل بها إلى حد تصبح معه هذه المنح حقوقا الزامية تجبر الدولة على

(1) Engelhardt : Op. Cit, P. 96,

طاعتها ، وسبيلا لنفوذ سياسى يحاوله الفرنسيون فيما بعد .

مركز فرنسا فى الشام يثير مخاوف الروس

بيد أن هذه الحال لم تثر من الأتراك مثارا ولم تروع منهم سربا ، ولكنها روعت قوما آخرين كانوا ينظرون إلى هذا السلطان الفرنسى النامى فى كثير من القلق . ولم يكن هؤلاء الآخرون هم الانجليز — فهؤلاء لا يزعجهم كثيرا ازدياد النفوذ الدينى لأية دولة غربية فى تركيا — وإنما كانوا الروس الذين رأيناهم يبسطون رعايتهم على المسيحيين من رعايا الدولة فى البلقان وعلى الدانوب ، وكان الروس يتقلبون حسدا من الفرنسيين ، ويتشوقون للفرصة التى تسمح لهم بالتدخل لمنافسة الفرنسيين فى ذلك الحظ العظيم . وزادهم رغبة فى ذلك أن قيصر الروسيا فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر كان رجلا شديد التعلق بالدين وأسبابه ، وهو اسكندر الأول ، ولم يكن يرضيه أن تظل الأماكن المقدسة فى رعايا الكاثوليك ، فلم يزل يجد ويسعى حتى سنحت له الفرصة سنة ١٨٠٨ ، إذ استطاع مساعدوه أن يقنعوا السلطان محمودا بالخطر الذى يهدد الدولة وشرفها من احتكار الفرنسيين لرعاية الأماكن المقدسة ، ومن ثم أصدر السلطان فرمانا أباح به للروس الارثوذكس اصلاح الكنيسة الكبرى فى القدس .

بدأ الصراع بين الروس والفرنسيين فى الشام

بذلك بدأ هذا النزاع العنيف بين الروس والفرنسيين على الأماكن المقدسة فى الشام ، بدأ فى صورة مصغرة جداً : فى هيأة نزاع على شرف رعاية الكنائس ، وانتهى فى صورة مكبرة فى حرب القرم سنة ١٨٥٦ وليس من الخطأ أن نقول إن الأمر كله لم يكن — من أول الأمر — نزاعا على شرف معنوى صرف كرعاية المبانى المقدسة ، وإنما هو فى حقيقته نزاع على السلطان والنفوذ فى أراضى الدولة وبلادها .

الفرنسيون يحتجون

أحتج الفرنسيون على السلطان واعتبروا منحه هذا الحق للروس اعتداء منه على حق مسلم لهم به فى معاهدة محترمة . ورد الروس بأنهم

أصحاب حق هم الآخرون : حق تدعمه معاهدة محترمة لا تقل عن معاهدة الفرنسيين قوة ولا احتراما ، وهو الذى فازت به فى الروسيا معاهدة كتشك كينارجى سنة ١٧٧٤ ، فكسبت به حق رعاية الروم الأرثوذكس فى الدولة . وما دام الروم مسيحيين كالكاثوليك ، فللروس ما للفرنسيين من الحق فى رعاية الأماكن المقدسة التى هى حق مباح لكل مسيحى كاثوليكيا كان أم روميا ارثوذكسيا .

تطور الحقوق الدينية الى حقوق سياسية

فى أثناء ذلك كان هذا الحق الدينى المعنوى يتطور بمساعى الدول إلى حق سياسى خطير يهدد الدولة باخطار شتى . وقد أعان سوء حال الدولة وكثرة مساءاتها واضطراب أحوالها على هذا التطور ، فما دام الرعايا غير آمنين على أنفسهم وأموالهم فى رعاية السلطان فلم لا يلتمسون الأمان فى رعاية دولة أجنبية ، حتى يحتموا بالقناصل والسفراء ويفروا من المظالم والمغارم ويعيشوا آمنين مطمئنين ، ومن ثم أخذ الرعايا يتجنسون بجنسيات أجنبية فرنسية أو انجليزية أو روسية ، وفتح الروس الباب على مصراعيه فتدفق الرعية يطلبون الجنسية الروسية من غير حساب ، حتى أصبحت اشارة القنصل الروسى على جواز السفر كافية لاعتبار الرجل روسيا خارجا عن رعاية السلطان داخلا فى رعاية القيصر ، فلم يلبث السلطان أن وجد الدول تغزوه هذا الغزو السلمى الخطير ، يخرجون رعاياه عن سلطانه ، فملكه الخوف من استفحال الأمر ولبث يتحين الفرصة ليوقف هذا السيل . ولم يكن بعسير عليه أن يجد فرصة مواتية ، فقد كانت الأمور إذ ذاك تسير من سيىء إلى أسوأ فى جبل لبنان الذى استطارت الخصومة بين أهله ودبت الفتنة فيه بسعايات الترك بين الدروز والموارنة فانقلب شعلة من نار يترامى أهله بالعداوة والثارات ، فلم يلبث السلطان أن أعلن أن كل تصريحات التجنس لا بد أن تراجع بمعرفة السلطات التركية بالشام وأعقب ذلك

باعلان قرر فيه أن سفر أحد الرعايا إلى أى بلد أجنبى لا يلزم السلطان باحترام أية جنسية أجنبية لهذا العائد فما دام أصله تركيا ، وما دام يعيش فى أراضى السلطان فهو تركى يخضع لحكومة الأتراك ولا سلطان لراع آخر عليه .

انجلترا تتدخل

وأدرك الانجليز ببصرهم الثاقب أن المسألة ليست صراعا معنويا، وأن فرنسا وروسيا لاتحتربان على شرف أدبى تكسبانه من وراء رعاية المسيحيين ، وأن الأمر فى حقيقته صراع سياسى صرف كالحرب سواء بسواء ، وقد هالهم أن يجدوا للروس والفرنسيين مذاهب دينيه لها اتباع فى الشام يتسترون خلفها ، فبدأوا يعملون على غرس بذور البروتستنتية فى البلاد المقدسة حتى يكتسبوا لأنفسهم رعايا يبسطون عليهم سلطانهم ، ويمدون سلطانهم السياسى عن سبيلهم ، فتقدموا إلى السلطان حوالى سنة ١٨٤٠ يطلبون اليه أن يسمح لهم ببناء كنيسة بروتستنتية فى القدس ، وعززهم الألمان فى ذلك (١) ، وأحس الفرنسيون بسعى الانجليز فنشطوا لاحباطه وأثاروا كنائس الشام وبطارقته على البروتستنتية وخوفوهم من مساعى الانجليز ، فلم تلبث الرجى والشكايات أن انهالت على الباب العالى تستحلفه أن يرفض هذا الطلب ، فالكاثوليكية هى المذهب المسيحى السائد فى بلاد الدولة ، وليس للبروتستنتية ذيوع فى أى مكان . فالانجليز لارغبة لهم فى الشام فما عساهم يريدون الا سلطانا سياسياً . .

انجلترا تنشر دعاية بروتستنية

بناء كنيسة انجليكانية فى القدس

وبهذا امتنع السلطان فرفض مطلب الانجليز ، ولكن هؤلاء لم ينثنوا عن غرضهم فما زالوا يلحون فى الطلب ويثابرون عليه حتى أقاموا كنيسة انجليكانية صغيرة فى القدس حوالى سنة ١٨٤٢ . وتسامع الأمير يكيون بذلك وبث الانجليز فيهم دعاياتهم فهرولوا بأموالهم وبعوثهم التبشيرية فلم تلبث الكنيسة الصغيرة الناشئة ان كسبت لنفسها .

(1) Engelhtardt, Op. Cit P 16

طائفة من الأتباع ، ونشطت القنصليات فى معاونة الكنيسة حتى صار هؤلاء الأتباع نفرا يعتد به ويحسب حسابه : وأعانها على ذلك ما كان الناس ينتظرونه من الانتساب للبروتستنتية من التمتع بحماية الانجليز.

الدول تحتل الشام معنويا واقتصاديا

بهذا أخذت الدول باليمين مامنحته باليسار ، حافظت على كيان الدولة العثمانية فى الظاهر ومضت تنخر كيان هذه الدولة وتمتص رعاياها فى الباطن ، وطردت محمدا عليا من الشام وقسمته بينها هذه القسمة الباغية التى لا تفترق عن الاحتلال الحقيقى فى شىء ، ردت الشام إلى السلطان وأخرجت عن طاعته أهل الشام وتجارة الشام ، وعسكرت حول موانيه وأخذت عليه السبل ، فماذا بقى للدولة فيه غير تبعية اسمية تكاد لا تغنى شيئاً ؟

ولو ترك الأمر للروس لما أقروا هذه الحال ، ولجمعوا جمعهم منذ حين ونزلوا أرض الدولة وقضوا عليها منذ بعيد ، فهؤلاء هم يحكمون من رعية السلطان عدداً طيباً ، ويملون على السلطان إرادتهم ويتصرفون فى سياسة الدولة كما يشاءون ، وليس لهم صبر الانجليز ولا يشغلهم عن الأمر متاعب الفرنسيين ، إذ ليست لهم هند يحرصون على طريقها ولا متاعب سياسية داخلية تستولى على ألبابهم ؛ وقد عجب القيصر نيقولا من بقاء هذه الحال على ماهى عليه ، فحسب أنه يبدى جديداً إذا عرض على الانجليز فكرة تقسيم الدولة ، وكانت بينه وبين فرنسا خصومة فظن نه يغرى انجلترا بالعمل إذا هو أخرج فرنسا من الحساب ، اذ قد ضاق ذرعه بكفاح الفرنسيين ورد مطامعهم فى الشام ، وليست لهم فيه إلا بضع كنائس وبضع حقوق أو مايشبه الحقوق ، ومن ثم رأى أن يفاتح هاملتون سيمور سفير انجلترا لدى بلاطه فى الأمر — وكان له صاحبا — وشجعه على ذلك أنه كان على ود موصول مع اللورد ابردين رئيس الوزارة الانجليزية إذ ذاك ، ومن ثم دار بين القيصر والسفير حديث

ذاع أمره وطار صيته فى يناير سنة ١٨٥٣ »: فى هذه المحادثة — التى بلغت للندن لساعتها والتى نشرت ساعة أعلنت حرب القرم — تحدث القيصر عن تركيا فوصفها بأنها دولة يكاد ينهار بنيانها ، وقال ان التركى رجل مريض جـــداً ينتظر له الموت بين أيديهم بين الحين والحين ، ومن ثم كان خليقا بهم أن يعملوا رأيهم ليروا ما يفعلون بأراضيه لو حم فيه القضاء ووقعت الواقعة ، وأكد للسفير أن نصاب الأمر بيد انجلترا وروسيا ، إذ أنهما تستطيعان أن تريا فيه رأيهما دون حرب ، ثم أشار اشارة خفيفة صريحة إلى الحل الذى يرى ، فولايات البلقان تمنح استقلالا فى حماية الروس ، وتحتل الروسيا القسطنطينية من غير أن تضمها إلى أرضها ، وأما الانجليز فحصتهم من هذه القسمة مصر » . (١) ولم يكن الانجليز يجهلون هذه النوايا التى يبيتها الروس ، ولكن حديث القيصر أكد مخاوفهم وأعلمهم بأن الروسيا على الأهبة وأنها لن تستتريح إلا إذا فازت بحصتها من تركة الرجل المريض ، ومن ثم أخذ الانجليز يستعدون لدفع مطامع الروس بالحرب إذا استلزم الحـال .

الرجل المريض

وكأنما حسب القيصر أن الانجليز عون له على ما يريد ، فأراد أن يبدأ فى التنفيذ ، فأرسل أحد رجال بلاطه المقربين وهو الأمير منشيكوف برسالة خاصة الى السلطان يطلب اليه أمرين بسيطين : أولهما تسليم الروس مفاتيح الأراضى المقدسة وثانيهما حماية الروس لجميع الرعايا المسيحيين فى الدولة ، وكان سفير الانجليز إذ ذاك فى القسطنطينية هو اللورد ستراتفورد دى ردكلف السياسى الانجليزى الذائع الصيت

ستراتفورد دى ردكلف يسعى لاثارة حرب القرم

---

(1) Grant and Temperley: Europe in the Nineteenth Century, (ed. 1929)P. 269

وخاف الرجل أن تطول مدة المخابرات والأمر على حرج ، فتحمل تبعة الأمر ومضى الى السلطان فأشار عليه بأن يرفض طلب الروس الثانى ولا بأس عليه أن يقبل الأول ويسلم مفاتيح الأماكن المقدسة لهم فهذه مظاهر لاغناء فيها ، فلم يكد منشيكوف يسمع هذا الرد من السلطان حتى اعتبره إهانة له ولدولته ، فطوى ذيله فى مايو سنة ١٨٥٣ وهو ينوى فى نفسه ليثيرنها على الترك عوانا . ولم يكد ينقضى على أوبته شهر حتى سير القيصر جنده فعبروا البروث واحتلوا ملدافيا وولاشيا ، وبذلت الدول وسعها لتحسم الحرب على غير جدوى ، فقد كان الروس قد أجمعوا رأيهم فلا بد لهم من المضى فيما بدأوا . وقد أحس الأتراك بأن انجلترا من ورائهم تشد أزرهم فتشجعوا وأصروا على رفض مطالب الروس ، وتحرج الأمر بين الحيين فلم يلبث الترك أن أعلنوا الحرب على الروس فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٥٣

حرب القرم تبتدىء

أثر حرب القرم فى تركيا

أثبتت حرب القرم والنتائج السياسية التى خلفتها أن تركيا ليست ضعيفة فحسب ، بل لا أمل فى شفائها واستنهاضها كذلك ، فقد جاءت بعد جهود طويلة لاصلاح الجيش والادارة ، فكان لابد أن يرى الناس فيها تركيا جديدة تخالف القديمة وتمتاز عليها ، ولكن الحرب طالت ولم تبد تركيا أمراً جديداً ، قام الحلفاء ـ الانجليز والفرنسيون ـ بالأمر كله ، فاضطروا الروس إلى الانسحاب من ولاشيا وملدافيا ثم توجهوا لانقاذ البحر الأسود من الروس بالقضاء على قاعدتهم الحربية فيه وهى سباستبول . وكانت الحرب فرصة طيبة يظهر فيها الأتراك كفاءتهم ولكنهم عجزوا دون ذلك ، وكانت الحرب حرب حصون والأتراك معروفون بالمهارة فى هذا الباب ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شىء ، ولم يكن فى جيوش الانجليز والفرنسيين ضابط ماهر يقود الحرب بنجاح

سبستبول

لا للورد راجلان ولا الجنرال سمبسون ولا كانروبرت Canrobert ولا بلسييه تمكن من أن يستولى على سباستبول ، واستمر قائدها الروسى - الألمانى الأصل - تودلبين Todleben يدافع عنها بمهارة استحقت اعجاب الأعداء . كان على الأتراك أن يفيدوا من هذه الحرب التى اشتركوا فيها مع الانجليز والفرنسيين ، ولكنهم لم يفيدوا شيئاً ، ظل الجيش التركى على ما عرفناه قبل ذلك بسنوات : جنود بواسل يمسكهم الصبر فى ظلال الموت ، وقادة فاسدون يشغلهم الفساد عن الظفر ، وإليك ما قاله أحد كبار ضباط الانجليز يصف الجيش التركى فى ذلك الحين « إنى لمعجب بالصبر الذى يتحمل به هذا الجنس الصبور الشديد الاسيوى متاعب جمة كانت تكفى فى أى مكان آخر لتدفع بالجند إلى الاعتصاب . . فطعام الجندى يستمطر الرحمة ، وقد أهمل القوم أبسط قواعد الوقاية الصحية ، فهناك الحميات وهناك التيفوس ، ورواتب الجند متأخرة ما بين ثمانية عشر وعشرين واثنين وعشرين شهرا . . . أما الضباط فتنقصهم الخبرة والنظام والثقافة نقصا فاضحا ، معظمهم أهلون سموا إلى مراتب القيادة ، ودأبهم فى الحياة الشراب ولا يحفلون الا لسرقة الجنود ، وفى هذا الباب نجد المشير يضرب لضباطه أسوء المثل فى الافساد ؛ اذ كان الاتفاق بين القادة والضباط وتعاونهم على اقتسام الغنيمة عوناً له على أن يبلغ الدولة أمورا مشيتة غير حقيقيـة ، فكان يبلغ الدولة أن جنوده يبلغون ٣٣٠٠٠ فى حين لم يبق منهم فى الميدان إلا ١٧٠٠٠ . . . ولا يتأبى المشير عن أبسط السرقات : فقد باع مخلفات اثنى عشر ألف جندى ماتوا فى المستشفى فى الشتاء الماضى ، ولما كانت الدولة تعطيه بعض اعطيات الجند ورقا وبعضها الآخر من فضة فقد كان يعطى الجند الورق فقط ليكسب الفرق وهو حوالى ٢٠ ٪ » (١)

الجيش التركى فى حرب القرم

1 Engelhardt· Op· cit·P· 120,

المشير هو القائد الأعلى للجيش التركى

وهذا كله بعد الاصلاح وبعد التهذيب وبعد سنوات طويلة من الدعوى للتقدم .. لازال اللب على حاله وان تغيرت القشور .. فما جدوى الجهد وما وراء العمل ..!

الانجليز والفرنسيون في حرب القرم

شقى المشتركون فى حرب القرم شقاء بالغا ، وأبلى الجانبان فيها بلاء محمودا ، فاستمرت هجمات الانجليز والفرنسيين والأتراك نحو عام ترمى عن مدافعها لتدرك حصون سباستبول على غير جدوى ، وانسابت عليهم فى موضعهم غمرات ثقيلة بعضها الكوليرا وبعضها القوازق وبعضها شتاء الروسيا القاسى ، واصطلى الانجليز بنيرانها فى بلا كلافا وانكرمان حتى كاد رجاء الجند والقادة أن ينقطع فى الحياة ، ولم تخفف من بلواهم جهود البطلة الانجليزية الذائعة الصيت مس فلورنس نايتنجيل ، فهبطت قواهم إلى أحد عشر ألفا فقط ، وأخيرا ، بعد صراع هائل فى حصون ريدان وملاكوت استطاع القائد الفرنسى مكماهون أن يستولى على الحصن الأخير فأشرف على المدينة ، ولكن ذلك لم يحسم الحرب إذ عوض الروس ذلك بالاستيلاء على حصن كارز فى آسيا الصغرى .

مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦

وأخيرا ، فهم الحيان حقيقة الحال ، عرف الروس أن الانجليز يبذلون نفسهم دون البحر الأسود ومضايقه ، وأيقن الانجليز أن الروس عرفوا تماما بهذا الدرس أن لايحاولوا الاستيلاء على البحر الأسود مرة أخرى ، وما دام الروس قد عرفوا ذلك فقد أدرك الانجليز من الحرب وطرهم ولا حاجة لهم بسباستبول ولا موسكو نفسها ، وانتهى الأمر أخيرا بمؤتمر باريس فى أوائل سنة ١٨٥٦ ، حيث قررت حيدة البحر الأسود ، وحرمت مياهه على السفن الحربية من أى لون ، وتقرر كذلك اقفال المضايق فى وجه أية سفينة حربية ، بذلك اطمأن

الانجليز إلى أنهم أغلقوا الباب فى وجه الروس ، واشهدوا الدول على ذلك ، ولكنهم أرادوا أن يطمئنوا إلى أن الروس لن يعودوا فيتدخلون فى شئون الدولة ويبسطون عليها حماية دينية أو غير دينية ، فقرروا أن لا تتدخل دولة بين السلطان ورعاياه ، وأخذوا على السلطان المواثيق أن ينفذ ما وعد من المساواة بين رعاياه لا فرق بين دين ودين وجنس وجنس ، فوعدهم السلطان بذلك ، وأرادوا أن يثبتوا ذلك فرفعوا تركيا إلى مصاف الدول الكبرى وأدخلوها ضمن الهيأة الأوروبية لكى لا يعتدى عليها الروس أو يستهينوا بها

تركيا تدخل هيأة الدول الأوروبية

بهذا أتيحت الأتراك فرصة من ذهب ، منحتها الدول سلامتها وآمنتها من افتراس الدب الرابض شمالها ، فكان عليها أن تنتهز هذه الفرصة وتعمل جادة فى إصلاح شئونها ، وقدمت لها الدول المعاونة اللازمة ، فلندعها تحاول من جديد بعد أن انجلت عنها الغمرات وزايلتها الأزمات ، ولنعود إليها بعد حين لنرى ما يكون من أمرها بعد سنوات

صلح باريس - فرصة طيبة للترك

— ٦ —

يعرض علينا غرب البحر الأبيض المتوسط لونا آخر من الصراع بين الشرق والغرب فى العصر الحديث ، ويكشف لنا هذا الصراع عن نواح أخرى من العلاقات بين الجانبين تختلف الاختلاف كله عما رأيناه فى المشرق .

المغرب

ذلك أن ميدان الحروب الصليبية لم يكن مقصورا على الشرق وحده وإنما شمل غرب البحر الأبيض كذلك ، فثارت بين المسلمين فى الأندلس والنصارى فى الشمال حروب طويلة تعرف بحروب الاسترداد Reconquista ، وكانت هذه الحروب شديدة حامية لا تقل شدة أو أهمية

الحروب الصليبية فى الغرب

عما دار فى الشرق بين الاسلام والنصرانية ، بل كانت الروح الدينية فيها أغلب وأظهر ، وكانت نتائجها على مستقبل الحيين أحسم وأبعد ، بل كان سكون ريح الصليبيات فى الشرق مؤذناباشتداد ريحهافى المغرب واجتماع القوى كلها على الصراع فى ميدانه. وأننا نستطيع أن نلاحظ انتقال ميدان الحروب الصليبية من المشرق للمغرب خطوة خطوة ، فقد كانت نيرانها مستعرة أول الأمر فى الشام ، ثم تحول ميدانها إلى مصر ؛ ثم إلى تونس ثم إلى الجزائر بعدذلك ، وهنالك أقامت حتى أوائل القرن التاسع عشر حين انتهت بانتصار الغرب واحتلال الجزائر وبدء استعمار شمال افريقية .

الحرب الصليبية فى شمال افريقية

المغرب فى حرب دائمة

من هنا ليس بغريب أن نجد المغرب طوال العصر الوسيط وإلى أوائل القرن التاسع عشر ميدانا حافلا بالحروب لا يكاد يسكن فيه ريح الصراع الشديد أو العداوة المتأججة ، وليس بغريب كذلك أن نجد الفريقين يلتمسان السبل كلها للغلبة والظفر لا فرق فى ذلك بين مباح وغير مباح ، وليس من الصواب فى شىء أن نحكم على ما يحدث فى المغرب بالمقاييس التى نحكم بها فى أوقات السلام ، إذ كانت الأيام كلها حربا هنالك ، وكان الميدان مفتوحا على مصراعيه للجيوش والأساطيل ؛ فأولى بنا أن نعتبر المغرب ميدان حرب لا ميدان سلام ، وأن نعتبر أهله مقاتلين ومدائنه معسكرات ؛ ولم يكن أهل المغرب أنفسهم — فى افريقية وأوروبا — لينظرون للأمر إلا بهذه العين فلم يتركوا السيف أبداً واستمر الكفاح بينهما دائراً متصلا .

فقر المغرب يعوقه عن الاستمرار فى الحرب

بيد ان ظروف المغرب الجغرافية لم تكن تساعده على الاستمرار فى الكفاح أمام الحاح الأوروبيين واستمرارهم ، فقد كان على دويلات المغرب الفقيرة أن تناجز الأسبان المستعمرين والبرتغاليين الذين امتلأت

نفوسهم بالرغبة فى الاستعمار وقويت أساطيلهم ، والفرنسيين الذين اتجهت هممهم منذ حملة لويس التاسع على تونس للاستيلاء على المغرب واخضاعه ؛ فكيف يستطيع الحفصيون فى تونس وبنو عبد الواد فى وسط المغرب وشرقه أن يناجزوا هذه القوات كلها ؟ كان طبيعياً أن تهن قواتهم وتخلد إلى الطاعة بعد طول الصراع ، لأن بلاد المغرب فقيرة قليلة الخيرات والأرزاق لا تعين على تكاليف الحروب وأعبائها ولأن نظامها الجغرافى يحول دون اتحاد جهاتها وائتلافها وتكوينها جبهة واحدة ، فظلت متنافرة متدابرة تحترب فيما بينها فتفسح للعدو فرصة النصر والظفر . لهذا تمكن البرتغاليون من احتلال جزء من ساحل افريقية الغربى وأقاموا فيه محارس سميت باسم fronteiras ، واستطاع الأسبانيون أن يحتلوا جزءا عظيما من ساحل الجزائر وحصنوه بحصون عرفت باسم presidios . ولم يكن بنو عبد الواد ولا الحفصيون هم وحدهم أصحاب السلطان فى المغرب إذ ذاك بل نازعهم فيه بدو العرب الذين كانوا قد أخذوا يتقاطرون على المغرب بجموعهم ابتداء من القرن العاشر .

قبائل العرب تهاجم الساحل

وكانت بقية الأراضى الداخلية نهباً متنازعا بين القبائل البربرية المستقلة التى كانت تأبى الخضوع والطاعة ، فلم يخطىء جوليان اذن حين وصف المغرب فى ذلك الحين بأنه كان « قاشانيا سياسيا » (١)

أثر سقوط الاسلام فى المغرب

وكان المصير الذى انتهى اليه أمر المسلمين فى الأندلس قد أضاف إلى متاعب أهله نصيبا كبيراً وحملهم تبعات كبرى ، فقد انتهى أمر مسلمى الاندلس إلى الهزيمة ، وأصبح أمر البلاد بيد الأسبان والبرتغاليين النصارى ، فأقفلوا الثغور على من بقى من المسلمين وأخذوا يذيقونهم من العذاب ألوانا ، إما ليفتنوهم عن دينهم أو ليسترقوهم ويستخدموهم فى أعمال العبيد . واشتد الأسبان فى ذلك شدة ذاع أمرها بين الناس فلا

---

(١) Un mosaïque politique
Julien; Hist. d'Afrique du Nord, P. 511

حاجة إلى تصويرها ، وتطايرت الأخبار بما يلقاه المسلمون من الذل في هذه البلاد . ولم يقتصر الأسبان على ذلك بل أخذوا يجوبون البحار ويحطون على سواحل بلاد المسلمين فيخطفون من يظفرون به منهم وينهبون سفنهم ويخربون مدنهم ؛ فلم يكن إلى السلم سبيل بين الحيين على هذه الحال ؛ وأصبح النهوض لاستنقاذ المسلمين في أسبانيا واجباً شرعياً يتحتم على كل مسلم أن يقوم به ، وأصبح لزاما على الدول الاسلامية أن تقابل عداوة أساطيل الأسبان بالمثل ، وأن تقف في البحر رصدا لما يقع لها من سفن النصارى لتوقع بها وتؤذيها وترد اليها ماتسلف من أذى وكيد .

مساوا المغرب ينهضون لانقاذ مسلمى الأندلس

ذلك هو الوصف الصحيح الذى ينبغى أن نصف به أعمال الغزو والحرب البحرية غير النظامية التى كان أهل المغرب يقومون بها ، وقد أخطأ الكثيرون فسموها قرصنة أو لصوصية ، وليست في الواقع إلا لونا من الحرب الدينية من جهة ودفاعا عن الأوطان من جهة أخرى ، وربما تطرف المغربيون فى أعمال العداء واشتدوا فى مطاردة السفن ، وربما أنزلوا بالموانى كثيراً من الأذى ، ولكن أعمالهم لاتوصف إلا بأنها جهاد ، فالعرف الاسلامى يعتبر بلاد النصرانية كلها دار حرب يباح الغزو فيها ويستحل السبى فى أرضها ؛ ولم يكن المغاربة يفعلون أكثر مما كان البرتغاليون يفعلونه فى ذلك الحين فى كل البحار والبلاد .

القرصنة فى المغرب جهاد دينى

بل كانت هناك عوامل شتى تدفع بأهل المغرب إلى السدور فى هذا الطريق وتضطرهم إلى الاستمرار فيها ، حتى لو جنحوا إلى السلم والاستقرار . أول هذه العوامل أن غرب البحر الأبيض كله كان مسكونا بشعوب من القراصين التى تمارس الغزو والقرصنة وتعتمد عليها فى معاشها ؛ فكانت مدائن إيطاليا وفرنسا وأسبانيا أعشاشاً

غرب بحر الأبيض ميدان قديم للقرصنة

للقراصين يقيمون فيها ويهمون منها للغزو والسلب فى البحار ، فلم يكن المسلمون وحدهم هم الذين يهاجمون سفن الأسبان والانجليز والهولنديين ، بل كان الأوربيون يهاجمون بعضهم بعضا لا تفرقة فى ذلك بين دين أو نسب ، وسنرى أن كثيراً من الأمم النصرانية كانت تحالف القوى الاسلامية على أخواتها . وقد كان الانجليز أنفسهم فى هـذه العصور قراصين أو ما يشبه القراصين ، ولو قد قرأت تواريخ كبار الملاحين الانجليز كما رواها « فرود » لعرفت أن القرصنة أصل البحرية الانجليزية (١) كما كانت أساس البحرية الاسلامية فى البحر الأبيض المتوسط ، وثانى هذه العوامل فقر بلاد المغرب واضطرار أهلها لطلب الرزق فيما جاورهم من البلاد والأراضى ، وكان بربر المغرب لا يستقرون على حال ولا يخضعون لنظام فلم يكن للدولة موارد من أرضها أو أهلها . ولم تكن لتستطيع أن تقيم بنيان إدارتها إلا عن سبيل أخرى كالتجارة مثلا ، ومادامت القرصنة هى وسيلة التجارة المعروفة فى ذلك الزمان فقد كان طبيعياً أن يلجأ اليها أهل المغرب خصوصاً وهم قوم بحريون يحسنون الملاحة وشئون البحار ، ومصداق ذلك أن الحرب والغزو والكفاح كان مستمراً طوال العصر الوسيط بين دويلات المغرب فى الداخل والساحل على السواد ، وهى حالة من القلق والاضراب لا تعلل إلا بفقر النواحى مما يضطرها إلى التحارب والتنافس على مواضع الخصب والخير . وثالث هذه العوامل أن بلاد الأندلس كانت تلقى بين الحين والحين بطوائف وجماعات من المسلمين هاربين من أسبانيا أو صرح لهم بالخروج منها ، وهؤلاء كانوا يخرجون من بلادهم آلافا مؤلفة لا تملك من حطام الدنيا شروى نقير ، فماذا تعمل إلا أن تنضم لسفن المسلمين الغازية لتدرك ثأرها من الأسبان

القرصنة أصل البحريات الكبرى

أصل المغرب أمة بحرية

مهاجرو المغرب يثيرون الحرب

(١) Froude : English Seamen

الذين استذلوها وآذوها ، ولتجد عن طريق ذلك سبيلا للرزق والعيش ، فكانت هـذه الجماعات لاتجد غير هذا السبيل تقبل عليه بحماس وحمية وتبـذل فيه قصارى جهدها ، ومصداق ذلك أن معظم المحاربين على سفن المغـــرب كانوا من هؤلاء الهاربين من الثغور الاسبانية . ورابع هذه العوامل هو اتصال الأمر بين دويلات المغرب والدولة العثمانية فى أوائل القرن السادس عشر ، وكانت الدولة العثمانية فى حالة حرب دائمة مع القوى الأوروبية ، فـلم يكن لبلاد المغرب بد من أن تفعل فعل الدولة فتستمر على الغزو فى البحار ، لأنها أصبحت من ذلك الحـين مرتبطة بالدولة العثمانية تجرى على سياستها وتقف موقفها ؛ وخامس هذه العوامل خلو البلاد من قوة واحـدة مركزية تستطيع أن تضبط الأمن وتنشر سلطانها على الرعية وتنوب عنهم فى المعاملات السياسية ، فكان كل فريق يوجه سياسته على النحو الذى يريد ، ولم تجد دول أوروبا هيأة تخاطبها لايقاف أعمـال القرصان والاتفاق معهم ، ففشلت كل الجهود التى بذلت لتحويل الموانى المغربية عن أن تكون أعشاشاً للقراصين فاستمرت فى سبيلها حتى أوائل القرن التاسع عشر

اتصال المغرب بالدولة العثمانية يزيد الحرب

عدم توحد البلاد

بل أن ادمان النظر فى تاريخ المغرب فى هذه الأيام يدل على أن أهـــل المغرب كانوا مسوقين إلى اتخاذ هذه الوجهة وإن مالوا إلى الاستقرار والانتظام ، فقد كان أهل الجزائر مثلا قد هدأ أمرهم وازدهرت مدنيتهم ودولتهم فى أواخر القرن الخـامس عشر ، وزاد فى إزدهار أمرها توافد الهاربين من اسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر بعـد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ ، وكان معظم هؤلاء الهاربين من الصناع المهرة أو المدنيين الذين درجوا فى مهاد الحضارة والاستقرار ، فأخذوا يُمَارِسُونَ صناعاتهم القديمة فى وطنهم الجديد ولـكنهم لم يستطيعوا أن يأمنوا على نفوسهم والاسبان يهددون مدينتهم الجزائر بالغزو والنهب وقراصنتهم رصد لمتاجرهم فى البحر تتخطف أموالهم وأرزاقهم

اوربا لا تدع للمغرب فرصة للاستقرار

فكان أمراؤها من الثعالبة بين أمر من ثلاثة : إما توجيه قواهم كلها نحو البحر لمحاربة القرصنة ، وإما التسليم للاسبان الذين اقبلوا يغزون بلدهم بقيادة بدرو نافارو الذى كان لا يفتأ يهدد البلد وجزائرها بمدافعه ، واما الدخول فى حماية أحد كبار الملاحين المسلمين الذين دانت لهم البحار والثغور الاسلامية كلها فى ذلك الحين ، ولم يكن لها بد فى كل من هذه الحالات من أن تطوى حضارتها وتهدم ما بنته من صرح دولتها . وتلتفت لهذه الحرب البحرية الشديدة

بدرو نافار

وتلك هى الظروف التى القت بالمغرب فى احضان الدولة العثمانية ووصلت أسبابه بأسباب المجموعة الاسلامية الكبرى فى شرق البحر الأبيض وما يليه ، وهى ظروف يستوى فى روايتها فن القصاص ودقة المؤرخ ، لأنها تجمع بين طرافة القصة وصدق العبرة ، وقد تعاونت هذه الظروف على أن تسلم للدولة العثمانية نصيبا فسيحا من الأرض والساحل بلا عناء أو جهد ، ولو قد أرادت لغيرت وجه الحياة فيه وحولته من ميدان للكفاح والنزاع إلى بلاد مستقرة هادئة وافرة الخير كما فعل العرب قبلهم ببضعة قرون ، ولكن كثرة مشاغلهم وقلة حفلهم باصلاح أمر رعاياهم ، وعدم اهتمام السياسة الاسلامية بالمستقبل عادة جعلت الحكم العثمانى نكبة على المغرب لا رحمة له

المغرب يدخل المجموعة الاسلامية

استنجد الثعالبة بعروج بن يعقوب الملقب ببربروس الأول (١)

بربروسا

---

(١) نشأ عروج فى جزيرة المدلى (متلين) فى بحر الأرخبيل ، وكان فى أول أمره ملاحا فلما اشتد ساعده انفصل عن بحارة السلطان ومال الى القرصنة ، ولما لم يكن فى ميسوره أن يقوم بأعماله فى شرق البحر الأبيض لأن سواحله كلها بلاد اسلامية داخلة فى طاعة الأتراك فقد شد رحاله إلى المغرب وأرسى هناك واخذ يمارس صناعته بمهارة أذاعت ذكره ولفتت نحوه نظر السلطان بايزيد الذى اعتبره مجاهدا فى أرض النصرانية ، ثم وقعت له حوادث أسر فيها ثم أفلت وعاد بعدها الى بلاده الأولى فدخل خدمة الدولة من جديد ، واعجب به قبطان الدولة نور خدا وهو ابن السلطان بايزيد نفسه وشجعه ، ولكنه لم يلبث ان عاد الى المغرب بعد موت بايزيد وأخذ يغير على ثغور أوربا وسفنها حتى اجتمعت له ثروة عظيمة ، ثم أراد أن يوجد لنفسه مركزا فاستأذن سلطان تونس فى ذلك الحين ابا عبدالله محمد بن الحسن الحفصى فى ان يحط ببعض ثغوره

الذى كان قد استولى على جيجل فى ذلك الحين وجعلها مركزاً لأعماله وطلبوا عونه على الاسبان فعجل هذا بالمعاونة التى طلبوا وفى نفسه أن يدخل بلادهم فى حوزته ، فتم له ذلك بعد حروب طويلة سنة ١٥١٦ ، ثم أخذ يستولى على بلاد المغرب واحدة فواحدة ، فاستولى على معظم بلاد الدولة الزيانية فى المغرب الأقصى حتى أصبحت سواحل بلادها كلها فى يده.

خير الدين بربروسا

وخلفه فى أعماله أخوه المعروف بخير الدين فكان أوفى منه حظاً وأبعد منه خطرا ، ويبدو أن خير الدين لم يكن يعمل لمجرد الكسب والغنيمة وإنما كانت تسيره عاطفة دينية صادقة . فقد عجل هذا الرجل فى ساعة نظره وظفره فوضع نفسه فى خدمة السلطان وقدم إلى الخلافة بلاده فى الوقت الذى كان عمال الدولة ينتهزون فيه فرصة استقوائهم لينفصلو عنها ، وقد كان الرجل موفقا فيما رأى ، إذ وقع تصرفه من نفس السلطان سليم موقعا طيبا ، فخلع عليه لقب باشا ولقبه بامير الأمراء (بيجلرياجى) وامده بالفين من الجنود ومدفعية قوية وأربعة آلاف من المتطوعة والانكشارية ، وبهذه المعونة الطيبة استطاع الرجل أن أن يستولى على الجزائر فى مايو سنة ١٥٢٩ وتونس فى أغسطس سنة ١٥٣٤ وبذلك دخل المغرب جميعه فى زمام الدولة العثمانية

نظام المغرب فى الحكم التركى

نظم الأتراك المغرب على نفس الأسس التى نظموا بمقتضاها غيره من البلاد الاسلامية ، فكان يمثلهم فيه باشا يعتمد فى قوته على جند من الانكشارية مقسمين إلى وجاقات يرأس كل وجاق أغا ، وقسم المغرب إلى أربع ايالات هى الجزائر وتيطرى وقسطنطينية ووهران

فأذن له ، وأعطاه عروج كل مابيده من الغنائم والاموال فرضى عنه السلطان ورحب به ترحيبا طيبا . ولحق به بعد قليل أخوه خير الدين الذى سيشتهر فيما بعد ببربروسا الثانى ، وفى ذلك الحين كان فرديناند الثانى قد آذن للمسلمين فى مغادرة اسبانيا فاسرع خير الدين وأخذ يعمل بهمة مدى ثلاثة أشهر لينقل مهاجرة المسلمين واسراهم ، مما أطار صيت خير الدين واطلق الالسنة بحمده وذكره ، ومن هنا أخذ يتدخل فى شئون تونس هذا التدخل الذى انتهى بضمها الى الدولة العثمانية

يحكم كل منها باى يرجع فى شئونه إلى كبير البكوات فى الجزائر نفسها ، وكان لأهل البلاد مجلس يسمى مجلس الشورى أو الديوان ؛ يجتمعون فيه لانتخاب البايات والتشاور فى شئون الادارة العامة ، ويتولى الغزو والأسر من ثغور أوروبا . وبتوالى ورود مهاجرة المسلمين من اسبانيا تكونت فى البلاد قوة بحرية حربية أخرى معظمها من الأفارقة والأندلسيين ، فقسمت هذه القوة إلى طوائف يرأس كلا منها قائد يسمى « الريس »

مطامع الاسبانيين فى المغرب

بهذا التكوين الجديد تغير موقف المغرب حيال أوروبا ، فاستطاع أن يرد عدوانها بل أن يقوى عليها ويرد كيدها ، فانحلت الحصون الاسبانية والبرتغالية من على السواحل وتراجعت أطماعهما فى البلاد . وأعان على ذلك اشتغال اسبانيا بحرب فرنسا فى ذلك الحين ، ومن ثم انقلب الأمر فاخذ المسلمون يغيرون على سواحل اسبانيا وفرنسا ويأسرون من أهلها ويعودون بالغنم الوفير ، وكلما زاد الأسر كلما تضخم الجيش الاسلامى والبحرية الاسلامية وقوى أمرهما ، وزاد عدد السفن السريعة واشتهر أمر المسلمين بالنظام والدقة والاخلاص والنظافة والشجاعة حتى استثاروا إعجاب خصومهم من الاسبان ، وارتفع شأن الجزائر وتونس ، وجرى العدل فى ربوعهما حتى أدرك المغرب شأوا من الرفعة عظيما .

المسلمون يغيرون على سواحل أوروبا

بيد أن الدولة الاسلامية هى هى فى كل مكان لا تتغير ولا تتبدل ، تعلو إلى أى شأو تريد ، ويسموا بها أهلها إلى اى أوج تقتدر عليه هممهم ولكن مصيرهم إلى ضعف وإلى اضمحلال عاجل سريع ، فهذه الدولة المغربية كانت تحمل فى أطوائها عوامل الضعف التى لازمت أخواتها من دول الاسلام فى الشرق والغرب ، واختصت من بينها بعلل أخرى شديدة الخطر على كيانها ، أهمها وأقواها أن الدولة لم تكن معتمدة فى جندها أو مالها على مورد ثابت يضمن ثبات القوة واستمرارها ، وأنها

ضعف الدولة المغربية

وقفت فى مكانها فلم تتطور مع خصومها وجاراتها فتقدمن عليها وسبقنها فى التنظيم الاجتماعى والحربى والرقى الفكرى .

العداء بين الانكشارية وأهل البلاد

بدأ اضمحلال الدولة الجزائرية فى صورة عداء وتحاسد بين القوى التى وكل اليها حمايتها والقيام على شئونها ، بين وجاقات الانكشارية وطوائف المقاتلة والبحارة الأندلسية والمغربية ، وبين الباشا المعين من قبل السلطان وبين الديوان المكون من الأهالى لمعاونته فى إدارة البلاد ؛ فأما الباشا المعين من قبل السلطان — والذى كانت مدة ولايته لا تزيد على سنه ـ فقد اشتغل بشئون نفسه وأنصرف عن الادارة ، واجتهد فى أن يملأ نفسه بالمال من الرشى والسرقات ، فلم تلبث هيبته أن سقطت واجترأ عليه جنوده من الانكشاريين ، وإلى هؤلاء الباشاوات ترجع مسئولية الاسراف فى التعدى على السفن والثغور ؛ فقد كان الباشاوات يدفعون أهل البلاد اليه دفعا بل يكلفون بعض القرصان بأن يقوموا به لحسابهم ، ومن ثم لم يعن الباشا بأن يحسن تمثيل السلطان أو يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه ؛ فلم يكن الجند أو الأهلون ليحسون بوجوده إلا فى الاحتفال العظيم الذى يقام لاستقباله يوم يصل من القسطنطينية ، وإلا فى هذه الاجتماعات التى كان مجلس الشورى يعقدها للنظر فى شئون البلاد بين حين وحين ، وربما حاول الباشا أن يخضع شوكة الانكشارية بالاستعانة عليهم بقبائل من أهل البلاد فنشأت عن ذلك حروب وويلات شتى ؛ وقد حاول أحدهم أن يستولى على المنحة التى كان السلطان يبعثها كل عام لاعانة الأسطول الجزائرى فكانت النتيجة أن قرر الديوان (وكانت السلطة فيه للانكشارية) أن يسحب من الباشا آخر ما بقى له من مظاهر السلطان ، وهو القيام على الأموال والاحتفاظ (بالخزنة) فتولاها الأغا يعاونه الديوان ؛ ومن ذلك الحين (سنة ١٦٥٩ م) أصبحت السلطة الفعلية فى يد الأغوات .

الوالى التركى

الأغوات

ولم يمض الا قليل حتى تبين الناس أن التغيير الجديد قد زاد الحالة سوءا

إذ أن الأغوات اقتتلوا فيما بينهم للوصول إلى مركز الرئاسة حتى لقدمات بحد السيف أربعة الأغوات الذين تولوا هذا الأمر من ١٦٥٩ إلى ١٦٧١ . وإزاء هذا الصراع بين الأغوات والوجاقات لم يجد جنود البحرية وطوائفهم إلا أن يتخلصوا من سلطة الأغوات وإن يستأثروا هم بالسلطة ، فقتلوا آخرهم وهو الأغا على وانتدبوا مكانه أحد « الريساء » وتلقب « بالداى » أى « الخال » ومن ذلك الحين أصبحت السلطة فى يد الدايات ، وفى سنة ١٦٨٩ رفض أحدهم وهو الداى على شاويش أن يستقبل الباشا المعين من قبل السلطان وطلب أن يمنح هو اللقب وأن يمارس السلطة رسمياً .

الداى

فى أثناء ذلك كانت تونس هى الأخرى مسرحا لتطورات شتى من هذا القبيل وإن اختلفت معها فى التفاصيل ، فقد كان أصحاب الأمر فى ادارتها من أول الأمر هم الدايات المعينون فى مجلس الشورى . وكان البايات (أى البكوات) يمارسون سلطة اسمية نائبين عن الباشا فى الجزائر ، فانتهزوا فرصة ضعف الدايات واستولوا على السلطة ، واستطاع أحدهم وهو الباى مراد (١٦١٢ — ١٦١٣) أن يحصل على لقب باشا وأن يحصر السلطة فى ابنه حموده وأولاده من بعده واستمر ذلك إلى سنة ١٧٠٢ حين استطاع أحد القواد أن يقتل آخر أبناء حموده ويتولى مكانه ويحصل على لقب باشا ويصبح ذا سلطة فعلية فى البلاد ويحصر السلطة فى أولاده سنة ١٧١٠ .

تونس

الباى

بهذه الأمور اشتغل أهل المغرب وقواده ورجاله واتراكه تاركين المهم من الشئون ، وقد دفعهم نظام الحكم التركى إلى أن ينصرفوا إلى مقاتلة بعضهم البعض والاجتهاد فى الكيد والتدبير مما أخذ يمتص حيوية البلاد شيئا فشيئا ، وفى هذه الأحوال استشرى خطر القرصان ، ومضوا فى أعمالهم دون أن يكون عليهم رقيب ،

ازدياد خطر القرصان

إذ تحولوا مع الزمن من طلاب جهاد إلى طلاب غنم ، واتصلت الأسباب بينهم وبين دول البحر الأبيض وقراصنته فمضوا يخبطون خبط عشواء لا يميزون بين ما يضر بلادهم وما ينفعها ، فأثاروا الدول كلها على أنفسهم وعلى بلادهم من غير حساب ولا رعاية ، فجنوا بذلك على بلادهم . وانضمت اليهم العصابات من كل جنس وناحية ومضى الجميع يداً واحدة يسرقون ويسلبون والتبعة أخيرا على المغرب وأهله والدولة الاسلامية ، وأسرفوا فى ذلك اسرافا نفر منهم الرأى العام كله والدول جميعها ، فلم تعد دول المغرب فى نظر أوروبا إلا جماعات من القرصان لا فرق بين حاكم فيهم ولا جندى ولا صاحب صناعة ولا صاحب دين . ولم يكن الأمر على ذلك فى الحقيقة . اذ ان أهل المغرب الأصلاء

أهل المغرب الاصليين

مضوا فى سبيلهم لا يكادون يشتركون فى النزاع بين الجند والحكام ولا يد لهم فى سرقة ولا قرصنة « فتولت نقاباتهم شئون الصناعات المحلية ، وتناولوا الزراعة . . . فاحتكر أهل الزاب القيام على الحمامات العامة وتجارة اللحوم والمطاحن فى المدن ، وساهموا كذلك فى تجارة القوافل والرقيق الأسود ، واختص البسكريون بالسقاية وأعمال بسيطة أخرى وبعض أعمال الشرط »(١) وهكذا ، وضمت المدينة كذلك كثيرين من اليهود تناولوا شئون المال وبعض أعمال أخرى ولكنهم كانوا محقرين من الأهلين لا ينظر اليهم برعاية أو احترام ، وانصرف أهل البلاد إلى اقامة المنشآت العمرانية كالطرق والأبنية والمساجد وغير ذلك مما لا يزال باقيا إلى اليوم : فاذا ساهم أحدهم فى القرصنة اشترك فيها اشتراك تجارة : فاكترى بعض السفن وأجرها للملاحين لقاء مال أو جزء من الغنيمة . بيد أن اتساع أعمال القرصنة لم يلبث إن زاد ثروة أهل المغرب من الغنائم والاستلاب ، فعم البلاد الرخاء ، وأصبحت كل من تونس والجزائر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر من مراكز

ازدهار تونس والجزائر

(١) Julien : Hist. de l'Afr. du Nord. P. 527

العمران والحضارة فى البحر الأبيض . فبلغ سكان الجزائر مائة ألف وكثرت فيها الأبنية والمتاجر . وبلغ عدد سكان تونس ٨٠٠٠٠ وأصبحت حصونها ملجأ للهاربين من أسبانيا وجزائر البليار ، وتقدمت البلاد تقدما ظاهرا ، وكانت تونس أكثر ازدهارا لخصب تربتها وكثرة مجارى المياه الصالحة فيها ، وجريان نهر مجرد فى أرضها فلم تعول كثيرا على ما يرد عليها من اسلاب القرصان » ولم تبلغ القرصنة فيها الأهمية الكبرى التى صارت لها فى ولاية الجزائر ، ثم كانت ضرورات التجارة والعلاقات التجارية سببا فى أن تهتم الحكومة بالحد من طغيان القرصان » (١)

تجارة الرقيق فى المغرب

وازدحمت مدائن تونس والجزائر بطوائف شتى من الأسرى أخذ عددهم يزداد عاما فعاما ، وكان جل هؤلاء الأسرى من الاسبان والانجليز والفرنسيين والايطاليين وشعوب أوروبا الأخرى ، فاصبحت تجارة الرقيق نافقة فى نواحى المغرب وأصبح الاعتماد على الرقيق عظيما فى شتى الأعمال . ولكنهم لم يكونوا فى الحال السيئة التى يتصورها الناس فقد كان مالكوهم يحسنون معاملتهم ، ويشفقون عليهم ، ولا يشتدون عليهم ، بل كانوا يتركونهم يمارسون شعائرهم الدينية ، وقد روى هايدو المؤرخ الاسبانى أنه لم يكن على القساوسة منهم حرج فى أن يرتلوا صلواتهم ترتيلا مسموعا على وقع الموسيقى(٢) فأين هذا من معاملة أهل باريس فى ذلك الحين لمن كان يقع فى يدهم من البروتستنت : لقد كانوا يلقونهم تحت العجلات فى الطرقات، ويجتمع الناس للتفرج عليهم . . . ، وعلى الجملة كان وضع الرقيق فى المغرب كوضعهم فى كل بلاد المسلمين ، إخوان لسادتهم يساهمون معهم فى الحياة العامة داخل

---

(1) Julien; Hist. d'Afrique du Nord P. 546

(2) » » » » » P. 546

المنزل وخارجه . ولم يكن الرجل ليطيل استرقاق ملك يمينه بل كان يحرره ويعتق رقبته ابتغاء مرضاة الله . وكانت الرقيقات يتزوجن سادتهن ويرتقين إلى مقام الأمهات المكرمات

اضمحلال قوة اسبانيا البحرية وبدء ظهور قوة فرنسا

وكان الموقف السياسي يتطور فى غرب البحر الأبيض المتوسط تطورا خطيرا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فقد أخذت أسبانيا تهوى من الأوج الذى كانت فيه ، بعد ثورة مستعمراتها عليها وهزيمة أساطيلها أمام الانجليز ، وأخذت قوة فرنسا البرية والبحرية فى الظهور ، ومن ثم استراح أهل المغرب من منافسة الأسبان وعدوانهم وأخذوا يستقبلون عدوا ناشئا جديدا فى شخص فرنسا ، وبدأ ثغر مرسليا يأخذ طريقه إلى النهوض ، واهتم أهله بحماية الأساطيل الفرنسية ؛ فكانوا يقومون بمغامرات وأعمال تجارية ، وكان الانجليز قد تفوقوا عليهم فى أمريكا والهند وأخذوا عليهم هذه السبيل ، ومن ثم لم يجد تجار فرنسا وملاحوها ميدانا خاليا غير ميدان المغرب فاتجهوا اليه ، ومن هنا تلاحظ أن الضغط الفرنسى على المغرب أخذ يزداد بنسبة ما كانت تفقد من مستعمرات وأسواق فى البحار الأسيوية والامريكية .

سانسون نابولون

فى أوائل القرن السابع عشر استطاع رجل فرنسى — قرصيقى الأصل اسمه سانسون نابلون أن يحصل من دولة تونس على تصريح باقامة محرس تجارى حصين عرف باسم البستيون Bastion (٢٩ سبتمبر سنة ١٦٢٨) على الساحل الافريقى ، وبذل للحصول على ذلك أموالا شتى بعضها رشى لأصحاب الأمر وبعضها الآخر قروضا وأموالا تدفع للدولة ، واحتكر صيد المرجان على السواحل الأفريقية نظير دفع ستة عشر ألف جنيه جزية سنوية . ولم يكن مصرحا له بأن يقيم حصونا أو يتدخل فى شئون البلاد ، ولكنه استعمل البستيون

مركزا للاستطلاع والتجسس على أهل البلاد ، ثم تناول تصدير القمح وامتدت يده إلى متاجر شتى فى بلاد المغرب.

الايطاليون

وكان الايطاليون قبل ذلك قد حصلوا من خير الدين على تصريح باحتلال جزيرة طبرقة وجعلوها مركزا لمتاجرهم ، وكانوا يتولون صيد المرجان وكثيرا من المتاجر ، وكان معظمهم من جنوا فأثارهم ماوصل اليه الفرنسيون على يد سانسون ، فدبروا له مؤامرة انتهت بمقتله والتمثيل بجثته فى مايو سنة ١٦٣٣ .

أهل جنوى فى الميدان

بهذا تغير ميدان الصراع ، فلم يعد بين الفرنسيين والأسبانيين وانما بين الفرنسيين والجنوبيين ، وأخذ الفرنسيون يبذلون وسعهم للتخلص من هذه المنافسة الجديدة ليخلو لهم غرب البحر الأبيض ، واشتد النزاع بين تجار جنوة وأصحاب شركة سانسون حتى أقلق النزاع بال حكام الجزائر فصادروا منشآت الأوروبيين جميعا فى ديسمبر سنة ١٦٣٧ . ولكنهم لم يلبثوا أن منحوا امتيازات Concessions جديدة لشركة فرنسية مرسيلية أخرى صرح فيها للشركة بأن تقيم منشآت لحماية أموالها وأرواح أصحابها ، ولم يكد أهل ليون يرون ماوفق إليه أهل مرسيليا حتى خفوا هم الآخرون يطلبون امتيازات واستطارت منازعات طويلة بينهم وبين المرسيليين على ذلك ، وانتهى الأمر بأن حصل أهل ليون على نفس الحقوق التى كانت مقررة لشركة سانسون وأمضى اتفاق بالامتياز الجديد فى أول يناير سنة ١٦٩٤ ، واستمر هذا الاتفاق أساس المعاملات بين الجزائريين والفرنسيين حتى سنة ١٧٥٤ (١) ، وقد تقرر فى هذه المعاهدات كلها أن يقتصر الأجانب على التجارة فقط ولا دخل لهم فى شئون البلاد السياسية .

أهل ليون فى الميدان

---

1 — Julien : Op. Cit P. 552.

بيد أن هذه الحال لم يكن مقدرا لها أن تستمر طويلا، فهذه الهدنة المعقودة لم ترض أحدا من الجانبين : لم يرض عنها أهل المغرب لأنها حرمت عليهم مهاجمة السفن وسلب مافيها، وكانت الدولة تفيد كثيراً من الأموال التي تجبيها من القراصين ، أو التي تربحها إذا كلفت بعضهم بالقيام ببعض غارات وسرايا لحسابها ، فكان الملاحون المغربيون يفضلون حالة الحرب مع أخطارها على حال السلام لقلة رزقه وجدواه ، وأما الأوروبيون فقد كان الكثيرون منهم يطالبون بمحاربة الدول الأفريقية لاستنقاذ من بيد أهلها من الرقيق ، وأخذ الرأى العام فى مختلف بلاد أوروبا يهاجم سياسة الاتفاق التجارى مع بلاد المغرب وأخذت الحكومات — تحت ضغط الكنيسة والرأى العام — تتحين الفرصة للتخلص من هذه الاتفاقات ومحاربة دول المغرب ، هذا إلى أن هذه الاتفاقات لم تكن تعقد مع دول أوروبا كلها ، بل « كانت الجزائر لا تتفق إلا مع دولة واحدة وتشتد على غيرها — (فى أعمال السلب والقرصنة) ، فحينما عقدت الجزائر صلحا مع ريتر Ruyter الهولندى ، كان معنى ذلك نقض الاتفاق مع فرنسا وتوجيه أعمال القرصان نحو السفن الفرنسية (سنة ١٦٦٣) وكان معنى التحالف مع لويس الرابع عشر ، إعلان الحرب على الانجليز والهولنديين سنة (١٦٧٠) ، وكان معنى الاتفاق مع الانجليز سنة (١٦٨١) إعلان الحرب على السفن الفرنسية »[1] ، وبهذا استمرت القرصنة فى طريقها تؤذى الجزائر أكثر مما تؤذى الدول ، بسبب ماتقيمه نحو بلادها من العداء الشديد".

الرأى العام فى أوروبا يثور الغرب

حاولت الدول أن توقف سيل القرصنة فلم تستطع ، وكلما تقدم الزمن بالدويلات المغربية كلما ضعف أمرها وأصبح الاعتماد عليها

---

1) julien Op. cit 553

فى القضاء على القرصنة أقل نفعا . وكانت سواحل المغرب على طولها تستعمل كلها مراكز لهؤلاء القراصين الذين تخلصوا من كل رقابة ومضوا يأتون من الأمر ما يريدون رضى حكام المغرب وأهله الاصلاء أم لم يرضوا ، فلما أعيت دول أوروبا الحيلة لجأت إلى القوة ، فضربت انجلترا الجزائر بالمدافع ثلاث مرات (١٦٢٢ ، ١٦٥٥ ، ١٦٧٢) وكان الانجليز والهولنديون إذ ذاك فى عنفوان نهضتهم الملاحية ، وكانت سفنهم تضرب فى عروض البحار فى الأطلسى والبحر الأبيض ، فاشتد القراصين فى تصيد ما تيسر لهم منها حتى اعيي الصبر ملاحين مهرة من أمثال بليك ومرلمبره وآلن . وانتهى الأمر بهم أخيراً إلى قبول دفع جزية لداى الجزائر حتى يأمنوا على سفنهم ومتاجرهم من أذى القراصين : « فكانت دولة انكلترا تؤدى لها ستمائة ليرة انكليزية فى كل سنة ، ودولة فرنسا هدايا ثمينة تؤديها عند تغير قناصلها ، ودولة الدانيمرك آلات ومهمات حربية قيمتها أربعة آلاف ريال شنكو وهدايا نفيسة ، ودولة هولندة ستمائة ليرة فرنساوية ومملكة سيايزيا أربعة وعشرين ألف ريال شنكو ، ومملكة سردينيا ستة آلاف ليرة فرنساوية ، والولايات المتحدة بامريكا آلات ومهمات حربية قيمتها أربعة آلاف ريال شينكو ، وعشرة آلاف ريال نقدية تحضرها قناصلها معها والبرتغال هدايا بهية ، وأسوج ونروج آلات حربية وذخائر بحرية تساوى قيمة وافرة ، وهنوفر وبرام من المانيا ستمائة ليرة انجليزية وأسبانيا هدايا نفيسة ، وربما حاول بعضهم فى بعض الأحيان مقاومتها وتحرك للانتقام منها فلا يصادف نجاحا فيضطر الى مسالمتها » (١)

الانجليز يضربون الجزائر بالمدافع

لانجليز يدفعون جزية لداى الجزائر

بقية الدول الاوروبية تدفع جزى

وكانت فرنسا أحفل دول أوروبا بالأذى ، فكان خليقا بها أن تكون أكثرها اهتماما بهذا الأمر ، ومن ثم اتصل العداء بين الفرنسيين والجزائريين طوال القرن السابع عشر ، وتكررت حوادث الاعتداء

العلاقة بين فرنسا والجزائر من عصر النهضة

(١) تحفه الجزائر فى مآثر الامير عبد القادر : ح ١ ص ٨١

من الفريقين، وتوالت مذابح الجزائريين فى مرسليا ومذابح الفرنسيين فى الجزائر . ونهب البستيون مرارا عديدة ، وأهين قناصل فرنسا كثيرا ،وضربت المدافع الفرنسية الجزائر مرات عديدة بغير جدوى ، بل حاول الفرنسيون غزو الجزائر سنة ١٦٦٤ فلم يوفقوا فى ذلك وعادوا بعد خسائر فادحة ومقتلة عظيمة، وحاولوا مرة أخرى احتلال جيجل فلم يكونوا أسعد حظا . ثم حاول الفرنسيون التدخل فى شئون المغرب عن سبيل الدين فاتجهت همة الجمعيات التبشيرية الفرنسية والاسبانية إلى اقامة مراكز وكنائس على الأرض المغربية ، وحاولوا بذلك أن يثيروا أوروبا المسيحية على المغاربة المسلمين إذا أصاب الكنائس ضر ، وقد وفق القساوسة بعض التوفيق فيما ندبوا من أجله، واخذ الاعتماد عليهم يزداد بفضل عناية الوزير الفرنسى كلبير ، فأصبح رجال الدين هم المنادون بتخليص أسرى الاوروبيين فى الجزائر ، ثم عهد اليهم اخيرا فى القيام بوظائف القناصل ، حتى اجتمعت مصلحة المسيحية إلى مصلحة فرنسا ، وحتى أصبح ممثل فرنسا هو ممثل المسيحية فى أرض المسلمين ، واستمر العداء بين الفرنسيين المغاربة متصلا طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

بعوث تبشيرية الى المغرب

كلبير يعتمد على القساوسة فى المغرب

ازدهار الجزائر

وكانت الجزائر طوال هذين القرنين على حال طيبة من الرخاء والقوة ، واتسعت رقعتها وشملت نواحى كثيرة ، وغزت تونس نفسها سنة ١٦٨١ ، وأعانها على القوة والرفاهية انقطاع الصلة السياسية بينها وبين الدولة العلية تقريبا ، فكان داى الجزائر أشبه بالأمير المستقل يأتى من الأمر مايريد دون أن يكون عليه فى ذلك حرج ، فلوقد تفطن اولئك الدايات فى هذه الفرصة الطيبة فأجادوا تنظيم بلدهم وأعدوها لمقاومة كل عدوان يراد بها ، لأغنى ذلك عنها كثيرا ، ولافلتت البلاد من المصير السيء الذى ستلقاه فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولقد كانت

نواجذ العداوة تتبدى لها ، وكانت أيادى الغزو تنوشها ، ومع هذا لم يتفطن أحد من هؤلاء الحكام إلى أن يحسب للمستقبل حسابا ، ويأخذ نفسه وبلاده بالتقية من شر يكون ، وقد منحهم الله أرضا يسهل الدفاع عنها ، وقدرة على ركوب البحر لها خطرها فى الصراع المقبل ، ومع هذا لم يغن عنهم ذلك شيئا . وقد كانوا على صلة باوروبا يستطيعون أن يروا بعيونهم ما يفعل حكامها ليحفظوا بـــلادهم وعروشهم ، وقد كان الاصلاح عليهم سهلا ميسورا .. ولكنهم أبوا إلا الرجوع إلى الوراء فى لحظة اشتد فيها سباق الناس إلى الامام .

بدء اضمحلال المغرب

ففى اوائل القرن الثامن عشر أخذت بوادر الأنهيار تلمع فى أفق المغرب ، وبدأت غواشى المحن تزورها وتثقل عليها ، أخذ إيراد الدولة من القرصنة يقل بتقدم الملاحة الاوروبية واحتياط السفن المارة بسواحل افريقية ، فلم يزد دخل الدولة من هذا الباب على مائة الف من الفرنكات ، وفى الوقت الذى كان ينبغى عليها فيه أن تزيد قوتها البحرية نجدها تتهاون فى شأنها فينزل عدد السفن إلى النصف ، وقد كانت البحريات الأوروبية قد بلغت من التقدم والرقى فى ذلك الحين مبلغا طيباً ومع هذا لم يجد دايات الجزائر مايدعوهم إلى تحسين سفنهم وتقوية جبهتهم ، وأقبلت الاوبئة فى أواخر القرن الثامن عشر واجتاحت الأهلين حتى إن كان ليموت فى الجزائر الف كل يومين ، وكان فى الجزائر أطباء فرنسيون يعرفون أساليب طبية لمقاومة هذه الأدواء ومع هذا لم ير الحكام داعيا لحماية أرواح الرعية ، فتركوا الداء يستشرى والعلة تستعر حتى هبطت الأمراض بالناس والبلاد إلى درك سحيق ، وانقطع مدد المتطوعين الى جيوشهم لأن المحصورين فى اسبانيا من المسلمين قد انتهوا ، ومع هذا لم يفكر الدايات فى أسلوب يعوضون به ما تهاوى من جيوشهم ، حتى أصبح الجيش المغربى كله

مسئوليه حكام المغرب فى ذلك الاضمحلال

ستة آلاف جندى فقط ! [1] بل كان أولى بأولى الأمر أن ينظروا ، فهذه متاجر الفرنسيين فى البلاد يشتد ساعدها وتتزايد ارباحها ، وهذه حكومة فرنسا تأخذ الشركات الفرنسية العاملة فى المغرب فى حمايتها ويبسط الملك عليها رعايته ، وهؤلاء هم الفرنسيون يحتكرون تجارة القمح وتصديره ويحتفلون بتوفيقهم فى تجارة المغرب ، فيضربون مداليات من الذهب احتفالا بالنصر والكسب ، ويوزعونها فى ساعة ثقل الفقر بكلكله على المغربيين جميعاً . كان أولى بهم أن يعتبروا بهذا كله ، ويكون لهم منه عظة ونذير ، ولكنهم أرسلوا أنفسهم مع التهاون ، وألقوا حبلهم على غارب الأيام ، فدهمهم الأمر وهم ايقاظ كنيام

انتشار المتاجر الفرنسية فى المغرب

وانقضى عصر الدايين الأقوياء . وأخذ يتولى الأمر منهم رجال ضعاف ، واقترن ذلك بصعود نجم الجندية واجتماع القوة كلها فى يد الأجناد وقوادهم ؛ وأدرك الأمة كلها فتور ، فلم يعد للديوان حول ولا طول ، وترك الناس إدارة البلاد لمن يشاء يصرفها كيف شاء ، ومال الوزراء إلى الراحة ، وحذا حذوهم الموظفون فلم يعن « أغا المحلة » بان يناقش الداى فى شئون البلد الحربية ، وانصرف « وكيل الخراج » عن العناية بشأن الأسطول ، ولم يهتم « الخازندار » بشئون المال ، ترك هؤلاء العمال الشئون كلها فى يد الداى يصرفها كما يهوى ، وثقلت عليه الأمانة فسلمها للجند واستراح . . وهذا فى أواخر القرن الثامن عشر . . أى فى عصر النهوض والقوة . . عصر الأخطار والأهوال ! . . بل لقد أتعبه البقاء فى المدينة وأحب أن يبلغ نفسه من الراحة مبلغا طيباً ، وخاف عليها فتك الجنود ، فآثر العافية ، وانتقل من قصره المعروف بالجنينة ، وأوى إلى قلعة الجزائر المعروفة بالقصبة ، وهناك جمع متاعه وماله وعتاده وحريمه ، وترك الأمر لمن بيده الأمر . . فلم يخطىء المؤرخ الأسبانى جوان

اضمحلال الدايات وفساد الموظفين

„1„ Julien; Op. Cit, P, 559

كانوا » حين وصفه بقوله « رجل غنى ليس له على أمواله سلطان ، أب بلا ولد ، وزوج بلا زوجة ، ومستبد بلا حرية ، ملك عبيد وعبد رعاياه » فليس هناك أصدق من هذا الوصف اللاذع للحاكم الذى سيظل على سكونه هذا حتى إذا تحرك فتح على بلاده تنور الطوفان .

قبائل المغرب تثور بالحكومة القائمة

وليس على قبائل المغرب حرج فى هذه الحال إذا هى ثارت على الحكومة وخاصمتها وخلعت سلطانها ؛ وليس على قبائل وادى سبو من حرج إذا أعلنت استقلالها وخلعت طاعة الأتراك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وليس على غيرهم من القبائل من بأس إذا تواثبوا بالدولة فى كل مكان ورفعوا راية العصيان، وليس على الأسبان من حرج أيضاً إذا هم حاولوا افتتاح المغرب من جديد، فهاجموا مدائن الساحل مرارا عديدة وخربوا وهران ، وليس على الفرنسيين من حرج كذلك إذا فكروا فى غزو المغرب من جديد ، فاذا تعذر عليهم ذلك لكثرة الشواغل ومسائل الثورة فلا بأس من انتهاب أموال المغرب، واستيراد القمح منه وتأجيل الدفع حتى تتراكم ديون الجزائر عند فرنسا ، لاضير على الحكومة الفرنسية أن تفعل هذا فهى تعرف أنها لن ترد شيئا من ديونها وأن الجزائر أعجز من أن تسترد مالها . . وان الداى أقل عناية بشئون بلاده من أن يتعب الفرنسيين بالمطالبة والالحاح . لاضير عليها أن تفعل ذلك ، بل لاضرورة تلح عليها فى غزو المغرب مادامت تفوز منه بملايين الجنيهات قمحا . بل لعل مصلحتها تستدعى أن ترفض التعاون مع الدول فى القضاء على القرصان . . مادام بقاء الجزائر والقرصان يفيدها ويؤذى عدوتها انجلترا .

الاسبان يهاجمون المغرب من جديد

الفرنسيون يفكرون فى غزو الغرب

مؤتمر اكس لاشابل للنظر فى شئون القرصنة

وربما كان ذلك كله معقولا يتفق مع طبائع الأشياء، ولكن الغريب الذى يستوقف النظر أن الأيام ما كانت تزيد الجزائريين ألا عتوا فى القرصنة وشدة فى ترصد السفن وانتهابها ، فهذه أوروبا تتأذى من أعمالهم وتعقد مؤتمرا فى اكس لاشابل للتفاهم فيما يتخذ حيال الجزائر ، ثم تؤثر الحسنى وتندب أميرالين انجليزى وفرنسى لمفاوضة الداى فى كف

يدرعيته عن الأذى . فيلقاهم الداى صلفا راكبا رأسه، ويحدثهم حديث الآمر الناهى متهددا متوعدا ، وهؤلاء هم الانجليز يبلغ بهم اليأس مداه فيرسلون أسطولا بقيادة اكسموث الانجليزى وكابتن الهولندى لتأديب العصاة فيصيب الجزائر بشىء من العطب ثم ينصرف فى أغسطس سنة ١٨١٦ . (١)

حكام المغرب يزدادون شدة فى معاملة أوروبا

وفيم الخوف ومم الحذر ، وماذا تكون أوروبا هذه أمام بضعة آلاف من الجند الجزائرى . . وماذا تكون أساليبها وحضارتها إلا هباء فى هباء . . ليمض الداى فى طريقه مستبدا غشوما . . يسخر من قناصل الدول فى اللحظة التى يصانعهم فيها محمد على ويرجو حسن ظنهم — وهو أقوى من الداى أضعافا مضاعفة — وليشتد باى تونس فى طلب المال من القناصل والدول غير عارف أن ذلك يجعل دولته فى وضع دولى غير لائق بها ولا بمقامها بين الدول ، وليعجب الداى من محمد على كيف يسأله أن يصانع الفرنسيين ويخشى شرهم ، وليسخر منه لهذا سخرية بالغة . . وليرفض وساطته وليرد عليه ردا خشنا (٢) . .

---

(١) ويبدو أن جند المغرب كانوا على حال من الغرور والجهل بقوة أوروبا أشبه ما كان عليه أصحابهم المماليك فى مصر قبل الحملة الفرنسية ، فقد حاول عمر باشا الوالى التركى أن يصالح اكسموث وينتهى معه الى رأى ، فثار الجند به « ونقموا عليه الشروط الانجليزية ، فقبضوا عليه وقتلوه خنقا وولوا مكانه على خوجه » وقد التمسنا العذر لمماليك مصر فى جهلهم قوة الفرنسيين لانقطاع أسباب الصلة بين الجانبين . - ولكننا لانستطيع أن نلتمس عذرا لجند الجزائر ، فقد كان الباب مفتوحا بينهم وبين أوروبا ، وكان القتال بين الجانبين متصلا فى البر والبحر فكيف جهل المغاربة قوة الأوروبيين واساليبهم ؟

راجع : تحفة الزائر فى أخبار الجزائر ح ١ ص ٨٠

(٢) « واتصل الخبر بملك فرنسا ففاوض أهل دولته فوسطوا محمد على باشا خديوى مصر ان ينصحه ، فارسل له كتابا ينصحه ويحذره ويعلمه به بأن العاقبة وخيمة ، فلما قرأه حسين باشا قال للرسول « بلغه سلامى وقل له يأكل الفول » وربما كانت نصيحة محمد على هذه سابقة لمفاوضته مع فرنسا على فتح الجزائر لحسابها ، ولا يستبعد أن يكون الداى حسين قد علم بهذه المفاوضات فتعمد ان يسخر من محمد على هذه السخرية

تحفة الزائر فى أخبار الجزائر ح ١ ص ٨٣

(1) Dodwell : Op. Cit, P 97. 98

فمحمد على هذا رجل مسكين لا يفهم الأمور ولا يقدرها قدرها !
ليذهب الغرور بالداى مذهبا بعيدا وليمالكه الصلف ، وليغمض عينيه
وليطمئن فلا خوف عليه ولا هو يحزن !

الداى حسين باشا وسياسته

بذلك كانت سياسة الداى حسين باشا سببا فى انعدام الرجاء فى الصلح بين فرنسا والجزائر، أو بين الدول الأوروبية كلها بصفة عامة والجزائر، فقد كانت الدول كلها مستطيعة احتمال هذا الموقف من الداى ، ولكن فرنسا لم تكن لتستطيع لأنها كانت أكثرها شجى به لقرب ثغورها من ثغوره و كثرة تعدى سفنه على سفنها ، ولم يكن يخفى على أحد ممن يتأملون حوادث هذه الأيام أن الفرنسيين كانوا يفكرون جديا فى التخلص من داى الجزائر و القضاء على سلطانه، ولو قد كانت فرنسا فى ظروف غير التى وجدت فيها بين سنتى ١٨٢٥ ، ١٨٣٣ لتقدمت حملتها على الجزائر بضع سنوات ، ولكن حكومة شارل العاشر كانت فى شغل بمصائبها فانظرت الجزائر على مضض ، بل رغبت إلى محمد على أن يقوم هو بهذا الأمر ، فيقود حملة يخضع بها طرابلس وتونس والجزائر ويقر الأمور فى سواحل المغرب ، على أن تقدم له الحكومة الفرنسية معونة من مال وسفن ، وتلك هى « المسألة الجزائرية » المعروفة فى تاريخ محمد على ، ولكن الرجل أظهر فى الأمر حكمة موفورة ورأياً حزماً ، فقد رأى من بادىء الأمر عبث المشروع وقلة جدواه عليه وكثرة نفقاته « ولكنه لم يحب — فى نفس الوقت — أن يدع الفرصة تفلت من بين يديه ، لأنه لو قدر لهذه المفاوضات الفرنسية أن تنتهى إلى شىء لأفاد منها فائدتين : فهى فرصة يعيد فيها بناء أسطوله وسبيل للمحالفة مع الفرنسيين أو مع الانجليز إذا أقلقهم الأمر وأخافهم (١) » ومن ثم اشتط فى طلب الثمن الذى يدفع له للقيام بهذه المهمة ، فطلب مبلغا جسيما من المال وأربع سفن كبرى من ذوات

فرنسا تفاوض محمداً عليا لفتح الجزائر

---

(1) Dodwell Op, Cit, P. 98

الثمانين مدفعا : وعبثا حاول المسيو ميمو — المندوب الفرنسى فوق العادة الذى ندبه بولنياك لمفاوضة محمد على — أن يقنع محمدا عليا بالتعجيل فى العمل ، لأن الرجل كان يخشى الانجليز ويخشى الدولة العلية ، وقد حذر الساسة الفرنسيين من ذلك ونصحهم بالكتمان ، ولكن هؤلاء لم يرزقوا حصافته ولا دقة فهمه ، فمضى دروفتى قنصل فرنسا يحدث باركر قنصل انجلترا فى الأمر ! وتعجل جلمنيو Guilleminot سفير فرنسا فى تركيا فحدث الريس افندى فى المشروع راجيا الحصول على موافقته ، فعجل الانجليز بمقاومته ، وعارض الباب العالى مؤكدا أنه يستطيع إرسال مندوب خاص - طاهر باشا - لمفاوضة الداى بغير حاجة إلى حرب أو فتح ، وانتهى المشروع كله إلى فشل تام لمعارضة الانجليز والأتراك ، واعتراض الوزراء الفرنسيين على تسليم سفن فرنسية لمحمد على ، واضطراب الحكومة فى يد بولنياك وملكه شارل العاشر.

بولنياك يفكر فى فتح الجزائر جديا

بيد ان ظروفا جديدة ما لبثت ان أيقظت فى اذهان الوزارة الفرنسية فكرة فتح الجزائر ، فقد زاد احساس شارل العاشر ووزيره بولنياك بانصراف الفرنسيين عنهما وسأمهم حكمهما وتحدثهم بالثورة على الملكية الضعيفة ، وكان شارل العاشر يحتمل ذلك مادام مشروع تقسيم أوربا مذخورا رهن التنفيذ بيد وزيره ، لأن تنفيذ هذا المشروع كان جديرا بان يرضى قلوب الفرنسيين ويحبب الملك اليهم ، فلما فشل هذا المشروع وتحطمت آمال شارل فيه ، رأى وزيره ضرورة عمل شىء يرفع من قدر حكومته فى نظر الفرنسيين من جهة وليشغلهم به عن نقدهم اياه من جهة أخرى ، وانتهى به الأمر الى التفكير فى فتح خارجى ، فالشعب الفرنسى مفتون بالحروب والغزوات تملكه اخبارها ويأسر قلبه مجدها وفخارها ، ومن ثم تخير الجزائر ميدانا لهذا الفتح ، ففيه كذلك انتقام

لما أصاب الفرنسيين من أذى على يد اهل الجزائر ، وفيه كذلك شفاء لغريزة دينية مطوية فى قلوب الغاليين ، واعانه على ذلك ان وزير حربيته مارمون كان يتحرق شوقا لقيادة هذا الفتح ، ومن ثم اخذ شارل ووزيره بولنياك يتحينان الفرصة المناسبة للقيام به

الفتح الفرنسى للجزائر فى رأى جوليان

ولكن سوء الطالع أبى إلا أن يلازم شارل العاشر فى كل مانوى فكان سىء الاختيار المناسبة التى بدأ فيها بفتح المغرب ، وكان سىء الاختيار للقادة الذين ندبهم للقيام به ، وكان سىء التقــــدير حين رجا ان يقيم امر ملكيته بهذا الفتح ، فلم يخطىء جوليان حين وصف الفتح الفرنسى للمغرب بقوله انه «كان عملا مضطربا دبره تجار جزائريون يهود بالاشتراك مع سياسيين مفسدين فى باريس وكان ـ اى الفتح ـ حادثا أثاره سياسى متهم فى ضميره ، وكان حملة قادها قائد سىء السمعة قيادة خاطئة ، ونصرا تلقاه الرأى العام بعدم اكتراث ، واعقبه سقوط الاسرة التى طلبت فخره ، تلك كانت المقدمات الفريدة التى مهدت لفتح المغرب على يد فرنسا » (١)

مقدمات الفتح دين البكرى

ترجع المقدمات القريبة للفتح الفرنسى الى القضية المعروفة « بديون البكرى وأبى زناك » اليهوديين ، وهى قضية لا يقال عنها الا انها كانت مؤامرة سيئة دبرها هذان اليهوديان بالاشتراك مع نفر من كبار الساسة الفرنسيين لسرقة داى الجزائر وحكومة فرنسا على السواء ، ودراسة تفاصيلها تدل على ان السياسيين الفرنسيين كانوا يريدون ان يغصبوا حاكما شرقيا بضعة ملايين من الفرنكات فاذا طالب بها كان مسيئا خارجا عن حدوده فى معاملة دولة محترمة مثل فرنسا ؛ بل يبدو كذلك ان الاستخفاف بلغ بالوزراء الفرنسيين مداه ، فلم يكفهم المماطلة والاحتيال ، بل قصدوا إلى احراج الداى بتعيين رجل متهم فى خلقه وأمانته للسفارة

(1) Julien; Op, cit.P,575

ديفال قنصل فرنسا في الجزائر قبيل الفتح

لديه ، وعبثا حاول الداى أن يحتج على بقاء هذا الرجل ، وعبثا حذر الحكومة الفرنسية من جرائر بقائه عنده على مابينهما من سوء الظن والتخوف والازدراء ، فلم تستمع إليه حكومة فرنسا ، وانتهى الأمر بينهما إلى مشادة عنيفة ملك الداى الغضب فيها فلطم القنصل الفرنسى ديفال بمروحة كانت بيده ، فكانت تلك اللطمة هى الشرارة التى اشعلت الحرب بين الجانبين .

ديون الداى لدى حكومة فرنسا

أما ديون الداى لدى حكومة فرنسا فقديمة ترجع إلى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، إذ احتاجت الحكومة الفرنسية إلى القمح اللازم لحملتى إيطاليا ومصر ، فتعهد بتقديمه إليها تاجران يهوديان من تجار الجزائر ، يرجعان إلى أصل إيطالى – إذ نشأ فى ليفورنيا – هما يعقوب كوهين بكرى وميخائيل ابوزناك ، وكان الداى حسين

الداى حسين يفوض للبكرى وأبى زناك شئون تجارته الخارجية

(منذ سنة ١٨١٨) قد فوض لهم أمر تجارته الخارجية ، فمضيا يوردان القمح سنوات طويلة ولا يعطيانه شيئاً ، وكان لهما شبه اتفاق مع تاليران — وزير الخارجية الفرنسية إذ ذاك — على أن يقتسموا مايأخذونه من الحكومة الفرنسية ثمنا لهذا القمح من غير أن يكون للداى — وهو صاحب الحق الأول فيه — نصيب ، ومضت السنوات واليهوديان يضيفان على المبلغ أرباحا وهمية ويتراخيان فى مطالبة

تاليران يشترك مع اليهوديين فى سرقة الداى

الحكومة الفرنسية حتى تزداد المسألة تعقدا ، وتعهد تاليران بالدفاع عنهما ، فكان لايفتأ يوصى وزير المالية « بأن لايعتبر هذه المسألة مسألة شخصية ، وإنما مسألة حكومية » (١) ، ولما تكررت مطالبة الداى نصح تاليران له بأن يطالب نابليون فى مصر بهذا المبلغ ، وبهذا غرر الثلاثة به فى اللحظة التى تناولوا فيها أربعة ملايين من الفرنكات من الحكومة الفرنسية لتسليمها لصاحب الحق . وبعـــد

(1) Julien Op. cit. P. 575

سنوات قليلة تقدم اليهوديان إلى حكومة فرنسا يطالبانها بأربعة وعشرين مليونا من الفرنكات هي مبلغ ماوصل إليه الدين وأرباحه المركبة ، فلم يسع الحكومة الفرنسية إلا أن تحقق هذه المبالغ وانتهى الأمر بتقديرها اياه بمبلغ سبعة ملايين فقط .

سوء العلاقة بين ديفال والداى

وفى هذه السنوات أقامت الحكومة الفرنسية ديفال قنصلا لها لدى حكومة الداى وهو رجل متهم فى ذمته ، وكان الداى يكرهه ولا يطيق معاملته ، فلم يلبث حسين أن أيقن أن ماله ضاع بين تسويف الحكومة الفرنسية وممالأة تاليران وتأثير البكرى وحظوة مندوبه فى باريس نيقولا بليفل Micolas Pleville وتحدى ديفال ، وتحققت مخاوفه حين اعترفت الحكومة الفرنسية بحقوق البكرى ولم تشر إلى حقوقه هو بكلمة واحدة — وهو أولى الناس بالمال — وأحست « غرفة التجارة فى مرسليا » بأن شيئا من الاتفاق قد تم بين بكرى وديفال على العبث بمصالح فرنسا والجزائر معا ، فاعلنت رفضها التعامل مع القنصل ، ومضى الداى يشكو سوء معاملة ديفال فكتب إلى حكومة فرنسا سنة ١٨٢٦ يبلغها بأنه لم يعد يحتمل بقاء هذا «الدساس» لديه ورجا الحكومة الفرنسية أن تستبدل به رجلا « شهما » ، بل رأى الرجل المكيدة تكاد بين يديه فابلغ الحكومة الفرنسية أن بكرى وعد بليفيل وديفال بأن يمنحهما مليونين من الفرنكات إذا حصلا له على الملايين السبعة المتجمدة لدى الحكومة الفرنسية .

غرفة التجارة فى مرسليا ترفض التعامل مع ديفال

الداى حسين يشكو ديفال

الحكومة الفرنسية تابى دفع ديون تجار الجزائر

لاحرج على حسين إذن إذا خرج به الغضب على ديفال عن طوره ، وقد وجد الحكومة الفرنسية تصر على سرقته وانتهاب أمواله وإيذائه ، وزاد فى غضبه أنه « كان لتجار فرنسا من أهل مرسيليا على تجار الجزائر مليونان وخمسمائة الف فرنك فرفعوا امرهم الى دولتهم وطلبوا منها ان تنفذ لهم أموالهم من أصل السبعة الملايين المحكوم بها لحكومة الجزائر ، فادت دولة فرنسا للحكومة الجزائرية اربعة ملايين ونصف

مليون وابقت ما ادعى به تجارها فى صندوق الامانة وامرت ان تجرى دعوى تجارها مع غرمائهم من اهل الجزائر فى مجلس التجارة فى باريز ، فغضب الباشا لذلك وطلب اداء الاموال المحكوم له بها كاملها وان تكون مرافعة التجار والغرماء فى مجلس الجزائر » (١) وكان على حق فيما فعل ، اذ لا ينبغى ان يكون الفرنسيون حكاما على انفسهم ، بل ان كرامة الجزائر كانت تستدعى عرض الامر فى محاكم الجزائر نفسها .

حادث المروحه ٢٩ ابريل سنه ١٨٢٧

فى مثل هذا الظرف معقول جدا ان تشتد المناقشة بين الداى وبين القنصل ، وليس بالامر ذى البال اذا تناول الداى مروحته وضرب بها وجه ديفال ، ليس ذلك بالامر الخطير الذى تستحق من اجله الجزائر ان يزال استقلالها ، خصوصا وقد استيقن الناس ان ديفال استفز الداى بوقاحة غير لائقة ، وقد لبث الداى اياما يؤكد ان المسألة شخصية لادخل لها بحكومة فرنسا ، ولكن هذه الاخيرة اعتبرت حادث ٢٩ ابريل سـنة ١٨٢٧ كافيا لتبرير غزو الجزائر واحتلالها .

فرنسا تحاصر الجزائر

بدأت حكومة مارتنياك فقررت محاصرة الجزائر ، فحاصرتها حصاراً طويلا كلفها مالا كثيراً ولم يعد بفائدة ، فرفع الحصار وعادت فرنسا تطلب ترضيه ، فأبى الداى حاسبا أن رفع الحصار معناه عجز فرنسا عن فتح بلاده . بل زادت جرأته فلم يتردد حين أرسل إليه مندوب فرنسى جديد هو لابرتنيير La Bretonniere ليعرض عليه الترضيات التى تطلبها حكومة فرنسا ، فى أن يطلق مدافعه على السفينة بروفانس التى كانت تحمل المندوب ساعة مبارحتها ميناء الجزائر .

رمون وزير الحربية الفرنسية يسعى لانفاذ المشروع

هنالك استقر رأى بولنياك على أن يقوم بالأمر ، وكان إلى جانبه بور مون وزير الحربية Bourmont يرجو أن تكون إليه قيادة هذا الفتح ، ولم تكن فرنسا تخشى كثيراً من اعتراض الدول على فتح كهذا ،

(١) تحفة الزائر فى اخبار الجزائر ج ١ ص ٨٢

حتى انجلترا بداعليها أنها تفضل قيام الفرنسيين فى شاطىء افريقية على بقاء داى الجزائر ورجاله فيها . أما المقاومة الفعلية فقدلقيتهاالحكومة من الفرنسيين أنفسهم ، فقدكانوا تلقوا وزارة بولنياك بالتشكك والريبة وقلة الاكتراث ، وأسخطهم منه اعتماده على رجال لايكاد الفرنسيون يحملون لهم حبامثل بورمون هذا،فقدكانت العامة تحمله مسئولية هزيمة واترلو وتتهمه بتخون نابليون والجيوش الفرنسية فيها . ويبدو أن حامية الجزائر كانت على حال شديدة من الضعف والعجز لأن الفرنسيين استطاعوا أن يقضوا عليها فى زمن قصير جدا ، على رغم سوء قيادتهم وتغير نفوس الجند على قائدهم وانتشار التمرد بين صفوفهم ، ويكفى للدلالة على ضعف القوة الفرنسية أنها عجزت عن الاستيلاء على « البايدة » بعد ذلك لأنها لقيت فيها بعض المقاومة . غادرت الحملة الفرنسية ثغر طولون فى ٢٥ مايو سنة ١٨٣٠ وتم استيلاؤها على الجزائر وسلم الداى حسين نفسه لها فى ٥ يوليه ، أى أن ولاية الجزائر سقطت فى أقل من أربعين يوما مما يدل على أنها كانت ضعيفة جدا ، وأن جند الأتراك فى البلد لم يكونوا خيرا من زملائهم فى البلاد الإسلامية الأخرى.

ضعف الحامية الفرنسيه

الاستيلاء على الجزائر ٢٥ مايو سنة ١٨٣٠

وليس هنا موضع التفصيل فى أحداث الفتح الفرنسى،(١) وليس هنا كذلك موضع القول فى ثورة عبد القادر التى بدأت بعد ذلك

---

(١) فى الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٣٠ بارح الجنرال بورمون Bourmont ثغر طولون على رأس جيش عدته سبعة وثلاثون ألف جندى، وفى العاشر من يونيو ألقت الحملة مراسيها عند خليج سيدى فرج ، وأخذت تتقدم نحو الجزائر على عجل ، وتهاون الداى فى المسير إليهم فلم يلقهم إلا بعد تسعة أيام فى سهل استوالى، وتقهقر أمامهم مسرعا ، ثم تقدم الفرنسيون ببطء وتردد - وبعد اختلاف بين القادة - حتى أشرفوا على حصون المدينة وظلوا يطلقون عليها المدافع حتى سلمت حاميتها التركية فى ٤ يوليو سنة ١٨٣٠ ،وفى الخامس منه سلم الداى نفسه على شروط منها سلامته وصيانة أمواله ورعاية الحرية الدينية لأهل البلاد ، وفى نفس اليوم دخلت القوات الفرنسية الجزائر . وقد وجد الفرنسيون أموالا طائلة فى خزائن الداى قدرها بعض المؤرخين

بسنوات ثلاث، واستمرت أربعة عشر عاما متوالية، فلهذه الثورة مكانها فيما يقبل من أجزاء هذا الكتاب. وإنما تهمنا فقط دراسة أسباب سقوط هذه البلاد وتأثير سقوطها فى المجموعة الاسلامية كلها.

أسباب سقوط المغرب

١ - عدم وجود حكومة صحيحة به

واضح جدا أن أقوى أسباب سقوط المغرب هو أنه لم تكن به حكومة بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ، كان به حاكم يستعين فى تصريف الأمور بطائفة من الأعوان والوزراء ويشرف على نفر من الجند فى البر والبحر، ولكنه لم يكن ذا سلطة فعلية معترف بها، فقد رأينا أنه على الرغم من معاهداته مع الدول لم تسلم السفن المتعاهدة من الاعتداء والأذى، اذ كانت السلطة موزعة توزيعاً غريبا بينه وبين رؤساء الجند، فلم يكن ليستطيع أن يقضى أمراً أو يعقد رأياً، بل كان فى معظم أحيانه موزعا بين آراء هؤلاء الأجناد، وبمثل هذا اللون من الحكومة لم يكن فى مقدور المغرب أن يثبت تحت الضغط الاوروبى، فقد قلل ذلك من احترام الدول له، وهون عليها أمره وجعل استيلاءها عليه ضرورة تقتضيها مصلحة البلاد نفسها، وجعل الدول ترضى عن

بثمانية وأربعين مليونا من الفرنكات، فنهب القادة والجند منها شيئا كثيرا، وانحصرت الشبهة فى القائد العام وهيئة أركان حربه ومحل سييير Seilliére — الذى كان يتولى تموين الحملة — ونفر آخر من أصحاب الكلمة فى الجيش والجند.

ومن غريب الأمر أن الرأى العام الفرنسى تلقى أخبار النصر بمزيج من الازدراء والسخرية وقلة الاكتراث، حتى أن القادة الذين نسب اليهم فخر الفتح سقطوا فى ميدان الانتخاب فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه مدافع الانفاليد دخول الجزائر فى طاعة فرنسا، ومرد ذلك إلى كراهية الناس للملكية شارل العاشر ووزيره بولنياك وكل مايتصل بهما.

عجل بورمون بعد ذلك فاحتل وهران وبونه، ولكنه عجز عن الاستيلاء على البليدة. وبعد ذلك بقليل تسامع قواد الحملة بثورة يوليو سنة ١٨٣٠ التى أسقطت حكومة شارل العاشر، فوقفت الحملة إلى حين وفكر بعض ضباطها فى الزحف بمن معهم من الجند على فرنسا نفسها، ولكنهم عدلوا. ولم تلبث الحكومة الجديدة أن عزلت بورمون وولت مكانه كلوزل Clauzel فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٣٠، وقد لقى بورمون اهانة كبرى حين عزل عن القيادة اذ أبى قائد الاسطول

عمل فرنسا وتقف ساكنة حياله ، وكان فى استطاعتها أن تفعل شيئاً لحماية المغرب لو أرادت .

٢ - فقر المغرب.

وكانت بلاد المغرب على الاطلاق فقيرة فقراً إلا يعين على قيام دولة قوية حديثة ، تستطيع أن تنهض باعباء التنظيم والدفاع . ومرد ذلك إلى قلة موارد الرزق فى البلاد ثم إلى سوء التصرف فيما كان يرد من المال ، فايراد المغرب كله فى تلك الأعوام لا يكاد يكفى لانشاء جيش قوى صحيح ، ولم يكن ليُمَكِّنَ الحاكمين من مباشرة نواحى الاصلاح لو طلبوا ذلك ، ولا يعلل الهبوط الذى أصاب موارد البلاد إلا بأن أهلها أنصرفوا عن استثمار موارد الخير الحقيقية فى بلادهم واهتموا بكسب الرزق من وجوه أخرى كالقرصنة ، فنضبت موارد البلاد مع الاهمال يوما بعد يوم ، وأخطأت حكومة الجزائر نفس الخطأ الاقتصادى الذى وقعت فيه كل دولة إسلامية غيرها ، وهو إهمال عيون الثروة فى البلاد والاعتماد فى ملأ الخزانة على مايرد من الاسلاب والغنائم وارباح الحروب ، فاجتمع إهمال الحكومة إلى إهمال الشعب ، وتدهورت مرافق البلاد تدهوراً سريعاً خطيراً جعلها فى حال أقرب إلى الافلاس والاملاق ، وعلى الرغم من أن استثمار هذه الموارد لم يكن

Duperé أن يسمح له بالسفر على احدى سفنه ، فاضطر المسكين إلى استئجار سفينة نمساوية نقلته الى اسبانيا لا الى فرنسا . ولم يوفق كلوزل كثيرا فى عمله فلم يلبث أن استبدل بالجنرال Berthezéne (فبراير سنة ١٨٣١) فلم يكن خيرا من سابقيه اذ صرف عنايته الى بعوث صغيرة وسرايا قليلة الفائدة ، وكان الرجل مسنا قليل الفهم فلم تلبث الثورات أن شبت فى كل مكان وخرج كثير من النواحى — التى كانت قد خضعت الفرنسيين — عن طاعتهم فلم يلبث الرجل أن طلب العزل فاجيب اليه وأعقبه Savary Duc de Ravigo . فاشتد على الأهلين شدة بلغت به الى ابادة قبائل بأسرها ، مما اخاف كثيرا من النواحى ، ولكنه لم يلبث أن خلفه Voirol فاستطاع بحسن حيلته ومهارته أن يخضع الساحل حتى مستغانم وأتم الفتح تقريبا . وفى ٢٧ يوليو سنه ١٧٣٤ أرسلت حكومة فرنسا أول حاكم عام فرنسى للجزائر وهو Drouet d'Erlon . وفى تلك الاثناء كانت حركة الأمير عبد القادر فى طريقها الى الظهور والقوة

بالأمر العسير فان الحكومة أهملته وانصرفت عنه، فمنحت صيد المرجان إلى شركة فرنسية احتكاراً، وكان فى إمكانها صيده والكسب من ورائه وقس على ذلك ماأصاب موارد الخير الأخرى كالزراعة وتنظيم جمارك البلاد وما إلى ذلك، وقد كان هذا الفقر سببا فى طائفة شتى مما أصاب البلاد من الشرور: فهو الذى دفعها إلى الاستمرار فى محاولة الكسب عن طريق القرصنة وجعل أقلاعها عن ذلك أمراً خطراً على ماليتها ، فلم يستطع الحكام الاقلاع عنها على الرغم مما بدا من أخطارها وما تهددت به سلامة البلاد من التلف والضياع ، وكان الفقر أيضا السبب فى إفساد العلائق بين الجزائر وبين دول أوربا ، فقد كانت هذه الأخيرة تأبى الاعتراف لحكومة الجزائر بصفة الدولة المحترمة مادام حاكم الجزائر معتبراً فى نظرهم رئيس عصابة من اللصوص لابدأن تدفع له أتاوة مالية حتى يكف أذاه و يمنع أفراد عصاباته من العدوان والأذى ، فكانت العلائق بين الجزائر والدول شاذة لا تشرفها بحال ولا تعطى فكرة طيبة عنها ، وهذا هو السبب الذى جعل الدول ترضى عن عمل فرنسا وتتركها تفعل بالمغرب ماتريد

حكومة المغرب تمنح الاوربيين امتيازات

أوروبا لا تعترف بحكومة الجزائر

٣ ـ الحكم العثمانى يفسد أمور المغرب

ثم ان أسلوب الحكم العثمانى فى المغرب كان قد انتهى فيه إلى مثل ما انتهى اليه فى عامة البلاد الاسلامية الأخرى : فقد عمل من أول الأمر على إبعاد أهل البلاد الأصليين عن نواحى الحكم والادارة والدفاع ، وجعل ذلك قصراً على طوائف الانكشارية ووجاقاتهم ، فانصرف أهل البلاد عن الدولة ونابذوها وانحطت البلاد وضعف أمرها تبعاً لذلك كما حدث فى مصر حين أبعد المصريون عن الحكومة وقُصِرت على الأتراك والمماليك، فانتهى ذلك بضعف البلاد تماما ، لأن هؤلاء الأتراك لايقتدرون على الدفاع عن البلاد بنفس القوة والاخلاص الذى يستطيعه أهلها .

٤ - اهمال أهل المغرب مجاراة أوربا فى تقدمها

وقد كانت الباب مفتوحا بين المغرب وأوربا ، وكانت الصلات بين الجانبين معقودة فى ميادين الحرب والسلم على السواء ، فكان فى مقدور أهل المغرب أن يسايروا أوروبا ويتفطنوا إلى أسرار تقدمها ويعملوا على الضرب على نهجها والتشبه بها ، وكانت الدول تدفع بعض الاتاوة أسلحة وذخائر حديثة الطراز ، فكان فى مقدور أهل المغرب الاستفادة من ذلك الاتصال والتعاون . ولكنهم قصروا فى ذلك وأهملوه أو جهلوه ، فلو كان لمماليك مصر عذر فى قصورهم عن الفرنسيين بسبب انقطاع الصلات بين الجانبين لما كان لأهل المغرب مفر من اللوم على ما جهلوا من تقدم أوروبا وامتيازها فى ميادين الأسلحة والحروب .

٥ - فساد أولى الامر فى المغرب

ولنقل كذلك أن أصحاب الشأن فى المغرب لم يكونوا من ذوى الرأى أو الكياسة ، على الرغم مما يتفق عليه الكثيرون من وصفهم بالدهاء وحسن الحيلة ، فقد كان خليقاً بالداى حسين أن يجعل علائقه مع الفرنسيين خالصة مباشرة دون الحاجة إلى وساطة البكرى أو غيره ، وكان يستطيع أن يتخذ لنفسه وكيلا فى باريس يشرف على تجارة القمح ويحصل له المال ، لأن اطلاق يد هذين اليهوديين كان جديراً أن يدفع بهما إلى الافساد والتضييع . وكان فى استطاعة الداى مرة أخرى أن يكون أحسن تصرفا فى علاقاته مع فرنسا ، فقد أطلق نفسه مع الغضب إطلاقا خرج به عن مذاهب الرأى والحجى ، فأمعن فى الزراية بها ، ظنا منه أن ذلك جدير بان يرغمها على احترامه وتقديره والنزول على رأيه .

* * *

المغرب الفرنسى

هنا تبدأ قصة الفرنسيين فى المغرب ، وهى قصة طويلة محزنة لا تخلو من وجوه الخير للبلاد وأهلها ، وقد كان هذا مصير المغرب على أى حال ما دامت أوربا تجاوره ويثور فى نفسها شعور الصليبين نحوه بين الحين

والحين ، وما دامت العلاقات بين الجانبين قد ظلت قرونا طويلة لاتتغير ولا تتبدل : جهاد دائم وغزو لا ينتهي وحرب لايخمداوارها. وقد رأينا كفة المغرب خفيفة حتى فى أيام قوته وعلو شأنه ، ورأينا كيانه مهدداً وادارته مختلة وشئونه فوضى لاأمل للخير فيها ، ورأينا السياسةالتركية تزيد ضعف البلاد وتثير عليهاعداء العالم الأوربى . فكلما عدا الأتراك على المسيحيين فى شرق أوروبا تطلعت الدول إلى أخذ الثأر من المغرب ، وبهذا شقى المغرب بالاتصال بالمجموعة الاسلامية شقاء عظيما . وعرفنا أن فرنسا كانت تبيت له هذا المصير منذ حين ، وانها كانت تتربص بهالدوائر وترقبالفرصة المواتية، فلم يكن سقوط الجزائر بالأمر البعيد الاحتمال أو المستغرب ، بل كان نتيجة طبيعية جداً: لها أسبابها القريبة والبعيدة ولهاو نتائجها البعيدة القريبة كذلك ..

— ٧ —

العراق

قلنا فى الصفحة الثالثة من هــذا الكتاب « وأصبحت مواقع الخصب فيه — أى فى الشرق الأدنى — مقصد سكانه ومتجه آمالهم من فجر التاريخ ، تهب عليها بين الحين والحين زوابع الرياح المهلكة تدفعها الرياح ، وعواصف البدو المخربة يدفعها الفقر »وليس كتاريخ العراق دليلا على صدق هذه القالة : فتاريخه كله من قديم الزمان حتى نهاية القرن التاسع عشر صراع بين الدول القوية على امتلاك أراضيه ، ومحاولات من القبائل المتبدية للأغارة عليه والاستئثار بخيره وأرزاقه ، مما جعل ماضيه كله سلسلة طويلة من الحروب والوقائع والغارات ، لايكاد يخمد أوارها أو يسكن تيارها ، وجعل أراضيه ميدانا سهلا يتوافد عليه الغزاة من كل ناحية ويقصدونه من كل صوب .

طبيعة بلاد العراق

ذلك أن العراق واحة موفورة الأرزاق والثمرات فى وسط بواد وهضاب يغشاها الفقر وتشح فيها الخيرات ، فأصبحت أراضيه ـ من فجر التاريخ ـ متجه الفرس فى الشرق وفريسة بدو العرب فى الغرب وقبلة الأكراد والجركس والأتراك والأرمن من الشمال ، وقراصنة البحر الهندى وخليج فارس من الجنوب ، ومن هنا كان من الطبيعى أن تتوالى الغارات والغزوات على هذه البلاد بسبب وبغير سبب. وأن نجد أهلها مشغولين فى غالب أيامهم بمدافعة الأعداء ومغالبة الفاتحين، حتى لا يكادون يجدون فسحة من الهدوء يعنون فيها بشئون أنفسهم ومرافق بلادهم . فاذا ذكرنا أن العراق بلد زراعى يحتاج إلى الهدوء والاستقرار حتى تزكو ثماره وتورف زروعه وتؤتى خيرها المأمول ، أدركنا أثر ذلك الحال فى تاريخه ، وعرفنا السبب فى أن الرخاء لم يشمل هذه البلاد إلا فى فترات وجيزة جداً ، ولو قد كان كل جيرانه وغزاته قوما متحضرين على شيء من المعرفة بقيمة ما يلقون فى نواحيه من مظاهر العمران ومعالم الحضارة عند أقبالهم لما أصاب البلاد على أيديهم شر كبير ، فأما وهم فى الغالب طغاة جفاة لا يطلبون فى العراق غير الغنيمة الوافرة والنهب الشديد فقد كانت نتيجة ذلك حرمان أهل العراق من خيرات بلادهم ؛ وزاد فى أثر هذا الوضع الجغرافى على تاريخ العراق ان العناصر التى تجاوره ـ من كل الجهات ـ عناصر حربية شديدة لا تكف عن الحرب والغزو والنزاع على أرضه فيما بينها مما لم يدع له فرصة للراحة أبدا .

العراق من الوجهة الجغرافية

وليس العراق ـ بمعناه الحديث ـ وحدة جغرافية متسقة تسودها ظروف جغرافية واحدة ، بل إنه ينقسم بوضوح إلى ثلاثة أقاليم متميزة: أقليم جبلى شمالى فى أعالى دجلة والفرات وهضبة كردستان . ثم

اقليم خصيب زراعى فى الوسط ، ثم اقليم جنوبى يختلط فيه الجدب بالخصب وتسوده روح بحرية ، ويتأثر تأثراً ظاهرا ببلاد العرب الواقعة إلى غربه. وهذا التقسيم واضح الاثر فى كل أدوار تاريخ العراق ، فهو الذى قسمه فى القديم الى بابل وأشور وكلديا وفى الحديث إلى الموصل والعراق والبصرة ، وهو الذى حال بين أهله وبين تكوين وحدة متميزة من الناحية السياسية أو الاجتماعية ، وأضعف سكانه عن مقاومة الفاتحين وجعله فريسة سهلة لمن طلت نواحيه منهم .

تأثر العراق بجوار ايران

وقد كان تاريخ العراق من قديم الزمان متأثراً بجيرته لايران ، لأن شعب إيران دائم النشاط متجدد الجهود لا يسكن له جهد ولا ينقطع له توفز ونهوض ، تتوالى على حكومته الاسرات المجيدة ويزان تاريخه بالملوك ذوى البأس والاعلام من ذوى العبقرية والنبوغ . فلم يكن للعراق بد من أن يكون دائم التأثر بما يقوم فى هضاب إيران من مظاهر القوة ومعالم الحضارة ، فلا يكاد يعتلى عرش إيران شاه قادر حتى نجده فى العراق بعد حين ، ولا يكاد يجد فى إيران لون من الحضارة حتى تجد له ظلا ملحوظا فى العراق . وأعان على ذلك أن الطبيعة لم ترزق العراق حدودا حاجزة تحميه شر الغزاة والمهاجمين بل جعلته قريب المنال سهل المدرك ، فلا يكاد الانسان يخلص من هضاب إيران حتى ينحدر انحدارا هينا سريعا إلى سهل العراق الخصيب ، ومن هنا ليس بغريب أن نجد العراق نفسه مركزا للكثير من الدول الفارسية العظيمة ، وأن نجد كثيرا من عواصم ايران القديمة على دجلة مثل كتزفون وأسوس وما إليهما ، وأن نجد أن الايرانيين كانوا يعتبرون العراق جزء من بلادهم فى فترات كثيرة من التاريخ ، وظلوا يرون ذلك حتى غلبهم الأتراك العثمانيون عليه ووضعوا حداً فاصلا بين العراق وإيران

العلاقات بين العراق والشام وبلاد العرب

بيدأن تأثر العراق بما يليه شرقا من البلاد لا يقل عن تأثره بأيران التى تقع إلى غربه ، فالصلات بين الجزيرة العراقية والشام قديمة ترجع إلى دخولهما معا فى دوله السلوقيين التى سبقت الاسلام بقليل . ثم جاء الاسلام فطوى العراق فى المجموعة الاسلامية وأضفى عليه لونا ظاهرا من العروبة والاسلام ، إذ أخذت قبائل العرب تهاجر إلى سهول العراق وتنشىء فيها البلاد . حتى أصبح العراق بعد قليل من الزمن بـــلادا عربية صرفة بل مركزا رئيسيا من مراكز السياسة والحضارة الاسلامية ، ومن ذلك الحين بدأ العراق تاريخه المجيد فى وظل على ذلك ظل الاسلام ، وأخذ فى الظهور على مسرح السياسة الاسلامية ليكون قطبها ومركزها فى الحضارة والسياسة طوال العصر الوسيط وظل على ذلك حتى انتقلت منه الزعامة إلى مصر فى أوائل أيام الحروب الصليبية أى حين انتقل مركز الجبهة الاسلامية من الموصل بشمال العراق إلى مصر بانتقال زعامة الكتلة الاسلامية من نور الدين محمود صاحب الموصل إلى صلاح الدين الأيوبى صاحب مصر حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . (أواخر السادس الهجرى) .

العراق حد فاصل بين الفرس والعرب

لهذا نجد العراق حدا فاصلا بين الفرس الآريين فى المشرق والعرب الساميين فى المغرب : على بساطه يجتمع الجنسان أصحابا حينا وأعداء حينا ، يتعاونان تارة ويحتربان تارة أخرى ، فكان العراق ميدان النزاع بين الفرس والعرب على السيادة والسلطان فى الدولة الاسلامية وكانت نواحيه مجال الصراع بين شيعية الفرس وسنية العرب والأتراك ، وقد استمر هذا الصراع بشقيه السياسى والمذهبى زمانا طويلا ، وانتهى باضعاف الفريقين معا ، وظهور عنصر جديد على مسرح السياسة العراقية ، استبد بالأمر من دون العرب والفرس معا ، وهو العنصر التركى الذى بدأ يسود العراق ويصرف أموره من أوائل القرن الثالث

الهجرى ، ومن هنا شهد العراق معركة حامية بين العرب والفرس والأتراك ، كان من أولى نتائجها خروج العرب من الميدان فى زمن مبكر جدا . وارتدادهم إلى جزيرتهم وعودتهم إلى حال البداوة الأولى والخمول الذى أخرجهم الاسلام منه ؛ وظل العنصران الآخران يتنازعان النصر والغلب زمانا طويلا ؛ وقد أيقظ الصراع فى فارس روحها وبعث فى نفسها الحياة ، فطاولت مطاولة لم يستطعها الأتراك ، فبدأ الفرس يظهرون عليهم ويسودونهم — معنويا أولا ثم ماديا — وأعان على ذلك أن الحروب الصليبية شغلت الاتراك من أوائل القرن العاشر الميلادى ، فاستنفذت ميادين الشام وآسيا الصغرى التفاتهم كله بل انتهت أيامهم فى العراق بانتقال زعامة الكتلة الاسلامية من نور الدين آخر ملوك الدولة السلجوقية فى الموصل إلى صلاح الدين أول سلاطين الأيوبيين فى مصر ، ومن ثم أخذ الفرس يستعيدون قوتهم فى العراق شيئاً فشيئاً ، فمن أوائل القرن العاشر الهجرى كان اسماعيل الصفوى يعمل جادا فى انشاء قيصرية إيرانية جديدة تستنقذها من نير المغول الذين أثقلوا عليها زمانا طويلا ، فلم يزل يناجز حتى استطاع أن يتغلب على بابر ملك المغول حوالى سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ، ومن ذلك الحين بدأ تاريخ الدولة الصفوية المجيد ، الذى كان من أول نتائجه عود العراق إلى احضان فارس .

مزارت الشيعة فى العراق

وقد استمر العراق فى ظل الفرس بعد ذلك زمانا طويلا ، وأغلب الظن أن هذه الصحبة الطويلة خلفت فى نفوس الفرس شعورا خاصا نحو الجزيرة العراقية ، فأصبحوا يحسون أنها جزء من وطنهم الايرانى ، وأعان على ذلك أن العراق كان يضم كثيرا من الأماكن الشيعية المقدسة ، ففيه النجف التى تضم قبر على كرم الله وجهه وفيه كربلاء مزار الشيعيين من كل صوب ، وفيه كذلك قبور الكثير من أولياء الشيعيه وصالحيهم من

أمثال موسى الخادم ومحمد تقى ، وبهذا تطور الاحساس المذهبي شيئا فشيئاً إلى أن أصبح رأيا سياسياً ، وزاد ذلك الشعور حدة عداء السنة والشيعة أو عداء ماغرب العراق لما شرقه ، فأصبح الفرس يرون فى السيادة على العراق لونا من التدين والوطنية معا ، وأصبح الاستيلاء عليه قطباً من أقطاب السياسة الفارســـية فى مختلف الأوقات والأزمان .

الفتح العثمانى يبدا عصرا جديدا فى العراق

وفى أوائل القرن السادس عشر الميلادى دخل العراق فى حوزة الأتراك العثمانيين ، فكان ذلك إيذانا ببدء عهد جديد فى تاريخه ، لأن سلطان الأتراك السنيين فى العراق كان كفيلا بأن يبعد عنه التأثير الفارسي الشيعي إلى حين ، وأن يقيم فيه منار السنة من جديد . بل إن سليمان القانونى كان يشعر بأن فتحه العراق فيه شيء من الجهاد الديني لأن فيه انصافا للسنة ، ولهذا عنى أشد العناية بأن يجدد قبر أبي حنيفة النعمان — وإن لم يبخل بالعناية على مراكز الشيعية فى النجف وكربلاء وغيرهما — وكذلك كان السنيون من عرب العراق يشعرون بهذا، ويعتبرون الفاتح التركى مخلصاً لهم « فسارع شيخ القبائل العربية — الذى كان يحكم البصره خاضعاً خضوعا ظاهريا للشاه — فأرسل ابنه راشد بمفاتيح البلد وبعث معه رسائل فياضة بالولاء إلى السلطان »[1] وبهذا بدأت السنية تتنفس من جديد بعد أن طال سكونها وخمولها طوال الحقب التى كانت السيادة فيها للفرس الشيعيين .

العراق فى حكم الاتراك

بيد أن العراق فى ظل الأتراك العثمانيين لم يكن أسعد حظا مما كان فى ظل الفرس الصفويين ، إذ لم يلبث أهله ان نظروا بعين السخط إلى هؤلاء الأتراك الذين كانوا يرسلون اليهم كل عام خصياً أو عبداً ويأخذونهم

(1) Stephen Hemsley Longrigg; « Four centuries of Modern Iraq (oxford, 1925) P. 25 »

بطاعته على الحق والباطل معا ، ولم يكد الاتراك يبدءون الحكم بنظامهم المعروف حتى بدأت النفوس تتغير « وأظهرت العلاقات المتبادلة الفرق العظيم بين عقلية الجنسين أى ـ العرب والترك ـ : لأن العرب — بماضيهم الطويل فى حياة الصحراء وقلة صبرهم وكثرة تحولهم — أصعب الشعوب حكما ، ولم تكن العقلية التركية — التى لا تتخيل وتعوزها المرونة — لتطيق منهم هذا العنف ، بل كان مجرد ظهور الأغا التركى فى العراق — بطبيعته ولغته التركيتين — أمرا غريبا غير مألوف فى نظر العرب وسمعهم »(١) ولا حاجة بنا إلا الاشارة إلى مساوىء الحكم التركى التى سبق بيانها والتى لازمته فى كل زمان ومكان . لأن أحوال العراق الخاصة كانت كفيلة وحدها بأن تجعل الحاكم والمحكوم على طرفى نقيض ، وأن توجج الخلاف بين الفريقين وتملأ النفوس بأسباب الخصومة والكراهية من الجانبين ، ذلك أن العراق يضم عدداً عظيما من غلاة الشيعة فاسخطهم تشجع القبائل العربية السنية وإقبالها إلى أطراف البلاد وبدوها الاستقرار فيها ، وعرفوا أن هذه القبائل لا تقبل إلا فى رعاية السلطان التركى السنى فزاد سخطهم عليه وانطوت نفوسهم على اللدد والألم ، وكذلك كان الأتراك لا يشعرون نحو هذه البلاد بمودة ولا بحب ، لأن الذين كانوا يرسلون منهم للحكم فى العراق كانوا يعتبرون ذلك نفيا وعقوبة ، لبعد العراق عن مركز الخلافة من ناحية ولبرودة شماله وحر جنوبه ووعورة مسالكه وانتشار الأوبئة فيه من ناحية أخرى ، ثم لصعوبة حكمه بعد ذلك ، إذ كان جل سكانه قبائل يصعب قيادها ويصعب ردها إلى الطاعة لكثرة تنقلها ومحافظتها على النظم القبلية التى تغل يد الحاكم عن السيطرة على البلاد .

تنافس الفرس والأتراك على العراق

وزاد الحكم العثمانى بلاء أن الفرس والترك كلاهما جعلا الاستيلاء على العراق رمزاً لسيادتهما وتفوقهما ، فجعلا يحتربان عليه

(1) Longrigg; Op. Cit P. 29

ويتنافسان على أرضه بشتى الأساليب حتى «كانت الظاهرة السائدة لهذا القرن (السادس عشر) هي العداوة – التي كادت أن لاتهدأ – بين الامبراطورية العثمانية وفارس ، وهي حالة أثرت في أهل العراق وحامياته تأثيراً يصعب تقديره ، فاذا كانت قد أثرت في زيادة تيار الحجاج إلى المزارات وفي تنشيط التجارة المتبادلة مع أصفهان وتبريز من جهة فقد استدعت كذلك تدفق الانكشارية ورجال الاقطاع ليشتركوا في الحروب في الشمال من جهة أخرى ، فكان الطلب يشتد على الحبوب وسوائم الحمل ، وأصبح الرعب من هجمة تكون على أسوار المدينة ، ومن وثوب أمراء الاكراد الضعاف ، واستقبال سفير فارسي في طريقه إلى البوسفور أصبحت هذه كلها من الاحداث العادية في العراق في تلك الأيام » (١) وأصبحت البلاد معرضة بين الحين والحين للقتال بين الفرس والترك وما يسببه ذلك من الخسائر في المدن والمزارع وموارد الرزق . لأن الفرس لم يكفوا عن أن يروعوا البلاد وأهلها بغزواتهم وغاراتهم السريعة ، ينهبون فيها ويأسرون في غير رحمة ولا هوادة ، فاذا اضفنا إلى ذلك إهمال الحكم العثماني إصلاح ما عسى أن يتلف من مرافق البلاد وعيون خيرها بهذه الخصومة الثائرة ولتصورنا كيف أصبح العراق ضحية لمطامع السلاطين واهواء الشاهات ، وكيف اضمحل أمره ، وتحولت هذه البلاد — التي كانت درة القيصرية الاسلامية في أوجها – إلى قفار يباب يعشش الفقر في أنحائها ويسودها الجوع وتفتك بها الأمراض والأوبئة من كل صنف ولون .

ظهور البرتغاليين في الخليج الفارسي

وشهد القرن السادس عشر قوة جديدة تستأذن لتظهر على مسرح السياسة العراقية ، قوة ليست إسلامية ولا شرقية ، وإنما هي طليعة أوروبا الناهضة التي بدأت تسير أشرعتها في بحار الهند وتنشر أعلامها في مياهها تمهيداً للسيادة على أراضيها بعد ذلك . كان البرتغاليون قد

(1) Longrigg; Op. Cit. p. 30

وصلوا الهند فى أوائل القرن السادس عشر، ثم جذبتهم مصائد اللؤلؤ ومتاجر العراق وفارس فتقدموا فى الخليج الفارسى صعدا حتى أدركوا جزائر البحرين وأسسوا قلعة حصينه عند هرمز سنة ١٥٠٧ ، ثم أخذ تجار البندقية وجنوه يخترقون العراق إلى الشمال ، ومن ثم يعرجون إلى الشام ، فكانوا بذلك أول من رسم هذا الطريق الجديد إلى الهند ، الذى سيصبح مدار السياسة الدولية فى العراق بعد قليل من الزمان .

الصراع بين العرب والبرتغاليين

وكان تجار العرب يسودون بحار الهند وخليج فارس حتى ذلك الحين ، وكانت مياه هذا الخليج فى طاعة السلطان العثمانى اسما ، ولهذا لم يلبث الترك أن انكروا على البرتغاليين هذا التدخل ونهضوا لرد عاديتهم لأن البرتغاليين لم يكتفوا بقلعة هرمز بل أخـــذ رائدهم البوكرك Albuquerque ينشىء سلسلة من المراكز التجارية على شاطىء خليج فارس . ولكن الصراع لم يبدأ بين الجانبين إلا بعد أن استولى الأتراك على مصر ونزلت سفنهم البحر الأحمر واتجهت إلى الخليج الفارسى ، فروعها ما وجدت من مؤسسات البرتغاليين ودأبهم على نشر سلطانهم فى هذه النواحى ، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين على أثر اعتداء بعض البرتغاليين على بعض قرى العراق الواقعة على جانبى شط العرب واستنجاد حاكم القطيف بالأتراك ، فعجل القبطان التركى مراد بك بانجاده ، ولكنه لم يلبث أن ارتد إلى البصرة منهزما ، واستمر العداء بين الجانبين متصلا ، وكان بديهياً أن يكتب النصر فى هذه المعركة للبرتغاليين لتفوقهم على الترك والمسلمين عامة فى شئون البحار ، فانهزم قباطنة الترك واحداً بعد واحد : ارتد بيرى بك ومراد بك وعلى شلبى بالهزيمة تباعاً وحاول الأتراك أن يقضوا على مراكز البرتغاليين فى البر فلم يوفقوا كذلك، لأن أمراء الولايات المحيطة بخليج فارس كانوا يجنون من تجارة البرتغال ربحا طيباً ، وكان لا يرضيهم أن

الاتراك يظاهرون العرب

الامارات العربية تظاهر البرتغال

ينقطع عنهم هذا الرزق فظاهروا البرتغاليين على الأتراك ، مما انتهى بانسحاب هؤلاء من مياه خليج فارس وتركهم البرتغاليين يسودونه وينشرون ألويتهم فيه . وتلك خطوة عظيمة الخطر والأهمية على

انتصار البرتغاليين

بساطة ظاهرها ويسر حدوثها فانها اليوم انتصار بسيط ، وفوز بتجارة قليلة من الحرير واللؤلؤ فى خليج فارس ، ولكنها فى الغد حصر لأمم الشرق واقفال لسبيل البحر فى وجهها ، فهى على بساطتها نذير بسيادة الغرب على بحار الشرق وايذان بما سيكون لهذه السيادة البحرية من الأثر الحاسم فى مستقبل الشعوب الشرقية ، وهو أثر يفوق التفوق البرى بكثير .

نظام الحكم العثمانى فى العراق

لم يبذل الأتراك جهداً خاصا فى تنظيم أمور العراق تنظيما يتفق وأحواله الخاصة ، ولم يلتفتوا إلى أحواله الزراعية ويتعهدوها بالرعاية والاصلاح ، بل انصرفوا إلى إرهاق البلاد بالمغارم والجبايات، وشغلهم كيد الفرس عن كيد البرتغاليين ، فمضت حكومة البلاد على عواهنها . وكانت الحالة المعنوية والفكرية قد انحطت فى هذه البلاد منذ أمد بعيد، فلم يعد للفن أو الأدب فيها ذكر — وهى من قبل منار العلوم والفنون والحضارة بل زهرة الحضارة المشرقيه — فلم يعد العلم تحفيظ القرآن ، وندر الكاتبون أو انعدموا ، وتهدمت عمائر بغداد واجتاحتها الغارات والفيضانات والأوبئة حتى أصبحت مراكز العلم والفن والثقافة اطلالا عافية ورسوما جافية .

ولاة الترك

لم يكن الباشا مطلق السلطان فى شئون البلاد ، بل كان عليه رقباء من قبل السلطان — كما هى العادة — ورقباء من أهل البلاد ، فكانت يده مغلولة فى رقابة هذين ، إذ كان قاضى القضاة المعين من قبل السلطان يراقبه ولا يعفيه من اللوم إذا جنح للعصيان، وكان الدفتردار وأعوانه

يشرفون على أموال البلاد ويقدمون حسابهم فى القسطنطينية ، وكان للرعية أن تشكو للسلطان رأساً ما يسيئها من حاكمها ، وكان على الباشا أن يجمع مجلس أعيان البلاد بين الحين والحين ، وكان للسلطان إلى ذلك مندوبون من لدنه يشرفون على راحة التجار وأمنهم فى البصرة وحلب وغيرهما من العواصم ؛ وازاء هذا كله أخذ سلطان الولاة الرسميين فى الضعف شيئاً فشيئاً وانتقلت من أيديهم القوة إلى الانكشارية مع الأيام . لأن هؤلاء الأخيرين كانوا اداة التنفيذ التى لا يستغنى عنها صاحب السلطان سواء أكان الوالى أم سواه ، فكانوا يد صاحب السلطة فى مختلف الحالات والتارات ، ومن هنا كان شعورهم بقوتهم وسعيهم للاستئثار بالسلطة وتصريف الأمور على مايهوون ، وأعانهم على ذلك ميل الدولة إلى تبديل الحكام واستعدادها لقبول وشايات صغار الجند والموظفين . وبهذا سادت البلاد شرذمة من المتبطلين الجاهلين وساء أمر العراق بين جشع الباشا إلى الغنى وجنوح الانكشارية للاستبداد والطغيان .

نظام الاقطاع فى العراق

وكان نظام الاقطاع العثمانى ساريا فى العراق ، أى ان السلطان كان يمنح أجزاء من أرضه اقطاعات لخاصة أصفيائه على أن يؤدوا له نظير ذلك خدمات حربية وقت اللزوم . وقد كان فى هذا النظام فائدة نسبية للسلطان وان لم يكن فيها شىء من الخير للبلاد المقطعة ، لأنها كانت تجعل من الحاكم العثمانى العام مشرفا على أصحاب الاقطاعيات أى على موردى الجند ، فكان معظم اجتهاده إلى الاكثار من الجند الذين يرسلون من ولايته إلى الميادين التى يحارب فيها السلطان ، فى هذه الناحية كان الحاكم يوجه جهده ويبذل فيه وسعه وينسى كل ماعداه من مصالح

الولاية . ولم يكن السلطان يطلب اليه أكثر من ذلك أول الأمر لحاجته المستمرة للجند لكثرة الحروب والفتوح . ولكن الحال لم يدم على ذلك طويلا إذ أخذ أصحاب الاقطاعات يقصرون فى تقديم الجنود لأن السلطان لم يعد يهب الاقطاعات للقادرين من رجاله بل للمحببين اليه وأصحاب لهوه ومجونه وشرابه منهم ، وأزاء هذا أخذ الوالى يهمل هذا الواجب ، واكتفى بالاهتمام بجمع المال للسلطان .وكلما ضعفت السلطة المركزية كلما جنح الولاة إلى الوثوب والاستقلال وأعانهم على ذلك بعد العراق عن الدولة وتقاعس السلاطين عن الحروب وايثارهم العافية ، وبهذا تحول الباشا العثمانى بعد قليل إلى حاكم مستقل فى الواقع لاتربطه بسلطانه إلا أوهى الصلات والأسباب

فارس تفسد ولاه الترك

وكان وجود إيران إلى جانب العراق مغريا للباشاوات على الثورة والخروج على السلطان . لأن صدر الشاه كان مفتوحا دائما يرحب بكل خارج على السلطان ، ومن هنا كثر خروج الباشوات فى العراق ، وجنوحهم للعصيان : نلمح هذا بوضوح فى وثوب بكر الصوباشى واستدعائه الفرس لعونه على السلطان فى أوائل القرن السابع عشر ، ولو لم يكن السلطان مراد الرابع قد خف للقضاء على بكر وثورته لخرج العراق عن يد السلاطين جملة من ذلك الحين . بيد أننا نلاحظ أن أحوال البلاد مالت إلى الهدوء والاستقرار بعض الشىء بعد أن استعادها مراد فى الأشهر الأخيرة من سنة ١٦٣٨ والشهرين الأولين من سنة ١٦٣٩م ، فقد كانت حملة مراد بعيدة الأثر فى نفوس الفرس لما أبداه السلطان وجنوده فيها من الاخلاص والقدرة والقوة ، فكف الشاهات عن مساعيهم فى العراق وأخذ الباشاوات يتعاقبون عليه يتلو بعضهم بعضا ، يجرون على « روتين » لا يعود على البلاد أو أهلها منه خير قليل أو كثير .

بدء استقرار القبائل في العراق

في ظل هذا الهدوء النسبي أخـــذ سكان البلاد ينتظمون ويستقرون، وجعلت القبائل تتحرك إلى مواضعها التي ستثبت عليها إلى القرن التاسع عشر ، فظهرت قبائل جديدة في بعض المواضع وغلبت قبائل أخرى غيرها على مواضع جديدة ، وأخذ كل يستقر في مركزه الجديد ويستمسك به، وبهذا بدأ استقرار الناس وتركزهم في مواضعهم بعد طول ترحل ، وهذا الاستقرار هو الأساس الذي كان لا بد منه حتى تبدأ البلاد في النهوض الصحيح ، لأن تقلب الناس على المواضع وعدم استقرارهم في مكان بعينه كفيل بان يمنعهم من العمل الثابت المنتج وخليق بان يحرم البلاد الجهد الصالح . بل أخذت القبائل الصغيرة تتقارب لتتحد وتكون وحدات كبيرة ففي أواخر هذا القرن استقرت قبيلة شعب في عربستان بعد أن بارحت منازلها الأولى في قبان ، وأخذت في مستقرها الجديد تزاول زراعة الأرز وتستصلح ما أمكنها من الأرض . واستقر بنو مالك والأجواد وبنو ســعيد وأخذت صروف الأيام تعصف بهم نحو الحرب تارة والأمان تارة أخرى حتى ائتلفوا آخر الأمر بعد حوادث طويلة تحت راية آل شبيب ، وسادوا أقاليم العراق الأدنى وأهله باسم المنتفق ، وفي هذا القرن أيضا أقبل بنو شمر من نجد يقودهم شيخهم فارس ، ومازالوا في مدافعة أعدائهم حتى استقر لهم الأمر في النهاية على غرب العراق من اعلاه إلى حدود الجزيرة .

آل شبيب المنتفق

شمر

بنو لام

وفي هذه السنوات تم استقرار بنو لام في أواسط دجلة فأصبحوا من ذلك الحين حاجزا بين العراق وبين آل لورستان واستقروا في تلك النواحي زمانا طويلا . ولم يحدث ذلك في الشرق والغرب فقط بل إلى تلك الفترة ترجع أوليات أسرة البابان المعروفة في شمال العراق ، وكان أصلهم أكرادا وأخذوا يمتدون رويدا من كويسنجق إلى إقليم شهربازار حتى غزوا أقليم أردلان في أواخر القرن السابع عشر ،

البابان

وشجعهم السلطان على ذلك وأقر أميرهم سليمان بك فى ولاية كركوك فجعل عاصمته من ذلك الحين فى قره جولان

الولاة

أخذ الباشاوات يتلو بعضهم بعضاً دون أن يكون لذلك أثر ظاهر فى شئون البلاد أو رأى فى اصلاحها، وإن غلب على أكثرهم التقى والميل للخير، ولكننا نلاحظ انهم كانوا يقلون فى الاقتدار والفضيلة شيئا فشيئا، بحيث نجد كل باشا جديد أقل من القديم قدرة وخلقا؛ فبعد حسن باشا الصغير وقرة مصطفى ومرتضى وغيرهم بدأت دلائل الضعف تظهر فى حكم محمد باشا الأبيض وعمر باشا الذى لم يفعل أكثر من تعمير بعض الأضرحة، وهكذا حتى نصل إلى المجاعة فى عهد حسن باشا، فلا غرو أن أخذت أحوال البلاد تسوء ونواحيها تتفرق من جديد فاستقل شمال العراق أوكاد، وخرجت البصرة عن طاعة الباشاوات ونشطت الدعاية الفارسية، فأخذ خلاف الشيعة والسنة يظهر من جديد وبدا بوضوح أن الصراع بين فارس وتركيا على أرض العراق عائد بغير ريب ليقضى على الآثار القليلة التى نتجت عن فترة الاستقرار القصيرة الماضية

طلائع الاوروبيين تدخل العراق

فى تلك الأثناء كانت طلائع الأوروبيين قد تشجعت وأخذت ترتاد العراق بعد أن انفتح بابه على مصراعيه من خليج فارس ومن ناحية الشام، فأخذ السائحون يرتادون نواحيه ويردون على البصرة وبغداد، وتحدثنا النصوص عن سائحين فرنسيين اقبلوا على العراق من سنة ١٦٤٩ م ، بل تشجع البرتغاليون فدخل بغداد راهب من رهبانهم اليسيوعيين سنة ١٦٦٦ ، وأنشأ الفرنسيون كنيسة فيها فى سنة ١٦٤٨ ، واستقر تجار بنادقة وجنويون فى بغداد والبصرة لتنظيم التجارة ، وبذلك بدأت بغداد تتصل بالعالم من جديد فعرفها العالم

بغداد كما يصفها تافرنيه

الحديث ، ووصفها السائح الفرنسى تافرنيه بقوله: « حامية المدينة مكونة

من ثلاثمائة انكشارى يقودهم أغا ، ويحكم المدينة باشا من طبقة الوزراء عادة ، وداره على شاطىء النهر ذات مظهر جميل . وتحت تصرفه على الدوام ستمائة أو سبعمائة فارس ولهم — أى للباشوات — علاوة على ذلك طائفة أخرى من الفرسان يسمون الجنجوا ليلى أى الشجعان يقودهم أغوان . ويوجد منهم عادة حوالى الآلاف الثلاثة فى المدينة وما يحيط بها ، ومفاتيح أبواب البلد ومفتاح القنطرة فى عهدة أغا آخر تحت يده نحو مائتى انكشارى ، وهناك أيضا ستمائة من المشاة يقودهم أغا آخر وحوالى ستون مدفعيا كان يقودهم إذ ذاك (سنة ١٦١٢) رجل مختص يسمونه السنيور ميخائيل ، أصله من مواليد كندى ثم أصبح تركيا ، وكان قد وضع نفسه فى خدمة السلطان حين حاصر بغداد سنة ١٦٣٨ ...، أما حكومة بغداد المدينة فلا يقوم بها غير قاض يقوم بكل شىء ، وربما قام بمهمة المفتى يساعده شيخ الاسلام أو الدفتردار الذى يجمع أموال السلطان ، وفى المدينة مساجد خمسة منها اثنان حسنا البناء تزينهما قباب مغطاة بالقاشانى المدهون بمختلف الألوان . وبالمدينة كذلك عشرة فنادق سيئة البناء على الجملة ، عدا اثنين يجد النازل فيهما بعض الراحة ، والمدينة على العموم سيئة البناء ، وليس من جميل بها خلا الاسواق وجميعها مسقوف ، وبغير ذلك ما كان التجار ليتحملوا الحرارة — ولابد كذلك من أن ترطب شوارع هذه الأسواق بالغسل بالماء ثلاث أو أربع مرات فى اليوم — وقد خصص لهذا نفر من الفقراء تدفع الخزانة العامة أجورهم . والمدينة ملأى بالتجارة ، ولكنها ليست كما كانت فى يد ملك فارس ، لأن التركى حين استولى عليها قتل معظم سراة التجار ، ثم ان المدينة ملتقى الناس من شتى الجهات ؛ ولست أدرى إن كان ذلك للتجارة أو لشئون العبادة . . . وعلى هذا فلا مفر لكل من يريد الذهاب إلى مكة بطريق البر من

أن يمر ببغداد حيث يضطر كل حاج إلى دفع قروش أربعة للباشا»(١) وهو وصف لعل الخطيب البغدادى كان ينكره أشد الإنكار لو شاءت الأيام أن تريه بغداده العزيزة بعد أن مال بها الزمان وانتابتها غواشى الحدثان ، وليلاحظ القارىء انتباه السائح الفرنسى إلى قوة المدينة الحربية ، وتدقيقه فى تقدير جندها وأسوارها وحاميتها ، مما يدل على أنه لم يكن مجرد سائح تسيل به الأباطح وتلقى به النوى فى حيث تريد ، وإنما كان يسبر قوة البلاد ودرجة مقاومتها ، وقد لاحظ القارىء كذلك اهتمامه بتجارة البلد ومواردها وأسواقها ، مما يدل على أنه كان مهتما بذلك بل ربما كانت التجارة همه الأول .

استقلال الموصل

وكان شمال العراق وجنوبه قد استقلا عن بغداد أو كادا ، فأما الشمال - الموصل - فقد أخذت العلاقات بينه وبين بغداد تضعف من أوائل القرن السابع عشر حتى انتهت إلى الانقطاع فى أواخره ، فكان والى الموصل فى كركوك لا يتصل بالوالى فى بغداد إلا فيما ندر ، وأخذت قبائل الشمال تنتقل إلى المواضع التى ستستقر فيها آخر الأمر . وكانت ولاية الموصل فقيرة لقلة الخير واضطراب الأحوال فيها ، لكثرة نزاع الأجناس فى نواحيها ، فأخذت متاجرها وصادراتها إلى ديار بكر وحلب تقل شيئا فشيئا حتى انعدم تصدير الحرير الموصلى المعروف (الموسلين) ، وتهددت الولاية غارات اليزيدية من سنجار وغارات الأكراد من التلال ، وغارات الجراد ونوازل البدو من كل صوب ، وأعان على ذلك ضعف الباشاوات الذين ولوا شئونها خلال القرن السابع عشر وجلهم من رتبة الميرمران ، بيد أن أهل الولاية كانوا على جانب من القدرة مكنهم من شغل مركز الباشوية فى مناسبات عدة ، فشغلها منهم محمد

---

(1) J, B, Tavernier; The six voyages of Tavernier (الترجمة الانجليزية : لندن ١٦٧٨) ص ٨٦ ، وقد قام تافرنييه برحلاته الست فى العراق بين سنتى ١٦٣٨ ، ١٦٦٣

أمين والزيني باشا سنة ١٩٧٤ وقادون على سنة ١٦٨٣ ، وكانت النواحي التي تلي الموصل شمالا وغربا نهبا النزاع الشيعيين والسنيين ولغارات القبائل المتبدية . وإلى شمال ذلك تقوم عمادية وهي مدينة متوسطة البناء . مستقلة بعض الاستقلال ، وقد مكن لها وقوعها على طريق التجارة من بعض الجاه ، ومثلها في ذلك كويستجق وغيرهما من مدن الشمال ، التي كانت تقوم شبه حاجز بين العراق وفارس وبينه وبين كردستان وما يليها من القبائل المتبدية في الشمال .

انفصال البصره

وأما الجنوب — البصرة — فقد كانت الأحوال جديرة فيه بأن تتجه اتجاها فريدا ، لأن قرب البصرة من بلاد العرب وكثرة إقبال هؤلاء اليها جعل الميول فيها تتجه وجهة عدائية للأتراك . وكان موقع الايالة على البحر جديراً بأن يجعل أهلها أرفه حالا وأبعد عن الحضيض الذي هوى اليه شمال العراق ووسطه ، وكان بعدها عن الدولة كفيلا كذلك بأن يزهد الأتراك في الاصرار على امتلاكها ، ومن ثم أخذت المدينة طريقها الى حال قريبة من الاستقلال بزعامة أمير من سراة البلاد هو إفراسياب الذي اشترى حريته وولايته بالمال ، وأصبح مطلق اليد يفعل ما يريد . ولو لم يفعل افراسياب ذلك لخرجت الولاية عن سلطة الأتراك عن سبيل أخرى ، لأن العداء كان مستحكما بين أهل البلاد من العرب والحامية التركية ، إذ أن أحدهما ما كان يطيق للآخر صحبة ولا طاعة (١) وكان افراسياب من أصل عربي ، وله عند أهل البلاد مقام ، فاستطاع أن يجمع جندا يعتز بهم ، ولكنه ظل بعد استقلاله يحفظ للسلطان خضوعا ظاهرياً ، فأبقى له الخطبة وبعث اليه بالطاعة ، وأخذ يمد لواءه شيئا فشيئاً حتى أصبحت نواحي شط العرب كلها داخلة في زمامه .

افراسياب

بدء اضمحلال نفوذ البرتغال في خليج فارس

وكانت الأحوال قد تغيرت تغيراً ظاهرا في خليج فارس خلال

(١) Longrigg; Op, Cit; P. 100

القرن السادس عشر : إذ كان سلطان البرتغال الذى تتبعنا نموه قد أخذ فى الاضمحلال ، لأن البرتغال نفسها دخلت فى طاعة الأسبان حوالى ستين عاما ابتداء من أواخر القرن السادس عشر ، وكانت قسوة رجالها على أهل خليج فارس وجزائره قد أثارت عليهم سخط الأهالين وجعلتهم يتربصون بهم الدوائر ، فلم يكادوا يلمحون اضطراب قوامهم وقلة ما يصلهم من الامدادات من بلادهم حتى صارحوا سفن البرتغال بالعداء ، وأغلق كثير منهم موانيه فى وجوهها ، وأخذوا يمنعون عن البرتغاليين متاجرهم مما أثر فى تجارتهم تأثيراً ظاهرا .

الانجليز يدخلون الخليج

وكانت أنظار الدول الأوروبية الأخرى قد اتجهت نحو الخليج ، فأرسل الانجليز بعض تجارهم من أمثال الدرد Eldred و نيوبرى Newbrry وفتش Fitch ليستطلعوا أحوال الخليج والجزيرة العراقية ، ولم تلبث شركة الهند أن أرسلت رسلها يجوسون الشواطىء ويسبرون أغوار المياه ، وكذلك فعل الهولنديون بعد حين ؛ ولنضف إلى ذلك أن ملوك

الهولنديون

فارس كانوا ساخطين على البرتغاليين ، فما زالوا يناجزونهم حتى أخرجوهم من جزائر البحرين فى أول القرن السابع عشر ، ثم أخذوا يعدون العدة لاخراجهم من هرمز ، فعجل البرتغاليون باحتلال الميناء الجديد الذى كان الفرس قد أنشأوه بعد خروج هرمز من يدهم وهو بندر عباس ، ولكن سلطانهم على بندر عباس لم يدم طويلا ، إذ استطاع الفرس سنة ١٦١٤ أن يجلوا البرتغاليين عنه ويستردوه . (١)

الحرب بين الانجليز والبرتغاليين

هنالك عجل الانجليز لينتهزوا الفرصة والبرتغاليون فى ضعف من أمرهم لا يملكون لهم دفعاً ، فأرسلت شركة الهند الشرقية سفينتها المسماة « جيمس » فألقت مراسيها فى يَشْكْ وأخذت تحاول الدخول فى سوق الحرير ، وبدأ مندوبوها يراساون الشاه للحصول منه على احتكار هذه التجارة ، وانتهى الأمر بينهما فى حدود سنة ١٦٧٠ إلى اتفاق

(1) Longrigg; Op. Cit P 102

جعل تجارة الحرير بيد الانجليز وغصبها من البرتغال ، ومن ذلك الحين بدأت أهمية يشك فى الظهور حتى كادت تأخذ مكانة هرمز . ثم أخـذ الانجليز يعدون العدة ليهاجموا معاقل التجارة البرتغالية ، فهاجموا القشيم ثم أخذوا يستعدون لمهاجمة هرمز نفسها من أوائل سنة ١٦٢٢ ، وهاجمت البلد حامية فارسية فاحتلتها ، وأخذت تهاجم حصنها فامتنع عليها . وكان الهولنديون قد أقبلوا إذ ذاك وأنشأوا لأنفسهم مصنعا فى هرمز ، وجعلوا مركز أعمالهم فى مسقط ، فما كادوا يجدون الانجليز والفرس يهاجمون البرتغاليين حتى سارعوا يدلون دلوهم ، فاشتركوا مع الحليفين فى مهاجمة البرتغال واستمر القتال حول هذا المعقل زمنا طويلا خسر المتحاربون خسارة جمة بسبب ذلك .

فارس تحاول الاستيلاء على البصره

بيد أن زوال سلطان البرتغاليين وعودة سلطان فارس على الخليج لم يكن خيراً للبصرة ، إذ تطلعت أنظار الشاه إلى هذا البلد الذى يؤثر فى تجارة بندر عباس تأثيراً ظاهراً ، وكان إفراسياب إلى ذلك يصادق البرتغاليين ويأويهم ويعلن الطاعة لسلطان الاستانة ، فكان ذلك سبباً كافياً يبرر القضاء عليه فى نظر الشاه ، ومن ثم أصدر هذا أوامره إلى والى شيراز بمهاجمة البصرة وإرغام أميرها على خلع طاعة الخليفـة والدخول فى طاعة الشاه ، وأن يجعل الخطبة باسمه ويسك عملته برسمه ، فأبى افراسياب أن يجيب الشاه إلى شىء من ذلك ، ومن ثم أرسلت حملة لتأديبه . فاستنجد إفرانسياب بالبرتغاليين فأنجدوه بسفنهم ، وبهذا تمكن من أن يرد الفرس عن قبان بعد أن سقطت فى يدهم ششتر ، وفى تلك الأثناء توفى افراسياب الكبير وخلفه على البصرة ابنه على باشا . فبدأ يستعد لمقاومة الهجوم الفارسى المنتظر ، ويبدو أن طول عهد آل إفراسياب بحكم البلاد كان قد أنشأ بينهم وبين الأهلين صلة ووداً ، فأسرع أهل البصرة وأحابيشها لنجدة على باشا ، ومد البرتغاليون يد العون ، وتقـدم على باشا بقواته إلى القورنه وعسكر فيها ، وجعل يترقب أعداءه ليمنعهم من العبور ،

ولكن الانتظار لم يطل به حتى فوجىء بأمر غريب وهو ارتداد الفرس على أعقابهم وانسحابهم من الميدان قبل أن تطلق رصاصة واحدة. وبهذا تنفست البصرة وأميرها الصعداء، أن كتبت لها النجاة من هذه الغزوة التى تهددتها بكل أذى. وقد كان لهذا الانتصار الهين أجمل الوقع عند الدولة العثمانية ورجالها، فتسارعوا إلى منح على باشا رتبة الباشوية وخلع عليه السلطان الخلع فى سنة ١٦٢٥، ومن ذلك الحين أخذت البصرة طريقها الى القوة والازدهار حتى أصبح بلاط أميرها يضارع بلاط الرشيد فى سالف الأزمان (١). ولم تبخل الأيام بشاعر يتغنى هذا العز الوارف الطارىء، فأرسلت الشيخ عبد العلى الرحمة يرسل الشعر فيما يبصر ويسمع، ويضيف الى عقد الأدب العربى بضع حبات من الخرز الرخيص!

الانجليز والهولنديون يرثون البرتغاليين

أما فى الخليج فقد تقاسم الهولنديون والانجليز تراث البرتغاليين، وشاطرهم فى ذلك تجار عمان، ولم يشترك الفرس والترك معهم لأنهم لم يسهموا فى تجارة البحر بنصيب. وحاول البرتغاليون أن يتحصنوا فى مسقط عاصمة عمان، وأن يعدوا هناك عدة صالحة لاستعادة هرمز، ولكن الفرس عجلوا بالاستنجاد بالانجليز للقضاء عليهم وإخراجهم من مسقط، ومن ثم تضعضعت قوتهم من جديد فسقط معقلهم صحار فى يد حامية عمانية حوالى سنة ١٦٤٣، وسلمت مسقط نفسها بعد ذلك بقليل، واستمر البرتغاليون يقاومون بعد ذلك زمنا طويلا ولكن الفرس والانجليز والعمانيين لم يكفوا عن مهاجمتهم للقضاء عليهم، مما انتهى بهم إلى الانسحاب من خليج فارس تماما فى ختام القرن السابع عشر.

شركة الهند

وكان طبيعياً أن يشتد ساعد شركة الهند فى خليج فارس بعد انسحاب البرتغال، فأنشأت مصنعا فى بندر عباس وفرعين له فى شيراز

(١) Longrigg; Op. Cit P. 105

وأصفهان وسيطرت على تجارة الحرير ، وقاسمهما الهولنديون هذا الربح ، وكانوا أمهر من البرتغاليين وأكيس ، فسهل عليهم كسب ود الشاه ، وبهذا حصلوا منه على امتيازات جديدة ، فأثار ذلك مخاوف الانجليز وحسدهم ، وبدأت العلاقات تفتر بينهما إن لم تتجه وجهة عدائية ، واستمر نجم الهولنديين فى صعود طوال القرن السابع عشر .

البصرة خلال القرن السابع عشر

لهذه الأسباب كلها لم تتأثر البصرة بما حدث فى بغداد أثناء ذلك ، فلم يدخلها الفرس كما دخلوا بغداد . ولم تتأثر بتجديد قانون الامتيازات الذى منحه السلطان سنة ١٦٦١ ، واستمرت تحكم أقاليمها بسلطان ظاهر ، وتصدر من متاجرها ، وتتخذ من السياسات ما يكفل لها السلامة من أذى الفرس أو البرتغاليين أو الانجليز أو الهولنديين . ولكن طول الحكم أبطر عليا باشا فيما يظهر فمال إلى شيء من العسف فى معاملة رعاياه ؛ على هذا يدل استنجاد نفر من تجار البصرة بحكومة بغداد حوالى منتصف ذلك القرن ، وكانت أسرة افراسياب لا تستند إلى سند قوى من اعراب الايالة ، وكان شيوخ القبائل يرون فيها وليدة الظروف ، ويحسدونها لما أدركت من الثروة والسلطان ، فجعلت نفوسهم تحدثهم بخلع طاعتها ، ومن ثم اتجهت همة الباشاوات فى بغداد إلى استردادها ، فوجه اليها موسى باشا حملة صغيرة حوالى منتصف القرن السابع عشر ؛ ولكن المدينة استمرت مزدهرة رغم ذلك إلى أواخر ذلك القرن ، وانتعشت أحوالها وسادها الرخاء ، ووصفها الرحالة الفرنسى تافرنييه — الذى قدمنا وصفه لبغداد —

البصرة كما رآها تافرنييه

بقوله : « وقد وصل أمير البصرة أسبابه بكثير من الشعوب الغربية ، ولهذا تجد ترحيبا إلى أتيتها ، وتسود المدينة الحرية ويشيع فيها نظام يمكنك من السرى طول الليل فى شوارعها دون أن ينالك أذى ؛ ويأخذ الهولنديون التوابل منها كل عام ، وكذلك يأخذ الانجليز الفلفل وبعض البهار ، وأما البرتغاليون فلا تجارة لهم هناك على الاطلاق . ويحضر الهنود اليها النيلج والقليقوط وشتى صنوف البضائع ، وعلى الجملة ففى المدينة تجار من كل حدب وصوب : من القسطنطينية وأزمير وحلب

ودمشق والقاهرة وسائر أنحاء تركيا، يقبلون اليها ليشتروا التجارة الواردة من الهند . ومن هناك يحملونها على ظهور صغار الجمال التى يشترونها من هناك أيضا — إذ يجلبها العرب إلى هناك ليبيعوها — أما أولئك الذين يأتون من ديار بكر والموصل وبغداد والجزيرة وآشور فينقلون متاجرهم فى مياه دجلة فيكلفهم ذلك عناء ونفقة . والضرائب فى البصرة تبلغ حوالى الخمسة فى المائة من قيمة البضاعة ، ولكنك غالبا ماتلقى من عطف الأمير أو رجال الجمرك مايعفيك من بعض النفقة فلا تدفع إلا نحو أربعة فى المائة . . وأمير البصرة من القدرة بحيث يربح فى العام نحو ثلاثة الملايين من الجنيهات ، وموارد دخله الهامة أربعة : المال والخيل والجمال والتمور ، ولكن معظم ثروته من هذه الأخيرة (١) »

ولاة الترك يحاولون استعادة البصره

بيد أن هذه الحال من الاستقلال لم تدم غير قليل . لأن أمراء بغداد ما كانوا ليطيقوا السكوت على خروج البصرة من أيديهم مع ماهى عليه من الثراء واتساع الجاه ووفرة الغلة . فبدأت نفوسهم تهوى اليها ، ولم يلبث النزاع أن دب بين أميرها حسين باشا ووالى بغداد ، فاستطارت الحرب وطال أمدها حتى مل الجانبان ، فبدء امفاوضات طال أمرها ، واستقر الرأى أخيرا على أن تبقى حكومة البلد فى أسرة افراسياب على أن لا يقوم بالأمر حسين باشا بل افراسياب ابنه ؛ وأن تصبح البلد خاضعة اسميا للسلطان فيخطب باسمه على منابرها وتدفع الجزية له من خزانتها .

القضاء على استقلا

وتلك حال لا تدوم . فلابد أن تصطدم مصالح الأسرة الحاكمة بمصلحة السلطان الأعلى ، أو لابد أن يخلق باشاوات بغداد تصادما من هذا النوع حتى يخلصوا من آل افراسياب جملة . وقد وقع هذا بالفعل بعد ذلك بقليل ، ودخل جنود السلطان البلد بخيانة أحد أقارب افراسياب المسمى يحيى ، وبهذا انمحى من الوجود استقلال البصرة وعادت ولاية خاملة ككل نواحى الدولة سواء بسواء فى أواخر النصف الثانى من القرن السابع عشر ، ومن ذلك الحين انفتح بابها لمساءات الأتراك وعسف الولاة ومنافسة الشاهات .

---

(1) Tavernier ; Op, Cit P, 89 عن Longrigg P,.110

اضمحلال فارس

جدت على تاريخ العراق عوامل جديدة خلال القرن الثامن عشر ، عوامل أخذت تخرج به عن هذا الخمول وتكيف تاريخه تكييفا جديدا يختلف اختلافا يسيرا جدا عما شهدنا منه خلال القرنين المنقضيين ، فلا زال الخلاف بين تركيا وفارس محورا من محاور تاريخ العراق ولكنه لم يعد الآن نزاعا خالصا بين الشاهات والسلاطين ، وانما دخلت فيه عناصر جديدة كالأفغان والروس ، ولم يعد الصفويون هم أصحاب الشأن فى فارس وانما حل محلهم حكام جدد بعضهم أفغان وبعضهم فرس افشار ، لأن فارس تضعضعت وهاجمها الأعداء من كل ناحية ، فلم يعد العراق وآله يخشون من ناحيتها شرا ولا تاثيرا ، ولهذا أخذ الرخاء يسود شئون العراق فبدأت أحواله تتحسن من نواح شتى ، فلم يعد جهد حكامه منصرفا إلى مناجزة الفرس واتقاء شرهم ، وإنما أصبح فى إمكانهم أن ينصرفوا لشئون ولايتهم وأن يعنوا بها بعض العناية . كذلك هدأت الأحوال فى خليج فارس حينا فأمنت البصرة طول الكفاح والصراع ، وأخذت تستدرك بعض مافاتها فى سنوات النزاع العنيف بين الترك والفرس والهولنديين والبرتغال والانجليز . وعلى الجملة اطمأنت أحوال العراق بعض الشىء خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، وانفتح باب الاصلاح والعمل لخير البلاد .

حسن باشا ينشىء حكومة وراثية بالعراق

بيد أن شيئاً من ذلك الاصلاح لم يتم ، فلا الباشاوات التفتوا لاصلاح شئون ولايتهم ، ولا أهل البلاد انتهزوا الفرصة للأخذ بيد قطرهم ، وانما شغل الأولون بتثبيت أقدامهم فى البلاد ، حتى استطاع أحدهم ــ حسن باشا ــ أن يجعل مقاليد البلاد فى أبنائه وأسرته بحيث لم تخرج الولاية عنهم من أوائل القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر أى من ولاية حسن باشا إلى ولاية داود باشا (١) إذ ظل

(1) Longrigg; Op, Cit, P, 128

الحكم فى أقارب حسن ثم انتقل إلى المقربين من خدم الأسرة واتباعها . وأما الآخرون - الأهلون - فقد أخذت قبائلهم تحترب و تتصارع للاستيلاء على أحسن المواقع فى البلاد ، فدخل بنو لام فى صراع طويل مع امارة حويزة المجاورة لهم ، وأخذ بنو جف وبلباس يتنقلون بين فارس والعراق لا يستقرون على أمر ، وروعت قبائل وسط الجزيرة غزوات وغارات من إخوانهم فى الصحراء ، وثارت القبائل الكبرى من أمثال شمر والمنتفق وبهذا لم تسكن الأمور داخل العراق أو على حدوده السكون الذى يمكن من العمل لاصلاح نواحيه ، فظل الاهمال يشمل مرافقه . غير أننا نلاحظ أن القبائل كانت فى طريقها إلى الاستقرار فى نواحى البلاد : هذا الاستقرار الذى يمكنها من العناية بشئون الرى والزراعة ، فثورة المنتفق إنما كانت فى أساسها نزاعا على حق الزراعة فى جزائر الفرات ، مما يدل على أن هذه القبائل بدأت تحرص على الزراعة وترى لنفسها الحق فى ملكية ما بيدها من أرض ، ولم تعد تعتبر نفسها غازية لا علاقة لها بالبلاد وأهلها .

ثورة القبائل العربية

ونلاحظ كذلك أن عامل البلاد فى هذه السنوات الأولى - حسن باشا - كان رجلا على كثير من الاقتدار ، وأنه عمل كثيرا لما فيه خير البلاد ، فقد أعان القبائل على الاستقرار بحفر بعض الترع ، وحرص على أن لا يمس الشعور الدينى لأحد من السنة أو الشيعة ، ولم يحاول كذلك أن يخرج على السلطان ، فظلت أمور العراق تسير فى رعايته سيراً طبيعياً عاد على البلاد وأهلها بالخير .

حسن باشا

غير أن هذا السكون لم يطل أمده . إذ لم تلبث حوادث فارس أن ألقت على العراق ظلا ثقيلا ، وأخذت تستلفت اهتمام حكام العراق حتى شغلتهم عن شئون البلاد جملة ، ثم لم تلبث الحرب أن ثارت فعادت

الأمور سيرتها القديمة وغرق العراق فى شئون فارس وحروبها ، وبهذا قطعت على العراق هذه الفرصة القصيرة من الهدوء والاستقرار .

نهضة أفغانستان محمود خان

فى خلال العشرة الثالثة من القرن الثامن عشر قام فى جبال أفغانستان الفاتح المعروف محمود خان وهاجم فارس واستطاع أن يمزق جيوش الصفويين ويحكم البلاد ويشتت البيت الصفوى فى كل ناحية ، وبهذا زالت من الوجود هذه الأسرة التى ظلت تحكم فارس وما حولها ثلاثة قرون ونصف ، وانفتح باب فارس للغزوات من كل ناحية فأخذ جيرانها يتقدمون فى أرضها ويتقسمونها . وبدأ الصراع بين الروس والأتراك والأفغان والفرس أنفسهم على ولايات الشمال فى جورجيا وداغستان ، وولايات الغرب المتاخمة للعراق ، واستولى الأتراك على الولايات المجاورة للعراق مثل كرمان شاه واردلان ولورستان وهمذان ، وظهر جلياً أن الحرب واقعة بين الأفغان والأتراك . على هذه الولايات

الحرب بين الافغان والترك

استمر الصراع بين القوى الأفغانية والتركية على أرض فارس زماناطويلا ، استعمل الجانبان فيه كل ماملكا من فنون الدعاية السياسية والدينية ، وأظهر فيه أشرف خان الأفغانى قدرة طيبة فى شئون السياسة ، فجعل يبث بين قبائل الأكراد التابعين للدولة دعاية واسعة النطاق ، قام بها نفر من العلماء السنيين مما انتهى بانحياز الجانب الأكبر منهم إلى جانبه فى ساعة الحرج ، وكانت نتيجة ذلك انتصاره على الأتراك انتصارا أعقبه العفو عن كل من وقع فى يده من أسراهم ، مما مكن له من نفوس أهل السنة فى العراق نفسه . وانتهى الأمر بين الجانبين بمعاهدة جعلت فارس قسمة بين الترك والأفغان فأصبحت همذان وكرمان شاه واردلان ولورستان حصة السلطان ، وأصبح أشرف خان أميراً على ما بقى من بلاد فارس على أن يختص السلطان بالولاء .

نادر قولى

بيد أن الفرس لم يطيقوا الاقامة على هذه الحال ، وبدأت نواحى فارس تعج بالرغبة فى التخلص من ربقة الأجانب وطرد الغاصبين من الشرق والغرب على السواء ، فلم يكد ينقضى على تحالف الأتراك والأفغان زمان طويل حتى أقبل من أقصى البلد رجل يسعى بالجند والجاه ، وتسامع الغاصبان بظهور نادر قولى فى خراسان ومسيره نحو الجنوب ليلقى أعداء بلاده . تقدم نادر بجموعه فشتت قوى الأفغان ، وأعاد سلطان الصفويين ، ثم اتجه إلى الغرب ليستخلص الولايات التى بيد الأتراك ، فلم يزل يغالبهم حتى تمكن آخر الأمر من ارغامهم على الانسحاب ، فردوا كل ما كانوا غصبوه من أرض فارس وعادوا الى الحدود التى كانت بينهم وبينها سنة ١٧٣١ .

العراق أثناء الحرب

هذا الصراع العنيف بين الترك والأفغان يصور لنا حال العراق خلال سنوات الفتنة أى فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ويؤكد لنا أن مصالحه وشئونه أهملت كل الاهمال من جانب الولاة

نادر يهدد العراق

وقد كان يرجى أن تعود الأمور الى مجاريها فى العراق بعد أن انتهى الصراع على أرض فارس وعادت البلاد الى أصحابها ، ولكن صروف الأيام أبت على العراق ذلك ، إذ أن نهوض فارس من جديد وعودتها إلى القوة على يد نادر شاه كان معناه عودة النزاع بين الفرس والترك على أرض العراق ، كأنما كتب على هذه البلاد أن تكون قربانا مضحى على أى الحالات فى هذه الأزمان . إذ أين للبلاد الهدوء والاطمئنان الذى يمكن أهلها من العناية بمرافق بلادهم مادام نادر قولى يصر الاصرار كله على أن تفتح له أبواب العراق يلجها كما شاء لزيارة قبور الاولياء والصالحين فى النجف وكربلاء ، أنهم مضطرون أن ينفقوا ماملكوا من جهد ومال فى الاستعداد للقاء هذا الفارسى العنيد ورده عن ولايتهم ، بل ان حاكم البلاد كان خليقا أن يجتهد فى العدة حتى يجاوز بها طاقة العراق نفسه ليدفع الغزاة التى قيل إن نادرا كان يتأهب لاجتياح البلاد

نادر يغزو العراق

فيها على رأس مائة ألف مقاتل . وماذا يبقى من الخير فى هـذا القطر المسكين بعد هذه الغزوات المتكررة وطول الاستعداد للحرب والقتال، لابد أن تنحط حاله الاقتصادية ويفسـد الكثير من نواحيه وتزداد الاحوال فيه سوء : لقد استمر نادر يهدد البلاد بالغزو المخرب سنوات طويلة ، وتقدم بالفعل وحاصر بغداد حصارا شديدا أصابها منه بلاء بالغ ، ولبث على الاسوار يجيع أهلها ويسخر منهم بارسال البطيخ اليهم وهم فى غمرات الجهد والعطش حتى كادت البلد تسقط فى يده ، لو لا أن كتبت لها السلامة على يدى القائد التركى المعروف بعثمان طبل أى ـ الأعرج ـ بعد صراع طويل مع نادر ، تخلله ما يكون عادة بين المتحاربين المسلمين من تناكر فكه وتعابث مضحك يطرب له القادة فى حين يموت الجند وأهل البلاد ، وانصرف نادر عن العراق آخر الأمر بعد معركة حامية دامت تسع ساعات سويا ابلى فيها الانكشاريون بلاء طيبا ، انصرف عن بغداد ليحل ضيفا ثقيلا على مدائن الشمال كتفليس واريفان وجنجاه وما اليها ، وليهزم الأتراك فيها هزيمة ساحقة يموت فيها قائدهم عبد الله كبريلى

حصار بغداد

وهكذا غرق العراق كله ـ شماله وجنوبه ـ فى الحروب والمنازعات والاضطرابات زمانا طويلا ، ولم يحسم النزاع الا فى السابع عشر من اكتوبر سنة ١٧٣٦ بمعاهدة حلت فيها مشاكل العقيدة واعادت كلا من الجانبين إلى حدوده الأولى بعد ثلاثة عشر عاما من الحرب والصراع ، فسد فيها كل شىء فى العراق وشمل الاضطراب القبائل فأخذت تنتقل مسرعة من ناحية لأخرى ، وعاشت فى شبه استقلال لايكاد الوالى يجـد متسعا من الوقت ليردها إلى الطاعة . وكانت تلك الحروب والقلاقل فرصة طيبة للقوى الأوروبية ، فاخذت مصالحها وأعمالها تنمو فى البصرة نموا خطرا والباشا فى شغل عنها بحرب الأفغان تارة والفرس تارة أخرى ، فأخذت اقدام شركة الهند الشرقية تثبت فى أرض البصرة

معاهده سنة ١٧٣٦ بين الفرس والأتراك

الأوربيون ينتهزون فرصة الحرب

وتردّد عمالها فى نواحى البلاد، وأصبح مصنعها فى البصرة مؤسسة دائمة على رغم ما كان رجالها يقاسون من رداءة الجو ومساءات الحكام، ففى هذه السنوات يذكر تاريخ الشركة نسبة عالية من الوفيات من موظفيها فى العراق؛ ولكنه يؤكد كذلك أن قدم الشركة ثبتت نتيجة لذلك الصبر والجلد، وأخذ عمالها يتدخلون فى شئون البلاد السياسية ويناصرون فريقا على فريق كما حدث فى سنوات ١٧٢٧ و ١٧٢٨، وكذلك انتعش مصنع الهولنديين انتعاشا مكنهم من الاستمرار إلى سنة ١٧٥٢.

سرة الجليلى فى الموصل

وكان طبيعيا أن تؤدى هذه الحالة إلى تفكك وحدة البلاد وانفصال أجزائها، وقد كان الساعون لذلك نفر من ذوى البأس فى الأقاليم والنواحى وطائفة من رؤساء القبائل، وقد رأينا كيف استقل آل أفراسياب بالبصرة، وبقى أن نعرف أن هذه الفترة شهدت ظهور أسرة الجليلى فى الموصل واستبدادها بأموره وتمكنها من الاستقلال به بجهود منشئها حسن باشا (١٧٣٠)، الذى استطاع أن يورث ولايته أبناءه، ومضى أفراد الأسرة يتوارثون ولاية الموصل حتى منتصف القرن التاسع عشر. كذلك انقطعت الصلة بين بغداد وولاية بابان فى الشمال الشرقى، إذ استطاع والياها القويان خانة باشا وبكر باشا أن يستقلا بشئونها ويقطعا الأسباب التى كانت تصلها بالحكومة المركزية.

بدء ظهور المماليك الجركس

وفى أواخر هذا القرن بدأ سلطان المماليك يظهر فى العراق؛ وتاريخهم فى هذا القطر وسموهم إلى القوة والسلطان فيه شديد الشبه بسبيلهم إلى القوة والظهور فى مصر، فقد بدأ أمرهم فى العراق خدماً وحرساً وعمالا فى القصر؛ كان يؤتى بهم صغاراً من تفليس وجورجيا؛ ويربون فى البلاط أو المعسكرات بعناية ظاهرة، ثم توكل إليهم بعض وظائف

القصر والحكومة ، ومن ثم يأخذون طريقهم إلى الوظائف الكبرى بفضل ما كان لهم من اقتدار ومواهب وما كانوا يبدون من الاخلاص لسادتهم وحسن الاستعداد للعمل ، وعلى مر الأيام كثر عددهم ، ولم يقتصر استخدامهم على الباشا نفسه بل أقبل عليهم كبار العمال والحكام حتى صارت بغداد تضم منهم عدداً طيبا ؛ وأخذ الباشوات والحكام يثقون فيهم ويعهدون إليهم بالوظائف الهامة فى بيوتهم ونواحى الادارة ، بل كان بعضهم يزوج مملوكه ابنته ، وبذلك أصبحوا ساعد الولاة الأيمن فى إدارة البلاد وحكمها ، وتطلعت نفوسهم إلى الاستئثار بالسلطة كلما زاد مركز الولاة ضعفا . ومن هنا يسهل علينا تصور السبيل التى وصل بها هؤلاء الكرج (أو الجركس أو كُولَهْ مَنْ كما كانوا يسمون بالتركية) إلى منصب الولاية نفسه . ففى أواخر أيام أحمد باشا بدأ أحد هؤلاء المماليك يظهر ويبدى تفوقا ملحوظا فى شئون الحكم والادارة ، فتولى منصب الكهية الذى يلى الباشا نفسه ، واشتد على البدو والخارجين على السلطان حتى أحبه الناس ووضعوا فيه ثقتهم ، ولما اشتد ساعده زوجه أحمد باشا ابنته عديله هانم ، ومن ثم خطا إلى منصب الولاية بعد موت أحمد باشا حوالى سنة ١٧٤٥ ، وعلى الرغم من أن السلطان لم يقر هذا التعيين — وسارع بنقل سليمان إلى ولاية أَضَنَهْ بعد قليل — ظل أهل البلاد ومن فيها من جند الأتراك ينظرون اليه نظرهم إلى الرجل الوحيد الذى كان يستطيع أن يقر العدل والأمن بينهم ، فبدءوا يثورون بحاكمهم الجديد ويشغبون عليه حتى وجد نفسه مضطراً آخر الأمر إلى التسليم لسليمان باشا الذى عاد من اضنه ودخل بغداد دخول الظافر دون اذن السلطان ، ولم يلبث السلطان أن أقر تعيينه فأصبح أول حكام العراق من المماليك .

سليمان باشا أول مماليك العراق

أظهر سليمان باشا حزما وقدرة ، وأنفق وقته كله فى شئون ولايته وأكثر من العسس بالليل فى نواحيها حتى أطلق عليه لقب «أبو ليلى» ،

ابو ليلى

واستقامت شئون البلاد فى ولايته حتى أننا «لنرى الحكومة التركية فى العراق فى أوجها على أيامه ، فقد كان رجلا ماهرا قويا نهازا للفرص خبيرا بشئون البلاد (١)». واستمر يحكم البلاد ويصرف شئونها باقتدار مدى اثنى عشر عاما . وكان لزوجته عديله هانم من السلطان شىء عظيم ، فقد كانت تتدخل فى شئون الادارة وتكيد للحكام وتأتى من الأمر ما تريد بجرأة ظاهرة أثارت عجب الناس فى بغداد وغيرها ، وكانت لها طرائف لا تخلو من غرابة كتكوينها هيأة منتظمة من تابعاتها والباسهن شارات معينة من الحرير . وكان الرجل من المهارة بحيث لم تثر اعماله هذه السخط والحقد فى القسطنطينية ، فظل يصرف الأمر على حسن الظن والولاء من الباب العالى ، بل قد استحق تقدير السلطان فى أخريات أيامه أى سنة ١٧٥٢ ، اذ أرسلت اليه خلعة سنية من الفرو ، هذا على الرغم من أنه لم يكن يرسل الى مركز الخلافة مالا ، إذ أنه كان دائم الادعاء بأن حملاته و نفقاته تضفى على ما تغله ولايته .

عديله هانم

الاستكثار من الجركس المماليك فى العراق

وفى حكومة أبى ليلى ازداد استخدام الكرج المماليك فى وظائف الحكومة ببغداد ، واتجهت العناية الى تعليمهم واعدادهم لكبار الوظائف والأعمال ، أنشأ سليمان هيأة من فتيان الكرج دربت تدريبا منتظما على شئون الحرب والادارة ، فكانوا يعلمون القراءة والكتابة وركوب الخيل والسباحة ، ومن ثم يرقون الى مرتبة الجريكلى التى تؤهلهم لمناصب قيادة فرق الجند ، وبهذا استطاع أبو ليلى أن يشغل بالأكراج كل وظائف الجيش والادارة ، مما شل نشاط الأتراك والبغداديين أنفسهم ؛ وبدأ التحاسد والعداء يشتد بين الجانبين ، لأن أبا ليلى قصر كبريات المناصب على هؤلاء المماليك ، وبهذه الهيئة الجديدة استطاع الرجل أن يخضع البلاد كلها من جزائر البحرين الى ولايات الشمال ، وترك البلاد عند موته فى الرابع عشر من مايو سنة ١٧٦٢ على حال طيبة من الهدوء

(1) Longrigg; Op. Cit P. 196

والتوحد والرخاء ، بل أن جيرانه من الفرس كانوا يخشونه ويرهبون جانبه ويتقربون اليه بالهدايا الطيبة مخافة أن يهم بهم أو يسير جحافله نحوهم

بيد أن الدولة ما كانت لتطيق هذه الحال من الاستقلال الذى يتمتع به المماليك فى حكم العراق ، لأن رجالها كانوا يتخوفون الحكام الأقوياء وإن أقاموا على الطاعة وأحسنوا فى ولاياتهم ، لا يشفع لهم الاجتهاد ولا الاقتدار ولا بذل المال ، لأن انفرادهم بالأمر يعد جريمة وحده ، ثم إن حكم المماليك فى العراق لم يكن خيرا خالصا ، لأنه حرم الدولة مما كان يرسل اليها من أمواله ، وحرم أهل البلاد والأتراك كذلك من الوظائف وجعل الحكومة وقفا على هذه الطائفة الغريبة التى كانت تشتد على الناس بالايذاء يوما فيوم ، هذا الى أن حكام العراق من المماليك أنفقوا جهدهم كله فى الحروب والغارات ، ولم تكن كل ضرباتهم توجه الى أجانب أو غزاة وانما الى قبائل من أهل البلاد ، ففى حكم أبى ليلى وعمر باشا قاست قبائل المنتفق والاكراد والبابان ويلات شتى من حروبهما وحملاتهما ، واذا بقى من اهتمام المماليك شىء بعد ذلك فقد انصرف فى مناورات لا فائدة للبلاد منها بين أبى ليلى ومماليكه أو بين خلفائه وزوجه عديله هانم ، فجعلت نواحى البـــلاد تتحرك بالسخط عليهم وتتوجه الرجاء الى القسطنطينية للقضاء عليهم ، لأن استمرارهم فى الحكم كان معناه اذلال طوائف البلاد وكلها والاستئثار بخيرها ، فكان هذا دافعا لرجال الدولة الى التعجيل بالعمل للقضاء عليهم .

الدولة العلية توجس خيفة من سلطان المماليك

واذا كان الأتراك قد شغلوا عن شئون العراق أيام أبى ليلى لما حزبهم من حرب الروس أو النمسويين ، فقد فرغوا من هذه المشاغل بعد معاهدة كتشك كينارجى سنة ١٧٧٤ وأصبح فى استطاعتهم أن يشرعوا فى العمل للقضاء على استقلال المماليك فى العراق ، فعجلوا

الاتراك يبدءون العمل للقضاء على المماليك

مصطفى باشا

بتسيير حملة الى العراق يقودها مصطفى باشا والى المرنة ووالى شهرزور وسليمان الجليلى صاحب الموصل لينتقم من أبى ليلى لما نزل به من الأذى على يديه ، وصحبهم كذلك عبد الله باشا الطويل والى ديار بكر ، وكان معهم أمر بنقل عمر باشا إلى ديار بكر واحلال مصطفى باشا محله . وإنما أخذوا معهم هذه القوات كلها لأنهم توقعوا ألا يمتثل عمر لأمر السلطان فاستعدوا ليأخذوه بالقوة إذا مال إلى العصيان ، والغالب أن الرجل ما كان ينوى عصيانا ، لأنه عجل بالامتثال للأمر وخرج من المدينة فى طريقه إلى ديار بكر مزوداً بما استطاع حمله من الأموال . ولكن مصطفى باشا لم يرضه هذا التسليم الهين الذى لا يكسبه فخراً ولا ذكراً، فهاجم معسكر عمر على غرة واضطره إلى الاسراع بالهرب ، وهو لا يدرى السبب فى هذا العدوان السيء ، ويبدو أن المفاجأة أذهلته عن نفسه فوقع من على حصانه فدقت عنقه ومات . ومن غريب الأمر أن مصطفى نفسه لم يكد يدخل بغداد حتى شغل عما أتى من أجله ، وانصرف إلى اللهو والعبث فى هذه الأسابيع التى كان أولو الأمر فى القسطنطينية ينتظرون فيها نتيجة مسعاه بشوق شديد ، فلم تكد تنتهى إليهم أخبار عبثه وتضييعه حتى عجلوا بعزله وتولية عبدى باشا والى كوتاهية شئون العراق ، فتقدم نحو بغداد ، ولم يكد يقاربها حتى فر أمامه مصطفى باشا مسرعا حيث لقى حتفه على يد رجال السلطان فى ديار بكر ، وما هى إلا أسابيع حتى كانت رأسه فى طريقها إلى القسطنطينية . وقد حاول عبدى باشا أن يستخلص الأمور من بقايا المماليك فلم يستطع ، إذ كان أحد هؤلاء المماليك — عبد الله باشا — قد استطاع فى سنوات الاضطراب أن يجمع زمام السلطة بين يديه ، مما اضطر السلطان إلى تعيينه فى ولاية العراق ، وبهذا أرغم السلطان مرة أخرى على اقرار المماليك فى حكومة هذه البلاد ، ولكن

عبدى باشا

رجاله لم يكفوا بعد ذلك عن الكيد لولاة العراق بشتى الأساليب مما أغرق البلاد كلها فى الحروب والمنازعات، وصرف جهدها إلى مناورات لاخير وراءها ولا غناء فيها ، فساءت أحوالها وجعلت تخطو نحو القرن التاسع عشر فى حال من السوء والاضطراب والتفرق لم تعهد عليها فى أحلك أيام الفوضى فى العصور الوسطى .

استقلال العراق عن الدولة

هذا ، ولم يكن حال العراق بدعا بين ولايات الدولة إذ ذاك ، ففى هذا الحين كانت منازعات الدروز والموارنة فى الشام على أشدها ، ولم يكن للدولة أى سلطان على جبال لبنان وحوران ، ونواحى البلقان ، وكانت سلطتها قد انعدمت أو كادت فى الأبيروس وولاشيا وملدافيا وكانت بذور الثورة قد أخذت تنمو وتشتد فى الجبل الأسود وكذلك كان الحال مع مماليك مصر وأسرة الجزار فى عكا والوهابيين فى بلاد العرب ، أى أن العراق كان — كغيره من ولايات الدولة — فى شبه استقلال عنها ، يصرف أموره مماليكه الجركس على مايهوون ويريدون . وقد كانت هذه الحال ملائمة كل الملائمة لنمو المصالح الأجنبية فى العراق فاشتد ساعد وكالة شركة الهند واتسعت تجارتها فى الصوف والمعادن ، وتحولت وكالة انجلترا فى البصرة إلى قنصلية رسمية ، وأخذ تجار ايطاليون يحطون رحالهم ويستولون على أسواق البلاد . وقد كان ضعف الحكومة المركزية ، وخروجها عن طاعة السلطان مؤديا الى تفرق النواحى عنها وخلعها الطاعة فعلا ، فتحدث رجال الأقاليم وشيوخ القبائل بالثورة عليها ، وكان هذا حافزا للأوروبيين على التدخل فى نواحى البلاد وممكناً لهم من شئونها التجارية : فمن ذلك الحين بدأت السياسات الأوروبية تلتفت نحو العراق وتحاول الاستفادة من ظروفه، وربما نشأت فى ذلك الحين فكرة سيطرة الانجليز عليه ، لأن نهريه العظيمين كانا يكونان طريقاً مائياً صالحاً للهند عن سبيل البحر الأبيض والشام ، وإنما يصح هذا الفرض لأن الأسطول الانجليزى كان قد بدأ

يتبين أهمية عكا فى ذلك الحين ، وكانت العلاقات بين الانجليز والجزار آخذة فى الصعود فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر .

تقدير مماليك العراق

بيد أننا لا ينبغى أن نغمط مماليك العراق حقهم ، فليس من العدل فى شىء أن نقرنهم إلى مماليك مصر مثلا ، لأنهم — أى مماليك العراق — كانوا على كثير من الخلق الطيب وحسن التبصر والقدرة على سياسة الأمور والاخلاص فى الالتفات إلى شئون الحكم ، فعلى الرغم من أن كل الظروف كانت مواتيـة لهؤلاء المماليك للخروج عن طاعـة الدولة صراحة ، فقد ظل الكثيرون منهم على الطاعة ولم يقطعوا الخطبة أو يطردوا عمال الباشا إلا فى مناسبات قليلة جدا . « ولم يخلع باشوات المماليك طاعة السلطان فى وقت من الأوقات ، بل استمرت طاعة السلطان معترفا بها فى ولاياتهم فى الخطبة والسكة والمراسلات الدائمة والهدايا القليلة والأتاوة غير المنتظمة ، فى هذه الأشياء كان اعلان الطاعة تاما ، وكذلك كان هذا الولاء يظهر فيما كان يحدث من مسير جند السلطان جنبا إلى جنب مع حرس الباشا الكرجى ؛ وفى هذه الناحية لا يقل باشاوات المماليك اخلاصا عن أى حاكم آخر من الذين اخضعوا البلاد للاستانة » (١) كذلك اجتهد هؤلاء الباشوات فى حماية البلاد من الفرس والوهابيين ، واقتدروا على الدفاع عنها من هذين العدوين ، ولولا جهد باشوات المماليك لضاعت البلاد بينهما . وكان مماليك العراق يدا واحدة ينظمون الامور فيما بينهم ، ولم يكونوا يتصارعون أو يكيد بعضهم لبعض الكيد الذى أخذ الأمور على مماليك مصر ، واستطاعوا أن يسوسوا الأمور بحكمة أرغمت السلطان على احترامهم والتسليم لهم ، حتى لقد كان السلطان لا ينظر للعراق فى أيام ولاة المماليك من أمثال سليمان الكبير أو داود باشا إلا على أنه جار محترم لا ولاية خاضعة ، وكذلك كان أهل الاستانة أنفسهم ينظرون (٢) . ولم يكن

(1) Longrigg, Op. Cit P. 199

(2) Ibid P. 100

هؤلاء المماليك بجامدين ولا مشغولين بالغرور كما كان الحال مع مماليك مصر ، وانما سنجد أنهم كانوا يحاولون أن يعيشوا فى عصرهم كلما استبانوا من قوة الغرب وصلاحية أساليبه أشياء جديدة ، فلم يجمدوا جمود مماليك مصر ، ولم يقفوا من الحضارة الاوروبية موقف العدو الجاهل الذى يعاديها لانه لا يفهمها ولا يقبل عليها لانه يخاف مجرد تجريبها . وكلما تقدمت بهم الايام ازدادت قدرتهم على الحكم وازداد سلطانهم على البلاد ، ومن هنا بلغت قوتهم أوجها فى عهد آخر

سليمان وداود

اثنين منهم وهما سليمان الكبير وداود باشا اللذان حكما العراق بنجاح من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر ، فلنقف عند حكمهما وقفة قصيرة لنتعرف أحوال العراق فى شىء من الدقة والتفصيل خلال هذه السنوات الحاسمة التى اشتد الصراع فيها بين الشرق والغرب .

سليمان بويوق

كان سليمان مملوكا ممتازا ، يشهد بذلك معاصروه من المسلمين والاوروبيين على السواء : فيشهد ها . فوردجونز بأنه « كان نموذجا لطيفاً للباشا التركى » . وكان فى مظهره معانى كثيرة من التعقل والانسانية . وكان ممتازا فى كل فنون الحرب والألعاب حتى ليضارع محترفيها ، وكان مخلصاً وذا حمية فى ممارسة شئون دينه وعقيدته ، وكان رحيما بالقدر الذى يُسمح به لتركى أن يكونه مع قوم تعتبرهم آية من آيات دينه كفارا ، وكان دقيقاً مقتصدا فى نفقاته حتى لقد رمى بالبخل ، ولكنه لم يكن يتأخر — عند مايرى بلده فى خطر — عن أن يخرج شيئاً فشيئاً عما كان قد جمعه وعدّده ، وكان بلاطه فاخرا وقصره شديد الشبه بقصور كبار الحكام ، وقد لقى فى أول أيامه عوناً وعطفاً من الانجليز

فلا زال يذكر ذلك إلى أواخر أيامه »(١) ويصفه الايطالى سستينى بأنه كان رجلا جميلا ، ذا طبيعة مرحة صريحة ،وهو شجاع جدا »(٢) ويؤكد اوليفييه الفرنسى انه «كان مهتما بمراعاة الطبقات المنكودة، وكان يمنع كبار ضباطه من أن يرتكبوا المظالم ، ولم يكن ليبيح أعمال الاستبداد ، ولم يسمح للعرب بأن يروعوا الملاحة فى النهرين ، وعاون التجارة وحماها بما ملكت يمينه ، وكسب تقدير رجال الحرب بما كان له من شجاعة ، وقد حببه إلى الناس ماأذاع فى بغداد من الأمن وما بسط فى ربوعها من الطمأنينة مما ألهج الألسن بالدعاء لحكومته(٣) وهكذا استطاع هذا الرجل القادر أن يقر الأمور فى جانب العدل والرخاء مدى ثلاثين سنة فى العراق . وقد أعانه على ذلك أن المماليك استطاعوا أن يحوزوا الولاية والباشوية معا ، فلم يكن بينهم وبين الدولة عداء ـ فى الظاهر على الأقل ـ كما كانت الحال مع مماليك مصر الذين شغلهم نزاع ولاة الدولة عن كل خير ، ودفعهم إلى الأذى والاستبداد دفعا ، وكان سببا ـ آخر الأمر ـ فى القضاء عليهم قبل أن يضعف أندادهم فى العراق بنحو أربعين سنة .

محاولات اقرار العدل

على رغم هذه القدرة كلها كان سليمان لايكاد يقتدر على ضبط الأمور إلا بالجهد والنصب ، فقد كانت سعايات الفرس لاتكف تثير عليه ولايات المشرق وتبعث عليه الفتنة فى شتى النواحى ، وكانت مناورات الوهابيين تقلق البلاد وتروعها ولا تكاد تترك للرجل فرصة الهدوء والسلام ، وكانت مساوئ الأحكام الماضية ثقيلة الوطأة على

(١) رواه Brydges عن Harfard jones فى A Brief History of the Wahauby P. P. 190–1

(٢) Sestini, voyage de Constantinople à Bassora en 1781 P. 163

(٣) G. A. Olivier, Voyage dans l'Empire Ottoman l'Egypte et la Perse. IV P.P. 350–2

الولاية مما عاقه عن النهوض بها إلى الحد الذى كان يستطيع ،ولم تكن البلاد مهدمة من أثر الاضطرابات والأمراض الماضية . كذلك كان أهل العراق ينظرون فى شىء من الحسد لهذه الحكومة التى استبدت بالأمر كله من دونهم ولم تكد تدع لهم منه شيئا ، ولو لم يكن سليمان قد اشتد فى الرقابة عليهم لاستطاعوا أن يتخلصوا منه ومن أتباعه .ولعل الضعف لم يلحق سليمان إلا من ناحية عوزه الدائم لجند مخلصين ، فقد كان جند الجركس آخذين فى القلة مع الأيام ، وكان الباشا مضطرا إلى الاعتماد على الانكشارية ،فكان على دوام الخوف والحذر منهم،واشتد سليمان كذلك مع قبائل العرب مما اضطر قبائل عُبَيْد وشمر إلى الأذعان بالطاعة له، وملأ نفوس رجالهما منه حفيظة وضغنا، ولم يقصر الوالى فى مضايقة ارسال الجنود إلى وسط العراق لرد الخزايل إلى الطاعة حتى تمكن من ذلك بعد جهد جهيد . وزاد الأمر عليه حرجا هجوم الوهابيين الذى روعه خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر: اى أن الرجل قضى أيامه فى الحرب وما يتصل بها ، مابين حرب العابثين من أهل البلاد وكفاح المعتدين من جيرانها فى الشرق والغرب .

الوهابيون

بدأ الوهابيون غاراتهم الشديدة على غرب العراق قبيل سنه ١٧٩٠م أى أن العراق كان وجهتهم الأولى بعد أن استقر لهم الأمر فى نجد وشرعوا فى الامتداد الخارجى ونشر دعوتهم خارج نطاق الجزيرة ، فتلقت قبائل العرب العراقية فى المنتفق وظافر وغيرهما هجوم الوهابيين الأول ، وما هو إلا قليل حتى أخذ يتسرب إلى مدائن العراق وعواصمه دعاة وهابيون يخطبون على المنابر لنشر دعوتهم واجتذاب الناس إلى مبدئهم ، ولم يكن هؤلاء الدعاة ليقصروا فى انتقادا لخليفة وولاته ورجاله الدينيين،فلقيت دعوتهم القبول من الكثيرين فى قلب العراق نفسه، وانهال على سراياهم الغازية سيل المتطوعين مابين مقتنع بآراء الوهابية ،

ومنتهز فرصة الانضمام الى جيوشها للفوز بالغنيمة والاسلاب ، ومن هنا نفر أهل العراق المستقرون — سنة وشيعة — من هذا الغزو المفاجىء ولم يرحبوا به . استمرت نواحى العراق الغربية تقاسى من حملات الوهابيين المروعة دون أن تخف قوات الوالى لردها أو تخليصها من شرها ، وزاد الأمر خطورة أن الوهابيين جعلوا يرصدون قوافل الحج ويهاجمونها فى غير رحمة أو هوادة ، وعبثاً حاول شريف مكة أن يلفت السلطان إلى الخطر ، فلم يزد هذا الأخير على ان استحث واليه فى بغداد على النهوض للجزيرة للقضاء عليهم ، وكلما تقدمت السنون كلما اشتد هجوم الوهابيين ، واصرارهم على أذى من يقع تحت يدهم من أهل البـــلاد ، وأخيراً نهض سليمان باشا — بعد أن أعيته الحيلة فى الوهابيين — وأخـذ يستعد لارسال حملة قوية لتقر الأمور فى الغرب ، وسارت الحملة المنتظرة فى حدود سنة ١٨٠٠ ، فلم تقم بأمر ولم تلق قتالا ذا خطر بل اتفق الجانبان على أن يؤمن الحج وتخلى الحسا

غزو الوهابيين العراق

بيد أن الأمور عادت إلى ما كانت عليه بعد قليل ، اذ قامت جيوش الوهابيين فى ربيع سنة ١٨٠١ بأخطر ما قامت به نحو العراق من غزوات ،

تخريب كربلاء

فهاجمت كربلاء مركز الشيعة ونهبتها نهباً ذريعاً « فى مساء ٢ ابريل انتشر بين أهل كربلاء الخوف من اقتراب قوات الوهابيين من المدينة ، وكان معظم أهلها يحجون إلى النجف إذ ذاك ، فتسارع من بقى منهم إلى أبواب المدينة يطلبون الفرار . وكان عدد الوهابيين نحو ستة آلاف راكب وأربعمائة فارس ، فترجلوا على مقربة من المدينة وضربوا خيامهم بظاهرها وقسموا قواهم إلى فرق ثلاثة ، واجتمعوا فى خان قريب ، ثم أخذوا يهاجمون البلد من أقرب أبوابها اليهم ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى داخلها فأخذ أهلها — الذين ملكهم الرعب — يتفرقون فى كل ناحية دون أن يقودهم أحد . واتجه المطهرون (أى

الوهابيون) الأشداء إلى الأضرحة نفسها، وبدءوا عملهم عند قبر الحسين ، فنزعوا قضبانه وأكسيته ومراياه الكبرى ، ثم أخذوا ينتزعون — فى عنف بالغ — كل ماوجدوا فى المكان من هدايا الباشوات والأمراء وملوك فارس : من الحوائط والسقوف الموشاة بالذهب وحوامل المصابيح وغالى الطنافس والمعلقات وقوالب النحاس والأبواب المرصعة بالجوهر النفيس ، وقتلوا فى حرم القبر نفسه حوالى الخمسين شخصاً وخمسمائة آخرين فى صحن الضريح، ومضى المهاجمون يقتلون فى شوارع البلدة بغير حساب ، واستباحوا حرمة الدور، ولم يبقوا حدثا أو امرأة من الأذى الشديد أو الأسر المحزن بحيث بلغ عدد الموتى على تقدير البعض نحو الألف والخمسة آلاف على تقدير البعض الآخر (١)

آثار سليمان باشا

وكان هذا آخر ماحدث فى عهد سليمان باشا ، إذ كانت قدمه تقارب القبر فى صيف سنة ١٨٠٢ ، وكان آخر مافعله ان سعى سعياً حثيثاً لكى يسلم الأمور من بعده لأحد أتباعه - أحمد باشا - وكان من المماليك أيضاً ، وقد نفس آخرون على أحمد ذلك الاختيار وبدأ صراع على الولاية فى آخر أيام سليمان ، فشهد طلائعه وجفناه يهبطان رويداً رويداً ليحجبا عن عينيه نور الحياة فى أغسطس سنة ١٨٠٢ ؛ وهكذا أغمض الرجل عينيه على مثل مافتحهما عليه قبل ذلك بثمانين سنة مليئة بالحرب والنشاط والعمل الصالح ؛ إذ يذكر له المؤرخون إلى جانب حروبه بناء مدرسة فى مدينة السليمانية وإنشاء فروع لها وإصلاح مساجد القبانية وفاضل والخلفاء، وتعيينه المدرسين فيها كلها ، وقد كسا قبة مسجد أبى حنيفة بالذهب وابتنى سوقا وخاناً يسرّاجين وبنى دالى عباس وشارمان ورمم أسوار منـدالى والحلة والبصرة وأعاد تأسيس دار الصناعة فى كوت والبصرة وجصّان وأصلح جسر نارين وحصّن الزبير وماردين واسكى بالموصل وابتنى منازل للناس فى الاسكندرية وكربلاء

(1) Longrigg, Op, Cit, P. 212

وسعى فى حفر قناة الهندية التى تسقى النجف ، وغير ذلك من الأعمال التى أفادت البلاد وبقى أثرها فيها زماناً طويلا .

خوف أهل البلاد من الوهابيين

استمر خطر الوهابيين ماثلا يهدد أهل العراق وينذرهم كل عام بالغزو الشديد ؛ فأخذ أهل البلاد يتحصنون منهم ويتخذون الأسوار والحاميات لردهم حتى استطاعوا أن يأمنوا شرهم بعد جهد ، وعلى رغم هذا فقد أقاموا على الخوف منهم ؛ حتى لقد روى سائح فرنسى أن الناس لا يتحدثون فى بغداد إلا عن الوهابيين »(١) مما يدل على انتشار الرعب من جانبهم وحاجة أهل العراق فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر إلى من يؤمنهم فى بلادهم ، وكانوا على الحق فيما تخوفوا إذ كان الزمان زمان منازعات لا نهاية لها بين الفرس والمماليك مما أضاع على البلاد كل ما كسبته من الخير فى لحظات الامان فى حكم سليمان بويوق (الكبير) وزاد الأمر بلاء عودة الخطر الفارسى إلى الظهور حوالى سنة ١٨٠٦ واضطرار الباشوات إلى الالتفاف نحو الغرب من جديد مما استنفد جهدهم وصرفهم عن خطر الوهابيين ، إذ اضطر احمد باشا إلى المسير إلى كرمان شاه للقاء الفرس الذين كانوا يتأهبون للوثوب . ولو قد وجدت البلاد إذ ذاك حاكما قديراً لهان الخطب ولأحس الناس بعض الأمان ، ولكن أمورها وقعت حوالى سنة ١٨١٤ إلى صبى صغير سيطرت عليه أمه ومستشاروها ، وهم الدفتردار داود أفندى وصديق لا قيمة له ومضحك (٢) فأخذت الأحوال تسوء والاضطراب يعم والخطر يزداد اقترابا وشدة ، إذ أخذ المقربون إلى أم ذلك الصبى يجتهدون فى الوصول إلى مسند الولاية فى بغداد

(1) Longrigg; Op. Cit P. 302
(2) Ibid. P. 234

حتى تمكن الدفتردار داوود افندى من ذلك بعد منازعات طويلة بينه وبين الفرس وأولى الشأن فى القسطنطنية ومنافسيه الذى لا عدد لهم ولا حصر فى العراق نفسه

داود باشا

لا نزاع فى أن داود باشا يعد أعظم من حكم العراق من المماليك — بل هو أعظم حكامه على الاطلاق إلى ماقبل أيام مدحت باشا — وهو كرجى من أهل تفليس دخل بغداد حوالى سنة ١٧٨٠ ودخل خدمة سليمان باشا فأحبه وقربه ؛ فمازال يتقلب فى خدمته حتى وصل فى أواخر أيامه الى منصب الدفتردار - أى صاحب خراج البلاد - واشترك فى المعمعة التى دارت بعد وفاة سليمان على الولاية حتى فاز بها على ماروينا. ولم يمتز حكمه بقدرة ظاهرة ولا بنبوغ يستلفت النظر" ولكنه أقر الأمن فى البلاد واستطاع أن يخلص بها من كثير مما كان قد ألم بها فى فى سنوات الاضطراب الماضية ، وهو الذى أشرف على أمورها فى السنوات الحاسمة المليئة بالأحداث والتطورات التى مرت بها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ؛ فى أيامه بدأت مطامع الانجليز والروس تظهر فى العراق، فكان عليه أن يفسد تدبيرهم ليخلص ببلاده من شباكهم

مطامع الروس فى العراق

وكانت أنظار الروس قد بدأت تتجه نحو العراق لما رأوا من توفيق الانجليز فيه واستحواذهم على اسواقه وتهييئهم السبيل لاستعماله طريقا للهند ، فتقدموا — لا ليفوزوا من خير العراق — بل ليكيدوا للانجليز فيه . فبدؤا بتشجيع رجال الحكومة المتنافسين للوصول إلى الولاية وانتزاعها من ذلك الصبى ، فكان ذلك التنازع والتحاسد والكيد من جملة ما أصاب البلاد من نكبات وهى تتقلى فوق نيران القلق والرعب من الغزو الخارجى والنهب الذريع ، واشتدت سعايات الفرس بين ولاة الأقاليم فى العراق فكان من نتائجها خروج

والى أرضروم على داود والانضمام لفارس ومعاونة عباس مرزا على غزو أقليم البابان فى شمال غرب العراق ، وهى مناورة كادت تنتهى بوقوع العراق كله فى يد الفرس ، إذ استطاعوا أن يتقدموا حتى بلغوا حبحب على مسيرة يوم واحد من بغداد ، ولولا أن سئم الفرس أنفسهم استمرار الحصار وطلبوا الصلح لوقعت بغداد فى يدهم ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت منطقة السليمانية شبه خاضعة لهم وأعطيت لتابع من اتباعهم

بلاط داود

استقرت الأمور بعد ذلك لداود وهدأت. فأخذت البلاد تنتعش ويعود اليها رخاؤها ، وكان الرجل على كثير من المواهب والاقتدار ، وكان بلاطه زاهراً يضارع بلاط الخليفة نفسه ، يقوم على خدمته خدم من الجركس فى أجمل الحلل والثياب ، ويحضر مجلسه العلماء وصفوة رجال الدين فيناقشهم فى أمور العقيدة مناقشة تنتهى بهم إلى الاقتناع برأيه فى كثير من الأحيان ، وكان ولاة العراق التابعون له فى البصرة وكركوك وماردين يرهبونه ويخافونه ، وكذلك كان موظفوه واتباعه يسوسون الأمور بأمانة خوفاً منه . وكان الكهية (منصب يعادل رئيس الوزراء) والمحاسبون (يشبهون المستشارين ومن بينهم باب العرب مثل القبائل العربية) وأعضاء الديوان والدفتردار وأمين سر المجلس ورئيس الوصفاء وكبار المديرين ورؤساء المصالح وكبار الأغوات يقومون على خدمته الشخصية : كل موكل بعمل خاص على مثل ما كان كبار الملوك يعملون ، إذ كان الاشراف يقومون على خدمة مليكهم ويتنافسون فى الحصول على شرف حمل الدواة أو المروحة أو تقديم الماء أو المعاونة على اللباس ، فكان رجال الحكومة وسروات العراق يتقاسمون خدمة أميرهم داود ويتنافسون فى ذلك ، فكان منهم حارس الثياب وعامل القهوة ومقدم الحلوى والمشرف على ركوب

الأمير وصاحب البُسُط وحارس ماء الاغتسال وعامل ماء الشرب وحامل الشوبك وحامل الراية وغير هؤلاء من أصحاب الوظائف التى لا توجد إلا فى قصور العواهل والخلفاء. هذا وكان للرجل حرس جركسى كبير ازداد قوة ونظاما بعناية سليمان وداود، وقد جلب له هذا الأخير المعلمين الأوروبيين فأصبح هيأة حربية لها خطرها، وكذلك كانت للباشا قوة عظيمة من الانكشاريه والطبجية واللاوند من أهل البلاد، بحيث لانخطىء إذا قلنا إن داوداً كان يحيا حياة قريبة جدا من حياة الخليفة نفسه.

نظام الضرائب

وكانت أموال الباشا تجمع من انحاء البلاد على يد محصلين يرسلون من قبله إلى مختلف النواحى: بعضهم يلتزم ضرائب ناحيته وبعضهم يجمع لحساب الباشا، وكانت الضرائب مقدرة على النواحى جملة وعلى بعض الموارد فرادى. فكان الأهلون يدفعون مالا إذا سقوا زرعهم أو عبروا جسراً أو مروا ببضاعة أو نزلوا سوقا أو أكتروا مركباً، مما كان يرهق الناس ويثقل عليهم فى أحيان كثيرة، فكانوا يتوجهون بالشكوى إلى حكومة الاستانة نفسها للاعتصام بها من أذى الجباة الذين كانوا لايحملون إلى خزانة بغداد كل مايجمعون إلا فى النادر.

جمود داود فى أول امامة

ويبدو أن الرجل لم يكن يفهم مهمة الحاكم على الوجه الذى كان ينبغى أن تفهم عليه فى عصره — فى أوائل القرن التاسع عشر — فقد انقضت الأيام التى كان قصارى جهد الحاكم منصباً فيها إلى الشاتية والصائفة ومناقشة العلماء والتندر مع الندماء وإنفاق الوقت بين المجان والجوارى، تاركا أمور الناس إلى الخدم والاتباع والملتزمين، ولم يعد الحاكم ليشكر على « هبات اللجين وعتق العبيد » كما يقولون، وإنما كانت الأيام تتطلب من الرجل — على أقل تقدير — لوناً آخر من الحكم، يُمكّن البلاد من أن تفطن الى ما كان يحاك حولها من كيد

وتدبير من جانب الروس والانجليز والقوى الأوروبية الأخرى على وجه العموم .

المطامع الاوروبيه في العراق

كانت الأعين الأوروبية قد أخذت تتركز نحو العراق وتتضح غاياتها فيه منذ مطالع القرن التاسع عشر « فلدينا مذكرات ثلاثين سائحا زاروا البلاد فى ذلك الحين ، وهؤلاء ليسوا إلا جزءاً يسيرا ممن زاروا العراق فى هذه الأيام مقبلين من أوروبا والهند ، فمن سنة ١٨٠٠ كان نفر من الرهبان الكرمليين الفرنسيين قد حطوا فى بغداد ، ونزلها كذلك رجل مالى يونانى ، وأقام بعض تجار البنادقة فى الموصل وجعلوا يستقبلون ضباطاً من شركة الهند فى مرورهم بالبلاد من ناحية إلى ناحية . وكان فرسان التتار لا ينقطع لهم سير بين القسطنطينية وبغداد يحملون تقارير القناصل والباشا نفسه ، وكان بريد شركة الهند يمضى بانتظام من بغداد إلى حلب عن طريق الصحراء. وكان ملاحو الهند يحملون الى البصرة الأقمشة الحريرية والمخملات من فرنسا والأقمشة الانجليزية ، ومعادن ألمانيا وبضائعها وزجاج فينا وبوهيميا والسكر من أمريكا »[1] ونشط رجال الدين الفرنسيون والايطاليون، وأخذوا يتناولون بعض أعمال السياسة التى تهم بلادهم : كما قام راهب فرنسي بأعمال القنصلية لدولته ، وهكذا أخذت المصالح الأوروبية تشتد فى العراق، لا يعوقها إلا بعض العدوان عليها من البدو أو من أهل البلاد بين الحين والحين . وكانت للفرنسيين الكفة الراجحة من حسن ظن الباشا، فأولاهم ثقته كما أولاهم إياها كل حكام الشرق فى تلك الأيام، فكان منهم مدربو جيشه وأطباؤه .

شركة الهند الشرقية

أما شركة الهند فقد أفادت من هذه الظروف كلها ، وعاونت

---

(1) Longrigg, Op Cit P, 253

المماليك على الاستقلال بتقديم السلاح لهم ، لأن هذا الاستقلال يمكن لها من تثبيت أقدامها فى البلاد وتصريف متاجرها فى نواحيها ، واستعمال أنهارها للبواخر من غير أن تلقى اعتراضا من الأتراك بل أخذ القنصل الانجليزى يتوسط للحكام لدى الباب العالى إذا وقع بين أحدهم وبين الدولة جفاء ، مما جعل للقنصل مركزا ممتازا ، وكذلك كان قنصل البصرة يؤدى خدمات سياسية ذات خطر لحكامها ، فربما توسط لاقرار الأمور بين واليها وبين حاكم مسقط أو الكويت أو غيرهما من صغار أمراء المسلمين الخاضعين لاشراف الانجليز البحرى ، وهكذا أخذت قدم الانجليز تثبت فى البلاد وسلطانهم يقوى ، فتحولت وكالة الشركة فى بغداد إلى مركز ثابت يقيم فيه مندوب دائم ، ثم تحولت الوظيفة بعد ذلك إلى قنصلية دائمة سنة ١٨٠٢ . ومن هنا بدأ العراق وحكامه يحسون خطر الانجليز ، وأثر قرب العراق من الهند ، وكان قناصل الانجليز وسفراؤهم إلى بلاط العجم يمرون ببغداد بأبهة ظاهرة تثير الخوف فى نفوس العراقيين ، وزاد الأمر خطراً أن قنصلى البصرة وبغداد لم يكتفيا بمجرد الاقامة ، بل أصبح لهما حرس كبير من أهل البلاد ومن الهنود ، وبهذا أصبح جانب «الألشى» الانجليزى مهابا يحترمه الباشا ويقيم له قدره ، وكان استقلال داود عن حكومة القسطنطينية

نمو نفوذ الانجليز فى العراق

تمكنا للانجليز من الانفراد بحكومة العراق وزيادة سلطانهم فيها ، ففى السنوات التى اشتبك فيها الانجليز مع الأتراك فى الحرب فى أوروبا من سنة ١٨٠٧ الى ١٨٠٩ كانت العلاقة كأصفى ما تكون بين الباشا فى بغداد والانجليز فى الهند ، كأن عامل العراق امير مستقل له سياسة مختلفة عن سياسة الدولة المركزية ، ولم يفطن داود إلى مطامع الانجليز فى بلاده ولا الى ما كانوا ينتوونه نحوها ، فمضى يأتمنهم ويثق فيهم ولا يكاد يوجس من جانبهم خيفة ولا شراً

ثبات قدم الانجليز

وحوالى سنة ١٧٠٨ تولى وكالة الانجليز فى العراق كلوديوس جيمس رتش Claudius James Ritch وكان على جانب عظيم من المهارة والاقتدار، فجعل يعمل على تقوية النفوذ الانجليزى فى العراق حتى وفق إلى أن يجعل دار القنصلية مركز السياسة فى العراق ، فكان يتوافد إليها كبار القوم وسروات البلاد، ويجتمعون فيها لدراسة أحوالها أو للتشاور فيما يهمهم من الشئون، ولهذا أصبحت بغداد مركزاً للسياسة الانجليزية فى العراق وبلاد العرب وكل البلاد التركية الأسيوية، وأخذت تحل محل البصرة . ومضى رتش يقوى النفوذ الانجليزى حتى أوجس داود ومن معه خيفة من مراميه، وبدءوا يتحدثون بالشكوى منه ويتساءلون عما يريد بالعراق بعد هذه الجهود كلها ، ومن هنا أخذت العلائق تتوتر بين داود ورتش يوما فيوما حتى أصبحت عداء مكشوفا ، فسارع الباشا سنة ١٨٣٠ بالغاء كل الامتيازات الأجنبية فى العراق وبغداد ، وأعقب ذلك بمضاعفة الضرائب على المتاجر الانجليزية وتهديد القنصلية نفسها وعمالها بالأذى ، وهكذا أخذت الأمور تتحرج بين الانجليز والباشا حتى صمم رتش على أن ينقل القنصلية من بغداد إلى بمباى مؤقتا ، فمنعه الباشا من ذلك وحاول القبض عليه ، وبلغ العداء بين الجانبين مبلغا جعل رتش يستعد بخدمه من الهنود لمقاومة كل اعتداء، وأحاط دار القنصلية بالجند والهجانة ، واستمر الحرج قائما زمناطويلا ورتش شبه سجين فى دار القنصلية فى بغداد، حتى تدخلت حكومة الهند وسفير الأستانة فى الأمر فاخلى سبيله سنة ١٨٢١ ، ولم تلبث علائق الود ان عادت بين الباشا والقنصل

أسباب اهتمام الانجليز بالعراق

لماذا كان الانجليز يبذلون هذا الجهد كله لتثبيت أقدامهم فى العراق ؟ واضح جدا أنهم لم يصيبوا إذ ذاك من أرباح التجارة فيه مايبرر هذا السعى الحثيث ، وواضح كذلك أن أحوال البلاد لم تكن تنبىء عن

طريق الهند

رخاء مقبل يساوى جهد التدخل فى شئونها وتكاليف حماية قنصلياتها بالجند والاتباع او يسد نفقات الكاشفين والباحثين الانجليز الذين كانوا يتوافدون الى العراق زرافات ووحدانا فى هذه الايام ويقومون بابحاث مائية أو علمية تكلف الحكومة أو الشركات أو الهيئات العلمية الانجليزية جهدا كثيراً وأموالا جسيمة . فلم يبق إلا أن الانجليز كانوا يهتمون بأمر العراق لأنه طريق ميسور إلى الهند ، إذ تستطيع السفن الكبرى أن تنتقل بين الهند وشط العرب ، وتستطيع السفن الصغرى أن تنقل المتاجر إلى أعلى دجلة والفرات ، ومن ثم تحمل المتاجر على الجمال إلى حلب ومن حلب إلى البحر الأبيض ـ إلى عكا مثلا ، هكذا رسم الانجليز طريقا جديدا إلى الهند ، وأنشأوا يبذلون الجهد من ذلك الحين للاستيلاء عليه وتأمينه ، ولهذا شرعوا يبعثون بعوثهم الاستكشافية الرسمية لدراسة مياه دجلة والفرات وتقدير مدى صلاحيتهما للسفن والملاحة التجارية. ويرجع هذا الاهتمام بالعراق إلى زمان الحملة الفرنسية على مصر ، إذ أقفل الفرنسيون طريق الشام والعراق فاضطر الانجليز إلى استعمال طريق الشام والعراق ، وظل هذا طريقهم إلى الهند بالفعل طوال إقامة الفرنسيين بمصر ، ثم انصرفوا عنه حيناً بعد خروج الفرنسيين من هذا البلد ، ولكنهم عادوا إلى الاهتمام به حين نهض محمد على وأشرف على طريق مصر وأخذ يستغله لحسابه ويرقب الانجليز فيه ، ففى خلال العشرة الثالثة من القرن التاسع عشر بدا للانجليز أن نهضة مصر خطر على طريق السويس ، فبدأوا يحاربون نهضتها من ناحية ويبحثون لأنفسهم عن طريق جديدة من ناحية أخرى ، ولهذا نشطوا نشاطاً بالغاً فى حرب محمد على على ماسبق بيانه ، ثم أخذوا يرسلون بعوثهم الاستكشافية بقيادة الكولونيل كسنى Chesney وأرمزبى Ormsby واليوت Elliot وبلوس لينش Blos Lynch وغيرهم من المغامرين

الاستعماريين الذين عرفو العلاقة بين الهند والعراق فخفوا اليه يغامرون بجهودهم وأرواحهم محاولين كشف طرقه وامواهه وسبر غورها .

حكومة الهند توجه نظر الانجليز الى العراق

وكانت حكومات الهند هى صاحبة فكرة طريق العراق وصاحبة الفضل الأول فيما بذل الانجليز من جهد فى ذلك الصدد ، وأعانتها شركة الهند بمالها وضباطها وسفنها . فمضى الانجليز فى ذلك بجهد متصل وعزم يبعث على الاعجاب . وكان أول دعاة هذا الطريق وأكثر الانجليز اهتماما به هو الكولونيل فرانسس . ر . كسنى الذى تشجع فى العمل حين مد له اللورد بلمرستون يده وحين ثارت فى البرلمان الانجليزى ثورة تحبذ طريق العراق وتدعو اليه . بدء كسنى عمله بأن قدم نفسه لخدمة الامبراطورية فى استكشاف طريق العراق بدون مقابل ، وذلك لأنه وجد شركة الهند والحكومة الانجليزية تختلفان فى تعيين من يتحمل نفقات الاستكشاف ، وشرع الرجل فى بعثته الاستكشافية مع خمسين من صغار الضباط بحماس بالغ فى أواخر سنة ١٨٣٦ وحصل على تصريح بالعمل فى وادى دجلة والفرات بوساطة اللورد بلمسنبي الذى كان لايخمد له جهد فى هذه الأيام للقضاء على محمد على — ومن هنا شرع محمد على هو الآخر يكيد لكسنى وبعثته ويضع العراقيل فى سبيله ، وكان للبعثة سفينتان بخاريتان إحداهما دجلة Tigris والأخرى الفرات Euphrates فمضتا فى العمل حتى غرقت إحداهما أثر عاصفة رملية فى حوض الفرات . ومضت البعثة فى عملها فلم تسلم كذلك من كيد الفرنسيين ، إذ كان الرحالة الفرنسى فونتانيبه إذ ذاك يجوس خلال العراق ويخيف أهله من مطامع الانجليز ومساعيهم (١) مما جعل مهمة البعثة صعبة لايكاد يبدو من وراءها فلاح

حركة الاستكشاف

كسنى

(١) وكان الفرنسيون أيضا يواصلون الجهد لتثبيت أقدامهم فى العراق وغيره من البلاد الاسلامية

مما انتهى بالرجل وبعثته إلى العودة إلى انجلترا فى حال أشبه ما تكون بالخيبة الـكاملة سنة ١٨٣٧

الانجليز يعادون المماليك

وقد كان الانجليز يرضون عن مماليك العراق طالما كان هؤلاء لهم معوانا على مايطلبون فى البلاد من وفرة السلطان وتأمين السبيل ، فاما وقد بدالهم أن لاأمان لهؤلاء المماليك ،وأن بقاءهم فى البلاد خليق أن يوجد لهم الصعوبات ، فقد بدءوا يتغيرون عليهم ويرون ان نجاح مشاريعهم يقتضى القضاء على داود وحزبه ، ومن ثم بدءوا ينقلبون عليهم ويلتمسون السبل لمعاونة السلطان عليهم وإخراج العراق من أيديهم ، وقد زاد الانجليز اصرارا على هذا الرأى حين وجدوا أن قيام المماليك فى العراق لايسهل لهم الـكشف ولا يمكن لهم من القيام باختباراتهم الخاصة بطريق الهند .

اضمحلال المماليك

وكان مماليك العراق أنفسهم فى طريق الضعف والانحلال ، لأن ورود الجركس الصغار كان قد انقطع أوكاد من مواردهم الأصلية فى جورجيا ، وكانت الدولة قد نشطت إذ ذاك فى القضاء على الانـكشارية ، فقل عددهم فى الجيش العراقى قلة أضعفت جانبه ، وبهذا حرم المماليك من القوتين اللتين كانوا

ومن هنا كان نزاعهم مع الانجليز فى هذه النواحى بعد ان انتصر عليهم هؤلاء فى الهند الانتصار الحاسم المعروف، أنظر

Victor Fontanier (1) Voyages en Orient, Fntrpris par ordre du gouvernément Francais de l'année 1829 (2 vols, Paris,1829)

(2) Voyage dans l'Inde et le Golfe Persique, par l'Egypte et la Mer Rouge 2 parts en 3, vols; (Paris 1844—1846)

يعتمدون عليها . وذلك فى اللحظة التى ظهر جلياً أنهم ـ أى المماليك ـ مقدمون فيها على صراع أخير مع الدولة نفسها . وكان المماليك إلى ذلك يعيشون فى غير عصرهم ولا يكادون يبذلون جهدا فى التمشى مع الأيام فيما تمشى بأهلها اليه ، فقد كان داود وأتباعه على جهل تام بشئون العالم الخارجى لا يعلمون عنه إلا ما ينبئهم به بعض السائحين ورجال السلك السياسى ، وكان معظمهم لا يعرف مكان العراق على الخريطة ولا موضعه من الدولة المركزية ، فكيف يعيش هؤلاء بين قوم كانوا قد انتهوا فى ذلك الحين إلى رسم كل شبر فى أرض العراق وقياس كل ذراع من مياه النهرين وتقدير كل مليم يمكن أن ينتج من التجارة فيه ، نعم لم يبد داود وأصحابه جموداً نحو الاصلاح والتقدم ، ولكنهم كانوا لا يفهمون عصرهم حق فهمه ولا يبذلون الجهد اللازم لفهم ذلك العصر والتمشى مع أبنائه ، فقد جلب داود المدربين الفرنسيين لجيشه والأطباء الانجليز لجنده ، ولكن ذلك كان للمظهر لا للحقيقة ، أى لاقناع الاوروبيين والسلطان بأنه يسعى للتقدم ، ولو قد ترك له الخيار لارتد مسرعا ؛ وحالٌ مثل هذه لابد لها أن تزول ، خصوصاً وقد بدأ سلاطين آل عثمان جهادهم للاصلاح ، وأرادوا أن يطبقوا إصلاحاتهم على نواحى الدولة كلها ومنها العراق.

القضاء على الانكشارية فى العراق

لهذا أرسل السلطان فى أواخر صيف سنة ١٨٢٦ أوامر مشددة بالقضاء على الانكشاريين فى العراق على نفس الاسلوب الذى قضى عليهم به فى تركيا ، فوقف الباشا حيال ذلك الامر فى حيرة كبرى ، لأن هؤلاء الانكشاريين كانوا مخلصين له على أى حال ، ينفعونه فى شئون الحرب ولا يكاد يجد عنهم عوضا إذا هو أجهز عليهم دفعة واحدة ، ومن هنا خطرت له فكرة غريبة تدل دلالة واضحة على مدى فهمه للاصلاح والأساليب الحديثة ، فاستقدم فرق جيشه من مراكزها على

أسوار بغداد إلى قصره ، وأوقف فرقين منها بالمدافع فى مكان مرتفع مشرف على الساحة التى اصطف الانكشاريون فيها والمدافع مصلتة عليهم. » ثم قرىء المرسوم الملكى بصوت مرتفع ، فتلقوه باستغراب وتكذيب ، ثم نهض الباشا ، والدموع فى عينيه — حسرة على مصير الانكشارية سند الاسلام القديم الحصين — فأمر بأن ينضموا جميعهم إلى الفرق الجديدة التى ستحل محلهم ، وهنا — ومن غير عنف أو ضجيج ، ومن غير تغيير القائد — قلب كل جندى من جنود النقابات قلبقة إلى لباس رأس من الطراز الحديث ، وسجل اسمه فى الفرق النظامية (الجديدة). ثم سمع الجميع طلقات الفرح تجاجل من المدافع التى كانت قد وضعت لغرض آخر — إذا استدعى الأمر » وهكذا تم الاصلاح وتم الانقلاب الحديث ! . تغيير فى المظهر وتحايل على الحقيقة وفرار مضحك منها ، هكذا فهم داود الأمر واطمأن إلى أنه نفذ أوامر السلطان . حين غير اسم الانكشارية إلى النظامية واستبدل القلبق بلباس رأس جديد ؛ إن هذا وحده ليدلنا أصدق الدلالة على عقلية داود وأصحابه وفهمهم لمسائل عصرهم وإدراكهم لمرامى سلطانهم محمود الثانى.

داود يعمل على الاصلاح

ثم أعقب داود ذلك بأمر مظهرى آخر ، فاستدعى المسيو ديفو Deveaux الفرنسى لتدريب الجيش العراقى تدريباً حديثاً ، واستشار المقيم الانجليزى الماجور تايلور فى أمور شتى ، وطلب كذلك طبيباً انجليزيا من بمباى لعلاجه وعلاج جنده ، واشترى سلاحا جديداً لآلاف من الجند ، وطلب ثلاث سفن كبرى ومقادير عظيمة من الذخائر ، فأبى الانجليز عليه ذلك حذراً من أن يشتد به ساعده . ويبدو أن داودا فهم بعد زمن معنى الاصلاح وفائدته وأحس خطر الجمود الذى

(1) Longrigg, op. cit. p. 260

كان يصر عليه فبدأ يتجه وجهة جديده ؛ ومصداق هذا ما ذكره السائح الانجليزى المستر A. N. Groves من ان « كل شيء فى بغداد ينحو نحو التأثر بأوروبا ، وهذه الرغبة فى اتخاذ الأساليب والاصلاحات الأوروبية لا تقتصر على الناحية الحربية بل تتناول نواح أخرى أكثر أهمية، فللباشا رغبة فى أن يدخل الملاحة البخارية فى هذين النهرين الجميلين . . وفى الحقيقة أنى أحس أن الله يقدر لهذا الشعب تغيرات عظمى »(١)، ونشط داود فى الأمر نشاطا يدعو إلى الاعجاب، فبذل همة بعيدة فى افتتاح المصانع وجلب الآلات من جنيف ، واستقدم بستانياً من اليونان، وأخذ يتحدث عن طريق الهند ويتساءل عن مرامى المستكشفين من ضباط الانجليز ، وأخذ الرجل ينبيء بأنه صائر إلى القوة والتحضر حتما ، لأنه إذا كان يهتم للمظهر وحده اليوم ولا يصل بفكره إلى اعماق معانى الاصلاح ، فلا بد أن يعرف ذلك غداً لأن نصحاءه من الفرنسيين واليونان لم يقصروا فى بسط كل شيء أمام ناظريه بسطاً واضحاً جليا .

تخوف الانجليز من داود

وذلك ما كان الانجليز يحاذرون أن يكون . . فهذا داود يوشك أن يشتد ساعده ويقفل أبوابه فى وجه المصالح الأوروبية، وهم فى أشد الحاجة إلى اضعاف العراق، حتى يخلو لهم الجو فيه، وحتى تصبح سكة الهند عن طريقه آمنة لا رقيب عليهم فيها ؛ ومن ثم بدأت مخاوفهم من داود تنشأ وتقوى ، وشاركهم الأتراك فى هذا القلق — وربما أعانوا عليه — ومن هنا أخذت الدولة تنظر لاستقلال العراق نظر الخائف غير المطمئن، وبدأت تفكر فى القضاء عليه ، حتى استقر عزمها على الشروع فيه ، وندبت لذلك صادق افندى — أحد رجالها السياسيين — للذهاب إلى العراق وإعلان داود باشا بالخلع .

(1) Rev. A. N. Groves; Journal of a residence in Baghdad

وصل صادق افندى حدود العراق وخطا فى أرضه فكأنما خطت معه الرزايا والويلات من كل جانب ، فقد كان مقدمه نذيرا للعراق وأهله بسنوات عجاف من المرض والمجاعة والحرب الأهلية والفيضان لم يسبق لها مثيل الا فى مصر الفاطمية أيام خليفتها المستنصر المنكود ، ذلك ان داودا لم يكد يعرف ما انطوى عليه صادق من خلعه وحل جنوده ، حتى ثارت ثائرته ودبر مع اتباعه الخلاص من أمره ، فتم لهم ذلك وخنقوه ولما يتم فى بغداد أياما عشرة ، واخطرت اسطمبول بانه مات بالكولرا ، فلم تجز الحيلة على رجال الدولة وبيتوا للدواد فى انفسهم أشد الجزاء ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شىء فى الحال ، لاشتغالهم بالنزاع مع صاحب مصر محمد على إذ ذاك ، وكذلك ابى رجال الدولة ان ينهضوا لملاقاة داود — حذرا من قوته وخوفا من بطشه ، فمضوا يشترطون على السلطان ما يقبلون من ثمن للقيام بهذه المهمة ، حتى رست « المناقصة » آخر الأمر على الحاج محمد على رضا باشا الذى قبل أن يقوم بالأمر لقاء ستة آلاف كيس .

الشروع فى القضاء على المماليك

نزل على رضا حلبا فى مستهل سنة ١٨٣١ ، وهناك أقام وأرسل احد رسله — قاسم أفندى — الى داود يأمره بالتسليم طواعية ، كأنما خاف ان يمضى اليه بنفسه . ثم تحرك من حلب على مهل فلم يكد يمضى غير قليل حتى ترامت اليه أنباء روعته وأوقفته فى مكانه ، ذلك أن طاعونا حادا كان يطرق أبواب العراق اذ ذاك ، ويتسلل الى بلدانه من الشمال مسابقا الجند فى شدة وعنف لم يسمع بهما احد قبل ذلك ، فلم يكد يحل ابريل من العام حتى كان الوباء قد نزل ببغداد ، وأخذ يغتال أهلها ويتفاقم بينهم بدرجة بعثت الرعب فى النفوس ، فكان يموت منه فى الأيام الاولى مائة وخمسون فى اليوم ، ثم اشتدت وطأة الوباء فى الايام الاخيرة من الشهر حتى مات فى نصفه الثانى سبعة آلاف ، وضاعف المرض

على رضا

نكبات العراق

١ - الوباء

قوته بعد قليل حتى ارتفع عدد الوفيات فى اليوم الواحد إلى خمسة آلاف ، وهنا خيم على دار السلام سكون الموت وشملتها رهبة الرعب وانتابها فزع شامل ، ومضى الناس لا همّ لهم إلا تجهيز موتاهم للدفن وتجهيز أنفسهم للمرض ، ووقفت الأعمال فلم يبق سقاء ولا عامل فى متجر ولا فى طريق، حتى لقد طلب داود قاربا فلم يجدوا نوتياً يقوده ، وغصت الشوارع بالأطفال الذين شردهم الوباء وأتى على آلهم فأصبحوا لا يجدون مأوى ولا طعاما ، وبعد قليل كف الناس عن دفن الموتى فأصبحت جثثهم ملقاة فى الطرق تعيث فيها الكلاب بمرأى من البقية الباقية من السكان الذين انهك المرض قواهم ؛ ومضت الحال على ذلك حيناً ، ثم أقبلت النذر تنذر أهل العراق بشر جديد ، كأن الويلات لم يكفها عدو مهاجم ووباء متفاقم ، فاقبلت مياه دجلة تزاحم ! إلى !

٢ - الفيضان

فقد شهدت العشرة الأخيرة من ابريل سنة ١٨٣١ مياه دجلة ترتفع كأنما ضاق صدره بآلام قومه ، ففاض منه الماء واندفع فأغرق بغداد وطغى فى شوارعها وحصر أهلها حصراً شديداً ، كأنما أقبل عوناً للمرض عليهم ، وأخذت أسوار المدينة تنهار أمام الماء ، وتداعى بنيان القلعة ثم اندفعت الأمواه فى المدينة تكتسح المساكن بالآلاف ، وتحمل معها جثث المرضى الذين أمسكهم المرض عن الفرار ، وتهدمت أسوار زرائب الباشا فخرجت خيله بالمئات شاردة ، ومضت تضرب فى الشوارع وقد روعها الأمر والماء يغمرها إلى بطونها ، وانهارت دعائم مخازن القمح فانفتحت على أبوابها وهكذا أشرفت الويلات فى ختام ابريل سنة سنة ١٨٣١ على مدينة الرشيد وهى تعانى سكرات الموت ، وقد أكل الوباء أهلها وأكل الماء بنيانها ، ولم يبق فيها إلا وحشة الخراب وسكون اليباب ، واستحال مافيها إلى تراب يغطيه عباب !

داود يسلم

وماذا بقى لداود فى العراق يحرص عليه ، لقد تهدم كل شىء ولم

تبق له المصائب شيئاً يستحق عناء مقاومة على رضا ، فليـــدخل قاسم المدينة من أى ناحية أراد، فما هو بواجد مقاومة ولا ضيراً . وليحمل البضاعة كلها ان وجد أنها تستحق عناء حملها ! ولكن آل داود وأصحابه لم يستطيعوا أن يسلموا أنفسهم بعد أن بدا لهم مابدا من شدة قاسم وجنده ومن معه من اعراب شمر وعجيل ، فمضوا إلى قاسم وحاصروه حصارا شديداً حتى سلم لهم ؛ ثم لم يكد الماء ينحسر قليلا حتى اندلعت النيران فى قصر داود بحدة لا تجد من يخمدها. ومضى لهيبها يضيء المدينة المطمورة ، وتنعكس أضواؤها المفزعة فى مياه الفيضان فتزيد الأمر هولا؛ وهكذا احترق قصر داود العظيم، وأتت النيران على ما فيه من طرائف وغوالى ، وجند قاسم يعيثون فى البلد فسادا كأن الأمر لا يعنيهم ؛ فثار الناس بهم وهموا للدفاع عن داود ؛ ووصل على رضا بجيشه فى هذه الاثناء ، فهمّ أهل بغداد وجند داود يردونه عن البلد ويمسكونه على أسوارها ، وهكذا قام الناس يكملون ما فات الوباء أن يصنعه ، وابتدأ صراع عنيف بين الجانبين ، صراع طال مداه عشرة أسابيع حتى يئست حكومة الاستانة من توفيق على رضا فبعثت إليـــه تستقدمه وتصرفه عن بغداد ، ووجد الرجل أن الارتداد عن المدينة محال ، لأن جنده لا يرصون على الالتفاف حوله إلا على أمل الغنيمة فى بغداد، فأقام على الحصار ، ووجد داود كذلك أن البقاء على هذه الحال لا يطاق، وكان منذ حين مريضاً يستعز به الداء فلا يملك من الأمر شيئاً فصمم آخر الأمر على التسليم، فتوضأ وصلى الصبح ومضى يهده الاعياء إلى القلعة وطرق أبوابها وطلب أن يسلم نفسه ، فلم تفتح له الأبواب فمضى إلى دار قريبة فدخلها، ولبث حتى جاءه الجند فى اليوم التالى يلقون القبض عليه ، وأخذوه إلى مجلس رضا حيث تبادل الرجلان التحايا

٣ — الحريق

وشربا القهوة سويا ، ومضى المنادون يعلنون الأمان فى شوارع البلدة التى لم تبق نكبات الدهر منها إلا حطاما .

عزل داود

وارسل داود بعد ذلك إلى أوروبا ، فدخل القسطنطينية وهو لا يدرى لنفسه مصيرا ، ثم نفى بعد ذلك إلى بروسة مع أسرته حيث بقى نحو عام ، وأرادت المقادير أن تكتتب فى حياة الرجل صفحة جديدة ، فاستبقاه رجال الدولة على أمل الاستفادة منه فى الأزمات العصيبة التى أحاطت بالدولة إذ ذاك ، وتعافى الرجل من مرضه المثبت وأقبل على العمل من جديد فأقيم واليا للبوسنة ، ثم عين رئيساً لمجلس الدولة فى الاستانة ، ثم نقل حوالى سنة ١٨٣٩ الى ولاية أنقرة ثم إلى بروسه ، ثم كان ختام حياته جديرا بمكانته وماضيه ، إذ رضى عنه السلطان عبد المجيد وقدره ، فأقامه حارس الحرمين الشريفين بالمدينة المنورة وهناك قضى الرجل السنوات الثلاثة الباقية من عمره الطويل إلى جانب الحرم الشريف يستعرض هذه الحياة الطويلة الحافلة بالاحداث والمجد والويلات ، حتى وافاه أجله سنة ١٨٥١

نهاية المماليك فى العراق

وكان موت داود إيذانا بنهاية مماليك العراق ، كانت قيادتهم قد صارت إلى احد إتباع داود وهو صالح بك ، فلم يكد المقام يستقر بعلى رضا فى العراق حتى دعا المماليك إلى داره التى نزل فيها ، وهناك حصرهم حصراً عنيفاً وأطلق عليهم جنوده الألبان ، فاشتدوا عليهم حتى افنوهم عن آخرهم - حتى صالح بك نفسه ألقى من على حصانه وديس بسنابك الخيل - ووزعت فى الناس أوامر السلطان بالقضاء على المماليك فى كل مكان ،

مذبحة المماليك

فتتبعهم الناس حتى لم يعد لهم أثر ، وبهذا تم القضاء على هذه الفئة التى كان وجودها آخر ما بقى من دلائل العصور الوسطى فى العراق ؛

ورأت بغداد مارأته القاهرة والاستانة قبل ذلك بسنوات

***

بهذا جرت الأمور فى العراق على نحو يخالف ماجرت عليه فى غيره من بلاد الاسلام في ذلك الحين ، فقد رأينا كل أجزاء الدولة العثمانية فى مطلع القرن التاسع عشر خاضعة لسلطان الدولة،ووجدناها فى منتصفه خارجة على ذلك السلطان وقد بدأت شعوبها تتخذ سبيلها نحو الاستقلال وأنبأت قومياتها بالنشوء والميلاد ، هكذا رأينا مصر والشام والبلقان وغيرها ، فاما العراق فقدكان مستقلا عن سلطان الدولة فى مطلع القرن التاسع عشر فاذا به داخلا فى سلطانها سنة ١٨٣٩ ، وإذا بسلطان الأتراك يزداد فيه ظهوراً كلماتقدمت به الأيام فى القرن التاسع عشر ، فحوالى سنة ١٨٠٠ كانت بغداد والبصرة

سلطان الاتراك يشتد فى العراق

وكركوك وحلب فى يد حكام لا يعرفون للدولة طاعة ولا سلطانا ، وكانت ولايات الحدود كهمذان وبابان وشهر زور والموصل تحت سلطان رؤساء عشائر أكثر استقلالا وبعدا عن سلطان الدولة ، وأما فى سنة ١٨٥٠، فاننا نجد ايالات العراق الأربعة مجموعة إلى لواء الباشا التركى المعين من قبل القسطنطينية، يحكمها بسلطان ظاهر ونية صادقة لاخضاعها للدولة تماما ، وكلما تقدمت السنوات كلما ازداد العراق خضوعاً وطاعة ، وظهرت عليه دلائل سيطرة الدولة العثمانية ، بحيث لانخطىء إذا قلنا ان العراق كان أكثر أجزاء الدولة العثمانية خضوعا للسلطان وطاعة للدولة العثمانية إلى قبيل الحرب الكبرى .

العراق يستفيد من عودته إلى حظيرة الدولة

بيد أن ذلك كان خيرا للعراق لاضيرا عليه ، لعدة أسباب : أولها أن «الشعب العراقى» لم يكن قد نشأ أوقوى فى ذلك الحين ، بل كانت البلاد مطمح كل مغامر وهدف كل طامع ، وأملا يتراوح بين الفرس

والعرب والترك ، وغنيمة تنظر اليها الروسيا وانجلترا بجشع لايخفى ، وقد رأينا كيف كان ضعف سلطان الأتراك على هذه البلاد مضيرا لها فى السنوات الماضية ، وجاعلا إياها ميدانا تحترب فيه هـذه الدولات و تتنازع على السلطان فيه ، من غير أن يكون فى ذلك خير العراق أو فائدة ، بل عاد ذلك عليه بالضرر البالغ والخراب المتواتر والشقاء الذى لا ينتهى ، ولو قد بقى العراق على حاله من شبه الاستقلال والخروج عن طاعة الدولة للقى من صنوف الأذى شيئا كثيرا ، لأن النزاع بين الدول سيشتد خلال القرن التاسع عشر شدة لا تعرف هوادة ، فكان نزاعها على العراق سيتضاعف، ومن ثم يزداد به الأذى والضرر، أما دخوله فى كيان الدولة من جديد فقد آمنه ونفى عنه الأخطار ، وثانى هـذه الأسباب أن الدولة العثمانية بدأت تصبح من حوالى منتصف القرن التاسع عشر عضوا فى المجموعة الأوروبية، أى دولة محترمة لا تجرؤ دولة أخرى على الاعتداء على شىء من زمامها ،فكان دخول العراق فى كيان الدولة من جديد ضمانا له من أى مطمع من دول أوروبا ، فاستفاد العراق من مركز تركيا بعد مؤتمر باريس وغدا استقلاله مضمونا لاتجرؤ دولة أوروبية على الاعتداء عليه فى هـذه الفترة التى لم تسلم دولة ضعيفة خلالها من الاعتداء والأذى . وثالث هذه الأمور أن العراق كان إذذاك ضعيفاً فقيرا لاقبل له بتكاليف نفسه ، وقد كان محتاجا فى ذلك الحين إلى المال الكثير والنفقة البالغة لشئون الرى والمواصلات والأمن والتعمير والتجارة والدفاع وما إلى ذلك ، فكيف كان العراق يحصل على المال اللازم لذلك كله لولم يكن تابعاً لدولة قوية بعض الشىء، غنية بعض الغنى ،تقوم عنه ببعض ما يعجز عنه من التكاليف والنفقات ، وتلك حسنة من حسنات الامبراطوريات الكبرى وفضيلة من فضائل الانضمام اليها ، فان

١ ـ ضعف الروح المعنوية فى البلاد اذ ذاك

٢ـ دخول الاتراك فى طاعة الدولة يحميه من مطامع الدول

٣ ـ فقر العراق وضعفه اذذاك

مزايا الانضمام للأمبراطوريات الكبرى

الدويلات الضعيفة الصغيرة تفيد الفائدة كلها من الانضمام إلى الامبراطوريات ذات القوة والحول ، وتضعف ويضطرب حالها إذا انفردت بنفسها وأريدت على أن تقوم بنفقات نفسها ، وهذا أمر نلاحظه إذا قارنا حال الأمم التي كانت داخلة في زمام الامبراطورية النمساوية أيام الامبراطورية وبعدها ، فنلاحظ أن « الامبراطورية الرومانية المقدسة » كانت أقـــدر على القيام بالمشاريع الكبرى في المواصلات والدفاع والحكومة والتجارة من هذه الدولات الصغيرة ، وأن النمسا مثلا كانت أحسن حالا وارغد عيشا في ظل الامبراطورية منها في هذه الحال التي هي عليها اليوم ، وكذلك المجر وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وعامة الدويلات التي تفرعت عن الامبراطورية النمساوية القديمة ، فدخول العراق في حظيرة الدولة فتح له الاعتمادات المالية الكبرى ، ومكنه من الاستفادة من ميزانية تربو على ميزانيته أضعافا مضاعفة ، وجعله في حماية جيوش كبرى وأتاح له الاستفادة من خبرة رجال ذوى كفاية وقدرة لم تكن متوفرة في العراق في ذلك الحين ، ورابع هذه الأسباب أن البلاد كانت في ذلك الحين في أشد الحاجة إلى الاستقرار والهدوء حتى تستريح من عناء الأزمات الماضية وويلاتها ، ولو قد تركت لشأنها لظلت قبائلها تضطرب في نواحيها وتحترب فيما بينهما فتزداد ضعفاً وتزداد البلاد سوءاً ، فأما هذا الحكم القوى فقد أمسك القبائل عن الكيد والحرب وأثبتها في أرضها فالتفتت إلى الزراعة ، وكان في التفاتها هذا بعثا جديدا للعراق ، لأن العراق قطر زراعى يحيا بالزراعة كمصر سواء بسواء . وخامس هذه الأسباب أيضاً أن هذا الحكم القوى قد عمل — كما سنرى — على قتل النزعات الانفصالية التي كانت قائمة في نفوس القبائل والعشائر ، إذ أن كلا من هذه القبائل كان قد طال بها الاستقلال في ناحيتها ، ومضت

٤ ـ البلاد في حاجة إلى الهدوء والاستقرار

٥ ـ القضاء على نزعات القبائل والعشائر في الانفصال

لا تحفل إلا بالانفصال بناحيتها ، ومعنى هذا تفرق وحـــدة البلاد فى السنوات التى كان ضروريا لها أن تتحد فيها ، فكان الحكم العثمانى ضربة قاضية على النزعات الاستقلالية ، إذ أنه أخضع نواحيه كلها ليد واحدة ، بدأت وحدة العراق فى الظهور وأحس رؤساء العشائر — للمرة الأولى — وبهذا أنهم أعضاء فى بدن واحد وبدأت تنشأ فى قلوب هؤلاء الزعماء مشاعر الحب للوطن الواحد الجديد ، وأعان على ذلك أن الأتراك لم يتركوا العراق مقسما إلى أربع ايالات كما كان بل أخذوا ينحون نحو توحيده وجمعه كله إلى لواء واحد

توحيد العراق اداريا

إلى تلك الأسباب ترجع أهمية السنوات التى انقضت بين زوال المماليك وعودة العراق لحكم الأتراك ، فهى سنوات الحضانة للشعب العراقى على ما فيها من مساوىء وعيوب ، لأن رعاية الأب خير للصبى من تركه للحوادث ترعاه وهو بعد حدث لا يميز ولا يشعر بنفسه : أياً كانت حالة الأب ومهما بلغ الصبى من الحصافة والتوقد والذكاء ويزيدنا تأكدا من أهميتها أن المطامع الأوروبية — الانجليزية على وجه الخصوص — كانت قد اتضحت وأخذت شكلا خطيرا جداً فى هذه السنوات ، ففى ذلك الحين تم لبعوث الانجليز كشف النهرين ودراسة مائيتهما ورسم المصورات لهما ولبلاد العراق عامة ، وأعقب ذلك تسيير سفن منتظمة تجارية فى النهرين واستعمالها فى النقل من الخليج الفارسى الى البحر الأحمر ، فلو لم يفطن عمال الأتراك لذلك ولو لم ينشطوا للقضاء عليه بمنافسته تارة وبالاشتداد على الشركات الانجليزية تارة أخرى لأصبحت هذه الخطوط الملاحية قيداً يقيد العراق ويخنقه كما أصبحت قناة السويس فى مصر بعـــد ذلك ، كذلك كانت التجارة الانجليزية قد بدأت تنتظم وتتسع فى البلاد اتساعاً استتبع اهتماما سياسياً من جانب الانجليز ، فلو لم يكن العراق تابعاً للأتراك فى ذلك الحين

نشاط الانجليز فى البلاد

السفن التجارية فى النهرين

نشاط التجارة الانجليزية فى العراق

لابتلعه الانجليز على هينة كما ابتلعوا الهند وبلوخستان عن هذا الطريق لاعن غيره ، وكانت تلك السنوات كذلك سنوات النزاع الحاسم بين الروس والانجليز على فارس ، وكان هذا هو المصير الذى ينتظر العراق لو لم يكن فى رعاية خليفة آل عثمان ، وهكذا : كلما انقضى عام اتضح للأوروبيين جانب من جوانب الخير الذى يفوزون به لو كان العراق تابعاً لهم ، فيزداد بذلك تعلقهم به وسعيهم للاستئثار بأرضه ، وسنرى ذلك واضحاً فى زيادة الاهتمام بمشاريع سكة الحديد وبعوث الكشف العلمى التى أخذت فى هذه السنوات تتوافد إلى العراق للتنقيب عن آثار الحضارة القديمة فيه ، كل تلك أسباب أخرجت العراق من عزلته وجعلت تضعه شيئاً فشيئاً فى مجرى التيارات الخطرة التى كانت تعصف بالسياسة الدولية فى هذه السنوات ، وما كان قديراً على المنازعة ولا المساجلة وهو بعد يخطو نحو حياة جديدة ، فكان فى انتسابه إلى الدولة العثمانية إذ ذاك رعاية له وحفظاً على نحو من الانحاء

البعوث العلمية فى العراق

العراق يخرج من عزلته

سوء العلائق بين فارس والدولة العلية

كذلك كانت العلائق بين فارس والعراق تسوء رويداً رويداً فى هذه السنوات ، لأن أسباب النزاع والبغضاء القديمة بين الأتراك والفرس لازالت قائمة ، ومن ثم لازال خطر غزو الفرس للعراق قائماً ، ذلك أن القبائل المتبدية كانت لا تفتأ تنتقل بين ارض فارس والعراق ، تسبب بهذا مشاكل لانهاية لها ، وتوجد أسباباً للنزاع كل يوم ، وكانت الحقوق التى يدعيها الفرس فى الأماكن المقدسة فى جنوب العراق موضع النزاع بين الفرس والأتراك وسبباً دائماً فى التحرش والعداء ، وكذلك كان تجار فارس يلقون من الأذى شيئاً كثيراً من باشوات العراق ، فكان هذا يثير الشاه ويحفزه إلى التفكير فى الانتقام من الترك بضربهم فى العراق ، وزاد ذلك العداء حدة ما كان الولاة العثمانيون يفعلونه من إيواء الخارجين على طاعة الشاه فى بغداد ، وكان

الحيان إلى ذلك لايكفان عن النزاع على بعض بلدان الحدود التى يسكنها ترك وفرس أوفرس وعرب ، كبلدة المحمرة التى هاجمها على رضا سنة ١٨٣٧، فطلب الشاة تعويضا عما نتج عن ذلك من الخسائر ، ولا زال الموقف بين الجانبين دقيقا ينذر بالشر حتى اتفقا فى معاهدة أرضروم الثانية سنة ١٨٤٧ على أن تبقى المحمرة فى زمام فارس، وأعقب ذلك تأليف لجنة من الفرس والترك والانجليز والروس لتقرير الحدود بين البلدين ، فلم تنته إلى حل صريح للمسألة بسبب مطامع الجانبين واصرارهما على الخلاف ، وأعقب ذلك نشاط الانجليز والروس فى رسم خرائط للمناطق بين العراق وفارس مما انتهى بأقرار الحالة وتحديد الحدود بعض الشيء فى اتفاق عقد سنة ١٨٦٩ استقرت به الأمور فى موضعها إلى حين .

معاهدة أرضروم الثانية

تطور مركز الانجليز فى العراق

وكانت المصالح الانجليزية فى العراق قد تطورت تطورا استتبع من الانجليز سياسة جديدة فيها من الخطر على مستقبل البلاد السياسى الشيء الكثير ، فبينما كان القنصل التجارى الانجليزى فى العراق لا يطالب فى القرن الثامن عشر غير مراعاة الامتيازات وكف الاعتداء عن الرسل والتجار ، أصبح المقيم الانجليزى فى القرن التاسع عشر راعياً لشركات ملاحية كبرى ذوات رءوس أموال ضخمة ، وحارساً لخطوط تلغرافية بذل الانجليز الأموال فى إقامتها ، وأصبحت الدول الكبرى تعول على قيامها وسلامتها فى شئون امبراطورياتها فى الشرق مما يلى العراق ، وكان كذلك قد أصبح مشرفا على هيآت علمية فيها فيها طائفة من العلماء تتبع المجالس العلمية فى أوروبا جهودهم بيقظة واهتمام عظيمين ، وكان مسئولا إلى ذلك عن عــدد عديد من المؤسسات الخيرية كالمدارس والمستشفيات (١) ، وبلفظ آخر أصبحت

Longrigg, Op. cit, P. 79-80

له فى العراق مصالح معينة يرعاها ويحرسها ، ولم تكن دولته كذلك أقل منه حرصا على ذلك ، وكلما انقضى يوم زادت هذه المصالح الانجليزية فى العراق خطورة ، وجعلت الانجليز يتشبثون بأرضه ويفكرون فى أسلوب يؤدى بهم إلى الاستيلاء عليه ، ومن هنا تغيرت السياسة الانجليزية نحو العراق تطورا خطرا جديرا بالملاحظة

تقوية الحكومة المركزية

اتجهت همة ولاة الأتراك وموظفيهم إلى تقوية الحكومة المركزية والقضاء على كل سلطة منافسة أو معادية لها ، فانصرفت عنايتهم كلها إلى القضاء على رؤساء العشائر ومن اليهم من ذوى السلطان النافذ القديم فى بعض مدائن الحدود ، ومن هنا لم يجد الباشوات متسعا من الوقت لادخال الأنظمة والاصلاحات الأوروبية فى البلاد ، وربما كان أقوى أسباب ذلك أنهم لم يكونوا يفهمون هـــذه الاصلاحات أو يقدرونها قدرها ، ومن ثم لم نجدهم يشرعون فى تعليم أهل البلاد تعليما حديثاً ، ولم يشرعوا فى إنشاء مصانع جديدة ، ولم يفكروا فى إدخال الأساليب الصحية الحديثة كما فعل محمد على فى مصر مثلا ،

بطء حركة الاصلاح

ومن ثم سارت حركة الاصلاح فى العراق سيرا بطيئاً جدا فى المدة التى انقضت بين ولاية على رضا وقدوم مدحت باشا: الذى بدأ العمل المنتج الاصلاحى فى سنة ١٨٦٨ ، بل لم يبدأ الولاة فى تنفيذ إصلاحات محمود الثانى وعبد المجيد إلا فى عهد نجيب باشا أى بعد سنوات طويلة من القضاء على دولة المماليك . ولم يبد فى نواحى العراق من معالم التجديد إلا وجود طبقة منتظمة من الأفندية الموظفين يتولون شئون الادارة ويرتدون الملابس الأوروبية ، وربما كانوا أكثر فهما من غيرهم للحضارة الحديثة وأكثر تقديرا لها . وذلك مأخذ عظيم يؤخذ على الترك فى ذلك الحين ، فلم يكن من الانصاف فى حق بلد كالعراق أن يهمل الاصلاح فيه هـــذا الاهمال المعيب فى تلك الفترة التى كانت

الدول تعدو فيها نحو التحضر بالحضارة الغربية عدوا .

والسبب فى ذلك راجع إلى قصور ولاة الأتراك عن فهم الحضارة الأوروبية وفى جهلهم لواجباتهم حيال البلد الذى وكلت اليهم أموره، فعلى رضا نفسه لم يكن على شىء من القدرة فى الحكم أو الاخلاص فى فى عمله ، فظلت البلاد على اضطرابها فى عهده حتى ولى أمورها نجيب باشا سنة ١٨٤٢، فكان أقدر منه وأوسع فهما ، وصرف همه إلى مقاومة النفوذ الأجنبى فى البلاد ، ثم أعقبه بعد قليل محمد رشيد باشا الملقب بجزليكلى فكان خيراً من سابقيه ، وكان حكمه أعود على العراق بالخير ،وصرف همه إلى مقاومة مفاسد الموظفين فأخذهم بالشدة وعنى عناية شديدة بانشاء قنوات الرى فى العراق ، وأعقبه باشوات آخرون لا يكاد التاريخ يذكر لهم شيئاً ذا أثر(١)

على رضا

نجيب باشا

محمد رشيد باشا

أما الذى استنفد جهد الولاة واستغرق اهتمامهم فقد كان توحيد البلاد والقضاء على كل منافس لسلطة الخليفة العليا ، وذلك أجل ماقدم الأتراك للعراق من الخدمات ، فقد اشتد الباشوات فى القضاء على النزعة الاستقلالية التى كان يقويها فى الموصل آل الجليلى ، وتمكن محمد باشا الملقب بانجه بيرقدار من القضاء على سلطانهم فى حدود سنة ١٨٣٥ ، فعاد الموصل جزءً من العراق لا ينفصل عنه تارة إلى ديار بكر وتارة أخرى إلى فارس، وكان شمالى العراق مقسما إلى اقطاعيات تنفرد فيها بالحكم بيوت قديمة جعلت منه دويلات منفصلة عن العراق ، فنشط الباشوات فى القضاء على هذه البيوت واحدا فواحدا، حتى قضوا عليها فى ماردين وشروان وبرادست وسرشى وأربل وما اليها . كذلك كان جنوب العراق

القضاء على آل الجليلى فى الموصل

---

(١) هم مصطفى نورى باشا (١٨٥٩) وأحمد توفيق باشا (١٨٦٠) ونامق باشا (١٨٦١) وتقى الدين باشا ، ولم يحس أحد من هؤلاء حاجة البلاد ، فظل اصلاح العراق مرهونا بوال قادر حتى صارت الأمور سنة ١٨٦٨ الى مدحت باشا أبى العراق الحديث

طعمة لبعض ذوى السلطة من رجال العشائر ، فلم يزل على رضا ومن تلاه يواترون الحملات والجهود حتى قضوا على كل آمال مشايخ النجف وكربلاء وغيرهما فى الاستقلال ، وعاد جنوب العراق إلى الطاعة والاتحاد .

علاج مشكلة القبائل

فاذا أصبح العراق وحدة سياسية معينة الحدود والتخوم ، فقد نشط الولاة فى علاج مسألة القبائل التى كانت لا تستقر فى ناحية واحدة ، ولا تمكن أهل البلاد من مباشرة الزراعة وما اليها من وسائل الرزق المنتظم الذى يمهد للنهوض ، فكانت هذه القبائل تمنع الحكومة من إقرار الأمن وتعوق المواصلات وتأبى الخضوع لأوامر الحكومة المركزية ، فلم يكن من الميسور القيام بأى إصلاح أو إحداث أى تقدم مادامت هذه القبائل على حالها من الاستقلال والعصيان والاستعلاء . وكان خليقاً بالولاة أن ينهضوا لردها الى الطاعة ، بيد انهم أخطأوا فى السبيل التى سلكوها لعلاج هذه الحال ، فقد لجأوا للقوة وحدها فأثاروا الحفائظ وملأوا القلوب ضغناً . وكان أولى بهم أن يبتعدوا عن كل أذى أو عنف ، فهؤلاء الرؤساء قوم لهم مكانهم ولهم « حقوقهم » التى كسبوها بمرور الزمن ، وكانوا خير أهل البلاد وذوى الكلمة المسموعة فى النواحى والأقاليم ، ولم يكن إقرارهم يأتى عن سبيل السيف بل عن تمهيد طريق الزراعة لهم ، كان على الحاكم أن يتوجه اليهم بالنصح فيقول لهم « كفوا عن العيش على هذا النسق ، وعيشوا على الأسلوب الأحسن الذى سنمكن لكم منه » ولم يكن الحل الصحيح للمشكلة القبلية الدائمة هدم القبائل عن طريق الضربات الدامية بل تمهيد حياة جديدة لرجالها يقبلونها ويفضلونها ، وكان حل المعضلة التى صادفت نامقا ونجيبا هو أن يقولو لرؤساء العشائر « أقروا قبائلكم فى الأرض ، وعاونوا رجالكم على أن يروا أرضهم بالقنوات ، أمنوهم على ما بأيديهم ، ولا تفرضوا عليهم إلا الضرائب الخفيفة العادلة ولا

خطأ ولاة الترك فى سياستهم مع العشائر

تسمحوا لأحد أن يعدو على أرضهم ، وكافئوا المحسن مكافأة طيبة وخذوا المسيء أخذا ينفعه»(١). فأما الشدة والعنف ، وموالاة الحملات والبعوث فلم تكن له من نتيجة إلا تفريق القلوب وإقامة الثارات بين القبائل وبعضها ، وبينها وبين الحكومة المركزية ، وقد حدث ذلك بالفعل نتيجة لحروب نجيب باشا وشدته وسعاياته بين القبائل وبعضها ، وإنما هدأت الأحوال بعض الهدوء حين اهتم جزليسكي بانشاء القنوات للزراعة ، فانصرفت القبائل إلى الزرع ووجدت أنه أعود عليها بالخير من مناجزة الحكومة ، فسارت إلى الطاعة دون حرب أو سعاية ؛ في هذه الناحية فشل الحكم العثماني فشلا أضر بالبلاد وعاقها عن المضى في مدارج التقدم والحضارة .

هكذا مضى العمال يخبطون خبط عشواء في سياسة البلاد ، فافسدوا باليسار ما أصلحوه باليمين ، وربما أحسن أحدهم فأفسد خليفته عمله . ومضت البلاد في بطء السلحفاة في طريق الرخاء والاستقرار الذي هو الخطوة الأولى للتقدم ، إذ لا يتاح للناس أن ينظروا إلى الحضارة والسمو إلى شأوها الا بعد أن يقروا في منازلهم وتهدأ أحوالهم ويسكنوا إلى أرزاقهم .

بعثة كسني في العراق

في ذلك الحين كانت الدول والشركات الأوروبية وحكومة الهند وشركتها تواتر الجهد في التوغل في العراق وتمهيد نواحيه لطريق الهند ، فبينما كان أهل البلاد يضربون بمجاذيفهم الثقيلة ليتنقلوا بين ضفتي دجلة والفرات كان كسني وأصحابه يمخرون عباب النهرين بسفينتيهم البخاريتين « دجلة والفرات » ويمسحون شطآنهما ويسبرون مياههما ويقدرون صلاحيتهما للملاحة ، لا تثنيهم عاصفة هوجاء تغرق إحدى سفنهم وتقتل نفرا منهم ، ولا يعوقهم ركود

(1) Longrigg; Op. Cit, P, 289

الماء فى مستنقعات الموم ، حتى انتهى بهم الأمر إلى بعض الاطمئنان إلى إمكان الملاحة التجارية فى النهرين ، وبعد ذلك بسنوات قليلة — حوالى سنة ١٨٣٩ — انتهى بلوس لينش من بحوثه وأنشأ شركته الملاحية ، واستقدم سفنا تقوم بالنقل النهرى المنتظم فى دجلة والفرات ، وأخذ يمهد الطريق لجعل النهرين جزأ من طريق دائم بين الهند وانجلترا ، وبدأ فى مفاوضة تجار الانجليز فى الهند وانجلترا لانشاء ذلك الطريق معتمداً على نتائج الابحاث العظيمة التى قام بها استعماريون مغامرون من أمثال فيلكس Felix وجونز Jones ، سلبى Selby وكولنجوود Collingwood وبويشر Bewcher ومن اليهم . حتى تمكن من إنشاء شركة بلغ من نجاحها أن استلفتت أعمالها التفات رشيد باشا جزليكى ، فاهتم بمعارضتها بالشدة حينا وبانشاء شركة ملاحية أخرى برءوس أموال عراقية تارة أخرى ، وقد وفق جزليكى توفيقاً طيباً فيما أراد ، واشترى سفينتين من بلجيكا هما « البصرة » و « بغداد » ومضى يعمل بهما فى النقل للحكومة والتجار بنجاح أقاق الانجليز ، فمضوا يستعدون عليه السلطات فى الاستانه ، ولم يمنعه ذلك من المضى فى طريقه بنجاح شجع خليفته نامق باشا على شراء ثلاث سفن لمنافسة السفن الانجليزية بها ، واستمرت سفن العراقيين « الموصل » و « الفرات » و « الرصافة » تنتقل صاعدة هابطة فى النهرين زمانا طويلا .

بلوس لينش ينشىء شركة ملاحية فى العراق

الوالى التركى يعمل على ابعاد الشركة الانجليزية

شركة ملاحية من الاتراك واهل البلاد

وفى ذلك الحين أيضاً كان المهندسون الأوروبيون يطيلون النظر إلى العراق وأرضه لتصميم إنشاء سكة برية بين الخليج الفارسى والبحر الأبيض ، هذا التأمل الذى كانت ثمرته سكة حديد بغداد بعد ذلك بسنوات . وكان تواتر الاضطراب واضطراد الأزمات قد صرف الناس تماما عن التفكير فى التجارة أو طرقها فانعدمت السبل

مشاريع السكك الحديدية

بين المدن وبعضها ، وخلت المدن نفسها من الشوارع الصالحة لمسير العربات ، فكانت حركة التجارة فى شبه ركود تبعا لذلك ، وكانت الصلة بين أقسام العراق وبعضها : بين شماله وجنوبه شبه منعدمة ، فكان ذلك من أسباب تفرق البلاد وعدم شعور أهلها بروح الوحدة ، فكان من خير العراق أن نظر اليه الأوربيون كطريق صالح للهند لأن ذلك بعثهم على العمل لشق الطرق فى البلاد من الشمال إلى الجنوب — من البصرة إلى حلب — وإلى التفكير فى الوسائل التى يمكنهم بها الانتقال من حلب للشام أو لبلاد الدولة العثمانية ، أى للتفكير فى الوسائل التى تقطع وحدة العراق وتصله بالعالم الخارجى صلة منتظمة ، وكان أول من فكر فى ذلك رجل فرنسى هو الكونت دى برتريس Comte de Perthéris الذى قطع الطريق من دمشق إلى بغداد ، ثم وضع مشروعا لطريق منتظم للعربات بين البلدين ، وقد لقى مشروعه التقدير من التجار فى الشام والعراق ومن رؤساء القبائل الذين مر بهم ، لأن الطريق الجديد كان يصلهم بالعالم ويعود عليهم بالربح الوفير ولكنه أثار مخاوف نامق باشا الذى قدر فى نفسه وجود علاقة بين بواخر شركة لينش — التى تقطع النهرين من البصرة إلى بغداد وحلب — وهذا المشروع الذى يكمل الطريق إلى البحر الأبيض ، فخاف مغبة هذا التدخل والترسيم ، وأشفق كثيراً من اتصال الأوروبيين برجال القبائل ونشوء العلاقات بين الفريقين ، فعمل على احباط المشروع حتى تمكن من ذلك حوالى سنة ١٨٦٥ . وكان أناس آخرون يفكرون فى إنشاء الخطوط الحديدية فى العراق ، فوضع أحد التجار الايرلنديين مشروع سكة حديدية عظمى من كاليه إلى بكين مارة بالعراق ، وهو مشروع خيالى لم ينته إلى شىء ، ولكنه فتح طريق التفكير فى إنشاء السكك الحديدية بالعراق لايصال الشرق بالغرب ، وإنما أغرى

سوء المواصلات فى العراق

مشروع دى برتريس

مشروع خط حديدى من كاليه الى بكين مارا بالعراق

الأوروبيين بالبدء بالتفكير فى إنشاء الحلقة التى تمر بالعراق سهولة أرضه وإمكان مد الخطوط الحديدية فيها ، وخلو معظم الطريق — من البصرة (أو القرنة) إلى بغداد — من المرتفعات أو الأرض الصلبة التى تعسر مد الخطوط الحديدية ، ولهذا تتابع المهندسون إلى العراق يبحثون الوسائل التى تؤدى إلى تحقيق ذلك الأمر ، ففى سنة ١٨٤٣ وضع Alexander Campbell مشروع سكة حديدية بحذاء الفرات ، وشجعته شركة الهند على وضع الخرائط اللازمة لذلك ، ثم تبعه John Right سنه ١٨٤٩ فاتم ترسيم المشروع ، ولكنه لم يوفق إلى البدء فى العمل ، وكذلك الدكتور J. B. Thomson الذى توفى فى الأستانة حوالى سنة ١٨٥١ ، وبعد ذلك بقليل دعا W. P. Andrew إلى تكوين شركة للحصول على رأس المال اللازم ، ودعا كبار المستكشفين فى أرض العراق للعمل معه على تنفيذ ذلك المشروع ، فاجتمع اليه لينش وكسنى وما كنيل ووضع الجميع خطة معقولة ممكنة التنفيذ لطريق يصل خليج فارس بالبحر الأبيض ، وقد أثار المشروع حماس بلمرستون وتأييد ستراتفورد كاننج ولكنه — أى اندرو — لم يجد المال اللازم ، فلم يتم منه إلا حوالى الثمانين ميلا بين سلوقية ونهر الفرات ، واكتفى المشتركون بالاعتماد على البواخر للنقل بين أعلى الفرات والخليج ، واستمرت الجهود متصلة فى هذه الناحية حتى انشئت قناة السويس فلم يجد الانجليز داعيا إلى موالاة الجهود فى العراق مادامت القناة الجديدة قد فتحت لهم طريقاً مائياً سهلا للهند ، ومن هنا أرجىء التفكير فى مشاريع سكة الحديد والمواصلات فى العراق .

كامبل يضع مشروع خط حديدى بحذاء الفرات

اندرو يعمل لتأليف شركة لهذا الغرض

انشاء قناة السويس يصرف نظر الانجليز عن التفكير فى المواصلات بالعراق

خط تلغراف

بيد أن ذلك لم يمنع التفكير فى إنشاء خط تلغرافى يقطع العراق من الشمال إلى الجنوب ، وقد فضل الانجليز تسيير الخط عن ذلك

الطريق — لا عن طريق مصر — لأنهم قدروا أن الدولة العثمانية لا بد مشتركة معهم فى نفقات إقامته لما يعود عليها من المنافع إذا تم واتصلت البصرة بالاستانة بخط تلغرافى ، لأن ذلك يعينها على الحكم ويوجد لها طريقا سريعاً للاتصال بولاياتها ، ولكن الأتراك تخوفوا مشاريع الانجليز فى أول الأمر ، ولم يمدوا يدا لمعاونتها ، لأن مشروع الانجليز كان يرمى إلى مد أسلاك بحرية Cables تحت الماء من الهند إلى البصرة وفى مياه الفرات إلى بغداد ثم على سطح الأرض إلى الآستانة : لاحظ الأتراك أن ذلك الخط يراد به الاتصال بالهند فتخوفوا ماقد ينتج عنه بعد ذلك . ولم يدخر الانجليز وسعا فى مواصلة المسعى حتى تم الاتفاق بينهم وبين الأتراك حوالى سنة ١٨٦١ على أن يقوم المهندسون الانجليز بانشاء الخط لحساب الأتراك وحدهم ، وبهذا أنشىء الخط التلغرافى من الآستانة إلى بغداد حوالى ذلك الوقت .

الاتراك يتخوفون مرامى الانجليز

انشاء خط تلغرافى من الآستانة الى بغداد

واستمرت جهود الانجليز فى ذلك السبيل حتى أضافوا الى الخط فقرة جديدة وصلته إلى خانقين جنوبى بغداد سنة ١٨٦٣ ، ومن ثم اتصل تلغراف العراق بخط فارس التلغرافى وتم إيصاله بخط الخليج الفارسى والهند ، وهكذا لم ينقض هـذا القرن حتى كانت شبكة تلغرافية قد وصلت نواحى العراق كلها وربطت البلاد الرئيسية جميعها

شباك الانجليز للعراق

وهل كانت شبكة التلغراف إلا إيذانا بشبكة أخرى يدبر الصائد الأوروبى ، القاها على العراق لصيده جملة ، وهل يقنع الأوروبيون من هذا البلد الجميل بتلك الحصة القليلة ، أتنسى أوروبا خصب العراق ومعادنه وتجارته وما يعود عليها من الربح إذا هى أتمت الاستيلاء عليه ؟ .. لقد وضع الانجليز خرائط دقيقة لأرضه واتقنوا ترسيمها ، وأقام منهم قنصل عظيم الشأن فى بغداد ونائبون عنه فى مدائن العراق الكبرى ، وامتدت خطوطهم التلغرافية فى كل ناحية فيه ، وأقبل بحاثهم

إلى بلاده يبحثونها ويدققون فى تأمل أحوالها ، وخف إلى بلاده المنقبون والبحاثون يزيحون الستار عن حضارته الذاهبة وازدهاره القديم ، فلم يبق لديهم شك فى أن هذه البلاد كنز عظيم ينبغى المبادرة إلى الاستيلاء عليه ، وزادهم استمساكا به قربه من الهند وضرورته لمواصلاتها ، لقد بان ذلك كله للانجليز واضحا جليا ، وعلينا نحن أن نعرف ماذا كان يدبر للعراق فى لندن إذ ذاك ، وعلينا كذلك أن نلمس الغاية التى كانت البلاد تمضى اليها فى هذه السنوات .

عجز الاتراك عن حماية البلاد

وكان الأتراك يعرفون ذلك ويطوون أنفسهم على الخشية منه ، ولكن ماحيلة العاجز ؟ أنهم يبذلون الجهد فى الاحتفاظ بكيانهم ولا يكادون يخرجون من حرب حتى يدخلوا فى أخرى ، فأين لهم الفراغ لدراسة مشاريع العراق والعمل على استنقاذه من الشباك التى كانت تحاك حوله ، أين لهم القدرة على إحباط هذا الكيد والنجاة برعيتهم من المسبعة الدائرة ؟ فلتطو تركيا نفسها على الخوف ، ولتكتف بارجاء الواقعة ما أمكن الأرجاء ، حتى يرزقها الله بمدحت باشا الذى ترسله المقادير الى العراق حوالى سنة ١٨٦٨ ليضع الأمور وضعاً جديداً ، وليبدأ للبلاد عهدا جديدا من الحضارة ، ويمهد لنهضة العراق الحديث .

تم الجزء الأول والحمد لله

مراجع عامة(١)

ا — مراجع عربية وتركية وفارسية

ابن إياس

بدائع الزهور فى وقائع الدهور (بولاق ١٣١١ ﻫ)

ابن خلدون :

العبر وديوان المبتدا والخبر (بولاق ١٢٨٤ ﻫ)

ابن عساكر :

تاريخ دمشق مخطوط بدار الكتب الملكية

ابن واصل (٧٢٥ ﻫ)

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة)

احمد بن ابراهيم الصابونى

تاريخ حماه (حماه ١٣٣٢ ﻫ)

احمد فارس الشدياق

الحوادث التاريخية والوقائع الدولية

اسكندر بك ابكاريوس

المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية (حمص ١٩١٠)

اسكندر بج تركمان

فارس تاريخ عالم أراى عباسى (طبع حجر فى طهران سنة ١٣١٤ ﻫ)

امين بن حسن الحلوانى المدينى — المتوفى سنة ١٨٤٤ م

مطالع السعود

طُبع فى بمباى سنة ١٣١٣ م (طبع حجر) وهو مختصر للتاريخ الذى وضعه الشيخ عثمان بن سند البصرى، الذى يبدأ حوادثه سنة ١١٨٨ ﻫ (١٧٨٤ م) وهى سنة ميلاد داوود

---

(١) لم نقتصر هنا على ايراد المراجع التى اعتمدنا عليها فى كتابة هذا الكتاب ، وانما حرصنا على أن نضع أمام القارىء ثبتا وافيا من المراجع التى تتناول الكلام على الشرق الاسلامى وعلاقته بالغرب فى الفترة التى تولينا دراستها .

باشا، وينتهى سنة ١١٤٢هـ (١٨٢٦ م) . وقد روى الحلوانى فى مطالع السعود الحوادث إلى سنة ١٨٣١ ميلادية ، و اعتمد على دوحة الوزراء فى اجزاء كثيرة من كتابه

انستاس الكرملى (الاب) :

خلاصة تأريخ العراق : طبع البصره سنة ١٩١٩م

موجز مختصر جدا لتاريخ العراق من القديم إلى الحديث مع اشارات معترضة عن أحوال البلاد . وقد اعتمد اعتمادا شديدا على « غاية المرام » الذى سيرد ذكره

أيوب صبرى :

تأريخ وهابيان ـ (استامبول ١٢٩٦)

باز رستم :

تاريخ الأمير بشير الشهابى (مخطوط بمكتبة الجامعة الامريكية فى بيروت تحت رقم ٣٨٤٧٨)

الجبرتى :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . (القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .)

جورجى زيدان

تاريخ التمدن الاسلامى (القاهرة ١٩٢٥)

جورجى زيدان :

تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر (مجلدان . القاهرة ١٩٠٢)

حافظ وهبه

جزيرة العرب فى القرن العشرين (القاهرة ١٩٣٥)

حروب الايرانيين :

مخطوط كتب فى بغداد حوالى سنة ١٨٨٠ م . ويتناول تاريخ العراق من سنة ١٧٢١ م الى سنة ١٧٤٦ م وقد اعتمد على دوحة الوزراء كثيرا

حسن توفيق افندى

حوادث ولاية الموصل سنة ١٣٢٥ هـ

بالتركية ، ويجد القارىء فيه تفاصيل وافية لحصار بغداد على يد نادرشاه (سنة

١٧٤٣ م) وولاية انجه بير قدار (١٨٣٥ — ١٨٤٣) وفيه جدول شامل لولاة الموصل من سنة ١٠٠٠ هـ الى حياة المؤلف

حسين لبيب

تاريخ الاتراك العثمانيين : (٣ اجزاء القاهرة ١٣٣٥)

حنا ابو راشد :

تاريخ جبل الدروز (القاهرة ١٩٢٥)

حوادث ولاية بغداد سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م)

بالتركية وفيه ثبت واف لحكام بغداد ابتداء من سنة ١٦٣٩ م . وسنوات حكمهم

خيرت افندى :

رياض الكتبا وحياض الأدبا (بولاق ١٢٤١ هـ ، ١٨٢٥ م)

داوود بركات :

ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا (القاهرة ١٩٣٢)

درى افندى

دورى افندى سفار تنامه سى :

مخطوط بالتركية . وقد ترجمه M. Petits de la Croix وطبعه فى باريس سنة ١٧٣٩ م .

رسول حاوى افندى

دوحة الوزراء :

مطبوع ومخطوط وكلاهما نادر ، الفه صاحبه بالتركية للوالى داوود باشا بين سنتى ١٨٢٧ - ١٨٢٨ - وطبع فى بغداد سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) بعناية مرزا محمد بكير التفليسى ، وهو تكملة لكتاب نظامى زاده الآنف الذكر ، ويتناول تاريخ العراق من سنة ١١٨٨ م الى سنة ١٨٢١ م

رشيد بن على الحنبلى :

مثير الوجد فى معرفة انساب ملوك نجد (فى نسب آل سعود ، وبه فذلكة عن تاريخهم حتى عام ١٢٩١ هـ . مخطوط فى حيازة المؤلف

سليمان بك بن حاجى طالب
بغداد كوله من حكومتنك تشكيله انقراضنه دائر رسالة
أى تاريخ نشوء حكومة المماليك فى بغداد وسقوطهم

كتاب صغير يتناول الحوادث فى العراق بين سنتى ١٧٤٩ - ١٨٣١ وقد الفه سليمان بك بن حاجى طالب كهيه ، واختفى تحت اسم مستعار - وتوجد منه ثلاث أو اربع نسخ مخطوطة فى بغداد، ونسخة فى القاهرة وأخرى فى الآستانه

سليمان بك بن حاجى طالب كهية
مرآة الزورا :

يتناول تاريخ العراق من منتصف القرن الثامن عشر تقريبا الى منتصف ولاية على رضا باشا ، توجد منه نسخة خطية ، يرجح انها مسودة ، اما النسخة المنقحة فيظن انها ضاعت اثناء نفى المؤلف .

سليمان صايغ :
تأريخ الموصل : طبع القاهرة سنة ١٩٢٤

ليس فيه من جديد ، وهو كثير الشبه «بحوادث ولاة العراق» الآنف الذكر ، والكتابان يعتمدان كل الاعتماد على مخطوط عربى عنوانه « منهل الاولياء » لمحمد بن افندى العمرى . ويتناول تاريخ الموصل

سليمان بك عز الدين :
ابراهيم باشا فى سوريا بيروت ١٩٢٩

سيد ابراهيم فصيح
عنوان المجد فى احوال بغداد وبصره ونجد
ملاحظات وصفية وجغرافية وتاريخية ونسبية عن بغداد والبصرة وأهلهما : تم تأليفه سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٣٦ م)

شانيزاده
تأريخ الاجزاء الأربعة الأولى

شفيق غربال :

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١
(القاهرة ١٩٣٢)

الامير صالح بن يحيى بن الحسين — من علماء القرن التاسع الهجرى

تاريخ بيروت وأخبار الامراء المبحتريين من بنى المغرب (بيروت ١٩٠٢)

الشيخ طنوس الشدياق :

أخبار الأعيان فى جبل لبنان (بيروت ١٨٥٩)

الفريق طه الهاشمى

مفصل جغرافية العراق (بغداد ١٩٣٠)

عبد الرحمن الرافعى بك

تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر ثلاثة مجلدات .القاهرة
١٩٢٩ — ١٩٣٠

عبد الرحمن بن عبدالله السويدى : حديقة الوزراء (١٧٢٢ - ١٨٠٥ م)
تاريخ مفصل للواليين احمد باشا، وحسن باشا ولا توجد الآن الا نسخته المختصرة التى قام بها سليمان أفندى الداخل عن نسخة أصلية بمكتبة حكمت الله بن عصمت الله افندى فى استامبول

عبد الواحد بن الشيخ عبد الله باشعيان

زبدة التواريخ :

فى ستة عشر مجلدا. مخطوط . يتناول تاريخ الخلافة فى بغداد وتاريخ البصرة و ويلم باطراف طويلة من تاريخ الدولة العثمانية وأخبار الحجاز ، وقد أورد المؤلف فيه فقرات طويلة من مؤلفات أخرى كمطالع السعود ، وانفرد بأخبار كثيرة وتحقيقات فريدة

عثمان بن عبد الله

عنوان المجد فى تاريخ نجد :

راجعه وصححه عبد العزيز المانع النجدى وسليمان الدخيل ، وطبعاه فى بغداد
[مطبعة شهبندر . بغداد ١٣٢٧ ﻫ (١٩٠٩ م)]

سيدى على ريس :

مرآة المماليك ، ترجمه للانجليزية A. Vambéy بعنوان

Travels and advertures of the Turkish admiral Sidi Ali Reis London, Luzac, 1899

ونشره فى لندن سنة ١٨٩٩ . وقد نشرته مكتبة «اقدام» بالتركية (الاستانه ١٣١٣)

على ظريف الأعظمى البغدادى

تاريخ الدول الفارسية فى العراق (بغداد ١٣٦٤ ه)

رحلة العياشى فاس سنة ١٣٠٦ ه : مجلدان

العينى : (٨٥٥ ه)

عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان مخطوط بدار الكتب بالقاهرة

فتح الله بن علوان الكعبى

زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر : (١٦٤٥ — ١٦٢٦٥)

تاريخ قصير لحسن باشا والى البصرة بين سنى ١٦٤٥ — ١٦٦٥ . طبع فى بغداد سنة ١٩٢٤ وقد استعملة : Mignon فى كتابه

History of Modern Bassora

كشط الرداء وغسل الران فى زيارة العراق — (مخطوط فى Cambridge Univ. Libraray

مرتضى افندى نظمى زاده (١١٠٠ ه ، ١٦٨٨ م

كلشن خلفاء

بالتركية ، تناول تاريخ الدولة الاسلامية من تأسيس بغداد الى سنة ١١٣٠ ه (١٧١٧ م ، طبع فى استامبول سنة ١٧٣٠ ، والنسخ المطبوعة نادرة الآن . يوجد ؛ منه اربع نسخ مخطوطة فى مكتبة المتحف البريطانى

المحبى — تقى الدين بن داوود :

خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر : (٤ أجزاء القاهرة ١٢٨٤ ه)

محمد ابن بسام الشمينى

الدور الفاخر فى اخبار العرب الأواخر :

يتضمن وصفا وبيانا عن قبائل العرب العراقية واحوالها إلى حوالى سنة ١٨١٨ م .

محمد البتنونى :
الرحلة الحجازية (القاهرة ١٣٢٩ هـ ، ص ٨٧ ومابعدها)

محمد رفعت :
تاريخ مصر السياسى فى الازمنة الحديثة (القاهرة ١٩٣٤)

محمد رفعت : محمد على والخلافه : مجلة المقتطف مجلد ٦٣ ص ٢٥٩ الى ٢٦٣

محمد راغب بن محمود بن هاشم بن الطباخ الحلبى
أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : ٧ اجزاء . حلب ١٩١٣-١٩١٦)

محمد بن سليمان الرحبى :
بهجة الاخوان فى ذكر الوزير سليمان
يتضمن تاريخ سليمان باشا والى البصرة

محمد فريد بك
البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائله الخديوية (القاهرة ١٣٠٨ هـ)

محمد فريد وجدى :
المدنية والاسلام (الطبعة الثانية القاهرة ١٩٠٤)

محمد كرد على :
الحكومة المصرية فى الشام (المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٣ هـ .

محمد كرد على :
خطط الشام (ستة مجلدات . دمشق ١٩٢٥ -١٩٢٨)

المرادى :
سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر

الأنبامار اسطفان الدويهى
تاريخ الطائفة المارونية (بيروت ١٨٩٠)

الأب مرتين اليسوعى
تاريخ لبنان ، تعريب رشيد الخورى الشرتونى (بيروت ١٨٨٩)

ميخائيل الدمشقي :

تاريخ حوادث الشام ولبنان من ١١٩٧ — ١٢٥٧ هـ (بيروت ١٩١٢)

ميخائيل مشاقة :

الجواب على اقتراح الأحباب

(مخطوط فى مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت رقم ٤٨٥٣٢

نعوم مغبغب

تاريخ الأمير حيدر الشهابي (القاهرة ١٩٠٠)

نوفل نوفل

كشف اللثام عن الحكام والأحكام فى إقليمى مصر وبر الشام .

مخطوط فى مكتبة الجامعة الأمريكية فى بيروت تحت رقم ٦٠٧٧

ياسين العمرى بن خير الله العمرى الموصلي (١٧٣٤ م)

غاية المرام :

مخطوط يضم معلومات طيبة عن جغرافية البلاد وقبائلها ورجالها وفيه تاريخ لبغداد الى سنة ١٨٠٥ م ، وحوادث السنوات الخمسة الاخيرة منه مرتبه فيه ترتيبا وافيا له قيمة كبيرة

غرائب الأثر :

مخطوط يورد نفس الحوادث الواردة فى « غاية المرام » باسلوب آخر ويستمر فى رواية الاخبار حتى سنة ١٨١١ م .

ب ـ مراجع افرنجية

اولا : مراجع تمهد لدراسة تاريخ الشرق الادنى ، وتصف ظروفه الجغرافية واحواله الاجتماعية وعناصر سكانه وأديانهم ، وتشرح الظواهر الهامة فى تاريخه : وتسرد بايجاز تاريخ اضمحلال الدول الاسلامية وتبين مواطن الضعف فيها ، وتتناول الكلام على الدول التى كانت قائمة فى الشرق الأدنى فى اوائل العصر الحديث كالعثمانية والصفوية والمغولية والمماليك وغير ذلك، والدول الشرقية غير الاسلامية التى كان لها تأثير فى تاريخه كالدولة البيزنطية، وبعضها يتناول وصف محاولات الاوروبيين الاولى فى الشرق : كقصة الانجليز فى الهند، وحربهم مع الفرنسيين ، وتاريخ البرتغاليين فى الشرق. وتتناول كذلك وصف الرحلات الهامة ـ ذات القيمة العلمية التاريخية ـ التى قام بها بعض مغامرى الاوروبين فى البلاد الشرقية فى اوائل العصر الحديث :

Anon,

Progress and Present Position of Russia in the East (London 1836)

Anold, Porf. Sir Thomas W :

The Caliphate

Baron ed Tott,

Memoires sur les Turcs et les Tartares (Paris 1794)

Barrault, Emile

Occident et Orient, Etudes Politiques, Morales, Religieuses, pendant 1533–1834, (Paris, 1835)

Beazly, Charles Raymond

Dawn of Modern Geography (3 vols. 1897 — 1906)

Birch W. DE G.

Commentaries of Alfonso Dalboquerque (Hakluyt Society, London 1875, 4 Vols,)

B. F. O. P. H.,

The Rise of Islam and the Pan Islamic Movement
The Foreign Policy of Austria - Hungary

British Parliamentary Papers

The Correspondance Relative to the Affairs of the Levant (London 1833 – 1841)

British Foreign Office Peace Handbooks

France in the Levant

Brocchi, G. B. :

Giornale delle Osservazioni Fatte ne Viagge in Egitto, nella Siria e nella Nubia
(5 vols, Bassano, 1841 – 1843)

Bruce, J.

Annals of the Honourable East India Company
(3 vols. London, 1810)

Cacilia, Leonardo Di S. :

Viaggi in Palestina, Persia, Mesopotamia
(Rome, 1753 — 1757.)

Cahun, Leon :

Introduction à l'Histoire de l'Asie: Turcs et Mongols, dès Orgines à 1405 (Paris, 1896)

The Cambridge Modern History :

Vol X : Chapters VI, XVII ;
Vol. XI : Chapters IX, XI, XXII
Vol. XII : Chapter XIV

Capper, T. :

Observations on the Passage to India (London, 1785)

Courtney of Penwith, Lord (editor) :

Nationalism and War in the Near East (by a Diplomatist)

Czaplica :

The Turks of Central Asia

Damas, M. La :

The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century (Journal of the Royal Asiatic Society : January, 1921)

Danvers, F.E. :

Portuguese in India (London, 2 vols. 1894)

Darcy, Jean :

Cent Années de Rivalité Coloniale (Paris 1904)

Davis, William Stearns :

A short History of the Near East [Mew Pork, 1931]

Diehl :

Byzance, Grandeur et Decadence

Histoire de l'Empire Byzantin

Un Ancien Diplamat,

Le Régime des Capitulations (Paris 1898)

Dupré, Adrien :

Voyage en Perse Fait dans les Années 1807-9, en Traversant l'Anatolie et le Mesopotamie (Paris, 1819)

Epstein, Mordecai :

Early History of the Levant Company (London 1908)

Fontanier, Victor :

Voyages en Orient, Enterpris par Ordre du Gouvernement Français de l'année 1821 á l'année 1829 (2 vols Paris 1829)

Grant, A. J. and Tempeley, Harold :

Europe in the Nineteenth Century (1789 – 1914) (London, 1929)

Guinet :

La Turquie d'Asie

Heyd,

Histoire de la Commerce Francaise dans le Levant

Hogarth, David, George,

Nearer East (1902)

Howarth, Sir Henry Hoyle ,

History of the Mongols. (3 vols. 1876—1888)

Hoskins, Holford Lancaster :

British Routes to India (New York, 1928)

Houry, C B :

De l'Intervention Europèenne en Orient et de son Infuence sur la Civilisation des Musulmans et sur la Condition Sociale des Chrétiens d' Asie. (Paris, 1840)

Huntington :

The Pulse of Asia

Lavisse et Rambaud :

Histoire Generale :

Vol. X, chapters VI, XXVI

Vol. XI, chapters XI, XV

Vol. XII, chapters XII, XIII, XIV, XV

Faucher, Leon :

La Question d'Orient d'aprés les Documents Anglais, [Revue des Deux Mondes, 1841, IV, 261—289, 410-454, 517—561)

Malherbe, Raoul :

L'Orient de 1718 á 1845: Histoire, Politique, Religion, Mœurs. (2 vols, Paris, 1846)

Miles, S B. :

The Portuguese in Eastern Arabia and in the Persian Gulf (Administration Report for 1884—1885)

Masson, Paul:

Histoire du Commerce Francais dans le Levant au Dixhuitième Siécle.

Malleson, Colonel:

Les Français et les Anglais dans l'Inde

Michaud, Joseph Francois et J. Poujoulat:

Correspondance d'Orient. [7 vols. Paris, 1833-1835.]

Miller:

The Latins in the Levant

Miller:

Essays on the Latin Orient.

Muir, Sir William:

The Caliphate (London, 1891)

Mouradja D' Ohsson:

Des Peuples du Caucase. (1828)

Olivier, G. A.:

Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et le Perse (Paris IX)

Parsons, A.:

Travels in Asia and Africa (London 1808)

Peisker:

The Asiatic Back-Ground (Cambridge Med. Hist vol I)

Peisker,

The Expansion of the Slavs.

Pingaud, Leonce:

Choiseul Gouffier, la France en Orient sous Louis XVI

Pococke R.

A Description of the East (London 1743)

Pradt, Dom De :

Du Systéme Permanent de l'Europe á l'egard de la Russie et des Affaires d'orient (Paris, 1827)

Rabbath, le Pere Antoine :

Documents Inédits pour Servir à l' Historie du Christianisme en Orient,

(2 vols. Beirut, 1910)

Rabbath, Tournebize :

L'Histoire du Christianisme en Orient

Rawlinson' Sir. H :

England and Russia in the East (2 nd éd. 1875

Ronciere, Charles de La :

Histoire de la Marine Francaise

Steen de Jehay

De la Situation Legale des Sujets non Musulmans

Sykes, Sir. M. :

Through Five Turkish Provinces (London, 1900)

Temperley, Harold :

England and the Near East - the Crimea

(London, 1936)

Thevenot, M. D. :

Relation d'un Voyage Fait au Levant (Paris 1665)

Valentia, George, Viscount :

Voyages and Travels to India, Ceylon, the Red Sea, Abyssinia, and Egypt in the Years 1802, 1803, 1804 and 1806 (London 1809 – 3 vols.)

Volney :

Voyage en Syrie et en Egypte.

Whiteway, R. E :

Rise of the Portuguese Power in India

(London, 1899)

Gusav Weil :
Geschichte der Chalifen (1846 — 1862)
Yule, Sir Henry :
The Book of Marco Polo (2 vols, 1903)

ثانياً — تاريخ المسألة الشرقية

Ancel ,
Manuel Historique de la Question d'Orient.
D'Argyll, Duc :
The Eastern Question — 1856 — 1876,
(London, 1881)
Bertrand, P. :
Tallyrand, l'Autriche et la Question d'Orient en 1805
(Revue Historique, 1889)
British Foreign Office Peace Handbooksj :
The Eastern Question
Chirol, Sir Valentine :
Middle Eastern Question (1903)
Documents Diplomatiques Rulatifs à la Question d'Orient (Paris, 1842)
Driault, Edouard :
La Politique Orientale de Napoléon, Sebastiani et Gardane (Paris, 1904)
Driault, E. :
La Question d'Orient depuis ses Origines Jusqu' à la P.aix de Sévres-1920 (3d. Ed., Paris 1921)
Guichen, Vicomte de :
La Crise d'Orient de 1839 à 1841 et l'Europe
(Paris, 1921)
Hasenclever, Adolph :
Die Orientalische Frage in deny ahren 1838-1841.
(Leipzig, 1941)

Holland :

The European Concert in the Eastern Question

Mariott, J. A. R. :

The Eastern Question: An Historical Study in the European Diplomacy (Oxford, 1917)

Poignant, G.

Questions Diplomatiques et Coloniales, XXVI

Rodkey, F. S. :

The Turco—Egyptian Question in the Relations of England, France and Russia, 1832—1841

(Urbana, Ill., 1924)

Ross :

Opinions of the European Press on the Eastern Question

Sorel, A. :

La question d' Orient au XVIII siècle

(Paris, 1902)

Vandal, A. :

Napoléon et Alexandre 1er

(3 vols., Paris 1891—1896)

Zimmerman, Alfred:

Kolonialpolitic (Leipzig 1905)

ثالثا — الدولة العثمانية — الى صلح باريس سنة ١٨٥٨

Allen, W. E.

The Turks in Europe

Bélin,

Du Régime des Fiefs Militaires

(Journal Asiatique ; 6eme Série XV)

Bélin.

Fetouas Relatifs à la Condition des Zimmis.

British Admiralty Publications :

Handbook Of Turkey in Europe.

British Foreign Office Peace Handbooks : Anatolià

— — — — — — — — — — — : Turkey

Brown :

Foreigners in Turkey.

Coquelle, P. :

La Mission de Sebastiani à Constantinople en 1801 (Rev. d'Hist. Deplomatique. 1903)

Creasy, Sir. E. :

History of the Attoman Turks.

Czartoryski, A. Prince :

Memoirs (2 vols. Paris, 1827)

Denis, Juchereau de St :

Histoire de l'Empire Ottoman (4 vols. Paris, 1844)

Eliot, Sir Charles, E. :

Turkey in Europe.

Dominian, L. :

The Frontiers of Language and Nationality in Europe.

Eversley, Lord :

The Turkish Empire, its Growth and Decay.

Freemen, E. A.

The Ottomen Power in Europe (London 1977)

Gibb,

History of Ottoman Poetry

Gibbons,

The Foundation of the Ottoman Empire.

Gorianow, S.

Le Bosphore et les Dardanelles (Paris 1910)

Gourdon,

Les Négociations du Congrés de Paris.

Hammer

Histoire de la Porte Ottoman.

Hertslet, Lewis :

Complete Collection of theTreaties and Gonventions and Reciprocal Regulations between Great Britain and Foreign Powers as far as they Relate to Commerce and Navigation (24. Vol London)

Jonquière A. de la :

Histoire de l'Empire Ottoman (Rev. ed., 2 vols. Paris 1914)

Jarga :

Geschichte des Osmanichen Reiches (Gotha. 1908)

Heinrich Kuntize :

Die Dardanellenfrage.Ein Volker-Rechtliche Studie (Rostock. 1909)

Lamartine :

Histoire de la Turquie

Lavallée Th. :

Histoire de l'Empire Ottoman

Libyer,

The Government of the Ottoman Empire.

Luke:

Cyprus under the Turks.

Miller, William

The Ottoman Empire and its Successors,
1801—1922 (Cambridge, 1923)

Mac Forlane, Charles:

Constantinople in 1827 (London, 1829)

Michaud, Louis Gabriel :

Mahmoud II,Biogrdphie.
Biographie Universelle, vol. 72, 340—352

Mischeff, P. H:

La Mer Noire et les Détroits de Constantinople

Moltke, Helmuth Von :

Briefe über Zustände und Begebenheiten in der Turkei au dem Jahren 1835 bis 1839
(Berlin, 1841)

Mouraxveiff :

Les Russes sur le Bosphore en 1833
(Moscou, 1869)

Nesselrode, Comte Charles de :

Lettres et Papiers du Chancelier Comte de Nesselrode, 1760—1856 (11 vols, Paris, 1904)
المجلدان السابع والثامن

Nicomède, J:

Une lettre écrite a S. E. M. Le Marquis de Villeneuve (vou Hammer, XIV. 514 ff. and XIII. 14.).
يتناول وصف الحروب التي وقعت بين فارس وتركيا في صيف سنة ١٧٣٣

Nouradoungian, Gabriel :

Recueil d'Actes Internationaux de l'Empire Ottomon
(2 vols, Paris, 1900)

D' Ohsson,

Tobleau General de l'Empire Ottoman
(18ch Century)

Otter, M. :

Voyage en Turkie et en Perse.

(Paris, 1748)

رحلة من مندالى إلى بغداد إلى البصرة بين سنتى ١٧٤١ ، ١٧٤٣
ثم من الموصل إلى ديار بكر وهو كتاب هام جدا

Pinon, René :

L'Europe et l'Empire Ottoman. (Paris, 1809)

Poole, Lane S :

The Story of Turkey.

Poole, Lane S. :

Stattford Canning, Viscount de Redclyffe

(2 vols. London 1888)

Puryear, Vernon John :

England, Russia and the Straits Question (1844-1856.) (Berkeley, 1931)

Rousset, Camille:

La guerre de Crimée

Rycaut,

The Present State of the Ottoman Empire

(17 th Century)

Sax, L. Von :

Geschichte des Mochtverfalls der Tuerkei.

Schevill, Ferdinand :

The History of the Balkan Peninsula from the Earliest Times to the Present Day (New York, 1922)

Testa, Le Baron, de :

Recueil des Traités de la Porte Ottomane, avec les Puissances Etrangères depuis le Premier Traitè Conclu en

1536.. jusqu' à nos Jours (6 vols. Paris 1864)

Thornton. T, :

The Present State of Turkey (2 vols. London, 1820).

Toynbee:

The Western Question in Greece and Turkey (London, 1923)

St. Denys. Le Baron Juchereau :

Histoire de l'Empire Ottoman depuis 1792 Jusqu'en 1844 (4 vols, Paris, 1844)

Urquhart, David :

Turkey and its Resources: Its Municipal Organization and Free Trade,. etc. (London, 1833)

— Le Sultan et le Pacha d'Egypte (Paris, 1839)

— La Crise de France devant les Quatres Puissances (Paris, 1840)

— The Lebanon : a History and Diary, (2 vols. London, 1860)

Vandal, Albert

Une Ambassade Française en Orient, la Mission du Marquis de Villeneuve

Zinkeisen, John Willhelm :

Geschichte des Osmanischen Reichs in Europa. (7 Vols. Gotha, 1840—1863)

رابعا : مصر (من قبيل الحملة الفرنسية الى سنة ١٨٤١)

D'aubigné,

Vie de Klèber (Paris. 1880)

Baldwin George, :

Political recollections relative to Egypt. Containing observations on its Government under the Mamelukes, its Geographical Position, its Intrincic and extrincic Resources,

its Relative Importance to England and to France. and its Dangers to England in the possessien of France
(London 1801)

Becker, Martha F.:
Dèsaix (Paris. 1852)

Berterand :
Campagnes d'Egypte et de Syrie

Berthier. A. :
La Relation des Campagnes du General Bonaparte en Syrie et en Egypte (Paris. an VIII)

Berton, Le Comte de :
Essai Sur l'Etat Politique des Provinces de l'Empire Ottoman Administreés par Mehemed Ali.
(Paris. 1839)

Besumèe. Hassan :
Egypt under Mohammed Aly Pasha.
(London. 1838)

Bonopartès Letters :
The French Expédition into Syria. Comprising General Bonapartes Letters. (2 n. d. èd. London, 1799)

Bowring, John :
Report on Egypt and Candia...etc (London, 1840)

Breton :
L'Egypte et la Syrie (6 vols. Paris, 1841)

Bridier, L. :
Une Familles française, les de Lesseps
(Paris, 1906)

Bruce, James :
Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768–1773. (5 vols., Edinburgh 1790)

Cadalvene, Ed. de, et Beuvery, de :

L'Egypte et la Turquie de 1829 à 1836
(2 vols. Paris, 1836)

Cameron, D. A. :

Egypt in the Nineteenth Century (London 1898)

Capper, James :

Abservations on the Passage to India through Egypt and across the Great Desert (London 1784)

Cargill, William :

Mohemed Aly, Lord Palmerston: Russia and France
(London 1840)

Carré, Jean — Marie :

Voyageurs et Ecrivains en Egypte de la fin de la Domination Turque à l'Inauguration du Canal de Suez,
(2 vols. Caire, 1932)

Cattaui, Joseph — Edmond :

Histoire des Rapports de l'Egypte avec la Sublime Porte, (du XVIIIe Siécle á 1841), Paris, 1919

Cattaui, René,

Le Régne de Mohamed Ali d'aprés les Archives Russes en Egypte, Tome Premier, Rapports Consulaires de 1819 à 1833, (Société Royale de Géographie d'Egypte)
(Caire 1931)

Chanut,

Campagnes de Bonaparte en Egypte (3 vols. Paris, 1811

Chuquet, A.

Quatre Generaux de la Revolution : Kleber, Hoche Desaix, Mancau.

(4 Series. Paris 1911)

Clot—Bey, A. B. :

Aperçu Général Sur l'Eypte (2 vols. Paris 1840)

Delprech, Comeiras :

Considerations sur la possibilité, l'intérêt et les Moyens qu'urait la France de rouvrir l'ancienne route du commerce de l'Inde (Paris, an VI)

Denon, D V.

Voyages. (2 vols. Paris, 1802)

Deny, Jean:

Sommaire des Archives Turques du Caire (Société Royale de Géographie d'Egypte) (Caire, 1930)

Description de l'Egypte, ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'armée francâise, publié par les ordres de Napolèon le Grand (10 vols. Paris, 1809—1822)

Dodwell, Henry:

The founder of Modern Egypt. A Study of Mohammad Ali (Cambridge, 1931)

Driault, Edouard,

La Formation de l'Empire de Mohamed Aly de l'Arabie au Soudan (1814—1823) Correspondance des consuls de France en Egypte (Caire, 1923)

Driault, Edouard;

Mohammed Aly et Napoléon (1807 1814) (Caire, 1925)

Driault, Edouard :

Précis de l'Histoire d'Egypte (Mohamed Ali et Ibrahim) (Caire, 1931)

Douin, George :

— Angleterre et l'Egypte. 2 vols
(Société Royale de Geographie d'Egypte)
(Caire, 1928 — 1930)

— La Mission du Baron de Boislecomte, l'Egypte et la Syrie en 1833 (Caire, 1927

— Mohamed Ali et l'Expédition d'Alger
(Société Royale de Gèographie d'Egypte (Caire, 1930)

— Une Mission Militaire Française auprés de Mohamed Aly . . . . . etc.
(Société Royale de Géographie d'Egypte)
(Cairo 1923)

Durrien :

Lettres sur la campagne d'Egypte
(Carnets Historiques, 1899)

Lieut-Col. Fitzclarence :

Journal of a route accross India through Egypt to England in 1817—1818 (London 1819)

Fontanier, Victor :

Vayage dans l'Inde et le Golfe Persique, par l'Egypte et la Mer-Rouge (2 parts in 3 vols, Paris 1844-1846)

C. De Freycinet :

La Question d'Egypte

Froment, D. :

Du Commerce des Europeens avec les Indes par la Mer Rouge. (Paris, an VII)

Gallaway, John Alexander:

Observations on the proposed improvements in the Overland Route via Egypt, with remarks on the Ship Canal, the Boulac Canal, and the Suez-Railboard (London, 1844)

Ghorbal, Shafik

The Beginnigs of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Aly (London 1928)

Gore, Montague :

Some Remarks on the Foreign Relations of England at the Present Crisis. (London, 1838)

Gottheil :

Zimmis and Moslems in Egypt

Gouin, Edouard :

L'Egypte au XIX Siécle : Histoire militaire, et politique, anecdotique et pittoresque de Mèhémet- Ali, Ibrahim Posha, Soliman Pasha, (Colonel, Séve,) (Paris, 1847)

Guichen, Vicomte de :

La Crise d'Orient de 1839 à 1841 et l'Europe (Paris, 1621)

Hamont, P. N. :

L'Egypte sous Mehemet- Ali, Population, Gouvernement, Institutions Publiques, Industrie, Agriculture. (2 vols, Paris, 1843)

Hilaire, E. G. St.:

Lettres Ecrites d'Egypte (Paris 1901)

De la Jonquiére,

L'Expédition d'Egypte (5 vols. Paris, 1900)

Kleber,

Rapport fait au Gouvernèment français des évènements

depuis, el-Arish (Caire, 1800)

Martin,

Histoire. de l'Expédition d'Egypte (Paris, 1821)

Lieut. Mascall, :

Plan of the harbour and road of Suez from a survey of Mascall 1777 with some additions by lieutenant Harvey (London 1772)

Mengin, Fèlix :

Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed-Aly (2 vols Paris 1823)

Neurthe, Boulay de la :

La Dirèctoie et l'Expèdition d'Egypte (Paris 1885)

J. F. Miot :

Mémoires pour sevir à l'histoire des expéditions en Egypte et en Syrie (Paris, 1804)

Mouriez, P.

Histoire de Mehemet Ali (3 vols ; Paris, 1858)

Nahoum, Haim Effendi :

Recueil de Firmans Impériale Ottomans adressés aux Valis et aux Khédives d'Egypte 1006 — 1322 H. (1597 — 1904) (Caire, 1934)

Napolèon I,

Campagne d'Egypte .

أمليت فى سنت هيلانة ، وهى تكوّن المجلدات ٢٩ ، ٣٠ من مراسلات نابليون المعروفة باسم Correspondence

Norry, Ch. :

Relation de l'Expédition d'Egypte (Paris, an VII)

Paton,

History of the Egyptian Revolution (2 vols. London, 1863)

Politis, Athanase,:

Le Conflit Turco-Egyptien 1838-1841 et les dernières années du régne de Mohamed Aly, d'après les documents diplomatiques Grecs (Caire 1931)

Olberg, E. Von :

Geschichte des Krieges zwischen Mehemed Ali und der Ottomanischen Porte in Syrien und Kleinasien den Jahren 1831—1833. Berlin 1837

Palmerston, Lord :

Letter of.. adressed to Sir John Cam Hobhouse on the Turko-Egyptian affair
مخطوط بمكتبة المتحف البريطانى تحت رقم 36471; f. 211.

Payre, R, :

L' Expèdition d'Egypte (Paris, 1890)

Philips, Walter Alison;

Mehemet Ali; Cambridge Modern History. vol X P. P. 545 — 572

Planat, Jules :

Histoire de la Règèneration de l'Egypte (Paris, 1830)

Prokesch – Osten, Count Anton :

— Erinnerungen aus Aegypten und Klein—Asien; (3 vols Wien, 1829 — 1891)

— Mehemet Ali Vize – König von Aegypten. aus meinem Tagebuche, 1826 – 1841 (Wien, 1909)

Rebaud وآخرون

L'Histroire scientifique et militaire de l'Expéditon d'Egypte (12 vols. Paris, 1830—1836)

Reynier. J. L. E.:

L'Egypte aprés Heliopolis (1802 — 1826)

ترجمت الى الانجليزية ونشرت فى لندن سنة ١٨٠٢

Roy, J. J. E. :

Les Français en Egypte, ou Souvenirs des Campagnes d'Egypte et de la Syrie, par un officier de l'èxpèdition (Tours, 1855)

W. Robinson,

Suez Harbour, surveyed by Captain W. Robinson (London 1782)

Rod Key, Frederick Stanley ;

The Turco- Egyptian question in the relations of England, France and Russia, 1832 — 1841(Urbana' 1924)

Rousseau,

Klcber et Menou en Egypte (Paris 1900)

Roux, Francois Charles :

— L'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Egypte au XVIIe Siècle (Paris, 1922)

— Les Origines de l'Expédition d'Egypte et les Echelles de Syrie et de Palestine au dixhuitiéme siécle (Paris, 1910)

Rustum, Asad Jibrail :

The Struggle of Mohammed Ali Pasha with Sultan Mahmoud II and some of its Geographical aspects. (Beirut, 1926)

Sabry, Mohammed :

L'Empire Egyptien sous Mohamed Ali et la Question d'Orient, 1811 — 1849, Egypte, Arabie, Soudan, Morée, Créte, Syrie, Palsetine. (Paris, 1930)

Sammarco, Angelo :

— Il Regno di Mohammed Ali nei Documenti Diplomatici Italiani inediti :

— vol. VIII —
Genesi e Primo Svolgimento della Crisi Egiziano Oriantale (Rome , 1931)

— vol IX
La Presa di San Giovanni d'Acri (Rome , 1932)

Savary :

Lettres sur l'Egypte (Paris , 1786)

Talamas , George Bey :

Recueil de la Correspondance de Mohamed Ali, Khedive d'Egypte (du 1er. Avril 1807 au 12 Juillet,1848) (Le Caire, 1931)

Vandal :

Louis XIV et l'Egypte (Paris, Picard, 1830)

Vansleb :

The Present State of Egypt (17 th. Century)

Volney :

Oeuvres (Paris 1838)

Waghorn, Thomas :

Egypt as it is in 1837 (London, 1837)

Sir. Robert. T. Wilson :

History of the British Expèdition to Egypt (London, 1803)

David Urquhart :

Le Sultan et le Pasha d'Egypte (London 1859)

Vaulabelle, Achille de:
Histoire Moderne de l'Egypte
(2 vols. Paris, 1836)

W. H. Yates:
The Modern History and Condition of Egypt
(2 vols. London, 1843)

خامساً : بلاد العرب

British Admiralty Publications:
Handbook of Arabia

Brydges H. J.:
A Brief History of the Wahauby
(London, 1834)

Y. J. Burchhardt:
Notes on the Bedowins and Wahaubys
(London, 1831)

Corancez:
Histoire des Wahhabis depuis leur origine juspu'à la fin de 1809 (Paris, 1810')

C. M. Doughty:
Travels in Arabia Deserta (Cambridge, 1881)

Hogarth, David George:
The Penetration of Arabia: a record of the development of Western knowledge concerning the Arabian peninsula (N. Y. 1904)

Capt. F. M. Hunter:
An account of the British settelement of Aden in Arabia (London 1877)

Snouck Hurgrony:
Mekka (vol. 1. La Hague 1888)

C. Neibuhr :

Voyage en Arabie et en d'autres pays circonvoisins
(Amsterdam, 1776)

J. B. Rousseau,

Note sur les Wahhabis

Sadlier,

The Diary of a Journey across Arabia during the Year 1816 (Bonbay 1899)

سادسا : الشام الى حوالى منتصف القرن التاسع عشر

Ainsworth, W. F. :

Ibrahim Pasha in Syria (Colborn's New Monthly Magazine) (vol .77, 348 f. f.)

D'Avieux,

Memoires, (9 vols. Paris, 1735)

Barker, F. :

Memoir on Syria (London, 1845)

Barker, E. B. B. :

Syria and Egypt under the last five Sultans of Turkey (2 vols, London, 1876)

Berton, J. de, :

Les Chrètiens d'Orient et les Reformes du Sultan.
(Correspondant, 25 mai, 25 auot, 1856)

Bertrand, General Henri G., Comte :

Campagnes d'Egypte et de Syria (2 vols. Paris, 1847)

Besson, Le Père Joseph :

La Syrie et la Terre Sainte au XVIIe siécle.
(Poitiers, Oudin, 1862)

Bore, Eugéne :

Question des Lieux Saints. (Paris, 1850)

Bowring, John :

Report on the Commercial Statistics of Syria (London, 1840)

— The Syrian Question. (London, 1840)

Buckingham, F. S. :

Travels in Palestine (London, 1821)

Burckhardt, John Lewis

Travels in Syria and the Holy Land (London,1832

Cahuet, Albéric :

La Question d'Orient dans l'Histoire Contemporaine (Paris' 1905)

Cadalvene, E. de et Barrault, E. :

Deux annèes de l'histoire d'Orient (1839 - 40) faisant suite à l'histoire de la geurre de Mehemed Ali en Syrie et en Asie Mineure. (Paris 1840)

Castaing. Aphonse :

La Syria, les Druses et les Maronites (Paris, 1860)

Churchill' :

The Druzes and the Maronites under the Turkish rule from 1840 — 1866

Cressaté Comte S. M. de :

La Syrie Française (Paris 1918)

Cuinet,

Syrie, Liban et Palestine

Djuvara, T. G. :

Cents projets de partage de la Turquie (Paris, 1915)

Douin, George :

La Première Guerre de Syrie

(2 vols. Caire, 1931)

Draperon, Lud. :

Le Grand dessein secret de Louis XIV Contre l'Empire Ottoman en 1688

(Revue de Gèographie, t. I et II, 1877)

R. Dussaud :

Histoire et Religion des Nosairis

(Paris, 1900)

Jouplain, M. :

La Question du Liban (Paris, 1908)

H. Lammens :

La Syrie. Précis Historique

(2 vols. Beirout, 1921)

Laurent, Achille :

Relation Historique des affaires de Syrie depuis 1830 jusqu'en 1842. Statistique du Mont-Liban et procedure dirigée en 1840 contre les Juifs de Damas.

(2 vols. Paris, 1846)

E. Lockroy :

Ahmed le Boucher, la Syrie et l'Egypte au dix-huitième siècle. (Paris 1888)

Mariti, (Abbé Jiovanni) :

Histoire de l'état present de Jerusalem. Publiée par le R. P. Laorty-Hadji (Paris, 1853)

P. Masson :

Eléments d'une Bibligraphie Française de la Syrie [dans le Congrés Français de la Syrie]

(Paris, 1919)

Paul Masson :

Histoire du Commerce Français dans le Levant au Dixseptième Siècle (Paris, 1896)

Murad, (Mgr. Nicolas) :

Notice historique sur l'origine de la Nation Maronite et sur ses ropports avec la France, sur la Nation Druse et sur les diverses populations du Mont-Liban.
(Paris, 1844)

Napier, Admiral Sir Charles :

The War in Syria (2 vols., London, 1842)

Paton. A. A. :

The Modern Syrians (London, 1844)

Perrier, Ferdinand :

La Syrie sous le Gouvernement de Méhémet. Ali jusqu'en 1840. (Paril 1842)

Perron, Anquetil du :

Legislation Orientale (Amsterdam, 1778)

Poujoulat, J. J. :

La France et la Russie à Constantinople.
La Question des Lieux Saints. (Paris, 1853)

Relazioni dei Consoli Veneti Nella Siria
(ed. Berchet, Venise, 1866)

Ristelhueber :

Les Traditions Françaises au Liban

Rustom, A. J. :

— Les Campagnes d'Ibrahim Pasha en Syrie et en Asie Mineure. (2 fasc. Caire, 1927—1938)

— Le Liban à l'epoque des Emirs Chihab
(3 vols., Beirut, 1933)

— Materials for a Corpus of Arabic Documents Relating to the History of Syria under Mehemet Ali (vols I—V Beirut, 1930—1934)

— The Royal archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expédition to Syria (Beirut, 1936)

Saint-Pierre, Puget de :

Histoire des Druses–peuple du Liban–avec des notes (Paris. 1762)

Segur — Dujseryran :

La Syrie et les Bedouins sous l'administration Turque (Revue des Deux Mondes, 15 mars, 15 avril, 1855)

Verney et Dambmann

Les puissances etrangères dans le Levant en Syrie et en Palestine (Paris, 1900)

Volney,

Voyage en Syrie et en Egypte en 1783 — 1785 (Paris 1787)

سادسا العراق (الى سنة ١٨٦٨)

W. F. Ainsworth,

Personal Narrative of the Euphrates Expedition (2 vols London 1888)

W. F. Ainsworth,

Researches in Assyria, Babylonia and Chaldaea, (London, 1838)

Andrew, W. P.

Memoir on the Euphrates Valley route to India. (London 1837)

Anon ,

Account of the Siege of Mosul by Nadir Shah
ترجمة لمخطوط بالتركية بالمتحف البريطانى

Anon :

Travels of Sir Anthony, sir Robert and Sir Thomas Sherely
من حلب الى بغداد الى كا سفين عن طريق الفرات — لندن ١٨٢٥

Blunt, Lady Anne :

Bedouin Tribes of the Euphrates (London 1879)

B. F. O. P. H.

Armenia and Kurdistan

Auliya Chelebi,:

Travels of . . . . (Stambul, 1314 H)
رحلة فى فارس وكردستان وبغداد والبصرة

F. R. Chesney,

The Expedition for the survey of The rivers Euphrates and Tigris (London, 1850)

F. R. Chesney

Narrative of the Euphrates Expedition (London 1868)

F. R. Chesney

Reports on the Navigaion of the Euphrates, Submitted to the Government by..........(London,1833)

M. Chiha,

La Province de Baghdad (Caire, 1900)
مذكرات ايطالى أقام فى بغداد خلال القرن التاسع عشر . وهى ذات قيمة تاريخية

Coke, Richard :

Bagdad : the City of Peace (London, 1927)

V. Fontanier :

Voyage dans l'Inde et dans la Golfe Persique (Paris 1844)

Fraser, J. B. :

Memorandum on the present condition of the Pashalic of Baghdad (London, 1834)

J. B. Fraser :

Travels in Kurdistan and Mesopotamia (London , 1840)

Dr. A. Grant :

The Nestorians (London, 1841)

Rev. A. N. Groves :

Journal of a Residence in Baghdad (London, 1832)

Huart, Clement :

Histoire de Baghdad dans Ies Temps Modernes (Paris, èd. Laroux, I901)

تاريخ على موثوق فيه للعراق الى سنة ، ١٨٣١ م.

Haji Khalifa :

Jihan Nama (Const. A. H. I245)

سائح تركى زار العراق فى ولاية خسرو باشا

H. G. Keppel,

Travels in Babylonia, Assyria. Media and Scythia in I826 (London, I827)

Layard, A. H. :

Nineveh and Balylon

Longrigg, Hemsley Stephen :

Four Centuries of Modern Iraq.
Oxford, 1925)

H. F. B. Lynch:

Armenia : Travels and Studies (2 vols London 1903)

R. Mignon :

Travels in Chaldaea (London 1829)

فيه تعليق على [زاد المسافر] فى الصفحات ٢٦٩ — ٢٨٦

R. P. Philippe :

Voyage d'Orient (Lyon, 1652)

رحلة راهب كرملى فرنسى من حلب إلى بغداد إلى البصرة إلى فارس حوالى سنة ١٦٣٢م .

M. H. Pognon,

Chronique syriaque relative au siége de Mossul par les Persans

ترجمة لمخطوط سريانى عن هذا الموضوع . عثر عليه فى كنيسة تل قوش على مقربة من الموصل . ويظن أن المخطوط كتب سنة ١٦٤٦

Lane Poole :

Life of General F. R. Chesney

Sir. R. K. Parker:

Travels in Georgia, Persia, Armenia, ancient Babylonia (London, 1822)

J. L. Rousseau :

Description du Pachalik de Baghdad (Paris, 1809)

J. B. Rousseau :

Voyage de Bagdad à Alep. (Paris 1899)

Sestini,

Voyage de Constantinople à Bassora en 1781
(Paris, l'an VI)

W. F, Sinclair and D. Fergusen :

The Travels of Pedro Teixiera

سائح برتغالى : من خليج فارس إلى البصرة إلى كربلاء والنجف إلى عانة

Rev. Horatio Southgate :

Narrative of a tour through Armenia, Kurdistan, Persia and Mesopotamia (2. vols. New York)

J. B. Tavernier :

The Six Voyages of Tavernier through Turkey into Asia

ساح تافرنييه فى الشرق الاوسط بين سنوات ١٦٣٨ ، ١٦٤٤ ، ١٦٦٣

Antonio Teneyro :

Itinerario de . . . (Lisbon, 1829)

M. O. Thevenot :

Suite d'un Voyage de . . . (Amsterdam, 1727)
رحلة الى البصرة والحسا والقطيف

J. R. Wellsted :

Travels to the City of the Caliphs, Along the Shores of the Persian Gulf and the Mediterranean.
(2 vols. London 1840)

سابعاً : فارس وأفغانستان وتركستان (الى حوالى منتصف القرن التاسع عشر)

Browne, Edward Granville :

Abridged translation of the History of Tabaristan
(London, 1905)

Brydges, Sir. H. G. :

The Dynasty of the Kajars (London. 1834)

Sir Alexander Burnes :

Cabool, being a personal narrative of a journey to and residence in that city in the years 1836. 1837 .1838 (London 1845)

Sir Alexander Burnes,

Travels in Bokhara · · and narrative of a voyage on the Indus from the sea to Lahore in the years 1831–1832 1833 (London 1834)

F. Charmoy,

Cheref Namah

أحسن طبعة أوروبية موجودة لكتاب « سفر نامه » عن تاريخ الأكراد ستة مجلدات (باريس ١٨٦٠ — ١٨٧٥)

Conolly, Lieut· Arthur :

Journey to the North of India, Through Russia, Persia and Aphaganistan

(2 ed· Rev· 2 vols· London 1838)

Gurzon, Hon George N· :

Persia and the Persian question

H. M. Durand

Nadir Shah (London, 1908)

Eastwick, E. B. :

The Gulistan of Sadi (London, 1852)

Franklin, W· :

Observations made on a tour from Bengal to Persia in 1786 · 7 (London, 1790)

Freyer, Dr. :

—A new account of East India and Persia, 1672 — 1881 (London 1688)

Gardane, Le Gle· Alfred de :

Mission du Général Gardane en Perse, sous le

Premier Empire. Documents historiques. (Paris 1865)

Hanway, Jonas :

Historical account of British Trade over the Caspian
(4 vols. London, 1753)

Heude, W. :

A voyage up the Persian Gulf (London, 1816)

Ives, Dr. E.:

A Journey from Persia to England (London 1773)

Jackson, A. V. William :

Persia, Past and Present (New York, 1906)

Jones, William :

History of the life of Nadir Shah, King of Persia
(London, 1773)

Koye, Sir John William :

History of the war in Afghanistan (2 vols. 1851)

Krusinski,

History of the Revolution of Persia

ترجمة عن الروسية الأب Cerceau ونشره فى لندن سـنة ١٧٢٨ م. و يتنـاول
تاريخ فارس فى الفترة التى احتلها الافغان خلالها

Lord Curzon of Kedleston, :

Persia and the Persian question
(2 vols, 1892)

Layard, A. H.

Early adventures in Persia, Susiana and Balylonia
(London 1887)

Malcolm, Sir John :

History of Persia (1829)

Markham, Sir Clements B. :

General sketch of the History of Persia (1874)

Rawlinson H. C. :

England and Russia in the East.

C. J. Rich :

Narrative of a residence in Koordistan

Stirling, E. :

On the political state of the countries between Persia and India (London 1835)

Sykes, Lieut Colonel. P. M. :

— A History of Persia (2 vols. London, 1915)

— Ten Thousand miles in Persia (London 1902)

Watson, Robert Grant :

History of Persia (1866)

William Ainger Wigram & Edgar. T. A. Wigram :

Cradle of Mankind (London, 1914)

Wood, Lieut John :

A Personal narrative of a journey to the source of the river Oxus .. in the years 1836 — 1837 (London 1841)

ثامنا المغرب : طرابلس وتونس والجزائر ومراكش (الى حوالى سنة ١٨٣٥)

Gal. Du Barail :

Mes Souvenirs (3 vols. 1894—1896)

G. Bapst :

Le Marèchal Canrobert, souvenirs d'un siècle (4 vols. 1898—1901)

R. Basset :

Documents musulmans sur le siège d'Alger par Charles Quint. (I54I)

(Dans: Bulletin de la Sociéte de Gèographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, (I 890. P. P. I 72—2I 4)

Card, Rouard De :

Bibliographie des ouvrages relatifs à la Berbèrie au XVII et XVIII siècles, (I9I I et Suppl. I9I7)

Carrot, H.

Histoire général de l'Algèrie (Alger, I9I0)

Charles. P. de Castellane, :

Souvenirs de la vie militaire en Afrique (I852)

Delphin,

Histoire des Pashas d'Alger de I5I5 — I745
ds. Journal Asiatique., I922, I, p. p. I62 — 233

G. Douin,

Mohamed Aly et l'Expédition d'Alger (I829 — I830)
(Le Caire, I930)

G. Esquer,

Les Commencements d'un Empire, la prise d'Alger (1830) (2e éd. I923)

H. De. Grammont,

Histoire d'Alger sous la domination Turque I5I6-I830
(Paris I887)

Grammont,

Relations entre la France et la Regence d'Alger au XVIIe Siècle (4 vols. Alger I879 — I885)

P. Grandchamp :

Documents Relatifs aux Corsaires Tunisiens

(2 Octobre 1777 — 4 Mai 1824)
(Tunis, 1925)

S. Gsell, G. Marçais, G. Yver

Histoire de l'Algèrie (II e éd. 1927)

Lacharrière, Ladriet De:

Un Essai de pénétration pacifique en Algerie de. Rev Hist. Dipl. 1909. P. P. 240 — 270

H. Lorin

L'Afrique du Nord; Tunisie — Maroc
(Paris, 1908)

Martimprey, Gal,

Souvenirs d'un officier d'état-major. Histoire de l'etablissement de la domination française dans la province d'Oran, 1830 à 1846

Monchicourt,

Episodes de la carriére tunisienne de Dragut, avec un preambule sur :

l'Insécurité en Mediterranée durant l'été de 1550
(Tunis, 1918)

Ch. Monchicourt,

Documents historiques sur la Tunisie
(Paris 1929)

Nettement,

Histoire de la Conquète d'Alger (1856)

Playfair,

The scourge of Christendom; annals of British relations with Algiers prior to the French conquest
(London, 1884)

Y. Pignon,

L'Esclavage en Tunisie de 1590 à 1620.
ds. Revue Tunisienne, 1930. P. P. 18–37

E. de la Primaudaie,

Documents inèdits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (Alger, 1875–1877)

L. Rinn,

Le Royaume d'Alger sous le dernier Dey
(Alger, 1900)

C. Rousset.

— La Conquète d'alger, (Avec atlas 1879)
— l'Algérie de 1830 à 1840 (2 vols. 1887)
— La Conquète de l'Algèrie (1841 — 1847)
(2 vols. 1889)

A. Rousseau,

Annales tunisiennes ou aperçû historique sur la Regence de Tunis (Paris, 1864)

Sander — Rang et Denis

Fondation de la Regence d'Alger, histoire des Barbarousses: chronique arabe du XVI e siécle
(1837. 2 vols)

Th. Shaw,

Travels and observations relating to several parts of Barbary and the Levant (Oxford, 1738)

Laugier De Tassy,

Histoire du Royaume d'Alger, avec l'état présent de son gouvernèment (Amsterdam, 1725)

Auxzoux, A. :

La Mission de Sebastiani a Tripoli (Revue des Etudes Napolioniennes 1919)

تاسعاً : ألبانيا

British Foreign Office Peace Handbooks: Albania

C. A. Chekrezi,

Albania, Past and Present

E. Legrand

Bibliographie Albanaise

من القرن الخامس عشر الى سنة ١٩٠٠

W. Peacock

Albania, the foundling State of Europe

عاشراً : البلقان (والثورة اليونانية بصفة خاصة)

G. F. Abot, (editor):

Greece in Evolution: (Studies prepared under the auspices of the French League for the defence of Hellenism.)

G. Finlay:

History of Greece. (7 vols. ed Tozer)

Gaston Isambert:

L'indépendance Grecque et l'Europe

W. Miller:

The Balkans

W. A. Phillips:

The War of Greek Independence (1821–1833)

Pouqueville:

Histoire de la régénération de la Grèce— 4 vols.

L. Sargeant:

Greece in the Nineteenth Century

كشاف

غ

ف

« ق »

ك

ل

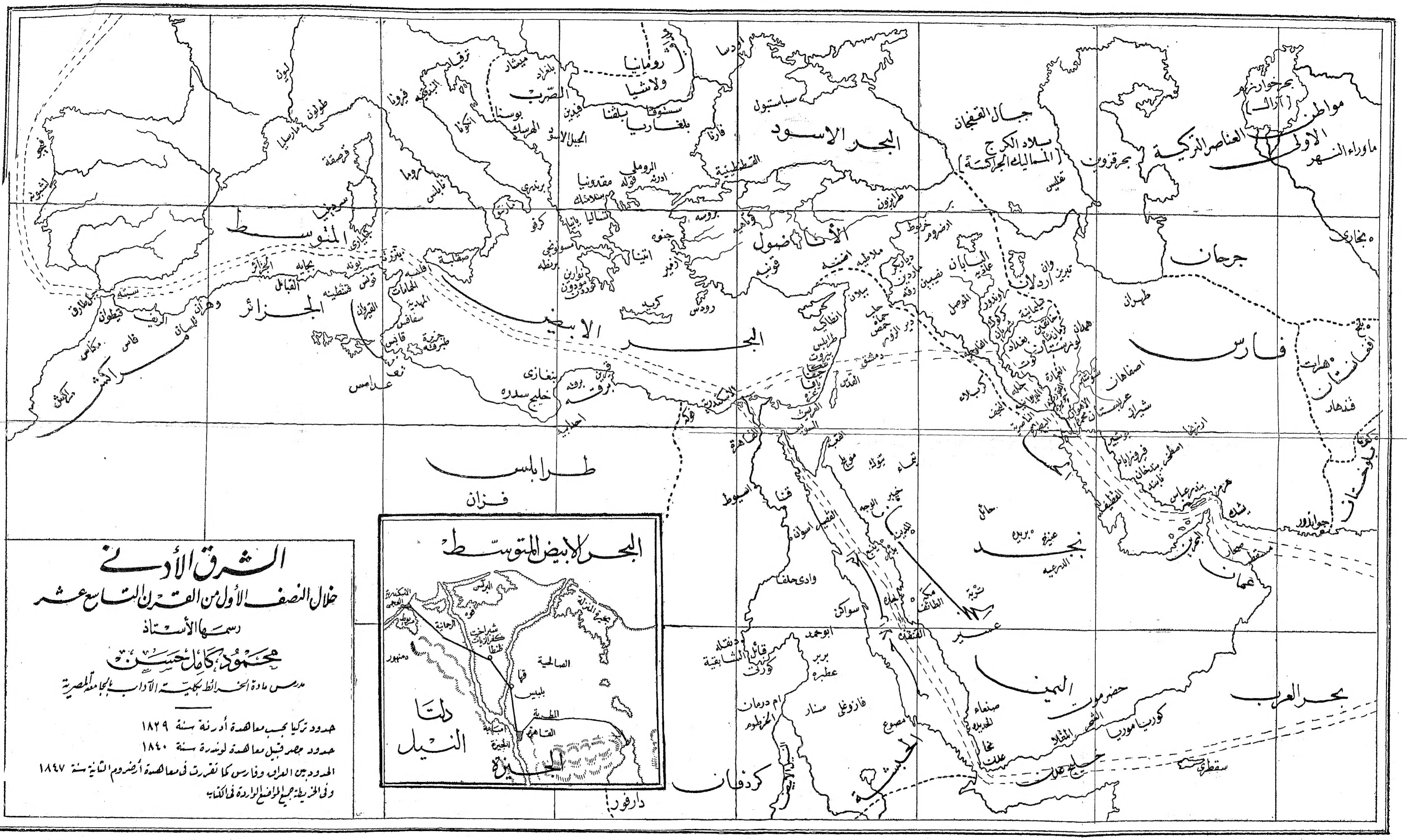
ن

ص	س	خطا	صواب
٤	١٩	أصلية	أصيلة
٧	١٠	الفاتحون	ليسوا هم الغزاة الفاتحين
١٤	٣	نمى	نما
١٥	٢١	الغورى	الغزنوى
٣٦	السطر الأخير : المسلح		الملح
٤١	١٤	امم الاسلام	امم الاسلام الشرقية
٤٣	٥	يصلون	يصلوا
٤٧	١٩	بدأ	بدء
٤٨	١٩	الواحدة بعد الأخرى	الواحد بعد الاخر
٥٠	الهامش	فارس الصفوين	فارس ، الصفويون
٥٤	١٢	مراكزا	مراكز
٥٥	٢	توشك تسقط تركيا	توشك تركيا
٦٢	٨	من عرابى	من عرابى
٦٧	٨	لاتكاد تقاس بها	لايكاد يقاس بها
٦٩	٣	ضررة	ضرورة
٧٧	١٧	لانقاذ	لانفاذ
٧٧	٢١	توافقوا	توافقوا
٧٨	٢٢	يحتاجون	يحتاجوا
٨٣	٨	أستقلال	استغلال
٨٤	١	أميرلايا	اميرالا
٨٤	١٧	١٧٨٩	١٧٩٩
٨٧	١٠	ثم اخراج	وتم اخراج
٩٢	٢٣	insuti	institut
٩٨	٨	فيأخذون	فيأخذوا
٩٠	٢٣	انها	انما
١٠٠	٩	شكواه الشعب	شكواه
١٢٠	٨	تقتضى	تقضى
١٢٠	١٤	contrairio	contraire
١٢٠	٢١	co dite	conduite
١٤٠	١٥	اذا	اذ
١٤٣	٣	استحثهم الى	استحثهم على
١٤٣	٨	حقيقيا	حقيقا
١٤٦	١٧	محمد عليا	محمدا عليا

ص	س	خطأ	صواب
١٥٣	١٩	شيدا	شهيد
١٥٦	١٤	انذرو	انذروا
١٥٦	١٥	هذا الشكاوى	هذه الشكاوى
١٥٦	١٦	محمد عليا	محمدا عليا
١٦٠	٢٢	والقفاط	والقناطر
١٦٠	٢٣	بنى	وبنى
١٦٣	٢٢	وعبيدا	عبيد
١٧٦	هامش	Afficiel	officiel
١٨٠	٢٠	تعد	بعد
١٨٦	١	سبيها بأن	بأن سبيها
١٩١	٧	انفصافية	انفصالية
٢٠٣	١٩	ثوارات	ثورات
٢٠٦	١٤	غير الدولة	خير الدولة
٢١٢	٢٣	١٨٢٠	١٨٣٠
٢١٨	٦	للصالح	الصالح
٢٣٤	١٦	الأمل	الأمد
٢٣٥	١٠	بلمرستون	بيلمرستون
٢٣٦	٣	مقاله	عقاله
٢٤٩	١٣	فيخرج	يتخرج
٢٤٩	١٥	سلمان	سليما
٢٥٠	٢٣	الازمان	الازمات
٢٥٦	١٧	الرى	الراى
٢٦٥	١٧	ألايات	إيالات
٢٧١	٢٢	يؤددوا	يؤدوا
٢٨٥	١٧	المقربين	المقربين
٢٨٧	١٨	مفيته	مشينة
٢٨٩	٧	المساوة	المساواة
٢٩١	الهامش	سقوط الاسلام	سقوط الاندلس
٢٩٢	٢٠	جنحو	جنحوا
٣٢٢	١١	ولها ونتائجها	ونتائجها
٢٩٣	الهامش	مهاجرو للمغرب	مهاجرو الاندلس
٣٢١	١	وقد كانت	وقد كان

ض	س	خطأ	صواب
٣٢٥	٩	ظل الاسلام	فى ظل الاسلام
٣٢٩	١٩	اوجهها	أوجها
٣٥٩	٢٠	راكب	راجل
٣٨١	٥	ولهذا أنهم	لهذا وأنهم

لجنة الجامعيين لنشر العلم



الشرق الأدنى
خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر
رسمها الأستاذ
محمود كامل حسن
مدرس مادة الخرائط بكلية الآداب بالجامعة المصرية
حدود تركيا بحسب معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩
حدود مصر قبيل معاهدة لوندرة سنة ١٨٤٠
الحدود بين العراق وفارس كما تقررت فى معاهدة أرضروم الثانية سنة ١٨٤٧
وفى الخريطة جميع المواضع الواردة فى الكتاب
البحر الأبيض المتوسط
دلتا النيل
البحر الأسود
البحر الأبيض المتوسط
الأناضول
الجزائر
طرابلس
فزان
فارس
نجد
اليمن
عسير
عمان
بحر العرب
الحبشة
كردفان
دارفور
جرجان
رومانيا
ولاشيا
الصرب
بلغاريا
بلاد الكرج
المماليك الجراكسة
جبال القفقاس
مراكش
العناصر التركية
ماوراء النهر